الثوريون لا يموتون ابدا

(٢٠٠٨)

جورج حبش
في حوار مع جورج مالبرينو

محرر من سيطرة الرأسمالية
لتثقيف الجماهير
من قبل
حكايات اشتراكية

الثوريون لا يموتون ابدا

جورج حبش

في حوار مع جورج مالبرينو

إلى زوجتي العزيزة هيلدا، رفيقة مسيرتي الصعبة، إلى التي شاركتني في جميع مراحل نضالي وكفاحي.

إلى ابنتي ميساء ولمى وأحفادي الثلاثة عمرو وكريم وتامر. إلى جميع أطفال الشعب الفلسطيني، وإلى الشهداء والأسرى خلف القضبان.

شكري الخاص لزوجتي هيلدا وابنتي لمى لما بذلتاه من جهود استثنائية من أجل وضع هذا الكتاب بين أيديكم.

المحتويات

الفصل الأول: صحوة وعي سياسي ١٩

الفصل الثاني: تأسيس حركة القوميين العرب ٣٥

الفصل الثالث: عبد الناصر، ذلك البطل العربي ٥١

الفصل الرابع: الخلافات الفلسطينية الداخلية وتأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ٧١

الفصل الخامس: الطريق إلى أيلول الأسود ٨٩

الفصل السادس: خطف الطائرات والعلاقة مع وديع حداد ١٠٥

الفصل السابع: الانتقال إلى لبنان ودروس العام ١٩٧٠ .... ١٢١

الفصل الثامن: اندلاع الحرب اللبنانية والتدخّل السوري ١٣٥

الفصل التاسع: السادات في القدس وكامب دايفيد... مشاكل صحية جديدة ١٥١

الفصل العاشر: صدمة الاجتياح الإسرائيلي للبنان صيف العام ١٩٨٢ ...... ١٦٧

الفصل الحادي عشر: على الطريق نحو منفى جديد... .... ١٨٣

الفصل الثاني عشر: الاتفاق بين عرفات والأردن وانطلاق الانتفاضة الأولى ٢٠١

الفصل الثالث عشر: العلاقات مع العراق وإيران وحزب الله ٢١٧

الفصل الرابع عشر: رحلة استشفاء مضطربة إلى باريس شباط/ فبراير ١٩٩٢ ٢٣٣
الفصل الخامس عشر: فشل مفاوضات السلام مع إسرائيل ٢٤٩
الفصل السادس عشر: حول الحركات الإسلامية، والديموقراطية،
والمرأة، وغزّة ٢٦٣
الفصل السابع عشر: العلاقة مع عرفات والملك حسين والأسد
وأبو مازن وكاسترو وكارلوس وبن بلّة ٢٨١
الفصل الثامن عشر: إسرائيل والتعايش بين اليهود والعرب ٢٩٧
ملحق ١: رسالة من جورج حبش إلى السيد حسن نصر اللّه ٣٠٥
ملحق ٢: الكلمة التي ألقاها جورج حبش أمام الرهائن في فندق الأردن
سنة ١٩٧٠ .... ٣٠٨
ملحق ٣: رسالة جورج حبش إلى كارلوس ٣١٣
ملحق ٤: الكلمة التي ألقاها جورج حبش في تأبين وديع حداد ٣١٤
ملحق ٥: رسالة من مواطنة فرنسية إلى جورج حبش وزوجته ٣١٧
ملحق ٦: رسالة من جورج حبش إلى ابنته ميساء في طفولتها ٣١٩
ملحق ٧: رسالة من جورج حبش إلى زوجته أرسلها من مرتفعات جرش
في الأردن - كانون الثاني/ يناير ١٩٧١ .... ٣٢٠
ملحق ٨: الكلمة التي ألقتها لمى، ابنة جورج حبش، في ذكرى وفاته ٣٢٢
ملحق ٩: كلمة ألقاها حفيد الحكيم، عمرو (ابن ميساء)، في الكنيسة
خلال القداس الثالث والتاسع (٣٠-١-٢٠٠٨) وكان يومها
في الخامسة عشرة من العمر ٣٢٤
فهرس الأعلام ٣٢٥
فهرس الأماكن ٣٣١

الفصل الأول

صحوة وعي سياسي

ولِدت في الُّلد في الأول من آب/ أغسطس عام ١٩٢٥ لأبوين مسيحيين يعملان في التجارة. كيف كان محيطك العائلي؟

نشأت في أُسرة من الطبقة الوسطى. كان أبي نقولا تاجراً يعمل في بيع المنتجات الغذائية في اللّد. وقد أدّى به نجاحه في التجارة إلى أن يفتح بالتدريج فروعاً له في مدن أخرى، حيث افتتح فرعاً رئيسياً في القدس وآخر في يافا. وبالرغم من كونه لم يكمل تعليمه، فقد تمتّع أبي بالطموح والذكاء الحاد، كانت لديه قدرة على إجراء العمليات الحسابية في ذهنه بسرعة مذهلة، كما كان يستطيع تقدير الوقت في أية لحظة بدقّة علماً بأنه لم يكن يحمل ساعة في يده. ولم ينضمّ إلى أية حركة سياسية، ولكنّه كان كسائر الفلسطينيين وطنياً حقيقياً أعلن معارضته للمشروع الصهيوني في فلسطين.

وقد لعبت والدتي، واسمها تُحفة، دوراً حاسماً في توجّهي المهني حيث أصرّت على دراستي للطب، بخلاف والدي الذي كان يرغب في أن أخلفه في أعماله التجارية. كان لي أخ يكبرني عمراً، وخمس أخوات منهنّ أختي فوتين التي كنت أحبّها كثيراً والتي توفّيت، عام ١٩٤٨، أثناء النكبة[١]. وقد تركت وفاتها بالغ الأثر في نفسي.

---

(١) تمثّلت النكبة، بالنسبة إلى الفلسطينيين، بإقامة دولة إسرائيل.

ننتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس، نشأنا على الالتزام بالواجبات الدينية من صوم وصلاة وحضور القداس في كل يوم أحد. ونظراً إلى حُسن صوتي، فقد كنت واحداً من أفراد الكورس في الكنيسة نرتّل الترانيم الدينية.

كان عدد سكّان مدينة اللُّد خمسة عشر ألفاً غالبيتهم من المسلمين، يعيشون في حالة من التآخي والانسجام مع الأقلية المسيحية في المدينة. كانت الأسر المسيحية محافظة تنتمي تماماً إلى حضارتها الشرقية حتى أن الكثير من العائلات المسيحية كانوا يمتنعون عن إعداد الطعام قبل الإفطار احتراماً لمشاعر جيرانهم المسلمين في شهر رمضان. أمّا القادمون الأوائل من اليهود، فكانوا يعيشون في مستعمرة على بعد خمسة كيلومترات اسمها بيت شيفين، إذا لم تخنّي الذاكرة.

تشتهر مدينة اللد بأشجار الصبّار والجميز والحدائق حول البيوت، وبالمطار الذي يُطلق عليه الإسرائيليون اليوم اسم مطار اللُّد - بن غوريون(٢)، كما تشتهر المدينة بكونها تحتضن ضريح مار جرجس (الخضر، بحسب التسمية العربية)، وهو الذي قتل التنّين من على صهوة جواده. وكنّا ننزل كلّ يوم أحد، بعد القدّاس، درجات سلّم داخلي إلى الضريح المقدس. وكان بمحاذاة منزلنا سوق يأتي إليه سكّان القرى المجاورة لبيع منتجاتهم. وما زلت أتذكّر حديقتنا وشجرتَي التوت والليمون اللتين غرسهما والداي، وأزهار القرنفل والياسمين التي ما تزال روائحها تعبق في ذاكرتي، بعد ستّين عاماً على التهجير.

بدأت دراستي الابتدائية في مدرسة إنجليكانية في اللد، كانت تديرها سيّدة إنكليزية، يساعدها مدرّس عربي اسمه جورجيوس الذي كان يسكن فوق مبنى المدرسة.

وبما أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت مدارس ثانوية في اللد التحقت بالإعدادية الأرثوذكسية للبنين في يافا، قبل أن أنهي دراستي الثانوية في مدرسة

(٢) أي باسم مؤسّس دولة إسرائيل. وقد أقيم هذا المطار فوق المدينة التي غُيّر اسمها لتصبح اللُّد بالعبرية.

«تيرّا سانتا» (الأرض المقدّسة) في مدينة القدس وتخرّجت منها وأنا في السادسة عشرة من عمري.

كنت تلميذاً متفوّقاً، ففي العام نفسه تمّ تعييني كمدرّس في مدرستي السابقة في يافا، بانتظار إمكانية متابعة دراستي الجامعية. وكان صِغر سنّي وقُربه من سنّ التلامذة مشكلة في علاقاتي معهم. فكان عليّ أن ألجأ إلى القوّة أحياناً من أجل فرض احترامي. أذكر يوماً كيف اضطررت أن أصفع أحد التلامذة المشاغبين فاستطعت بذلك أن أفرض احترامي وسادت من بعدها حالة من الهدوء والانضباط.

ما هو الحدث الذي جعلك تنفتح على السياسة؟

إنّه الإضراب العام الذي أُعلن عام ١٩٣٦ في جميع أنحاء فلسطين، احتجاجاً على الاحتلال البريطاني. كنت يومئذ في المدرسة الابتدائية، وكان الناس في اللُّد يرصدون الأخبار باهتمام بالغ. لم نكُن نمتلك جهاز راديو في المنزل في ذلك الوقت، لذا كنّا نتجمّع في المقاهي في ساعات نشرات الأخبار. كان الناس يبتهجون كثيراً عندما يسمعون الإنكليز وهم يعترفون بأنّ قوّاتهم قد اصطدمت مع الثوار الفلسطينيين. كان أبناء الحي يرفعون أصواتهم بهتافات «ليسقط وعد بلفور»[٣] و«لتسقط بريطانيا»، فيغمرني الفرح إزاء بطولات المناضلين الذين كانوا يعملون على طرد المحتلّ. وقد توقّفت الدراسة في تلك السنة مدّة ستّة أشهر، وتمّ ترفيع جميع التلامذة تلقائياً إلى صفوف أعلى.

بعد ذلك، شهدنا بين العامين ١٩٣٦ و١٩٣٩ نهوضاً وطنياً هامّاً جدّاً قاده المناضل عبد القادر الحسيني وأبو إبراهيم الكبير. وفي اللُّد، كان المتظاهرون يتجمّعون بانتظام حول مبنى البلدية مطالبين بالحرّية والاستقلال ومندّدين بالاستعمار البريطاني وبالاستيطان الصهيوني وقد عُرف أهل اللد بالصلابة والشجاعة وروح الوطنية. ولا يزال يدوّي في ذاكرتي ذلك الهتاف الذي كان

(٣) في العام ١٩١٧، وعد البريطانيون اليهود بإقامة «وطن قومي» لهم في فلسطين.

يردّده المتنفضون المستعدّون للتضحية بحياتهم في سبيل القضيّة:

يا ظلامَ السجن خيِّمْ إنّنا نهوى الظلاما

النضال ضدّ الاحتلال البريطاني هو ما أسهم في تشكيل وعيي بأوضاعنا السياسية، كذلك قدوم الصهاينة تدريجياً منذ نهاية القرن التاسع عشر وتحديداً في ثلاثينات القرن العشرين. كان نير الاحتلال البريطاني ثقيلاً. ففي أحد الأيام، وصل جنود بريطانيون إلى حيّنا، وأمروا جميع السكّان، بمن فيهم والدي ووالدتي، بالخروج من البيوت والتجمّع في ساحة المدينة. وقد انصعنا للأمر تحت تهديد السلاح. وعند عودتنا، بعد ستّ ساعات أمضيناها في الساحات خارج المنزل، بينما كانوا يفتّشون البيوت بحثاً عن السلاح، وجدنا أنّهم عبثوا بكلّ شيء وقلبوا المقتنيات رأساً على عقِب. وفي يوم آخر، سمعنا صراخاً. كان الصراخ صادراً عن أحد أقربائي إذ عرفته والدتي من صوته، كان يئنّ ألماً من الضرب المبرّح الذي تعرض له من قبل الجنود البريطانيين. لكنّ القمع لم يكن يفعل شيئاً غير تأجيج مشاعر الضغينة عند السكّان تجاه البريطانيين الذين كانوا يردّون بالعنف.

وفي المدرسة، كان الأساتذة يعبّرون عن تقديرهم للشهداء. فقد طلب إلينا أستاذ الرياضيات في يافا، وصفي الطاهر، أن نقف دقيقة صمت في ذكرى تنفيذ حُكم بالإعدام من قِبل البريطانيين بثلاثة من الأبطال(٤). كانوا ثلاثة من الشباب الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل الوطن. وما زلت أرى حتّى اليوم وجه أستاذنا المبلّل بالدموع. كما أتذكّر مدير المدرسة، توفيق أبو السعود، الذي كان يلقي كلّ صباح خطاباً حماسياً ذا مضامين وطنية، وأستاذ اللغة العربية في القدس، أمين أبو الشعر، وهو أردني طُرد لأنّه نظم قصيدة انتقد فيها الأوضاع السياسية في ذلك الوقت(٥).

---

(٤) هم فؤاد حجازي، وعطا الزّير، ومحمد جمجوم.

(٥) كانت المملكة الأردنية تضمّ آنذاك ضفّتي نهر الأردنّ (الضفّة الغربية الحالية غرباً، والأردنّ الحالي شرقاً).

لم تكن لدينا في تلك الأيام وسائل إعلام كما هو الشأن في الوقت الحاضر، ولكنّ الأخبار كانت تكفي لتغذية وعينا السياسي. كان الجوّ ثقيلاً، وكان الجميع يشعرون بأنّ أموراً خطيرة ستجري. وفي العام ١٩٣٩، تغيّرت الأجواء مع بدء الحرب العالمية الثانية. فقد تضاءلت أعمال المقاومة، وكان الناس يُظهرون التعاطف مع الألمان لا لشيء إلاّ لأنّهم كانوا أعداء الإنكليز. وفي الأربعينيّات، فهمنا جميعاً أنّ محتلاً آخر أخذ يثبّت أقدامه في البلاد. فمنذ ذلك التاريخ، بدأت أجد بعض التلامذة في صفّي، في القدس، من المهاجرين اليهود الذين قدِم أهلهم توّاً إلى فلسطين.

هل كنت تعرف يومئذ ما هي الصهيونية؟

طبعاً. كنت على علم بالمطامع الصهيونية في فلسطين. إذ منذ العام ١٩٣٦، كنّا قد لاحظنا الدور الذي تلعبه العصابات الصهيونية من الهاغانا والشتيرن والأرغون، الميليشيا التي شكّلت، في ما بعد، نواة الجيش الإسرائيلي. وفي سنّ العاشرة أو الثانية عشرة، كنّا نذهب، أنا وأترابي، في بعض الأحيان، لنقذف المستوطنين اليهود بالقرب من حيّنا بالحجارة. كنّا على وعي بأنّ هذا المحتلّ الجديد سيكون أشدّ خطورة، ولكنّنا كنّا في تلك الفترة أكثر انشغالاً بالبريطانيين، خصوصاً أنّ اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين لم يظهروا جميعاً صهيونيّتهم. كانت علاقاتهم مع الفلسطينيين طبيعية بل جيّدة في بعض الأحيان.

لكن عام ١٩٤٨ شكّل نقطة تحوّل ووضع حداً للعلاقات شبه الطبيعية بين العرب واليهود بسبب قيام دولة إسرائيل فوق قسم كبير من فلسطين. ولم تلبث تلك القطيعة أن تفاقمت في العام ١٩٦٧، بعد احتلال إسرائيل للضفّة الغربية بما فيها القدس الشرقية وقطاع غزّة وأراضٍ عربية أخرى كسيناء والجولان. ذلك لم يمنع بعض الحالات الفردية الاستثنائية، فقد فوجئ عمي بصديق يهودي بعد حرب الأيام الستة يزوره في متجره في القدس الشرقية ويسلّم عليه بحرارة.

بدأت الهجرة اليهودية المكثّفة من أوروبا بعد وصول هتلر إلى الحكم في

ألمانيا، عام ١٩٣٣. وأدرك الفلسطينيون يومئذ طبيعة الخطر المُحدِق والناشئ عن صعود الصهيونية، إلاّ أنّ الحقد لم يظهر في ما بيننا حتّى العام ١٩٤٨. فهو لم يتجذّر إلاّ ابتداءً من ذلك التاريخ، أي بعد احتلال الأراضي الفلسطينية. قبل تلك الفترة، كنت بين العام ١٩٤٠ والعام ١٩٤٢ في المدرسة الثانوية «تراسنطا» في القدس، وكان منافسي في العديد من الموادّ تلميذاً يهودياً. لم تكن بيننا علاقة صداقة، إلاّ أنّنا كنّا نتبادل بعض الأفكار السياسية، وإنْ بين الحين والآخر، لأنّه كان يعود إلى منزله مساء، بينما كنت أنا في القسم الداخلي من المدرسة، إضافة إلى كوني لا أتكلّم العبرية. أمّا أوقات الفراغ فكانت مكرّسة بشكل أساسي للزيارات التي كنت أقوم بها إلى منزل عمّي، والد هيلدا التي أصبحت زوجتي في ما بعد. فهناك كنت أجد الدفء الذي افتقدته بسبب ابتعادي عن أسرتي.

هل كنت منخرطاً في عمل نضالي خلال ممارستك مهنة التعليم في يافا؟

لم يكن لديّ أي نشاط سياسي آنذاك، كنت أرتاد النادي الأرثوذكسي والمكتبة حيث كنت أقرأ بشغف مجلّة «الرسالة» المصرية والصحيفتين المحلّيتين «فلسطين» و«الدفاع». كنت أغلي من الداخل وبدأت روح الثائر تتشكّل في داخلي. ولكنّ التحوّل بدأ في الجامعة الأميركية في بيروت، ابتداءً من العام ١٩٤٤، تحت تأثير الأحداث. أتذكّر سفري إلى لبنان على طول شاطئ البحر المتوسّط: حيفا، رأس الناقورة، ثمّ بيروت، حيث اكتشفت جوّاً جديداً ومختلفاً جدّاً عن حياتي في فلسطين، كان جوّاً أكثر حداثة وأكثر حرّية أيضاً. كان الانتداب الفرنسي قد زال للتو. وكنت ألتقي طلاباً عرباً من مختلف الجنسيات. وكنا نقضي معظم الوقت في الجامعة أو قبالة مبنى الجامعة في «مطعم فيصل» الذي ظلّت شهرته قائمة حتّى إغلاقه، بعد أربعين عاماً، خلال الحرب الأهلية. كنت أمارس رياضة المشي والسباحة كما كان لديّ ولعُ شديد بالموسيقى العربية وبسماع أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب تحديداً وكذلك الموسيقى الكلاسيكية. كما كان لدي صوت جميل شاركت بالغناء في الرحلات والنشاطات الطلابية الجامعية.

كان من المنطقي لي أن أختار الفلسفة من بين موادّ الدراسة الاختيارية. أذكر كيف كان أستاذنا شارل مالك يهزأ غالباً بالقومية العربية مما كان يصدمني في العمق. خلال تلك السنوات، كان لي زملاء مقرّبون أصبحوا أطباء مرموقين في ما بعد وهم منير شمّاعة، ومنصور أرملي، وإبراهيم داغر، وزهير ملحس، وسعد معشر، وسعاد الأزهري، الفتاة الوحيدة في دورتنا. أمّا الدكتور وديع حدّاد والدكتور أحمد الخطيب، اللذان أصبحا بعد ذلك رفيقيّ في النضال، فقد كانا من السنة التي تلت. بقيت أتابع أحداث فلسطين بشغف. كنت أرغب في الانخراط بكلّ كياني في العمل السياسي. وقد مدّدت بقائي في الجامعة الأميركية عاماً إضافيّاً، بعد نيل شهادتي، بهدف القيام بأبحاث علمية في مجال علم الأنسجة (Histology). كان ذلك في الواقع غطاءً سمح لي بتأسيس حركة القوميين العرب في تلك السنة ١٩٥١-١٩٥٢ والقيام بنشاطات سياسية في أوساط الطلاب ومتابعة نشاطي الثقافي والسياسي في العروة الوثقى.

خطّة تقسيم فلسطين التي أقرّتها الأمم المتّحدة في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧ هي ما دفعكم إلى خوض غمار العمل السياسي؛ أليس كذلك؟

لم يكن بإمكاني أن أفهم كيف أنّهم يُقدمون على تقسيم بلدي بهذا الشكل. كان يبدو لي من غير المقبول أن تقام فجأة دولة إسرائيلية فوق ٧٨ في المئة من فلسطين. لقد تغيّرت حياتي منذ تلك اللحظة، وأملت عليّ الضرورة أن أناضل ضدّ هذا الظلم الذي لحق بشعبنا.

كان لهذا القرار تأثير مدوٍّ في الفلسطينيين الموجودين في حرم الجامعة، كما أنّ هذا التأثير تجاوزهم إلى سائر الطلبة العرب. لقد أدرك الجميع طبيعة الخطر الذي كان يهدّد فلسطين آنذاك. فقد تظاهر طلاّب الجامعة والمدارس الثانوية في بيروت وسائر المناطق اللبنانية وطالبوا بالنضال من أجل الدفاع عن فلسطين. وبذلك، كانت السنة الجامعية ١٩٤٧-٤٨ سنة عمّت فيها أعمال الاحتجاج والإضرابات المتكررة.

وفي أحد الأيام، قمنا باحتلال «القاعة الغربية» (West Hall) في حرم الجامعة الأميركية، وطالبنا الحكومات العربية بتدريبنا على استعمال السلاح بهدف التوجّه إلى الجبهة. كنّا شديدي الغضب لرؤية المجموعات الأولى من اللاجئين الفلسطينيين وهم يصلون إلى لبنان. طالبنا بأن تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين لمحاربة العدوّ. ثم بدأت أنهمك في متابعة شؤون اللاجئين الفلسطينيين الذين وصلوا إلى لبنان للاهتمام بهم وتلبية احتياجاتهم كافة، كما كنت أريد أيضاً أن أعرف منهم ماذا كان يجري في فلسطين حقّاً. كنت أحاول أن أفهم وضعهم النفسي. لم أكن أستوعب، عن بُعد، فكرة أن يتمكّن اليهود من كسب المعركة بعد أن طردوا آلاف السكّان من بيوتهم، لأنّني كنت أقول في نفسي إنّ هذه الأرض هي أرضنا وإنّ هذا البلد هو بلدنا منذ آلاف السنين فبأي حق وبأي شريعة تسلب الأرض من سكانها الأصليين. لقد كبرنا مع الفكرة المسبقة القائلة بأنّ الصهاينة جبناء ولا يمكنهم الصمود في وجه العرب، في وقت كان العربي في مخيلتنا هو ذلك الفارس المقدام الذي لا يُهزم. كانت رؤية شعبي مجبراً على اللجوء إلى لبنان تحت تهديد السلاح بمثابة الكابوس بالنسبة إليّ. كنت عاطفياً جدّاً في تلك الفترة. لقد أثارني ذلك حتّى إنّني فكّرت في التوقّف عن الدراسة والالتحاق بالمعركة للقيام بواجبي. اتصل بي يومئذ معتوق الأسمر، وهو صديق كان يدرس في كلّية الآداب. قال لي: «إنّ المشاعر والحزن لا يكفيان؛ من الضروري أن ننظّم أنفسنا لأنّ العدوّ يعتمد على العلم وروح التنظيم... ومن غير الممكن لنا أن نهزمه بغير العلم نفسه وروح التنظيم نفسها». واقترح عليّ الانضمام إلى تنظيم سرّي، وعرّفني بأحد مسؤوليه. وكان هنالك أيضاً طالب لبناني هو رامز شحادة. أخبرني رامز أنّ «النادي الثقافي العربي» الذي يعمل معه يقوم بتنظيم محاضرات يلقيها كلّ أسبوع أستاذ ومفكر سوري هو قسطنطين زريق، الذي كان ينظّر لإيديولوجيا القومية العربية. وكانت تجري الإشادة في تلك اللقاءات بتلك الإيديولوجيا التي تمثّل، في نظر زريق، السبيل الوحيد للردّ على المشروع الصهيوني عن طريق انتفاضة شاملة للأمّة العربية كلّها. وخلال أحد هذه

الاجتماعات التي كانت غنية جداً من الناحية الفكرية، تعرّفت إلى هاني الهندي الذي أصبح، في ما بعد، واحداً من رفاقي في حركة القوميين العرب.

كنت أنتظر القتال بفارغ الصبر. لم أكن أكفّ عن توجيه السؤال إلى صديقيّ معتوق ورامز: «متى يبدأ تدريبنا لننضمّ إلى الثوار؟». كنت أنظر بأسى إلى الشهور وهي تمرّ دون أن أتمكّن من الالتحاق بالجبهة. ولمّا كانت إدارة الجامعة قد قرّرت اختصار العام الدراسي إلى منتصف حزيران/يونيو بسبب الأحداث في فلسطين، وقرّرت أخيراً أن أعود إلى بلدي دون أن أنتظر من التنظيم أن يهيّئني لذلك. ودون أن آخذ في الاعتبار رأي والديَّ اللذين كانا قد بعثا إليّ برسالة طلبا فيها أن أبقى في بيروت. وبما أنّ الطريق الساحلي كان قد أقفل بعد سقوط حيفا، فقد اضطررت إلى المرور للمرّة الأولى عبر شرق الأردنّ، ووصلت إلى اللُّد في ساعة متأخّرة من الليل. وقد فوجئت أسرتي بوصولي غير المتوقّع في مثل تلك الظروف الخطيرة.

وما الذي اكتشفته عند عودتك إلى فلسطين؟

كانت المدن الفلسطينية على وشك السقوط. وكنت شديد الغضب وأريد القيام بعمل ما للدفاع عن وطني، ولكن ماذا أفعل؟ لم أكن أعرف كيفية استعمال السلاح فلم أتمكّن من الانضمام إلى المقاتلين المنتشرين حول اللد لذلك اخترت العناية بالجرحى في أحد مستوصفات المدينة، وكان يديره الدكتور مصطفى زحلان. لكنّ ذلك المستوصف كان في حالة مزرية بسبب النقص في الأطبّاء والأدوية. ولم يكن من الممكن إسعاف جميع الجرحى الذين نُقلوا إليه. وما زلت أتذكر عويل فتاة أصيبت بجرح في بطنها وهي تصرخ يائسة في أحد الممرّات: «أريد ماءً! أريد ماءً، من فضلكم!». وذلك الفتى الذي كان في حدود العشرين من عمره، والذي كان مطروحاً على الأرض بعد أن أسلم الروح. كنت قد رأيته قبل أيام وهو يركض في شوارع اللُّد. كان المقاتلون من سكّان اللُّد يخرجون ليلاً بأسلحتهم لمهاجمة مواقع العدوّ.

وعلى الرغم من سقوط يافا وحيفا، كانت معنويات السكّان ما تزال مرتفعة. وكان سكّان اللُّد يثبتون ما اشتهروا به من كونهم محاربين أشداء ووطنيين ذوي مواقف صلبة. ولكنّنا لم نلبث أن حوصرنا بالتدريج. كنت أشعر كما لو أنّني أشهد بلا حول ولا قوّة نهاية العالم. لم أكن يومها قد أصبحت مؤهّلاً لإجراء العمليات الجراحية للمصابين. كنت أكتفي بمساعدتهم بالإسعافات الأولية وبرفع معنويات عائلاتهم وأنا أطلب إليهم أن ينتظروا... أن ينتظروا وصول الجيوش العربية[٦] التي ستأتي لإنقاذنا من الكارثة. كان الناس يتوقّعون ذلك. ألم يصل الجيش الأردني إلى أطراف اللُّد؟ ولكن، ويا للأسف، كانت الهجمات المعادية في تصاعد مستمرّ.

وفي إحدى الليالي، دبّ فينا الذعر عندما تعرّضنا لغارة جوّية. وفي الليالي التالية تضاعفت حدّة القصف. وقد أدّى تزايد الهجمات الصهيونية وسقوط المدن والقرى المجاورة إلى تزايد الشكوك لدى السكّان في دخول الجيش الأردني في الحرب لإنقاذ اللد. عندئذ، سقطت معنويات البعض، في حين كان البعض الآخر يُبدي عزمه على الصمود مهما كان الثمن. إلاّ أنّ دائرة القلق بدأت بالاتساع، وكانت الشائعات تنتشر حول اضطراب المقاتلين. وكان صمت الأنظمة العربية وسلبيّتها مدار الحديث في جميع النقاشات.

كنت أقول في نفسي إنني لو رأيت جندياً إسرائيلياً في المستوصف سأصرخ في وجهه: «ماذا تريد أيها القاتل؟ هذه أرضنا! هذا بلدنا! لن نتخلّى عنه مهما كلّف ذلك من تضحيات!».

ذات صباح، جاءت إحدى قريباتي لزيارتي في المستوصف. انتحت بي جانباً وأخبرتني بأنّ فوتين، كبرى أخواتي، قد توفّيت. كانت فوتين أمّاً لستّة أطفال. وقد شكّلت وفاتها صدمة كبيرة لي. وفي طريق العودة إلى البيت لمواساة عائلتي، كانت جثث عديدة تفترش الأرض، وبينها تحديداً جثّة صاحبنا بائع

---

(٦) كانت اللجنة العربية العليا هي نواة القيادة الفلسطينية خلال حرب العام ١٩٤٨.

الفول. أكنتُ في حلم، أم في كابوس، أم أنّها الحقيقة المرّة؟ لم أعد أعرف أين أنا. وعند وصولي وجدت أنّ عائلتي قد دفنت شقيقتي على عجل في حديقة منزلنا. لم يكن بالإمكان دفنها في المقبرة وإجراء المراسم الدينية للدفن لانعدام الأمن مما منع الكاهن من المجيء للصلاة على الجثمان. كان حزناً عميقاً قد خيّم على العائلة بأسرها.

متى كان سقوط اللُّد؟

بعد ثلاثة أسابيع من الحصار، في ١١ تموز/يوليو ١٩٤٨. كان ذلك أول يوم أسود في حياتي[٧]. وبالفعل، وبعد دفن شقيقتي، وصل الصهاينة بسلاحهم وطلبوا إلينا بوحشية أن نُخلي منزلنا بسرعة. سألناهم: من أنتم؟ لم يجيبوا، لكنّهم ألحّوا علينا لكي نترك كلّ شيء خلفنا. وعندما خرجنا تحت تهديد السلاح، رأينا الجيران وهم يخرجون أيضاً تحت مراقبة الجنود الذين كانوا يتوزّعون على مسافات متقاربة على حافة الطريق. لم نكن نعرف سبب هذا الطرد الجماعي. كنّا نظنّ بأنّهم يريدون تجميعنا في أحد الحقول، لكي يفتّشوا البيوت دون شهود عيان، ثمّ يتركونا لنعود إليها بعد ذلك. لم نتصوّر مطلقاً أنّهم كانوا يقتلعوننا، وأنّنا لن نرجع أبداً إلى بيوتنا. وبالفعل كان كلّ شيء معدّاً لكي يقودونا سريعاً إلى خارج المدينة.

«اذهبوا إلى الملك عبد الله، إنّه مسؤول عنكم!»، هذا ما كان يصرخ به في وجوهنا بعض الجنود الإسرائيليين وهم يفتّشون الفلسطينيين ويطلبون إلينا، خصوصاً، ألاّ نقاوم. أمين حنحن، ابن جيراننا، كان قد حمل معه مبلغاً من ألفي دينار، وحاول الجنود سلبه إياه. لكنّه قاومهم، فقتلوه أمام أعيننا. كنّا نعيش كابوس شعب حُكم عليه بالنزوح والرحيل الإجباري.

---

(٧) مات ٥٠٠ شخص من سكّان اللُّد أو قتلوا خلال الحصار الذي فُرض على المدينة، كما تمّ تهجير ٧٠ ٠٠٠ فلسطيني من القرى المجاورة. (قتل الجنود الإسرائيليون بعد انتهاء المعارك ١٦٧ شخصاً من سكان اللد بعد أن جمعوهم في مسجد دهمش).

وبعد أن مشينا ساعة كاملة، وصلنا إلى خارج المدينة. وعند كلّ مئة متر، كان أحد الجنود يشير إلينا إلى أين نتّجه. وعند إحدى نقاط التفتيش، قام عدد من الجنود بسرقة حُلِيّ النسوة الراحلات وما يحملنه من بعض النقود.

وخلال هذا الرحيل القسري، مات البعض من العطش، والبعض الآخر من الجوع. واضطررنا إلى تركهم على قارعة الطريق. كان التعب قد بلغ منّا كلّ مبلغ، عندما ارتمينا لنشرب من ماء مالح في بئر ملوّثة. ثم تابعنا المسير حتّى هبوط الظلام. قضينا الليلة في خيمة تدبّرناها بالوسائل المتاحة في قرية نعالين، قبل أن نواصل المسير صبيحة اليوم التالي إلى بير زيت، ثمّ وصلنا إلى رام الله، حيث مكثت أسرتي مدّة عامين. كانت أسرتي قد تركت وراءها كلّ شيء. تركت الممتلكات والمخازن التجارية والمزارع، ولم تحتفظ إلا بمفاتيح منزلنا وبالوثائق التي تثبت ملكيّتنا للمنزل والأرض المحيطة به. ربّما تنفعنا هذه الوثائق ذات يوم؟ فلسطينيون كثيرون ممّن كانوا يأملون العودة سريعاً إلى بيوتهم دفنوا حُلِيّهم وأموالهم في تراب منزلهم. ذلك أنّنا كنّا ما نزال مقتنعين بقدرتنا على العودة إلى بيوتنا. لم يكن أحد يتصوّر أنّنا قد بدأنا المسير على درب جلجلة تواصلت، حتّى الآن، طوال ستين عاماً! وفي رام الله، كنت أذهب كلّ يوم إلى أحد المقاهي للاستماع إلى الأخبار حول احتمال عودتنا. في ذلك اليوم ترك فيَّ أحد الأنباء أثراً بالغاً: دافيد بن غوريون، رئيس الوزراء الإسرائيلي، أعرب عن أمله في أن يبلغ عدد السكّان اليهود في الدولة العبرية أربعة ملايين نسمة، بحلول العام ١٩٥٢. كان عددهم يومذاك ٧٠٠٠٠٠ نسمة فقط. وبدا لي ذلك أمراً مذهلاً. غير أنّ ذلك التصريح كان يكشف عن ضخامة طموحات القادة الصهاينة ومخطّطاتهم.

هل حملت السلاح أو فكّرت في القتال خلال الأسابيع الثلاثة التي خضعت فيها اللُّد للحصار؟

فكّرت في ذلك بالطبع، ولكنّني لم أكن أمتلك أيّة خبرة عسكرية.

والمقاتلون أنفسهم لم يكونوا يمتلكون خبرة بالفعل. كانوا يقاومون انطلاقاً من بعض الهضاب خارج اللُّد وداخلها. ولكنّهم لم يكونوا منظّمين بشكل جيّد. لقد استخلصت العِبرة من ذلك، عندما انخرطت في العمل السياسي، من خلال اهتمامي بتدريب المقاومين انطلاقاً من لبنان. غير أنّني كنت ناقماً حينذاك إزاء هذا الظلم. كنت أفكّر في الكتابة إلى الأمم المتّحدة، وأن أفضح صمت العرب، وكذلك صمت الغربيين الذين كانوا ينظرون إلى مأساتنا دون أن يفعلوا شيئاً. فكّرت حتّى في ترك الجامعة لتنظيم المقاومة، لكني اتّخذت قراراً بمتابعة دراستي الجامعية رغم كل الظروف. ثمّ إنّنا كنّا مهجَّرين، ولم يكن هنالك أيّ تنظيم يمكنني أن أعمل من خلاله.

وفي النهاية، عدت إلى بيروت في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨، لأتابع الدراسة في السنة الجامعية الخامسة. لكنّني لم أعد كما كنت في السابق. كانت النكبة قد قلبت حياتي رأساً على عقِب. لقد أطلقت بداخلي الإصرار والتصميم على النضال من أجل استرجاع فلسطين.

إلى أيّ سبب تعزو هزيمة ١٩٤٨؟ إلى سوء التنظيم عند الفلسطينيين أم إلى تخلّي جيرانكم العرب عنكم؟

تعود المسؤولية عن الهزيمة بالدرجة الأولى على الأنظمة العربية، وخصوصاً النظامين الأردني والمصري. كانت جيوش جميع الأنظمة متعاطفة جدّاً وشديدة التحفّز، ولكنّ الحكومات لم تفعل شيئاً. إنّها هي المذنبة، ولكنّ ذلك لا يعفي الشعب الفلسطيني من قسط من المسؤولية.

هل كنت على علم بالقوّة المتصاعدة للهاغانا قبل العام ١٩٤٨؟

لا، ليس إلى هذا الحدّ. لم أكن أتصوّر أنّ بإمكانها أن تسلبنا هذه الأرض وتقتلع الشعب. كان انهماكي بدراسة الطبّ هو، على الأرجح، ما حال بيني وبين أن ألحظ الوضع بشكل صحيح هناك في فلسطين التي كنت قد غادرتها قبل «النكبة» بأربع سنوات.

هل كنت تربط بين المحرقة ومجيء اليهود إلى فلسطين؟

لا، لم أكن أحلّل الوضع بهذا الشكل. نحن كفلسطينيين لم يكن لنا شأن بالمحرقة التي كان اليهود ضحيّتها في أوروبا. كانت الأولويّة عندي قبل كلّ شيء لاسترجاع أرضنا. فليس من المنطقي أبداً أن ندفع ثمن أعمال ارتكبها الآخرون.

كيف كانت عودتك إلى الجامعة في بيروت؟

كان الوضع في الجامعة متوتّراً جدّاً. أصبح التعايش صدامياً بين الطلاّب العرب والإدارة الأميركية للجامعة. ففي العام ١٩٤٨، تمّ بعد أحداث فلسطين تعيين رئيس جديد للجامعة الأميركية في بيروت قام على الفور بخنق جميع تحرّكاتنا وبمنع الأنشطة السياسية التي كنّا نريد القيام بها. وقد وصل به الأمر إلى حدّ طرد عدد من الطلاب الذين كانوا يرفضون الانصياع للأوامر، ما اضطرّهم إلى متابعة دراستهم في مصر.

شهدت الجامعة يومها حالة غليان حقيقية. كان معظم الطلاّب يعتقدون أنّ التاريخ المجيد للأمّة العربية كان ينبغي له أن يُسهم في جعلها تكسب هذه الحرب، لا أن تخسرها بكلّ هذه السهولة. كانوا يتلهّفون إلى الانخراط في التعبئة التي كنّا بصدد إطلاقها.

في هذه السنة بالذات أقصد السنة الدراسية ١٩٤٨- ١٩٤٩تجاوز نشاطنا حدود الحياة الجامعية حيث أصبحنا نتصل باللاجئين في المخيمات وأصبح نشاطنا يشمل بيروت وصيدا وطرابلس وأصبحنا نقوم بنشاطات جماهيرية وحماسية تبعث الأمل في النفوس، وفي هذه الفترة تعرّفت على المناضل إبراهيم أبو دية بطل معركة القطمون الذي أصبح مشلولاً نتيجة رصاصة أصابته في العمود الفقري. أخذت أزوره بين وقت وآخر وقد كانت له زوجة ذات معنويات رائعة وبطلة بالنسبة إلى ما كانت تتحمّله. كم كانت روحه المعنوية عالية يسألنا عن الأخبار ويناقشنا ويسألنا عن نشاطاتنا، وكم كان تأثّري شديداً يوم وفاته في مستشفى الجامعة الأمريكية في العام ١٩٥٢.

كنت، اعتباراً من العام ١٩٤٨، ناشطاً جدّاً داخل منظّمة ثقافية في الجامعة الأميركية كان الجميع يعرفونها تحت اسم «العُروة الوثقى» التي أصبحت رئيساً لها ما بين ١٩٤٩ و١٩٥١، كما كان الأستاذ قسطنطين زريق مستشاراً للعروة الوثقى وبمثابة الأب الروحي للشباب القومي العربي. كنّا نقوم باستضافة مجموعة من الشخصيّات من أمثال كمال جنبلاط وعمر أبو ريشة وبتنظيم محاضرات لتوعية الطلاّب بالقضيّة الفلسطينية. وفي إحدى القصائد التي استوحاها عمر أبو ريشة من النكبة، تعرّض لعجز العالم العربي عن الردّ على العدوان، لا يمكن أن أنسى تلك الليلة، كان الشاعر قد نظم على أثر النكبة قصيدة لا زلت أذكر مطلعها «أمتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم» كانت القصيدة تصبّ جام غضبها على الحكام والزعماء العرب في ذلك الوقت مما جعل القاعة تدوي بالتصفيق بشكل متواصل.

وسرعان ما أصبحنا أقوى التنظيمات العاملة داخل حرم الجامعة. كان الشيوعيون منافسينا الأساسيين وقد أعاقهم الدعم الذي قدّمه مرجعهم السوفياتي لمشروع تقسيم فلسطين. وكان الطلاّب الشيوعيون أنفسهم متردّدين في حسم موقفهم مما أدّى إلى تعكير الأجواء بيننا وبينهم.

وعلى الرغم من كلّ هذا الغليان، تابعت دراستي حتّى العام ١٩٥١. وقد اعتقلت عدّة مرّات من قِبل السلطات اللبنانية التي كانت تعتبر أنّ النشاطات التي كنت أقوم بها هي نشاطات محظورة. كما تعرضت للملاحقة في السنة الدراسية الأخيرة من قِبل السلطات اللبنانية وعشت في ظروف شبه سرّية مختفياً عند أحد الأصدقاء. لكنّني تمكّنت، رغم صعوبة ظروف العمل الوطني، من الحصول على شهادتي في الطبّ بتفوق.

الفصل الثاني

تأسيس حركة القوميين العرب

بعد هزيمة العام ١٩٤٨، كرّستَ معظم نشاطك للعمل من أجل تنمية حركة القوميين العرب الهادفة برأيك إلى تسهيل استرداد فلسطين. لماذا انتقلت، عام ١٩٥٢، من بيروت إلى الأردنّ؟

بسبب نشاطاتي التي نُظر إليها على أنّها غير مقبولة، باتت الجامعة الأميركية في بيروت غير راغبة في وجودي فيها. وكانت جمعية «العروة الوثقى» تستقطب عدداً كبيراً من الشباب القومي العربي. وكنّا قد انخرطنا في أنشطة سرّية على هامش ما كنّا نقوم به من تظاهرات علنية. وكان عدد من الشباب الوطنيين قد شكّلوا في سوريا، عام ١٩٤٩، مجموعة سرّية مهمّتها تصفية القادة العرب الذين لم يحركوا ساكناً، قبل عام مضى، من أجل إنقاذ الفلسطينيين. وقد عُرفت تلك المجموعة باسم «كتائب الفداء»، وكان عليها أن تعمل من أجل اغتيال المتواطئين وإلحاق الضرر بـ «المصالح الإمبريالية» في المنطقة. وكنت قد انضممت، عن بعد، إلى هذه المجموعة، التي قامت بوضع قائمة بالعمليات الواجب تنفيذها. لكنّ السلطات السورية اكتشفت وجود «الكتائب»، في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٥٠، بعد أن اتُّهم أحد أعضائها، وهو المصري حسين توفيق، بالتخطيط لاغتيال أديب الشيشكلي الذي كان يرأس المجلس العسكري الأعلى في سوريا.

عندها، اختبأت خلال فترة التحقيق عند أحد الأصدقاء، وهو منير سنّو، الذي كان يسكن في منطقة البسطة في بيروت، ويساعدنا على شراء الأسلحة.

ولمّا لم تثبت عليّ أيّة تهمة في التحقيقات البوليسية، فقد تمكّنت من متابعة دراستي في الجامعة. ثمّ نلت الشهادة رغم ما كنت أتعرّض له من ملاحقة، ورغم تغيّبي عن المحاضرات.

كانت «كتائب الفداء» تقوم بإعدادنا، في ظروف سرّية، للعمل الثوري. وكنّا متحمّسين قبل انتقالنا إلى الخطوة التالية، أي إلى تشكيل حزب حقيقي.

بانتظار ذلك، كنّا نسعى في اجتماعاتنا، كشباب قومي عربي، إلى إحياء روح الوحدة العربية من أجل الدفاع عن القضية الفلسطينية. كان ذلك هو الشيء المهمّ الوحيد بالنسبة إلينا. وكان عميد كلّية الطبّ، البروفسور غنطوس، يشجّعني على ممارسة التعليم والبحث العلمي. كان متأكّداً أنّ الطبّ هو رسالتي، ولم يكن يعلم أنّ نشاطاتي السياسية قد أصبحت أكثر أهمّية بالنسبة إليّ وأن بقائي في الجامعة سنةً إضافية بعد التخرّج للتعليم كان مجرّد ذريعة للاستمرار بنشاطي السياسي.

وفي أحد الأيام، تدهور الوضع الأمني خلال تظاهرة قمنا بتنظيمها داخل حرم الجامعة ضدّ المشاريع الإمبريالية البريطانية. فقد حاولت الإدارة منع التظاهرة، وقامت بتهديدنا. ثمّ استدعت قوى الأمن التي طوّقت الجامعة. ثمّ أقفلت بوّابة كلّية الطبّ بالسلاسل لمنع المتظاهرين من الخروج من الحرم الجامعي. وبصفتي أستاذاً مساعداً في قسم علم الأنسجة، لم يكن من المفترض أن أشارك في التظاهرة. لكنّني قرّرت في اللحظة الأخيرة قيادة مسيرة الاحتجاج تلك. ثمّ كسرنا السلاسل بالقوة، في حين كان طلاّب قد انضمّوا من الخارج إلى صفوف التظاهرة بتحريض منا، وتمّ قمع تلك التظاهرة الحاشدة بالقوة.

اعتقلت مع وديع حدّاد وأعضاء آخرين من «العروة الوثقى». لكنّ الصحف اللبنانية كرّست لنا، في اليوم التالي، عناوينها الرئيسية، وتبع ذلك حملة إعلامية أجبرت السلطات على إطلاق سراحنا بعد يومين أو ثلاثة. وبذلك أحرزنا انتصاراً كبيراً شاركتنا فيه الطالبة السورية أسماء الموقع التي كانت تقوم بنشاط بارز في صفوفنا، وهو الأمر الذي لم يكن شائعاً بالنسبة إلى امرأة في تلك الفترة.

عندها، كنت قد تجاوزت نقطة اللاعودة، ولم يعد العمل ممكناً بالنسبة إليّ في الجامعة. وبات علينا أن نختار خطوطاً خلفية جديدة. وقد تردّدنا، وديع حدّاد وأنا، في الاختيار بين القدس وعمّان، ثمّ فضّلنا العاصمة الأردنية التي كانت أسرتي قد لجأت إليها بعد «النكبة». أمّا زملائي الأساسيون في «العروة الوثقى» فقد تفرّقوا، فذهب أحمد الخطيب إلى الكويت، في حين بقي صالح شبل في لبنان. أمّا حامد جبّوري فقد لحق بنا إلى الأردن وبقي فترة من الوقت قبل أن يكلّف بالعودة إلى العراق. كان في نيّتنا أن يقيم مسؤولون منّا في كلّ بلدٍ من البلدان التي كنّا عازمين على العمل فيها من أجل توسيع شبكة نشاط حركة القوميين العرب التي كنت قد أسّستها مع مجموعة من الرفاق قبل فترة وجيزة من وصولنا إلى عمّان. وفي تلك الفترة من العام ١٩٥١ في بيروت تعّرفت إلى كل من فيصل الخضراء الذي كان طالباً جامعياً في السنة الأولى وعدنان فرج وثابت المهايني وغسان برازي وهم جميعاً من الطلبة الذين نشطوا في ما بعد بشكل ملحوظ في حركة القوميين العرب وتوطدت علاقتي مع غسان برازي في مرحلة الستينات في سوريا فترة الانفصال وما بعد حيث كان من الرفاق الذين تردّدوا علي في مخبئي السرّي في سوريا عام ١٩٦٣.

ما هي المبادئ التي قامت عليها حركة القوميين العرب؟

قمت بتأسيس حركة القوميين العرب في بيروت، عام ١٩٥١، عبر تشكيل قيادة جماعية ضمّت، بالإضافة إليّ، كلاً من وديع حدّاد والدكتور أحمد الخطيب من الكويت، وصالح شِبل وهو فلسطيني الأصل، وحامد جبّوري من العراق.

وبعد أن استخلصنا دروس نكبة العام ١٩٤٨، كان المبدأ الأساسي للتنظيم مرتكزاً على الوحدة العربية كشرط لا بدّ منه من أجل التوصّل إلى حلّ للمشكلة الفلسطينية، على ما أكّده بشكلٍ واضح شعارنا «وحدة، تحرّر، ثأر». كان البروفسور قسطنطين زريق أبانا الروحي. وكان كتابه حول النكبة يحدّد لنا السبيل الذي علينا أن نسلكه من أجل تحقيق العودة. لم يكن ينبغي للنضال أن يقتصر،

في نظره، على الناحية العسكرية. كان يجب أن يكون ثقافياً أيضاً، ووثيق الارتباط بالسعي لتحقيق الوحدة العربية التي أخذنا على عاتقنا مواصلة العمل من أجل انبثاقها.

واستجابة لرغبة عدد من الرفاق، فتحنا حواراً في تلك المرحلة مع الأحزاب الأخرى التي تؤمن بالقومية العربية، وخصوصاً مع البعثيين.

كان هؤلاء الرفاق يطرحون السؤال التالي: لماذا لا ننضمّ إلى حزب البعث؟

وهنا أريد أن ألفت الانتباه إلى مسألة أساسية: كنّا نعتقد في تلك المرحلة بوجود علاقة ديالكتيكية بين تحرير فلسطين والوحدة العزبية. فقد كان المشروع الصهيوني، في نظرنا، مشروعاً استعمارياً يستهدف، إضافة إلى فلسطين، الأمّة العربية بأسرها. كان علينا إذن أن نطرح، في مقابل هذا المشروع، مشروعاً شاملاً لوحدة عربية يكون موضوعها الأوّل تحرير فلسطين التي شكّل اغتصابها مصدر جميع الشرور التي ألمّت بنا. والواقع أنّ حزب البعث لم يكن يُعطي الأولوية لتحرير فلسطين. فقد كنت قد قرأت كتب منظّر الحزب، ميشيل عفلق، والتقيته مطوّلاً في بيروت، واستمعت إلى إجاباته عن تساؤلاتي. وكنت دائماً أعود إلى السؤال نفسه: لماذا لا يعطي الأولوية في كتاباته للعمل من أجل تحرير فلسطين؟ وكنّا نبدي أسفنا، من جهة ثانية، لأنّ التدريب العسكري لم يكن أمراً ذا أولوية بالنسبة إلى البعثيين. كما أنّ أسلوبهم في التحرّك كان يختلف أيضاً عن أسلوبنا، إذ كان على كلّ عضو في حركة القوميين العرب أن يشارك في العمل الثوري، وأن يكون مستعدّاً للتضحية بنفسه إذا ما طلب الحزب إليه ذلك. كان على كلّ عضو أن يعطي الأولوية لذلك على خياراته الشخصية، وفق ما ينصّ عليه أحد مبادئنا، وهو المبدأ القائل: «نفّذ ثمّ ناقش». وقد دفعت هذه الاختلافات بالكثيرين من مناصري البعث إلى الالتحاق بصفوفنا، بعد أن خيّبت ظنّهم مواقف حزبهم بشأن فلسطين.

أمّا مع الشيوعيين، فقد كان الخلاف قائماً، كما أسلفت، حول مشروع تقسيم فلسطين، إذ كانوا يؤيّدون هذا المشروع تبعاً للخطّ الذي اعتمدته موسكو

التي كانت بين أولى العواصم التي اعترفت، عام ١٩٤٨، بدولة إسرائيل الناشئة. ثمّ إنّني لم أكن مقتنعاً يومها بمزايا العقيدة الشيوعية.

وعلى ذلك، لم يكن لدينا ميل إلى التقارب مع الأحزاب الأخرى، بل إنّ جميع هذه النقاشات قد رسّخت، على العكس من ذلك، تصميمنا على تعزيز تنظيمنا الخاصّ. ولكن، هل كان علينا أن نعلن رسمياً قيام هذه الحركة، أم على العكس من ذلك، إحاطة نشاطاتها بشيء من السرية؟ وبصراحة، لم تكن الإجابة عن هذا التساؤل بالأمر السهل. وفي النهاية، قرّرنا أنّ حركة القوميين العرب لا ينبغي لها أن تظهر إلى حيّز العلن إلاّ بعد إرساء أُسسها النظرية والتنظيمية. ولكن، كان علينا، في الوقت نفسه، أن نترجم أقوالنا إلى أفعال. ومن هنا كانت بداية عمل نصف سرّي ونصف علني، في الأردنّ، اعتباراً من العام ١٩٥٢.

كيف تطوّرت نشاطاتكم في هذه الظروف؟

لا بدّ، في البداية، من توضيح الأمر التالي: قبل أن أستقرّ في عمّان، كان عليّ أن أطمئنّ إلى عدم تعرّضي للاعتقال. فالواقع أنّ حسين توفيق الذي كان سجيناً في سوريا، كان قد اعترف بأنّ «كتائب الفداء» تخطّط لاغتيال الملك عبد الله، ملك شرقيّ الأردنّ. لكنّ بعض الأصدقاء ضمنوا لي، لحسن الحظّ، أنّ سلطات الدولة الهاشمية لم تكن لها أية مآخذ علي.

وهكذا، بدأنا أنا ووديع حدّاد الذي كان قد التحق بي في عمّان، بالتغلغل في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين واضعين نُصب أعيننا تحقيق هدفين اثنين: إقامة مدارس لمحو الأمية وتعليم القراءة والكتابة للأقلّ حظّاً في التعليم ممّن كانوا قد فقدوا كلّ شيء منذ إجبارهم على الخروج من فلسطين، وتوفير حدّ أدنى من العناية الصحّية. وبفضل مساعدة من والدي، افتتحنا عيادة في شارع الملك طلال في الأحياء الفقيرة في عمّان وسط البلد، حيث خصّصنا يوماً في الأسبوع لتقديم العلاج مجّاناً للأشخاص الأكثر فقراً. كنا كثيراً ما نقوم بتوزيع الأدوية على الفقراء مجّاناً.

وعند خروجنا، أنا ووديع، من العيادة التي أطلق عليها والدي اسم «القيادة»، لأنّها كانت تُستخدم فعلاً كغطاء لنشاطنا السياسي، كنا غالباً ما نقصد المخيّمات لنقابل الطبقات المسحوقة من العمال والكادحين وباعة الصحف، وباختصار جميع اللاجئين المهتمّين بتحصيل قِسط من التعليم. كنّا نعلّمهم القراءة والكتابة في مدرسة كنّا قد افتتحناها في «النادي العربي» بعمّان. وكان الكثير من الناس يقصدون تلك المدرسة. ورغم كوننا في بداية حياتنا المهنية، لكن مصداقيتنا الطبّية كانت كبيرة بسبب تخرّجنا من بيروت، وأخذ المزيد والمزيد من اللاجئين يقصدوننا من مخيّمَي «الوحدات» و«جبل الحسين» ومخيمات أخرى. وكنّا نجلس معهم على الأرض في الأكواخ المبنية من الصفيح وما شابه. كنا نريد أن نثبت لهم أنّنا نشاركهم في معاناتهم. وكنا نحاول إقناعهم بأنّ الوحدة العربية هي المفتاح الذي من شأنه أن يمكّنهم من العودة إلى ديارهم، بموجب حقّهم المقدّس بالعودة التي ضمنها لهم قرار رقم ١٩٤ الذي صدر عن الجمعية العمومية للأمم المتّحدة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨. لكنّ هدفنا كان بالطبع تسييس تلك الكتل من اللاجئين عبر زرع خلايا لحركتنا داخل المخيّمات الفلسطينية.

وعلى ضوء هذا الهدف، كنّا نحدّد الأشخاص الأكثر استجابة، أي أولئك الذين يمكنهم نشر رسالتنا بشكل أفضل، قبل أن ننتقل إلى توعية الآخرين سياسياً. وبهذه الطريقة، تمّ انضمام العديد من كوادرنا المستقبليين من سكان المخيمات والذين لم تتح لهم فرصة التعليم الجامعي، أذكر على الخصوص أبو علي مصطفى(١) وأبو سمير (حمدي مطر الذي أصبح ناشطاً في العمل الجماهيري داخل المخيمات)، وذلك بعد تنظيمهم وإعدادهم من قبل كوادر الحركة.

وفي ما يتجاوز اللاجئين، وسّعنا شبكتنا لتضمّ الأردنيين الأصليّين، بفضل الطلاّب القدامى في الجامعة الأميركية في بيروت، والذين عدت إلى الاتصال بهم

---

(١) أبو علي مصطفى (اسمه الحقيقي مصطفى الزابري)، خلف جورج حبش في قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، عام ٢٠٠٠، قبل «تصفيته» من قِبل إسرائيل، في العام ٢٠٠١، بُعيد إطلاق الانتفاضة الثانية.

لهذه الغاية. وقد تمكّنت بفضل كلّ من علي منكو ونزار جردانة، المتحدّرين من أسر رأسمالية، من الاتصال بدوائر أخرى في المجتمع الأردني، وبأعضاء من «البورجوازية الوطنية»، كالخبير الاقتصادي حمد الفرحان، والقاضيين محمد طوقان ومحمد الرشدان، إضافة إلى الدكتور أحمد طوالبة، الذي صار في ما بعد مديراً لمجلّتنا «الرأي». وقد شكّلت المجلّة صِلة الوصل بين مختلف أقطاب حركتنا، من المثقّفين والخلايا المكوّنة من اللاجئين. أمّا على الصعيد الشخصي، فإنّ انتقالي إلى عمّان سمح لي بالعودة إلى الجوّ الأسري، حيث كان والداي وجميع أفراد أسرتي قد التجأوا هم أيضاً إلى الأردنّ.

كيف كانت السلطات الأردنية تنظر إلى تحرّككم السياسي في تلك الفترة (١٩٥٢-١٩٥٣)؟

بعد اغتيال الملك عبد الله في القدس، عام ١٩٥١، استلم ابنه طلال مقاليد السلطة، ولكن لفترة قصيرة جدّاً[٢]. وقد دعا الملك حسين الذي خلفه على العرش الهاشمي إلى عهد جديد في الحياة السياسية في بلده، محاولاً أن يعطي نفسه صورة المدافع عن الديموقراطية، عبر السماح بحرّية الرأي والتعبير. وقد استفدنا من مُناخ الانفتاح هذا، وأصدرنا مجلّة «الرأي»، عام ١٩٥٢، بعد أن حصلنا على ترخيص رسمي لها.

وقد أسهمت مجلّة «الرأي»، بإدارة الدكتور أحمد طوالبة، إسهاماً بالغاً، في توعية الرأي العامّ الأردني بالقضيّة الفلسطينية. ومازلت أذكر الصخب المحموم الذي كان يسود مساء كلّ أحد خلال الليلة التي كنّا ننهي فيها إعداد المجلّة للصدور. كنت أعود إلى المنزل مرهقاً، لكنّني كنت أنتظر بفارغ الصبر لأطّلع على ردود فعل القرّاء، في صبيحة اليوم التالي. كنت أكتب افتتاحية العدد وأدير شؤون المجلة بحماس بالغ، وأسهر حتى الصباح لأطمئنّ إلى صدور العدد بالشكل الذي

(٢) تخلّى طلال، لأسباب صحّية، عن العرش لابنه حسين، في العام ١٩٥٢.

أريد. تلك الذكريات تبعث في نفسي لحظات من السعادة التي كنّا نتقاسمها أنا وصديقي العزيز علي منكو ومُضَر النابلسي اللذان كانا يأتيان دائماً بأخبار مثيرة، أو حمد الفرحان بافتتاحيّاته التي كان يهاجم فيها السيطرة البريطانية على الأردنّ. كانت مجلّة «الرأي» تشغل الكثير من وقتنا، لكنّها حقّقت نجاحاً كبيراً.

ثمّ بدأنا العمل على تحريض الشارع. ففي العام ١٩٥٣، وجّهنا دعوات إلى التظاهر لنصرة الثوّار في المغرب العربي وخاصة في الجزائر ضدّ الاحتلال الفرنسي، الأمر الذي أدّى بي إلى السجن للمرّة الأولى، حيث أمضيت يوماً أو يومين. ثمّ سُجنت مرّة أخرى، عام ١٩٥٤، لمدّة أربعين يوماً، بعد تظاهرة احتجاجية عامّة ضد سياسة الحكومة الأردنية التي كان يترأّسها سمير الرفاعي. لم يكن في وسع السلطة أن تتحمّل الانتقادات التي كانت تصدر عن «الرأي»، وخصوصاً تلك التي كانت تستهدف غلوب باشا، القائد العام للجيش الأردني. وكان غلوب باشا لا يزال يقوم بدور الرجل القوي في البلاد، وكان ذلك يشكّل دليلاً على أنّ الأردنّ لم يكن يتمتّع باستقلال حقيقي.

ثمّ عُلّق صدور مجلّة «الرأي» مدّة شهر، قبل أن تتوالى الدعاوى المرفوعة بحقّها، وصولاً إلى منعها رسمياً من الصدور، بعد عنوان طالبت فيه الجيش بالعودة إلى الثكنات بدلاً من قمع المتظاهرين. كان ذلك نهاية شهر العسل بيننا وبين الحكومة الأردنية، ما اضطرّنا إلى نقل مجلّة «الرأي» إلى سوريا، حيث انتقلتُ للإقامة هناك، في حين بقي العديد من زملائي في عمّان لمتابعة عمل نضالي كان سرّياً في الغالب. وفي سوريا، تعرّفت إلى مجموعة من خيرة المثقّفين الفلسطينيين، منهم غسّان كنفاني وفضل وعصام النقيب وأحمد خليفة وبلال الحسن الذين حقق كل منهم مكانة مرموقة في مجال عمله.

ومنذ العام ١٩٥٤، انتهت الفسحة الديموقراطية في الأردن، ثمّ تدهورت الأوضاع بعد ذلك. لم تكن دعوات الملك حسين لمصلحة الديموقراطية غير ذرّ للرماد في العيون. والمؤكد أنّ حركة القوميين العرب والقوى الوطنية الأخرى قد أحرزتا انتصاراً عندما دفعتا الملك حسين إلى التخلّص من غلوب باشا، في آذار/

مارس ١٩٥٦، وتعريب الجيش لكنّ النظام الهاشمي عاد ونجح في إمالة الكفّة لمصلحته، مع تنامي شعبية الملك حسين. وفي العام ١٩٥٦، قمنا بعقد المؤتمر الأول لحركة القوميين العرب سرّاً في عمّان وحضره جورج حبش، وديع حداد، أحمد الخطيب، صالح شبل، حامد الجبوري، هاني الهندي، حكم دروزة، عدنان فرج، ثابت المهايني، مصطفى بيضون، محسن إبراهيم، وآخرون. وفي هذا المؤتمر أطلقنا اسم «حركة القوميين العرب» رسمياً على تنظيمنا حيث كان يُعرف قبل ذلك باسم الشباب القومي العربي، وجرى تعيين أعضاء القيادة الأربعة عشر، حيث جاءت توسعتها لتراعي مختلف المكوّنات الاجتماعية والثقافية في البلدان العربية.

ما هي القرارات الرئيسية التي اتّخذت في المؤتمر الأول لحركة القوميين العرب؟

مواصلة الكفاح المسلّح وتطبيق حقّ العودة لمئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين. وقد تجاوز عددهم اليوم الخمسة ملايين. وقد استعرضنا أيضاً وضع كلّ واحد من فروعنا في البلدان العربية. وكانت هذه الفروع ناشطة في لبنان والكويت والعراق والأردنّ. كنّا وقتئذ في بداية تأسيس فرعنا في مصر. وبعد ذلك، تنامت الحركة وأصبحت أكثر اتساعاً في بلدان منها ليبيا واليمن وعدد من بلدان الخليج.

ولمّا كان نضالنا المسلّح ضدّ إسرائيل قد انطلق بُعيد وصولي إلى عمّان، كان من الضروري جدّاً بالنسبة إلينا أن نستفيد من عبورنا إلى الضفّة الغربية لنهر الأردنّ لجعل ذلك النضال أشدّ زخماً. لذا استدعيت إلى عيادتنا صديقاً هو محمّد خليفة الذي كانت تربطه معرفة جيّدة بسكّان القرى الفلسطينية المحاذية لإسرائيل. وقد طلبت إليه أن يعرّفني ببعض هؤلاء، وتحديداً بأبو إسماعيل، مختار إحدى القرى القريبة من رام الله، ونمر، من نابلس، اللذين طلبنا إليهما أن يجنّدا مقاتلين للتسلّل وتنفيذ عمليات داخل إسرائيل.

كانت عملياتنا ضدّ الصهاينة بسيطة في البداية، لكنها بيّنت على الأقل أن بإمكاننا عمل شيء مهما كان بسيطاً. وبعد عدّة أشهر، أصبحت عمليات التسلّل أكثر صعوبة، لأنّ الجيش الأردني(٣) كان قد كثّف مراقبته للمناطق الحدودية. لذا أصبح تسلّل فدائيينا أكثر دقّة وتعقيداً بكثير. وقد أقنعنا ذلك بوجود تعاون أمني بين العدوّ والجيش الأردني بقيادة غلوب باشا، بهدف ضبط الحدود. كان ذلك تعاوناً مخجلاً عزّز يقيننا بأنّ تحرير فلسطين لا يمكن أن يتمّ إلاّ عبر تحرير الوطن العربي من التبعية. ولكي نعزّز وجودنا على الأرض، قرّرنا أيضاً، اعتباراً من العام ١٩٥٣، أن ينتقل وديع حدّاد إلى العمل في مستوصفات الأونروا (وكالة الأمم المتّحدة المكلّفة بشؤون اللاجئين الفلسطينيين) في أريحا وسائر الضفّة الغربية. ومنذ ذلك الحين، وسعنا نشاطنا إلى طولكرم ونابلس، إضافة إلى إربد، في الشمال الأردني.

من أين كانت تأتيكم الأسلحة في ذلك الوقت؟

كنّا نشتري أسلحة خفيفة من السوق السوداء وكانت رخيصة الثمن. وكنّا نستخدم مالنا الخاصّ، إذ كنا نخصّص قسماً هامّاً من أجورنا للحركة. كان الدكتور أحمد الخطيب مثلاً يعمل في الكويت ويتقاضى ١٠٠ دينار كويتي شهرياً، ويدفع منها ٩٠ ديناراً لحركة القوميين العرب. كنّا مخلصين بكلّ كياننا لقضيّتنا. كما كنّا نستفيد أيضاً من عائدات العيادة التي أقمناها في الحيّ الشعبي من المدينة والتي كانت تعمل بكلّ طاقتها.

في العام ١٩٥٦، غادرت دمشق وعدت إلى عمّان لكي تواصل القيام بأنشطتك السرّية. لماذا فعلت ذلك؟

عدت إلى الأردن تهريباً من سوريا بعد منتصف كانون الثاني/ يناير من عام

(٣) بين العام ١٩٤٨ وحرب الأيام الستّة عام ١٩٦٧، كانت الضفّة الغربية الحالية (أي الضفّة الغربية لنهر الأردنّ) تحت الحكم الأردني.

١٩٥٦ ساهم في عملية التهريب هذه صديقي ورفيقنا في ذلك الوقت فيصل الخضراء وتابعت عمل الحركة من مخبئي السرّي. ثم بعد أن أُبعد غلوب باشا عن الأردن في آذار/ مارس ١٩٥٦ أصبح من الممكن لي أن أشهر وجودي في عمان.

وقد استفدنا من هذا المناخ لترشيح أربعة من أعضاء الحركة (نزار جردانة وأحمد طوالبة وصلاح عنبتاوي وأنا) في أول انتخابات تشريعية. وكنّا نريد أن نتحقّق من تأثير نشاطنا على الأرض. لم أفز في الانتخابات، ولكنّني حصلت على ٣٠٠٠ صوت، هي أصوات اللاجئين الفلسطينيين وبعض المسيحيين الأردنيين. وكانت تلك النتيجة مشجّعة قِياساً على تنظيمنا الناشئ.

وكان النابلسي قد فسح في المجال للعمل السياسي، لكنّ هذه البارقة التحرّرية لم تلبث أن أقلقت الملك حسين وأصدقاءه الأميركيين. ولإبعاد خطر أيّ خلل في الاستقرار، شرّعت السلطات الأردنية العمل للإخوان المسلمين الذين وقفوا في وجه حركة القوميين العرب والبعثيين والشيوعيين. كان النظام ينظر إلى الشيوعيين على أنّهم الأكثر خطورة، غير أنّنا كنّا أيضاً هدفاً للاعتقالات التي كانت تجري في المخيّمات، والتي استهدفت بعض كوادرنا، ومنهم وديع حدّاد ونايا السلطي وخطيبها أسطفان. ولتجنّب التعرّض لاعتقالات جديدة، وضعنا بعض رفاقنا في مأمن بأن أرسلناهم إلى سوريا، وهم فايز قدورة وأحمد طوالبة ونايف حواتمة، تحديداً.

أما أنا، فكنت أختفي عن الأنظار وأواصل القيام بأنشطتي السرّية، انطلاقاً من الأردنّ، في ظروف بالغة الصعوبة.

خصوصاً أنّ العام ١٩٥٧ شهد محاولة من قِبل بعض المعارضين لإطاحة الملك حسين؟

ذلك ما يدّعيه النظام الأردني. من جهتي، لا أعتقد بأنّ محاولة انقلابية قد جرت ضدّ الملك حسين. فالسلطات استخدمت، بهدف قمع المعارضة، حجّة

تهديدات وُجّهت إليها، على حدّ قولها، من قِبل جماعات وصِفت بأنّها «تخريبية». يومها، كان عدد من البعثيين الأردنيين المنفيين إلى سوريا، وعدد من القوميين الفلسطينيين، قد شكّلوا، انطلاقاً من دمشق، جبهة وطنية كانت تنوي الانخراط في عمل عسكري ضدّ النظام الأردني.

وفي ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٥٧، فُرضت الأحكام العُرفية في عمّان واعتقل الكثير من رفاقنا منهم وديع حداد، حمدي مطر، صبحي غوشة، أمين الخطيب، نزار جردانة، علي منكو، منذر العنبتاوي، محمد ربيع وآخرون. وقد فوجئ رفاقنا بذلك، وأراد بعضهم وقف النشاط المعادي للنظام، في حين أراد البعض الآخر مواصلة توزيع البيانات المعادية، وحتّى البدء في ممارسة العنف. أمّا قيادة حركتنا فقد سادها التردّد. وبعد عدّة أسابيع، رأيت أنّ من الضروري لنا أن نتّخذ موقفاً، فقرّرنا الاستمرار في عملنا المعادي للنظام، رغم معارضة بعض الرفاق. لم نكن نريد الإطاحة بالملك حسين، بل كنّا ندعو إلى تغيير في الموقف السياسي للنظام.

كان الأردنّ يحاول على الدوام مسايرة المشاريع الأميركية المعادية لشعبنا، مع تأكيده الرسمي على دعم القضية الفلسطينية. هذا أمر يعرفه الجميع. لم يكن الأردنّ يساعدنا في تلك الفترة، وكنّا نريد العمل بشكل يؤدّي به إلى تليين مواقفه. كان الجوّ ملائماً لذلك. ثمّ جاءت الانتخابات، وكنّا نرغب في إقرار الديموقراطية، ولتحقيق ذلك كنا نسعى إلى الاستفادة من هامش المناورة الذي كان يتركه لنا النظام الأردني.

ما هو الشكل الذي كان يتمّ فيه تنظيم حياتكم في ظروف العمل السرّي، بين نيسان/ أبريل ١٩٥٧ وكانون الثاني/ يناير ١٩٥٩ في الأردن؟

كنت أتنقّل بين بيت وآخر، مشياً على الأقدام في أغلب الوقت. وكان يساعدني في ذلك شخصان يستطلعان لي الطريق. كنت أتنكّر على شكل عامل دهان «طراشة». وكان هنالك مخبآن أو ثلاثة للمبيت ليلاً. أحد البيوت التي كنت أختبئ فيها كان مكوّناً من غرفتين إحداهما لي والأخرى للزوجين اللذين كانا

يعيشان فيه مع ابنهما. وعند مجيء زوّار إلى المنزل، كان صاحباه يقولان بأنّهما قد أجّرا الغرفة الأخرى لإحدى الممرّضات وكان عليّ أن لا آتي بأية حركة أو صوت أثناء وجود زوار لديهم.

وفي إحدى الليالي، قُرع الباب. وعندما فتحه أصحاب المنزل، فهمت أنّ الشرطة قد جاءت لاعتقالي، خصوصاً أنّنا كنّا قد قمنا بتوزيع بيانات قبل عدّة أيام. قمت بالهروب بأن قفزت من الشرفة، وبدأت أتدحرج بين الأشواك حتى وصلت إلى مدرسة «راهبات الناصرة» في جبل الحسين، حيث اختبأت إلى حين إعلامي بأن رجال الشرطة قد انصرفوا.

كانت هنالك حلقة ضيّقة من الأصدقاء الذين كان بإمكانهم المجيء لرؤيتي. وفي إحدى المرات جاءت ابنة عمي هيلدا لزيارة أصحاب المنزل الذين كانت تربطها بهم علاقة صداقة وعندما لمحتها من بعيد عدت إلى غرفتي فوراً لكني استطعت متابعة الزيارة ورؤيتها من ثقب الباب. وفي تلك الفترة، كان صديقي رؤوف الحلبي، الذي استشهد في ما بعد في غارة جوّية إسرائيلية على مزرعته في غور الأردن استهدفته شخصياً بسبب نشاطاته المساندة للفدائيين، قد اقترح علي أن أتزوّج قائلاً «إنّ لك ابنة عمّ تجمع العلم إلى الجمال». وشيئاً فشيئاً بدأت أفكّر جدّياً في الزواج، ولكنّ ظروف العمل السرّي كانت لا تزال تمنعني من أن أربط مصيري بمصير هيلدا التي أصبحت زوجتي بعد سنوات. كنت، منذ التغيير الوزاري بعد سليمان النابلسي، قد أصبحت على رأس قائمة المطلوبين والملاحقين لدى السلطات الأردنية. لكنّ السلطات فشلت، خلال الأشهر العشرين تلك، في العثور على المخبأ الذي كنت أقوم فيه بتشكيل بنية تنظيمنا السرّي. لم يكن ليخطر على بال أحد أن مخبئي كان على بعد مئة متر من إحدى الثكنات العسكرية.

كنت تمارس العمل السرّي بين العام ١٩٥٧ والعام ١٩٥٩. أمّا وديع حدّاد، فكان في السجن. هل ضعفت حركة القوميين العرب أم استفادت من

«تأثير عبد الناصر» الذي كان على أشدّه في مصر، بعد تأميم قناة السويس، والإعلان عن قيام الجمهورية العربية المتّحدة بين مصر وسوريا، في العام ١٩٥٨؟

ضعفت الحركة في الأردنّ بفعل القمع الذي كنّا نتعرّض له على يد النظام، لكنّها ظلّت محتفظة بفاعليّتها في بلدان أخرى كالكويت ولبنان. ففي بيروت مثلاً، لعب محسن إبراهيم والمرحوم محمد الزيات ومصطفى بيضون ورفاق آخرون دوراً هامّاً في مواجهة القوى الإقطاعية المحلّية خلال الانتخابات اللبنانية التي جرت عام ١٩٥٨. أمّا في سوريا والعراق، فقد غدا تحرّك فرعينا المحلّيين صعباً بفعل وجود حزب البعث أو الشيوعيين. لكنّ الوحدة المصرية-السورية هي التي غيّرت الخارطة بشكل جذري خلال سنوات العمل السرّي تلك. كانت الوحدة أول عمل من نوعه بين بلدين عربيين. فقد أثارت ردود فعل شعبية هائلة في الوطن العربي، وهو الأمر الذي لمسته عام ١٩٥٩، في سوريا، خلال الاحتفالات بالذكرى السنوية الأولى لقيام الجمهورية العربية المتّحدة. كان عبد الناصر حاضراً هناك أمام طوفان بشري يغمره الاعتزاز وهو يستمع بكلّ جوارحه إلى خطبه اللاهبة. كان الناس الذين قدموا من لبنان أو دول عربية أخرى قد أمضوا الليل في الشوارع بانتظار ظهوره على شرفة القصر الرئاسي. كان عبد الناصر يجسّد، في أعين الناس، حلم الوحدة والانبعاث العربي الذي كان قد بدأ يتحقق. لم يعد الأمل بولادة دولة عربية واحدة مجرّد حلم. وكان الكثيرون يردّدون القول بأننا سنتمكّن قريباً من إزالة إسرائيل من الوجود.

أدّى إخفاق الجمهورية العربية المتّحدة إلى تجذّر حركة القوميين العرب، وإلى استقلالية أكبر لفروع الحركة في البلدان التي كانت موجودة فيها. ماذا فعلتم لاحتواء تلك التطوّرات؟

أدّى ذلك الإخفاق إلى تجذّر حركة القوميين العرب، وأحدث توتّرات داخلية كان لا بدّ من العمل على تقليصها. وخلال فترة عملي السرّي في عمّان، جاء

الرفيق مصطفى بيضون من دمشق وأبلغني أنّ البعض يعتقدون بضرورة حلّ حركة القوميين العرب بحجّة أنّ عبد الناصر هو وحده من يجسّد الفكرة القومية. فوجئت جدّاً بذلك، غير أنّني لم أتردّد طويلاً قبل أن أرفض هذا الاقتراح.

وإزاء الدسائس التي كانت تدبّر خِفية عنّي، سارعت في الذهاب إلى سوريا لكي أؤكّد لرفاقنا أنّ التجربة السورية-المصرية تعاني بالتأكيد بعض الأخطاء كافتقارها إلى الديمقراطية تحديداً. كان علينا أن نستمرّ في الوجود تحديداً من أجل تصويب المسار. وشرحت لهم بوضوح أنّ عبد الناصر يمثّل القيادة الرسمية للثورة العربية، لكنّ حركتنا، أي حركة القوميين العرب، يجب أن تبقى لتجسيد القيادة الشعبية لهذه الثورة.

ونظراً إلى شدّة الاهتزازات، مكثت مجدّداً بدمشق، عام ١٩٦٠، حيث لحق بي بعد عدّة أشهر، وديع حدّاد بعد الإفراج عنه من قِبل السلطات الأردنيية. وكان علينا أن نمسك بزمام الأمور داخل الحركة. كانت تُطرح في تلك الفترة قضايا نظرية وأيديولوجية كثيرة للنقاش وكنّا نعتبر، حتّى ذلك الوقت، أنّ كلّ يهودي هو صهيوني بطبيعته وأنّه، بالتالي، عدوّ تجب محاربته أينما وجد في العالم. لكنّنا غيّرنا نظرتنا تلك في العام ١٩٥٩، واعتمدنا تسوية مُفادها أن ليس كلّ يهودي صهيونياً، وإن كانت أكثرية من اليهود تساند إسرائيل. وقد شكّل ذلك تطوّراً هامّاً على مستوى نظرتنا إلى العدوّ.

هل كان ينبغي اعتماد العقيدة الاشتراكية قبل تحرير الأراضي المحتلّة، أم بعد استرجاع تلك الأراضي؟ هذه المسألة كانت أيضاً في صميم تساؤلاتنا في تلك الفترة. وقد قرّرنا أخيراً أنّنا لا نستطيع تطبيق الاشتراكية إلاّ بعد تحرير الأراضي الفلسطينية وتحقيق الوحدة العربية، غير أنّنا احتفظنا بالعقيدة الاشتراكية كمؤشّر مرجعي للمجتمع العربي.

كان شعارنا «وحدة، تحرّر، ثأر» يزعج البعض، خصوصاً مصطلحه الأخير الذي كان يظهرنا وكأنّنا حاقدون في الصميم، في حين أنّنا، قبل كلّ شيء،

مقاومون سياسيون. لذا قرّرنا استبدال كلمة «ثأر» بعبارة «استرجاع فلسطين»، التي توضح هدفنا الرئيسي بشكل أفضل. وبهذا، أصبح شعار حركة القوميين العرب: «وحدة، تحرّر، استرجاع فلسطين».

لكنّ بعض رفاقنا في لبنان طالبوا أيضاً بتحويل الحركة إلى حزب سياسي حقيقي. وقد عارضت ذلك شخصياً، لأنّ معركتنا في سبيل الوحدة العربية تتجاوز فعلاً الإطار الحزبي. ثمّ تمّ رفض هذا المطلب بنتيجة التصويت من قبل الأعضاء في القاعدة.

وقد كشفت هذه النقاشات الداخلية عن مشكلة أكثر عمقاً: كانت النواة المؤسّسة لحركة القوميين العرب تعتبر نفسها على الدوام بمثابة المرجع التاريخي، الأمر الذي كان أحياناً لا يروق للأعضاء الذين انضمّوا إلينا في ما بعد، في الأردنّ تحديداً.

وللردّ على هذه المشكلات، قرّرنا تعزيز قيادة حركة القوميين العرب عبر إقرار المبادئ التالية:

١- القيادة الجماعية؛

٢- قيادة قريبة من القاعدة «قيادة في صف الأعضاء»، كنّا لا نريد قيادة تقوم بعمل بيروقراطي، فلا ينبغي وجود حاجز بيننا وبين القاعدة.

٣- قيادة تستند إلى كفاءة أعضائها، وتكون منتخبة من قِبل القاعدة.

٤- المركزية المرِنة في العلاقة بين القاعدة والقيادة، بهدف تشجيع مبادرات الفروع المحلية.

٥- وأخيراً، ممارسة النقد والنقد الذاتي بعد إخفاق مبادرة ما.

٦- نفّذ ثم ناقش.

الفصل الثالث

عبد الناصر، ذلك البطل العربي

كيف بدأت علاقتكم، بوصفكم حركة القوميين العرب، بالرئيس جمال عبد الناصر؟

فكّرنا في إقامة علاقات مع عبد الناصر منذ العام ١٩٥٥، وذلك عن طريق عبد الحميد السرّاج، رئيس أجهزة الاستخبارات السورية. وفي العام التالي، أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس مما دفعنا، بالطبع، نحو المزيد من التقارب معه. وفي العام ١٩٥٨، جاءت إقامة الجمهورية العربية المتّحدة بين سوريا ومصر لتبعث آمالاً عظاماً عند حركة القوميين العرب. وفي تلك الفترة، كانت تربطني علاقات جيدة بسامي شرف، مدير مكتب الرئيس عبد الناصر، وكنا على تواصل دائم. وقد ساعدتنا الجمهورية العربية المتّحدة في سوريا في تنظيم عملنا، خصوصاً في مخيّم اليرموك حيث كان الناصريون يساندون الفلسطينيين. وكان الدكتور وديع حدّاد يكرّس الكثير من وقته للعمل التنظيمي، فيما كنت أوزع اهتمامي في تلك الفترة ما بين القضية الفلسطينية وتعزيز النضال القومي ضدّ المحتلّين البريطانيين في جنوب اليمن تحديداً.

وقد ساعدتنا علاقاتنا الجيدة مع عبد الحميد السرّاج الذي كان قد أصبح وزيراً للداخلية في الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتّحدة (أي سوريا)، في تنظيم تشكيلات عسكرية لفدائيينا في سوريا ولبنان. وأذكر كيف أُصبت خلال

إحدى حلقات التدريب على استخدام المتفجّرات بشظيّة في ذراعي وكاد يغمى عليّ من شدّة الألم.

لكن سرعان ما ظهرت صعوبات عدّة، ووجّهت انتقادات إلى الجمهورية العربية المتّحدة وقيادتها الناصرية التي كانت بصدد العمل على إلغاء الأحزاب. وكانت هذه الانتقادات تصدر عن الشيوعيين، وكذلك عن البعثيين الذين كانوا يدينون التضييق على الحرّيات. وقد ظهر عجز الاتحاد الاشتراكي العربي الذي أنشأه عبد الناصر، بهدف تنظيم الحياة السياسية، عن استقطاب الجماهير. كما أثارت التأميمات حقد الطبقات البورجوازية التي صمّمت على إفشال الوحدة المصرية-السورية في إطار الجمهورية العربية المتّحدة.

أما نحن فقد كنا منشدّين إلى تجربة الوحدة العربية غير المسبوقة، لكننا لم نكن نستطيع التكتّم على ما في هذه التجربة من ثغرات. وكان بعض رفاقنا يصرّون على أن نقول الأمور بصراحة لمسؤولي الجمهورية العربية المتّحدة. إلا أنني لم أكن شخصياً ممّن يصرّون على إعلان تحفّظاتنا بشكل مكشوف، وذلك حتى لا يختلط صوتنا بأصوات القوى الإمبريالية والإقطاعية والبورجوازية التي كانت تتمنّى إخفاق دولة الوحدة. وفي تلك الفترة، التقيت للمرّة الأولى المشير عبد الحكيم عامر، نائب الرئيس عبد الناصر، وذكّرته بضرورة حلّ المشكلات التي كانت تعيق مسيرة تعميق الوحدة بين مصر وسوريا.

وفي ما يتعلّق بالمسألة الفلسطينية، اكتفت الجمهورية العربية المتّحدة بإعلان معارضتها للمشروع الإسرائيلي الهادف إلى تحويل مياه نهر الأردن.

وأخيراً تمّ في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١ إعلان الانفصال بين سوريا ومصر، ليشكّل ذلك نهاية الجمهورية العربية المتّحدة؟

استيقظت في صبيحة ذلك اليوم في دمشق على البيان الذي أُعلن فيه الانفصال من الإذاعة السورية. وخلال توجّهي إلى مكتب حركة القوميين العرب توقّعت أن أرى الكثير من السوريين يتظاهرون استنكاراً لذلك الخبر. ولكنني لم

ألحظ، ويا للأسف، غير الشعور بالمفاجأة على وجوه الناس. وفي صبيحة اليوم ذاته، قمنا بتنظيم مظاهرة احتجاج لم يشارك فيها غير عدد قليل من الناس. وفي الواحدة بعد الظهر، بثّت الإذاعة بياناً جديداً أعلنت فيه أن هدف هذا الانفصال هو «تصحيح» التجربة الوحدوية، وأن الضباط الذين قادوا عملية الانفصال[1] سيتّصلون بعبد الناصر ليشرحوا له الأخطاء التي ارتكبها أنصاره. عندها خرجنا إلى الشارع للتعبير عن تمسّكنا بالوحدة العربية وبضرورة معالجة الأخطاء المرتكبة من قِبل الجمهورية العربية المتّحدة. وهنا أيضاً، لم يكن عدد المتظاهرين كبيراً. لم يؤدِّ الانفصال إلى أيّ تحرّك شعبي في سوريا. وكان ذلك درساً لنا: الناس لا يتحرّكون إلا عندما تتعرّض مصالحهم للتهديد. وقد ثبت ذلك بعد مدّة قصيرة عندما خرج العمال والفلاحون إلى الشارع احتجاجاً على إلغاء البرلمان الانفصالي للقرارات الاشتراكية المتّخذة في ظلّ الجمهورية العربية المتّحدة، وللمطالبة بضرورة إشراك الناس في الحياة السياسية إذا ما كانت هنالك إرادة لتجنّب إخفاقات جديدة على مستوى الوحدة العربية. ثم صدرت بيانات جديدة أكّدت أن الانفصال كان نهائياً. كنا نترقّب ردّ فعل عبد الناصر ونرغب في أن يدافع عن الوحدة، وهو من أطلق شُعلتها. كان هو صاحب الكلمة الأخيرة. وقد أعطى ظهور بعض الحشود العسكرية في ذلك الوقت الانطباع بأن عبد الناصر مستعدّ للسيطرة على الوضع بالقوّة، لكنه استبعد هذا الأمر بعد يومين عندما أكّد أنه من غير المسموح لجندي عربي أن يصوّب سلاحه إلى جندي عربي آخر. عندئذ فهمنا أن عبد الناصر مضطرّ إلى الرضوخ للأمر الواقع تجنُّباً للاقتتال بين الإخوة.

عندما اجتمع البرلمان السوري، بعد عدّة أشهر، لإلغاء القوانين الاشتراكية، نُظّمت تظاهرات احتجاج أمام مبنى البرلمان امتدّت إلى سوق الحميدية، وقد شاركنا بقوّة في تلك التظاهرات. وشاركت زوجتي هيلدا وكثيرات من التنظيم النسائي في الحركة في ذلك التجمّع الذي تمّ قمعه بعنف من قِبل القوى الأمنية

(١) أدّى انقلاب دبّره حيدر الكزبري، في ٢٩ أيلول/ سبتمبر، إلى نهاية الجمهورية العربية المتّحدة.

الانفصالية. وقد حدث الانفصال بعد شهرين من اقتراني بهيلدا، في تموز/يوليو ١٩٦١، في كنيسة الروم الأرثوذكس في دمشق، وقد نظّمنا احتفالاً بسيطاً في هذه المناسبة حضره عدد من أعضاء الحركة وبعض الأصدقاء والأقارب. كانت الجمهورية العربية المتّحدة قد شكّلت خطراً على القوى الإمبريالية في المنطقة وعلى الأنظمة الرجعية العربية. أما الإسرائيليون فقد ابتهجوا لإخفاق تلك الوحدة بين بلدين عربيين كبيرين ومجاورين لهم.

ما هي الدروس التي تستخلصها من ذلك الإخفاق؟

هي أن إقامة الديمقراطية أمر ضروري، ولكنّ ذلك يجب أن يتمّ بشكل منظّم. كانت الأحزاب محظورة في مصر وسوريا أيام الجمهورية العربية المتّحدة. وكان من الضروري لكي تنجح تلك الوحدة السماح بالتعدّدية الحزبية. لذا دعوت إلى تلك التعدّدية وأوضحت، على ضوء فشل الجمهورية العربية المتّحدة، أنه كان من الأنسب إقصاء القوى الانفصالية التي كانت تعارضها. كما كان من الضروري أن يُسمح بحرية العمل السياسي للجميع، باستثناء أولئك الذين كنت أصفهم، في تلك الفترة، بـ«الرجعيين»، أي الرأسماليين الذين كانوا يُبدون معارضة شرسة للوحدة العربية وللنظام الاشتراكي بسبب تضرّر مصالحهم الشخصية. كان غياب الديمقراطية هو الخطأ الأكثر فداحة في تلك التجربة. وقد قلت ذلك لعبد الناصر. كنت صريحاً جداً معه عندما قابلته في العام ١٩٦٤.

ما كانت نتائج إخفاق الجمهورية العربية المتّحدة من خلال انعكاساتها على كفاحكم؟

أدّى ذلك الإخفاق إلى إطلاق النقاشات الداخلية حول عدة مسائل. المسألة الأولى كانت تتعلّق بمضمون تلك الوحدة التي كنا متمسكين بإحيائها. هل كان ينبغي الرجوع إلى الجمهورية العربية المتّحدة وكأن شيئاً لم يكن، أم أن ذلك الرجوع كان من الضروري أن يقترن ببعض التصحيحات؟ وما هي المعايير التي

كان يجب أن تخضع لها تلك التصحيحات؟ وقد صوّتت أكثريّة أعضاء حركتنا لمصلحة إقامة الوحدة، ولكن من دون الوقوع في أخطاء الماضي من أجل تجنّب إخفاقات جديدة. وكان من الضروري لتلك الوحدة المبتغاة أن تكون مرتكزة على أُسس ديمقراطية متينة. لكن، وأقول صراحة، كان الاختلاف داخل صفوفنا يدور حول مفهوم تلك الديمقراطية بالذات. فالبعض كانوا يدافعون عن مفهوم ليبرالي، فيما كان البعض الآخر يعتقدون أن الحق في الممارسة الديمقراطية يجب أن يقتصر على الأحزاب والطبقات التقدّمية ذات المصلحة في الوحدة والاشتراكية. وكانت تلك وجهة نظري.

أما خارج حدود حركتنا، فقد خيّب الانفصال آمال الكثيرين من الفلسطينيين بالتوصّل إلى حلّ لقضيتهم الوطنية. وهنا، أسترجع ذكرى ذلك الشاب المناضل الذي التقيته في السجن، في سوريا، بعد فترة وجيزة من الانفصال. كان ينتمي إلى جبهة التحرير القومية، وهي منظّمة كانت قد رأت النور حديثاً. وخلال نقاشي معه شعرت إلى أيّ مدى كان عملي من أجل الوحدة العربية يبعدني عن العمل من أجل القضية الفلسطينية. ومع ذلك، لم يكن بإمكان حركة القوميين العرب أن تدير ظهرها للقضايا الإقليمية العربية.

خلال الأشهر التي أعقبت الانفصال، اتسعت حركتنا لأن مواقفنا كانت تلقى تجاوباً من قِبل الكثير من العمال وغيرهم من ضحايا القوانين الجديدة التي ألغت إيجابيات الجمهورية العربية المتّحدة. كانت حركة القوميين العرب قريبة جداً من الناس، وكانت تشاطرهم همومهم ومطالبهم الحياتية. وفي ما يتجاوز قواعدنا الطلابية، توسّعنا أيضاً داخل سوريا. غير أننا كنا نتعرّض للقمع. فقد أمضيت، في العام ١٩٦١، مباشرة بعد الانفصال عن مصر، فترة سجن أولى لمدّة شهرين في سجن المزّة في ضواحي دمشق، ودفعت بذلك ثمن مواقفي السياسية المؤيّدة للوحدة والمعادية للانفصال.

وبعد عام على ذلك، اعتُقلت وأُودعت سجن المزّة بدمشق. كانت التهمة الموجّهة إليّ هي قيادة تنظيم يطالب بالعودة إلى الجمهورية العربية المتّحدة.

كنت يومئذ قد خرجت من منزلي برفقة زوجتي حوالى منتصف الليل للاستفسار عن أوضاع بعض رفاقنا. وكانت قوى الأمن تضرب حصاراً وتعتقل جميع الأشخاص الذين يقصدون المقرّ الخاص بشباب الحركة. وقد اعتقلتُ لحظة صعودي لرؤية الرفاق في شقّتهم. كنت أمثّل بالنسبة إلى قوى الأمن صيداً ثميناً جداً. كانت زوجتي هيلدا حاملاً في شهرها التاسع، ومع هذا تصدّت بكل شجاعة لعملية اعتقالي. وقد طلبت إليها في تلك اللحظات الحرجة أن تعود إلى البيت فوراً وتقوم بإخفاء جميع الوثائق ذات الصلة بنشاطنا. وقد فعلت ذلك بمنتهى السرعة، مع أننا كنا في وقت متأخّر من الليل. وبعد أقلّ من ساعة، اقتادني رجال الأمن إلى المنزل حيث قاموا بتفتيش جميع الغرف. وعندما لم يعثروا على شيء شعرت بكثير من الاعتزاز لتمكّن هيلدا من إخفاء الوثائق بهذه السرعة، وأيقنت أن بإمكاني أن أعتمد على زوجتي في المهمّات الصعبة.

وقد تعرّفت وراء القضبان إلى بعض الرموز الوطنية السورية الناصرية. وهناك أيضاً رأيت ميساء، ابنتي البكر، لأول مرّة. حملتها هيلدا معها بعد أسبوعين من ولادتها خلال زيارة سمحت بها إدارة السجن. وكانت سعادتي كبيرة جداً عندما احتضنتها بين ذراعي، رغم حزني لعدم تمكّني من أن أكون إلى جانب زوجتي عندما أنجبتها، وذلك بسبب ظروف اعتقالي والأوضاع السياسية الصعبة.

بعد الإفراج عني، بقيت في سوريا لتنسيق نشاطنا في العراق والأردن وشبه الجزيرة العربية وليبيا. وقد صدرت في ليبيا أحكام عليّ وعلى وديع حدّاد، بعد أن اكتشفت السلطات الليبية خلايا لحركتنا كانت تعمل ضدّ النظام الرجعي الذي كان قائماً آنذاك في البلد.

في الثامن من آذار/مارس ١٩٦٣، تمّ وضع حدّ لحالة عدم الاستقرار التي كانت سائدة في سوريا منذ أواخر عهد الجمهورية العربية المتّحدة، وذلك مع انقلاب قاده ضباط بعثيون بدعم من الناصريين، وتمّ إسقاط النظام الرجعي الذي استلم السلطة بعد الانفصال. استقبلنا الخبر بشكل إيجابي، وأصبح هاني الهندي وزيراً للتخطيط، فيما عيّن جهاد ضاحية، وهو عضو آخر في حركة القوميين

العرب، وزيراً للمواصلات. وبذلك شكّلنا فريقاً مشاركاً في السلطة الجديدة، غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلاً. ففي ١٨ تموز/ يوليو، فشل انقلاب قامت به مجموعة من الضباط الناصريين على رأسهم الضابط السوري جاسم علوان، وشاركت فيه كتيبة من الفدائيين الفلسطينيين. ولدى فشل هذا الانقلاب، واجهت سوريا حمامات دم فعشنا على مستوى أمة وعلى مستوى شخصي أحلك لحظات حياتنا إذ انتصبت المشانق، وأُذيعت البيانات. عندها تعرّض أعضاء حركتنا للقمع وجرى اعتقال عدد منهم وأخضعوا للتعذيب منهم أسامة النقيب ورفعت سرحان وآخرون. وقد فوجئت بوصول بعض رفاقنا إلى بيروت دون علمي، ومن بينهم هاني الهندي وحكم دروزة. أما أنا فقد اتُّهمت بالمشاركة في الانقلاب. وكان اسمي من بين خمسين متهماً محكوماً عليهم بالإعدام.

الحقيقة أن الانقلاب لم يكن من تدبير حركة القوميين العرب. كنا أحياناً على علم ببعض المحاولات الانقلابية، لكننا كنا نجهل تفاصيل الانقلاب الأخير. أما الناصريون الذين كانوا داخل الجيش السوري فقد تحرّكوا لاقتناعهم بأنهم سيحظون بالدعم من قِبل السكان. وبهذا بدأت فترة جديدة من الاضطراب بالنسبة إليّ وإلى عائلتي، حيث كانت ابنتي لا تزال في عامها الأول.

وبعد ذلك الانقلاب في ٢٧ تموز/ يوليو ١٩٦٣ أصبحت سوريا تحت قيادة رئيس بعثي هو أمين الحافظ الذي كان واحداً من المعارضين الرئيسيين للوحدة مع مصر. وبذلك بات من المجازفة أن أستمرّ في القيام بأنشطتي النضالية بشكل علني. وهكذا، وجدت نفسي مضطراً إلى العودة، مرة أخرى، إلى العمل السرّي، واختبأت في شقة في المبنى نفسه الذي كانت تقيم فيه أسرتي، قدّمتها لي عائلة سورية ناصرية تعيش خارج سوريا، وكان عليّ أن أعطي الانطباع بأن الشقّة غير مسكونة. لم يكن بالإمكان إحداث أية ضجّة أو انبعاث أي ضوء. أما باب الشقة فكان ينبغي أن يظلّ مقفلاً، فكل زيارة إلى الشقة من شأنها أن تبعث على الارتياب. وكان على زوجتي في تلك الظروف الصعبة أن تؤمّن جميع احتياجاتي، وبالتحديد تأمين الاتصال بيني وبين الرفاق في الحركة. وكان المبنى محاصراً من

قِبل رجال الأمن والمراقبين ليلاً ونهاراً. وبالطبع، كانت زوجتي شديدة الحذر في جميع تنقّلاتها. كما كانت تساعدني وتأخذ على نفسها مهمّة السهر على حياتي التي كانت حياة مسؤول مطارد. ومع ذلك لم أشأ الهروب من سوريا، لأن موقعي كمسؤول على رأس حركة القوميين العرب سيؤثر سلباً عليها في حال ابتعادي ويهدّد بانهيار التنظيم. وكان شعوري العميق بالمسؤولية فوق كل اعتبار.

قبل ذلك ببضعة أشهر، أي في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٣، حدث انقلاب بعثي في العراق بعث فينا الأمل بأن تقوم مجدّداً وحدة عربية بين بغداد والقاهرة ودمشق. وكانت محادثات في هذا الشأن قد بدأت في القاهرة بين وفود من البلدان الثلاثة، وقد شاركنا في تلك المحادثات. وكان عبد الناصر يطرح على الوفدين العراقي والسوري أسئلة من نوع: «كيف تفهمون الاشتراكية؟ ما هو معنى الديمقراطية بالنسبة إليكم؟ ما الذي سيحصل إذ ما نجم بيننا خلاف في الآراء؟ من يمكنه أن يضمن لي عدم وقوع انقلاب جديد؟».

كان عبد الناصر متردّداً؛ لأن تجربة الوحدة مع سوريا كانت ماثلة في ذهنه على الدوام. ولسوء الحظ، لم تصل تلك المحادثات الثلاثية إلى نتيجة.

التحقتَ، بعد ذلك، برفاقك في بيروت لضبط الأمور في الحركة التي واجهتها هزّات جديدة بعد إخفاق الوحدة المصرية-السورية.

كان تجاوز التعقيدات أمراً متزايد الصعوبة. أولاً، على الصعيد الشخصي، فعندما بدأت ميساء تتعرّف إلى المكان الذي كنت أختبىء فيه وتصرخ قائلة: «بابا، بابا» أصبحنا نخاف من انكشاف أمرنا. كنت أتخذ بعض الاحتياطات، ومنها أنني طلبت إلى هيلدا أن تخرج كل يوم، حوالى الرابعة من بعد الظهر، لتتمشى في باحة المبنى الذي نقيم فيه ومعها ابنتنا ميساء في عربتها الصغيرة ليتسنّى لي أن أشاهدها وأنا في مخبئي من وراء النافذة. وفي أحد الأيام، أحاطت قوى الأمن بالمبنى، ولكنها، لحسن الحظ، لم تكن تبحث عني بل عن ضابط ناصري كان يسكن بجوارنا.

استمرّت حياة السرّية هذه حوالى عشرة أشهر، عزمنا بعدها على مغادرة دمشق والتوجّه إلى لبنان. وكانت رحلة شاقّة استمرت عشر ساعات سلكنا خلالها طريقاً جبلية مغطاة بالثلوج، لنصل بعدها إلى حيث كانت تنتظرنا متاعب أخرى. كانت ثمة مشكلات داخلية جديدة تهدّد استقرار الحركة، فقد التفّ بعض الرفاق حول محسن إبراهيم وأتباعه وكانوا يسعون إلى دمج حركة القوميين العرب بالاتحاد الاشتراكي الناصري، وكنا نرفض هذا الأمر رفضاً مطلقاً حفاظاً على استقلالية الحركة.

كان اجتماعنا الأول صاخباً بعد عودتي إلى بيروت. وقد حضر ذلك الاجتماع معظم الرفاق العاملين في فروع الحركة في الخارج. عرضت أنا وجهة نظري، كما عرض محسن إبراهيم وجهة نظره. ولم تقتصر خلافاتنا على الأفكار الليبرالية التي كان محسن وجماعته يطرحونها في مجلة الحرية. لقد اختلفنا أيضاً حول الكفاح المسلح، الذي أعتقد بأن لا بديل عنه من أجل حل القضية الفلسطينية، فيما كان محسن وأنصاره يبدون نوعاً من الاعتدال في هذا المجال.

لكنّ نقطة الخلاف الأساسية كانت تدور حول العلاقة مع الرئيس عبد الناصر. فمنذ العام ١٩٥٨، وإقامة الوحدة بين مصر وسوريا، كان المعترضون قد اعتبروا أن حركة القوميين العرب لم يعد وجودها ضرورياً، وطالبوا بحلّ الحركة وانضمام أعضائها إلى الاتحاد الاشتراكي. أما نحن فكنا نقول، على العكس من ذلك، إن إخفاق الجمهورية العربية المتحدة يتطلّب منا العمل على تصحيح الأخطاء التي وقعت فيها، من أجل مواصلة السير نحو الوحدة العربية، وذلك عن طريق المحافظة على الحركة.

بالنسبة إليّ، كان ينبغي للوحدة العربية أن تكون مستندة إلى الشعوب؛ لكن القيادة الناصرية لم تكن تقوم بتنظيم تلك الوحدة على المستوى الشعبي لأنها لم تأخذ في الاعتبار خصوصية كل من القطرين المصري والسوري؛ وإذا كان عبد الناصر يمثّل القيادة الرسمية، وهو الأمر الذي لم نكن نعترض عليه، فإن حركة القوميين العرب كان ينبغي لها أن تستمرّ لكي تجسّد التحرّك الشعبي نحو تلك

الوحدة. لذا، شدّدت على تبيان الثغرات التي اكتنفت التجربة الناصرية مع التأكيد على أن هذه التجربة تشكّل التيار الرئيسي للقومية العربية، وأننا نشكّل من جهتنا واحداً من مكوّناتها.

كنت أسعى إلى حلّ هذا الخلاف الخطير وإلى الحفاظ، في الوقت نفسه، على وحدة الحركة. وكان بعض الرفاق المتشدّدين في توجيه النقد إلى محسن إبراهيم ونايف حواتمة يأسفون لأنني لم أُظهر ما يكفي من الحزم في وجه المعترضين. غير أنني كنت ما أزال أعتقد بأن التوفيق ما زال ممكناً بين قُطبي حركتنا. كان المعترضون يشكّلون أقلّية بيننا، وقد مثّل ذلك الشرارة الأولى للانشقاق الذي حدث في ما بعد.

وفي هذا المجال، كان فرع الحركة في اليمن يعمّق الهوّة بين التيارين. فقد اعتبر محسن إبراهيم أن فرع حركة القوميين العرب هناك كان هامشياً وفضّل، مع جماعته، دعم الحزب الذي كان يقوده عبد الله الأصنج في اليمن الجنوبي. وقد فوجئت بذلك التحليل واعتبرته خطيراً. وقد تحدّثت الصحافة عن انشقاق داخل حركة القوميين العرب مما جعل المشكلة أكثر تعقيداً، لأن محسن وأصدقاءه يزعمون أن الحركة منقسمة بين اليمين (أي مؤسّسيها) واليسار المتمثّل بهم. ولكننا كنا، نحن المؤسّسين، من يجسّد اليسار في الحقيقة، في حين أن مجموعة محسن كانت تمثّل اليسار الانتهازي. ولما لم نتمكّن من التوصّل إلى اتفاق رأينا أن من الضروري عقد مؤتمر لحركة القوميين العرب لحسم هذه الخلافات. غير أن بعض الرفاق اليمنيين جاءوا، بعد ذلك بقليل، ليقولوا لنا إن الوقت قد حان لإطلاق الكفاح المسلّح ضدّ القوات البريطانية. ومن أجل ذلك اقترحوا تشكيل جبهة وطنية لتحرير اليمن الجنوبي. لكنّ مبادرتهم لإطلاق المقاومة اصطدمت، عندنا، بتحفّظات أنصار محسن إبراهيم، الأمر الذي لم يكن من شأنه إلا أن يعزّز الاختلاف في وجهات النظر بيننا. وفي هذه الظروف، قرّرنا بناءً على طلب قدّمه عدد من الرفاق أن نعرض تلك الفكرة على عبد الناصر الذي كان قد أرسل جيشاً إلى القسم الشمالي من اليمن.

إذن، كان ذلك لقاءك الأول بعبد الناصر؟

كان لقائي الأول به خلال عطلة أمضيتها مع زوجتي في القاهرة. ذهبنا إلى مصر بدعوة من الرئيس عبد الناصر، بمناسبة بناء السدّ العالي في أسوان عام ١٩٦٤. وبعد لحظات من وصولنا إلى فندق هيلتون في القاهرة، اتصل بي الأستاذ سامي شرف مدير مكتب عبد الناصر وقال لي إن الرئيس يريد أن يلتقي بي. وهكذا ذهبت إلى مقرّ إقامة الرئيس في منشيّة البكري، وعندما فُتح الباب كان يتمشّى في الحديقة مع زوجته. وقد استقبلني بكثير من العفوية والبساطة، فشعرت وكأنني في حضرة صديق أعرفه منذ سنوات طويلة، وأعجبت بلباقته ودماثته وتواضعه.

سألني: «ما هي الأخبار في سوريا؟».

أجبته بأن الناس هناك يكنون له الكثير من المحبة والتقدير، ورويت له بعض الأحداث التي تشهد على ذلك، فبدا عليه التأثّر. ثم عرضنا موضوع الوحدة في إطار الجمهورية العربية المتحدة، فصارحته بوجهة نظري القائلة بأن غياب الديمقراطية كان من أهم أسباب إخفاق الوحدة.

وأسرّ إليّ عبد الناصر بأنه فكّر في إرسال قوة عسكرية إلى سوريا، خلال اللحظات الأولى من الانفصال، ولكنه عدل عن ذلك تجنّباً لوقوع مواجهة بين جيشين عربيين. وأضاف قائلاً: «قبلت بالأمر الواقع. الوحدة العربية يجب ألاّ تُفرض بالقوة، بل بإرادة الناس».

بعدها تحدثت عن الوضع في اليمن، في أعقاب ثورة ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٦٣، في القسم الشمالي من البلاد، وما رافق ذلك من إرسال القوات المصرية لحماية الجمهورية اليمنية. فهذه الثورة كانت قد أدّت إلى ردّ فعل في الجنوب الذي كان ما يزال خاضعاً للاحتلال البريطاني، لكن نجاح المقاومة المسلحة لهذا الاحتلال كان يستلزم دعم مصر والقوى التقدمية الأخرى.

كما تحدّثت عن الحسابات الخاطئة لرفاقي الذين كانوا يساندون حزب الشعب الاشتراكي وقائده عبد الله الأصنج. وقلت لعبد الناصر: «نحن نريد

تحرير جنوب اليمن بكامله». أجابني بأنه من المفيد تهديد الجيش البريطاني الذي كان يساند القوات الملكية في اليمن الشمالي. لكنني لم أشعر بأن الرئيس كان موافقاً تماماً على هذا الموضوع. وكان يبدو حذراً عندما أجابني بقوله: «سوف نبدأ، وسنرى كيف سيتطوّر الوضع بعد ذلك».

ثم تطرّقت إلى المسألة الفلسطينية وأخبرته بأن فرعاً فلسطينياً لحركة القوميين العرب قد رأى النور، منذ بعض الوقت، وأنه قد بدأ بتنفيذ عمليات تسلّل عبر الجليل، في شمال فلسطين المحتلّة. وقلت له: «لماذا لا نعتبر ذلك الفرع بمثابة رأس الحربة في النضال المسلّح ضدّ إسرائيل، عبر تزويده بالإمكانات؟». كان يبدو لي من المناسب أن ننشئ إطاراً سياسياً وعسكرياً بهدف دفع الأمور إلى الأمام في المواجهة مع إسرائيل.

أجابني عبد الناصر: «أنا أشعر جيداً بحساسية المسألة الفلسطينية. إنها مسألة معقّدة جداً، وأكثر تعقيداً مما نتصوّر». ثم أضاف قائلاً: «إن مواجهة إسرائيل تعني الدخول في صدام مع الولايات المتّحدة فالأمر مختلف تماماً عمّا يعنيه تدخّلنا في اليمن أو الجزائر». يومها، لم يكن عبد الناصر قد حدّد موقفه بعد من النضال المسلّح. وعلى الرغم مما أبداه من حذر تجاه مبادراتنا، فقد اتفقنا على أن يأتي خمسون فدائياً كل سنة إلى مصر للحصول على تدريب عسكري. وبعدها قدّمت مصر منحاً دراسية لطلاب من حركتنا ولكنها لم تقدّم إلينا أي تمويل. وأخيراً أمدّتنا مصر بأسلحة خفيفة نُقلت إلى لبنان ليتمّ إدخالها سرّاً إلى فلسطين حيث يحتاج إليها رفاقنا.

وبِمَ أجبته بخصوص رأيه حول الفرق بين الكفاح المسلّح في فلسطين واليمن والجزائر؟

كان من الطبيعي ألاّ أكتفي منه بذلك التفسير. وقد أبدى كلّ منا وجهة نظره في صوابية أو عدم صوابية التسلل إلى إسرائيل، ثم اجتمع رأينا على تأجيل البحث في هذه المسألة الخلافية بيننا.

أمضيت أربع أو خمس ساعات مع الرئيس عبد الناصر. وعندما هممت بالمغادرة، استبقاني للعشاء، وكان عشاء بسيطاً وبلا تكلّف. فقد كان يعتبرني صديقاً مقرّباً. وما زلت أذكر كيف بيّن لي كيفية تقطيع ثمرة المانغا على الطريقة المصرية التي لم أعرفها من قبل. كنت شديد الإعجاب بذلك الرجل العظيم، الذي لا نظير له والمحاط بهالة غير عادية. كان يجمع بين القوة والبساطة والنزاهة وطهارة النفس، وتلك هي الصفات التي ميّزت ذلك الرمز الوطني. وبمرور الوقت، توثّقت علاقتنا وأصبحت حميمة جدّاً. وقد دعاني الرئيس عبد الناصر في ما بعد في العام ١٩٦٦ لحضور حفل زفاف كريمته وكانت هناك السيدة أم كلثوم والمطرب عبد الحليم حافظ من بين المدعوين.

ثم قام السيد سامي شرف بتنظيم زيارة إلى السدّ العالي في أسوان أحد أهم إنجازات عبد الناصر وذلك قبل تحويل مجرى النيل، وقد رافقتني زوجتي في تلك الزيارة، وكان معنا غسّان كنفاني ووفود عديدة. وأتذكّر نزهة قمنا بها، قبل تحويل مجرى النيل، داخل أنفاق واسعة. كان ذلك المشروع الضخم قد نُفّذ بمساعدة من خبراء سوفيات. وقد أسرني منظر النيل الساحر ومدينة أسوان الوادعة. وطوال فترة رحلتنا في القطار، كان منظر الريف المصري ساحراً، لا ينسى أبداً.

ألا تعتقد بأن حركتكم كان يمكنها، من حيث هي حركة منافسة، أن تزعج عبد الناصر؟

لم يكن الأمر بهذا الشكل، في تلك الفترة. فقد جاء لقائي الثاني به بعد شهرين أو ثلاثة من لقائنا الأول. كان بصحبتي كل من محسن إبراهيم وهاني الهندي. وكان رفاقنا اليمنيون الجنوبيون قد عادوا ليخبرونا بأن النضال المسلّح قد بدأ بالامتداد إلى مناطق أخرى. كانوا يرغبون في أن تنتقل العدوى الثورية إلى جميع أنحاء اليمن الجنوبي، لكن ذلك كان يتطلّب المزيد من القوات المصرية على الأرض.

وكانت بعض خلايا حركة القوميين العرب موجودة أيضاً في ظُفار، في

سلطنة عُمان، حيث كان هناك نظام قمعي أشبه بأنظمة القرون الوسطى. كيف كان يمكن للناس أن يتحمّلوا مثل ذلك النير دون أن يثوروا؟ ذلك ما كنا نقوله لرفاقنا وهم يتحدّثون إلينا عن ظروف معيشة السكان في عُمان. وكان المسؤول عن حركتنا في عُمان يرى ضرورة إطلاق النضال المسلّح في السلطنة.

كانت اليمن وعُمان هما الموضوعين اللذين كنا نرغب في مناقشتهما مع عبد الناصر. وقد أبدى تأييده لتصاعد النضال المسلّح الذي اقترحناه عليه بالنسبة إلى اليمن الجنوبي. لقد فعل عبد الناصر ما كان ينبغي فعله في هذا المجال، وقدّم لنا دعماً سياسياً ونفسياً وإعلامياً. قدّم لنا أيضاً أسلحة لتحقيق أهدافنا. لكنه كان يريد في المقابل، وقبل أن يتّخذ قراراً بشأن ظُفار، أن يناقش الأمر مع القيادة المصرية، أي مع نائب الرئيس، المشير عبد الحكيم عامر، وعلي صبري وزكريا محيي الدين. لم يكن عبد الناصر متحمّساً جداً. وطلب إلينا أن نتحدّث في الموضوع مع رفاقه في القيادة. والواقع أن زكريا محيي الدين هو الوحيد الذي جاء لمناقشة الموضوع معنا. وقد أثار غياب القياديين الآخرين شكوكنا في حقيقة الموقف الرسمي في مصر من أهدافنا. وعندما اجتمعنا بالسيد زكريا محيي الدين، طرح علينا الكثير من الأسئلة. كان يريد أن يتأكّد من أننا لا نحاول استخدام عبد الناصر كأداة، في وقت كان يسعى فيه بأي ثمن إلى تجنّب تكرار الإخفاق الذي لحق بالجمهورية العربية المتّحدة. وباختصار، قالوا لنا، عند انتهاء إقامتنا في القاهرة، إن دراسة مشروعنا سوف تستمرّ. ثم غادرنا مع الإحساس بأن القادة المصريين، باستثناء عبد الناصر، كانوا يتساءلون عن مدى جدّية مشاريعنا بخصوص عُمان، وأيضاً في ما يختصّ باليمن دون شك. وبالرغم من ذلك، كنا حريصين على أن نحافظ على علاقاتنا الجيدة مع الرئيس عبد الناصر.

ما هي الأسباب التي جعلت علاقاتكم المميّزة مع عبد الناصر تمرّ، في ما بعد، بفترات من البرود؟

توتّرت علاقاتنا مع عبد الناصر عندما قامت أجهزة الأمن المصرية، بتاريخ

١٣ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٦، بحملة لزعزعة رفاقنا في الجبهة القومية في اليمن الجنوبي. وعندما سمعت من الـ بي. بي. سي خبر إدماج الجبهة القومية في إطار جبهة التحرير بقيادة عبد الله الأصنج، وقع عليّ الخبر وقوع الصاعقة. وعلى ذلك، قرّرت، مع عدد من الرفاق الأعضاء في الحركة، أن نذهب إلى القاهرة لطلب إيضاحات حول هذا الحدث المفاجئ.

والواقع أن النظام المصري كان قد أقام اتصالات في عدن مع القوى التي كانت قد بدأت النضال ضدّ المحتلّين البريطانيين. كانوا يسعون إلى توحيد تلك الجماعات. ولم نكن نعارض ذلك، ولكن كان ينبغي التمييز، في نظرنا، بين من أطلق الثورة، أي الجبهة القومية، والانتهازيين الذين كانوا يريدون اللحاق بالقطار.

وما إن وصلنا إلى القاهرة حتى أبلغنا مدير مكتب عبد الناصر برغبتنا في مقابلة الرئيس. لكن لم يكن بإمكاننا هذه المرة إلا أن نلاحظ الاستياء الذي كان ظاهراً على وجهه، خصوصاً أننا كنا قد علمنا بأن الاستخبارات المصرية كانت تمنع رفاقنا اليمنيين في الحركة الموجودين في القاهرة، ومنهم قحطان وفيصل الشعبي وآخرون، من العودة إلى بلدهم. وعلى ذلك طلبنا منه إيضاحات حول أسباب إدماج جبهتنا في جبهة التحرير. وأجابنا عبد الناصر أن عزّت سليمان، رئيس أجهزة الاستخبارات المصرية، قد أكّد له أن رفاقنا في اليمن كانوا موافقين على ذلك الاندماج. وقد فوجئ عبد الناصر لاستيائنا، واقترح علينا أن نلتقي عزّت سليمان، أو أن نذهب بأنفسنا إلى اليمن للبحث عن حلّ لأزمة الثقة تلك.

ذكر لنا عزّت سليمان أسماء ثلاثة رفاق وافقوا، بزعمه، على اندماج الجبهتين. لم يكن أولئك الرفاق من الأعضاء البارزين، ولا يشكّلون العمود الفقري للجبهة القومية التي لم يكن قائداها فيصل الشعبي وقحطان الشعبي قد استشيرا في الأمر. وقد بدا واضحاً، منذ تلك اللحظة، أن ذلك الاندماج كان من صنع المخابرات المصرية. ثم تأكّدنا، منذ وصولنا إلى صنعاء، أن المسألة كانت بالفعل عبارة عن انقلاب مقنّع. كان رفاقنا الشباب في الجبهة القومية، أمثال

صالح مصلح، غاضبين جدّاً ويريدون أن يردّوا على المخابرات المصرية، واقترحوا جملة أشكال للردّ. وكان من هؤلاء علي ناصر، وعلي سالم البيض، وعلي عنتر. أما الرفاق المتمرّدون فقد اختفوا عن الأنظار. لكننا تمكّنا، مع ذلك، من مساءلتهم. تحدّثوا عن الوحدة الضرورية، ولكنّهم تحفظوا على الطريقة التي استخدموها، خارج أي تشاور، في استلامهم لقيادة الثورة. وفي هذه الأثناء، كانت المخابرات المصرية تفتعل في شوارع صنعاء تظاهرات ضدّ جورج حبش والوفد المرافق...

كان التلاعب واضح المعالم. وعند عودتنا إلى الفندق أعربنا عن استنكارنا لتدخّل أجهزة المخابرات المصرية التي كانت بصدد تقويض التجربة الناصرية في اليمن. وكان ذلك وجهاً من أوجه التناقضات في النظام الناصري: فمن جهة هناك رصيده الشعبي، ومن جهة أخرى هناك البيروقراطية التي تعارض الإصلاحات. وفي تلك اللحظة أدركنا صعوبة التنسيق بين العمل الشعبي والأجهزة الأمنية.

وفي صنعاء، كان يراودنا الشك في أنهم يتنصّتون على أحاديثنا. وقد تأكّدنا من ذلك عندما أخبرنا عبد الناصر بأنه كان على علم بالمواقف التي كنا قد قرّرنا اعتمادها بالنسبة إلى اليمن. ولكن، ما العمل؟ كان من الصعب علينا أن نركّز على المؤامرة التي دبّرتها أجهزة مخابراته. كان وضعنا معقّداً. وكنا نعرف طبيعة المخابرات وأهمّيتها في اتخاذ القرار. لم نكن ساذجين.

اقترح فرعنا في اليمن الجنوبي محاصرة خصومه المدعومين من قِبل مصر، ولكنّ مثل هذه العملية كان من شأنها أن تؤدّي إلى قطيعة نهائية بين الجبهة القومية وجبهة التحرير القومية. وأخيراً، اجتمعنا برفاقنا قبل مغادرتنا صنعاء ورضخنا، بناء على رأي الأكثرية، للأمر الواقع، وإن كان العديد من أصدقائنا غير مرتاحين لهذا القرار.

وبما أن الاندماج بين الجبهة القومية وجبهة التحرير قد أصبح أمراً واقعاً، كان من شأن معارضته أن تؤدّي إلى صدام وحتى إلى قطيعة مع عبد الناصر، كما

سبق أن حدث مع حزب البعث في سوريا. إلا أن القطيعة مع عبد الناصر لم تكن واردة لدينا.

وعند عودتنا إلى القاهرة، أخبرنا عبد الناصر بأننا لم نعد معترضين على هذا الاندماج، ولكننا كنا نفضّل أن يتمّ بطريقة ديمقراطية تأخذ في الاعتبار الجبهة القومية بشكل أفضل. ثم بقي الوضع على حاله حتى لحظة إحياء الذكرى السنوية لاحتلال عدن. وقد استفاد رفاقنا في الجبهة القومية من المناسبة ونشروا بياناً دعوا فيه اليمنيين إلى إعلان الإضراب. وردّت جبهة التحرير بدعوة السكان إلى عدم الاستجابة لذلك. ومع هذا، لاقى الإضراب نجاحاً حقيقياً، الأمر الذي غيّر المعطيات على أرض الواقع. ثم عاد توازن القوى ليميل مجدّداً، في اليمن الجنوبي، لمصلحة الجبهة القومية، مما دفع رئيسها، فيصل الشعبي، إلى الذهاب سرّاً إلى عدن، وهو الأمر الذي فوجئت به الأجهزة المصرية. عندها أدرك عبد الناصر أن من الضروري أخذ هذه التغيّرات في الاعتبار. وعندما رأيته، بعد ذلك، أسرّ إليّ قائلاً: «لم أكن أعرف أن لرفاقك كل هذا التأثير».

ثم عادت العلاقات إلى طبيعتها بين عبد الناصر وبيننا وذلك حتى لحظة استقلال اليمن الجنوبي، عام ١٩٦٧ . وكان أول رئيس لجمهورية اليمن الجنوبي الشعبية هو قحطان الشعبي وليس عبد الله الأصنج الذي كان قد حظي بدعم الأجهزة الأمنية المصرية.

وبعد الاستقلال، اتهمنا بعض رفاقنا في اليمن بأننا تخلّينا عنهم لنحافظ على علاقاتنا بعبد الناصر. وقد أثبت كل هذا التوتّر أمراً واحداً، على الأقل، وهو أننا نجحنا في اليمن، خلافاً لما حدث لنا في سوريا، في أن نميّز بين علاقاتنا بعبد الناصر من جهة وتلاعب أجهزة مخابراته من جهة أخرى.

ولكنّ ذلك لم يكن آخر المتاعب مع القيادة المصرية، أليس كذلك؟

في أواخر العام ١٩٦٦ ، وبداية العام ١٩٦٧ ، اضطربت علاقاتنا مجدّداً مع عبد الناصر بسبب فرعنا في مصر الذي كان ما يزال مقتصراً على الدائرة الطلابية.

وكان بعض الشباب، ومنهم حكم دروَزة وغسّان برازي ورمزي دلّول وسائدة الحسيني وسمير حدّاد قد التجأوا إلى القاهرة قبل سنوات، بعد أن طردوا من الجامعة الأميركية في بيروت، خلال فترة حلف بغداد، في وقت كانت تضطلع فيه مصر بدور قيادة المعارضة إزاء ذلك المشروع الاستعماري. وكانت الجامعة الأميركية في بيروت قد عمدت إلى حلّ «العروة الوثقى» بعد طرد رفاقنا. لكنّ فرعنا لم يكن قد توسّع إلا بشكل محدود جداً خارج الجامعات المصرية. وكنا نتساءل يومها عما يمكن أن يكون عليه مصير هذا الفرع. وهكذا، شجّعنا رفاقنا المصريين على حلّ منظّمتهم والالتحاق بالاتحاد الاشتراكي الناصري بهدف إثراء تلك التجربة.

إلا أنني تلقّيت، ذات يوم، طلباً عاجلاً من السفارة المصرية في بيروت مفاده أن الرئيس عبد الناصر يريد أن يرى جورج حبش، وهاني الهندي، ومحسن إبراهيم، بأسرع وقت ممكن، وذلك لحسم أمر هام. فذهبنا إلى القاهرة، وفوجئنا كثيراً هذه المرة عندما وجدنا أن علينا أن ننتظر مدّة أربعة أيام، في فندق هيلتون، قبل أن نقابل الرئيس عبد الناصر، وذلك خلافاً لزياراتنا السابقة حيث كانت اللقاءات تتمّ مباشرة بعد وصولنا. كان اللقاء فاتراً، وطغت عليه الشكليات. ولم يكن ذلك مألوفاً. ما الذي يجري إذن؟

قال لنا عبد الناصر: «رفاقكم المصريون يثيرون المشاكل داخل الاتحاد الاشتراكي الذي انضمّوا إليه بناء على طلبكم. تلقّينا معلومات بهذا المعنى. نحن نخشى أن يثيروا توتّرات داخلية، ونحن نشتبه فيكم من حيث التأثير عليهم. لذا أردنا أن نصفّي القلوب، ولهذا السبب جعلناكم تنتظرون أربعة أيام». ثم تابع عبد الناصر قائلاً: «كنا نريد أن نتأكّد من سلوككم خلال الأيام الأربعة التي أمضيتموها في القاهرة».

مرة أخرى، كان الأمر مدبّراً من قبل أجهزة المخابرات المصرية. اكتشفنا ذلك عندما سألنا أحد رفاقنا فأخبرنا كيف أن المخابرات انتزعت منه بعض الاعترافات بهذا المعنى. وقد أُخطر عبد الناصر بذلك، فطلب إلى بعض

المقرّبين إليه أن يقوم بإجراء تحقيق، ولكن التحقيق لم يصل إلى أية نتائج.

حدثت توتّرات أخرى بيننا وبين عبد الناصر، في العام ١٩٧٠، عندما أعطى موافقته على مشروع روجرز الأميركي لتسوية أزمة الشرق الأوسط، (انظر الفصل القادم)، إلاّ أننا كنا واضحين معه على الدوام: كان عبد الناصر، بحضوره وبخطّه السياسي، يقود دولة ثورية ولم يكن بوسعنا إلا أن نكون واحداً من تشكيلات هذه الحركة. ولا شك في أن هذا هو السبب في استمرار ثقته بي، رغم ما كان بيننا من عناصر سوء التفاهم.

ومن خلال جميع لقاءاتي مع الرئيس عبد الناصر، احتفظت له في ذاكرتي بصورة الرجل الصادق الذي يعني دائماً ما يقول، والرجل الأمين جداً لثوابته القومية والوطنية. كان يشيع الانطباع بأنه شخص من طراز نادر الوجود. لقد شكّلت هزيمة العام ١٩٦٧ ضربة قاسية لعبد الناصر. ومع ذلك، فإن تلك المحنة المؤلمة قد عزّزت الفكرة التي كوّنتها عنه، وأكّدت أنه قائد صلب الإرادة يرفض التراجع حتى اللحظة الأخيرة، خاصة عندما يكون الأمر متعلّقاً بالقضايا القومية والمصيرية.

الفصل الرابع

الخلافات الفلسطينية الداخلية
وتأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

كانت الأفضلية إذن، بين العام ١٩٤٨ والعام ١٩٥٨، للعمل الفلسطيني البحت. ثم حدث الانصهار، في المدّ الناصري، بين العام ١٩٥٨ والعام ١٩٦٧. وبعد هزيمة حرب الأيام الستة، عدتم إلى تركيز عملكم على النضال الفلسطيني. لماذا؟

منذ العام ١٩٦٠، وتحديداً بعد فشل الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ وحال الاضطراب الذي عاشته حركتنا في ذلك الحين، ركّزت في الواقع قسماً كبيراً من نشاطي على القضية الفلسطينية. وقمنا، رفاقي وأنا، بحشد عدد من المفكرين والمؤرخين الفلسطينيين من أمثال وليد الخالدي وبرهان الدجاني وآخرين من الذين قدّموا لنا أبحاثاً حول بعض المواضيع الحسّاسة التي كانت تشكّل محور اهتماماتنا في تلك الفترة، كموضوع القنبلة الذرّية الإسرائيلية. وشرحوا لنا، من وجهة نظرهم، أسباب هزيمة العام ١٩٤٨، وركّزوا تحديداً على جوانبها العسكرية. كما ذكروا لنا أرقاماً كنا نجهلها حول عدد أفراد عصابات الهاغانا والعصابات الصهيونية الأخرى. وقد رسّخت تلك المعلومات قناعتنا بضرورة تعزيز العمل العسكري ضد إسرائيل على مستويين رئيسيين: إعداد مقاتلينا وتدريبهم، وامتلاك المعلومات الاستخبارية. وفي العام ١٩٦٤، تم تنفيذ أول عملية في الجليل قامت بها مجموعة من مقاتلينا على رأسهم خالد أبو عيشة وهو أول شهيد في حركة القوميين العرب.

كنا نسعى أيضاً إلى تحديد موقعنا بوضوح إزاء منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت قد أنشئت في القدس، عام ١٩٦٤، بقيادة أحمد الشقيري. في البداية، لم تنخرط حركة القوميين العرب في منظمة التحرير لأن هذه الأخيرة لم تكن تظهر توجّهاً ثورياً لقربها من بعض الأنظمة العربية التي لم تكن قادرة على مخالفتها. أما «فتح» فكانت قد أعلنت انطلاقتها في الكويت، قبل ذلك بسنوات قليلة، أي في العام ١٩٥٩ وكانت تضمّ مجموعة من الشباب الوطني الفلسطيني العاملين في الكويت. لكننا كنا نعتقد أن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية كان ضرورياً بحيث تشكّل إطاراً شرعياً يجمع القوى الفلسطينية. وقد انضممنا إلى المنظمة بعد عدّة سنوات.

في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، اندلعت حرب الأيام الستة التي أدّت إلى حلّ حركة القوميين العرب، وولادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، في كانون الأول/ ديسمبر.

تلك الحرب الخاطفة التي تابعتها من بيروت كانت فظيعة بالنسبة إليّ. كنا قد وضعنا كل آمالنا في جمال عبد الناصر لاعتقادنا بأنه رجل التحرير. عندما طالب بانسحاب قوات الأمم المتحدة من سيناء لم أشعر بالقلق بوجه خاص إزاء نتائج قراره لأن ثقتي به كانت كبيرة جداً. كنت أعرف موقفه من إسرائيل ومن قوّتها. وكان لا يخشى اندلاع الحرب في حال إخفاق المفاوضات؛ وفي الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ اندلعت الحرب.

على أن البلاغات العسكرية الأولى التي صدرت عن الجانب العربي لم تتحدث عن وقوع هزيمة. ولكن الوضع انقلب منذ اليوم الثاني. وفي اليوم الرابع كنا على أعتاب الكارثة. ما زلت أتذكر البرقية التي وردتني إلى بيروت، عبر السفارة المصرية، من السيد سامي شرف، مدير مكتب عبد الناصر: «اضربوا إسرائيل أينما ومتى استطعتم!». لكننا لم نكن إلا في بداية النضال المسلّح. لم يكن بمقدورنا أن نفعل الكثير.

تلك الأيام السوداء ذكّرتني بأحداث العام ١٩٤٨ . عندما سقطت القدس سمعت النبأ من الإذاعة الإسرائيلية. ووقع الخبر عليّ وعلى هيلدا وقوع الصاعقة. لم تصل إلى هيلدا أخبار عن عائلتها التي كانت تسكن القدس الشرقية مما أثار قلقها. وقد ذرفنا معاً دموعاً حارة، وشعرنا كأن تلك هي نهاية العالم. ومن يومها لم ترَ هيلدا القدس، حتى عند وفاة والدها في العام ٢٠٠٤. وفي غضون ستة أيام احتلّت إسرائيل ما تبقّى من الأراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨، إضافة إلى أراض عربية أخرى.

بعد ذلك، أخذنا على عبد الناصر ثقته المبالغ بها بقيادة القوّات المسلّحة المصرية، والتي أدت إلى الهزيمة. لقد شكّلت هزيمة ١٩٦٧ خيبة أمل كبرى لآمالنا وأحلامنا. وكان ألمي أشدّ عندما قدّم عبد الناصر استقالته من رئاسة الجمهورية في ١٠- ١١ حزيران/ يونيو. كنت كغيري من ملايين العرب وتحديداً من المصريين الذين نزلوا إلى الشوارع لمطالبته بالعدول عن قراره. كنت أريد أن يبقى لمواجهة التحدّي. لقد خسرنا معركة، لكننا لم نخسر الحرب؛ ومن جهتي، واصلت حلمي بالوحدة العربية. غير أنني أصبحت أدرك جيّداً ضرورة التركيز، قبل كل شيء، على القضية الفلسطينية، إذا ما كنا نريد الوصول إلى نتائج محددة.

شهدنا، اعتباراً من العام ١٩٦٧ ، تجذّراً وتشظّياً، في آن واحد، للفصائل الفلسطينية. ما هي تداعيات هذه الهزيمة على عملكم السياسي؟

خلقت هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وضعاً جديداً بالنسبة إلى حركة القوميين العرب ومُجمل العمل الفلسطيني. وقد اقترحتُ عقد اجتماع للحركة من أجل استخلاص دروس ذلك الإخفاق الكبير الذي مُني به النظام الرسمي العربي. أحد تلك الدروس مُفاده أن الشعوب وحدها يمكنها أن تتحكم في التاريخ. إني أكنّ احتراماً بالغاً لعبد الناصر القائد؛ لكن الشعوب هي التي يجب، في نظري، أن تشكّل المحرّك الأساسي للنضال ضد الإمبريالية وإسرائيل.

استأتُ كثيراً عندما قرأت مقالة نشرت في صحيفتنا لرفيقنا محسن إبراهيم أكد فيها أن عبد الناصر لا يمكن أن يُهزم. كان ذلك خطأً في التحليل. كان من الأفضل الاعتراف بالهزيمة، والبحث عن أسبابها العميقة، واستخلاص الدروس التي تنير السبيل أمام نضال شعبنا الذي لم يلبث أن تواصل من جديد.

الدرس الآخر الذي استخلصناه من تلك الهزيمة مُفاده أن نضالنا المسلّح لا بد أن يرتكز على الفلسطينيين أنفسهم، الذين يتوجب عليهم أن ينظموا معركتهم على أساس حرب التحرير الشعبية طويلة الأمد، بالاستناد إلى التجربة الجزائرية وتجربة اليمن الجنوبي، دون أن ننسى التجربة الفيتنامية بالطبع.

ولم أكن غافلاً عن ضرورة تعزيز الديموقراطية، ووجوب التوجه نحو إيديولوجيا تعطي الأفضلية للطبقة العاملة في حين تسعى بعض شرائح البورجوازية لاستعادة السلطة - وقد شكّل ذلك خطوتنا الأولى نحو العقيدة الاشتراكية التي اعتمدناها بعد فترة وجيزة من الزمن.

كان قراري الأول هو عقد اجتماع لكوادر حركة القوميين العرب، فقدِموا من جميع البلدان التي كنا متواجدين فيها. وقد تمثّلت النتيجة الرئيسية للاجتماع في مطلب تشكيل جبهة واسعة تضمّ جميع الفصائل الفلسطينية، على مثال ما حدث في الجزائر حيث قامت جبهة التحرير الوطني، وفي اليمن مع قيام الجبهة القومية التي حققت الانتصار على الاستعمار البريطاني. وكانت تلك النجاحات تغذّي فينا روح التفاؤل.

وفي غضون ذلك، ذهب وديع حدّاد إلى دمشق لإجراء اتصالات بالفصائل الفلسطينية الأخرى التي كانت تؤمن بالنضال المسلّح، وهي فتح، وجبهة التحرير الفلسطينية بقيادة أحمد جبريل، وشباب الثأر، وأبطال العودة. وكان يعود إلى بيروت بانتظام ليضعنا في جوّ ما كان يتوصّل إليه من نتائج كانت مشجّعة في البداية. وفي المقابل كان قادة منظّمة التحرير الفلسطينية يسعون إلى تعزيز موقعهم عبر وضع فتح في مواجهة الفصائل الفلسطينية الأخرى؛ كما تصدّوا لمحاولتنا تشكيل جبهة موسّعة خارج تأثيرات الأنظمة العربية.

ورغم حاجتنا إلى التمويل، إلا أننا رفضنا جميع العروض المالية التي قُدّمت إلينا بقصد احتوائنا. ثم واصلنا إعداد الجبهة بأن وضعنا برنامجنا الخاص. وبعد ذلك فوجئنا بتغيب مندوب فتح عن لقاءات دمشق. لكننا فوجئنا أكثر وأكثر عندما أعلن بيان عسكري أصدرته فتح، في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧، إطلاق النضال المسلّح داخل فلسطين، علماً بأن هذا الفصيل كان قد سبق له أن نفّذ، عام ١٩٦٥، عمليته الأولى ضد الإسرائيليين. عندها طلب الدكتور وديع حداد إيضاحات من ممثل فتح، الأخ هاني الحسن، عن أسباب عدم التنسيق مع الفصائل الفلسطينية الأخرى فأجابه أن الوحدة الفلسطينية يجب أن تتحقّق ميدانياً، وليس في دمشق. ومنذ ذلك الحين بات هدفنا واضحاً: تشكيل جبهة مسلّحة تضمّ جميع الفصائل الفلسطينية.

من هنا جاء تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مع وديع حدّاد؟

كان لهذه المبادرة الانفرادية من قبل فتح أثر سلبي على العمل الفلسطيني. فقد كرّست قيادة فتح لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تلحق الضرر بالوحدة التي كنا نرى أنها ضرورية من أجل تحقيق الانتصار. ولهذا السبب، تتحمّل فتح، في نظري، مسؤولية الصدع الذي حدث في صفوف الفلسطينيين في تلك الفترة، فقد أعطى تسرّعها فرصة لإسرائيل بإضعافنا عبر الردّ السريع على العمل المسلّح الذي كان في طور الانطلاق داخل فلسطين. كان بإمكاننا أن نقوم بتنظيم ذلك العمل على أسس أقوى وأمتن.

وبنتيجة ذلك، قمنا بتعزيز علاقاتنا مع جبهة التحرير الفلسطينية وأبطال العودة والمستقلين، ما أدى إلى ولادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي أصدرت بيانها الأول في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٧.

وبهذا بات بإمكاننا البدء بتركيز عملنا العسكري على الحدود الأردنية المحاذية لإسرائيل، مع التشديد على نقل الأسلحة وتثبيت وجود الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين داخل الأراضي المحتلة حيث كنا قد بدأنا، قبل ذلك، بأنشطة

عسكرية هامّة. وقد سهّل ذلك وجود حركة القوميين العرب في الضفّة الغربية، حيث شكّلت الحركة نواة الجبهة الشعبية في الداخل. وأتذكر أننا أرسلنا، لتحقيق هذه الغاية، عدداً من الرفاق إلى الضفّة الغربية، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستمرار طويلاً في العمل لأن إسرائيل اعتقلتهم بعد مدة وجيزة من وصولهم إلى الضفّة الغربية.

أما في غزّة، فقد كان وجودنا قوياً. والواقع أن تحالفنا مع نظام الرئيس عبد الناصر قد سمح لنا بتطوير بنيتنا التنظيمية. لذا استطاع عملنا العسكري أن ينطلق في غزة ضد الجنود الإسرائيليين منذ بداية الاحتلال. وقد اعترف هؤلاء فعلاً بأنهم ربما «يستطيعون السيطرة على غزة نهاراً، لكنها تخرج عن سيطرتهم ليلاً».

ولا يمكن أن نتحدث عن النضال المسلّح داخل غزّة دون ذكر الشخص الذي كان البطل الحقيقي لهذا النضال. إنه المناضل الأسطوري، الرفيق محمد الأسمر، المعروف باسمه الحركي «غيفارا غزّة». كان من لاجئي العام ١٩٤٨؛ جاء من حيفا وترعرع في مخيّمات الأونروا في غزّة، قبل أن ينضمّ إلى صفوف حركة القوميين العرب في العام ١٩٦٣. كان غيفارا غزّة يتمتع بإرادة حديدية. فقد أصبح، عام ١٩٦٧، واحداً من المقاتلين الأشداء في غزة. اعتقل عام ١٩٦٨ وأمضى ثلاثين شهراً في السجن، خرج من بعدها ليتولّى قيادة الجبهة الشعبية في غزّة. كان غيفارا هو العدو المخيف للجنود الإسرائيليين. فقد نجح في توجيه ضربات قاسية إليهم على مدى ثلاث سنوات. وكان الإسرائيليون يبحثون عنه ليل نهار، لكن دون جدوى. ولم يتمكنوا مطلقاً من الاهتداء إلى مخبئه إذ كان عبقرياً في طرق الاختفاء. وكان يعرف كيفية التخطيط لعمليات عسكرية على مستوى رفيع، حتى أن الإسرائيليين كانوا يضربون الحصار على الأراضي المحتلة كلّها على أمل العثور عليه. كما كان سياسياً لامعاً تمكّن من توسيع قاعدة الجبهة الشعبية في قطاع غزّة في ذلك الوقت. وانتهى بأن سقط شهيداً في معركة مفتوحة مع العدو الإسرائيلي، في آذار / مارس ١٩٧٣. واستشهد معه في ذلك اليوم رفيقان آخران هما كامل العمصي وعبد الهادي

الحايك. سيبقى اسم «غيفارا غزّة» محفوراً في ذاكرتنا. لقد فقدت الجبهة الشعبية بخسارته عضواً بارزاً آخر من أعضاء مكتبها السياسي بعد فقدها غسان كنفاني.

وقد استطاع غيفارا ورفاقه توجيه ضربات قاسية إلى الاحتلال في أراضي الـ ٦٧، وكذلك في أراضي الـ ٤٨، حيث نُفّذت العملية الشهيرة في مطار اللدّ. لكنّ عدداً كبيراً من كوادرنا العسكرية سقطوا شهداء في تلك الهجمات، بينما أُسِر آخرون، ومنهم الرفيقة رسمية عودة، ما اضطرّ نساء أخريات، منهنّ الرفيقة وداد قمري، إلى مغادرة فلسطين. ونتيجة لفقدان عدد كبير من كوادرنا لم نتمكّن من تعزيز بنيتنا بالشكل الذي كنا نتمنّاه.

ثمة هدف آخر من أهدافنا كان يتمثّل بتوسيع دائرة النضال المسلّح انطلاقاً من الجبهة السورية، أي في هضبة الجولان التي احتلّتها إسرائيل عام ١٩٦٧. وكان لنا في سوريا رفاق يعرفون الطبيعة الجغرافية للمنطقة، ورفاق آخرون داخل الجولان المحتل. وكنا قد بدأنا بتشكيل مجموعات للبدء بتنفيذ عمليات على الحدود السورية. لكن عملنا على تلك الجبهة اصطدم بعقبات كثيرة ولم يُسمح لنا بالتسلّل من الحدود السورية.

هل انزعج السوريون من توجّهكم نحو ممارسة المقاومة انطلاقاً من الجولان؟

خلال بعض تنقّلاتي عبر سوريا، في آذار/ مارس ١٩٦٨، تلقيت دعوة من عبد الكريم الجندي، رئيس جهاز المخابرات. قلت في نفسي لعلّه يريد أن يزفّ إليّ أنباءً سارّة بخصوص تمرير أسلحة إلى فلسطين، أو تعزيز عمل الفدائيين في الجولان. وكنت أبعد ما يكون عن تصوّر ما سيحدث. كان بصحبتي الرفيق فايز قدّورة، وقد انتظرنا ساعات طويلة في إحدى قاعات الانتظار في مبنى المخابرات السورية؛ وعندما جاءوا لاستدعائي، كانت النتيجة أن ألقوني في السجن. ويا لها من صدمة! كنت في غاية الذهول.

كان على الأنظمة العربية، بعد هزيمة الـ ٦٧ مباشرة، أن تخجل من نفسها.

كان عليها أن تفعل كل ما بوسعها لتسهيل نضال المنظمات الفلسطينية، لا لشيء إلا لإبعاد هزيمتها عن الذاكرة. ولكن ها هو النظام السوري يزجّ بي في السجن، بدلاً من ذلك! وليس في أيّ سجن بل في سجن الشيخ حسن المخصّص للسجناء السياسيين، والذي يفوق بسمعته المخيفة سجن المزّة في ضاحية دمشق. لقد اتُّهمتُ بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم. لكن السبب الحقيقي كان تصميمي على مواصلة النضال ضد إسرائيل على جميع الجبهات، بما فيها هضبة الجولان.

بقيت داخل زنزانة انفرادية من مارس/آذار إلى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٨. كانت الزنزانة ضيّقة ولا يمكنني أن أجد فيها وضعاً مريحاً للجلوس ولا حتى للوقوف. كانت تسرح فيها الصراصير والحشرات، ولها كوّة صغيرة للإنارة، وثقب في الأرض بدلاً من المرحاض. كانوا يريدون إتلاف أعصابي وتدميري نفسياً عبر إجباري، مثلاً، على البقاء واقفاً، ليل نهار، طوال تسعة أيام، دون أن أذوق طعم النوم. لكنني تحمّلت هذه المحنة بتحدٍّ. لأنّ الذين سجنوني كانوا يعتقدون بأنني سأنهار، كالعديد من الشباب قبلي، في غضون ثلاثة أيام أو أربعة. غير أنني صمدت حتى النهاية.

وبعد أربعين عاماً مضت على هذه التجربة، ما زلت أذكر الطريقة التي كان المسؤول عن التحقيقات، وهو شخص من دير الزور يُدعى يوسف، يعتمدها في معاملة السجناء. لم أنس ما كان يوجّهه إليهم من شتائم وما كان يكيله إليهم من ضربات. كنت أسمع صراخهم، وأشعر بآلام أولئك الذين كانوا يخضعون لأعمال التعذيب. وكنت أقول في نفسي: كيف يمكن لإنسان أن ينحط إلى هذا المستوى من الفظاظة والقسوة؟ كان السجّان ينظر إليّ بخبث، دون أن ينبس ببنت شفة. ولحسن الحظ، لم أتعرّض للتعذيب، ولكنني عانيت كثيراً من الناحية النفسية. كانوا يحرمونني، في البداية، من النزهة في باحة السجن. وحتى فنجان الشاي الذي كانوا يقدّمونه إلى بقيّة السجناء كان محظوراً عليَّ. كما كنت محروماً من الكتب. وبعد مضي فترة من الوقت سُمح لي بالخروج من زنزانتي لنصف ساعة يومياً.

وعندما كنت أستلقي في الزاوية، كنت أفكر بحزن في ابنتيَّ ميساء ولمى، وزوجتي هيلدا التي كتبت إليها من السجن رسالة طويلة عبّرت فيها عن مدى شوقي إليها وإلى ابنتينا، وقد تمكّنت من تهريب الرسالة عن طريق أحد حراس السجن.

أما الوضع داخل الجبهة التي لم يكن قد مضى وقت طويل على تشكيلها، فكان يثير فيّ الكثير من القلق. كانت الهواجس تطاردني بشأن المواقف التي كان علينا أن نتخذها إزاء فتح. فبعد تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مباشرة عمدت فتح إلى دعم عدد من المنظمات الصغيرة بهدف التصدّي، دون شكّ، لمشاريعنا بخصوص الوحدة الوطنية.

وبعد مدة من الزمن، سمعت، بفضل بعض الرفاق الذين تمكنوا من الحصول سرّاً على جهاز راديو، خبرَين جعلاني أطير من الفرح: أولهما يتعلق بمعركة الكرامة[1] في الأردنّ، والثاني اختطاف مجموعة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لطائرة إسرائيلية وتوجيهها إلى مطار العاصمة الجزائرية. وقد تعرّفت آنذاك إلى بعض السجناء السياسيين السوريين، مثل عصام المحايري، وإلى أعضاء من مجموعة أكرم الحوراني، وإلى بعثيين معارضين للنظام السوري. وشيئاً فشيئاً، نجحت في الحصول على تعاطف بعض السجّانين ممّن كانوا يعلنون تأييدهم لنضالنا. ومع مرور الزمن، تأكّد لديّ أن بإمكاني أن أعتمد عليهم، إذا ما شئت التواصل مع الرفاق خارج السجن.

وبعد أن تمكنت من الحصول على بعض الكتب بدأت أشعر براحة نفسية كاملة. كنت متعطشاً إلى القراءة. وكانت قراءاتي مركزة على النظرية الماركسية التي لم أكن، حتى ذلك الحين، قد وجدت الوقت الكافي للتعمّق في معرفتها

---

(١) في الـ ٢٠ من آذار/ مارس ١٩٦٨، شنّ الجيش الإسرائيلي هجوماً مباغتاً على مدينة «الكرامة» الأردنية. وقد اعتبرت هذه المعركة أسطورية في العالم العربي، إذ قتل ٢١ جندياً إسرائيلياً خلال خمس عشرة ساعة من المواجهات مع الفدائيين الفلسطينيين.

كما ينبغي. وهكذا قرأت مؤلفات لينين وبعض كتابات ماركس وإنجلز. وبعد خروجي من السجن أسهمت هذه القراءات في تكوين توجهاتي إن على المستوى النظري أو على صعيد الممارسة السياسية.

ذات يوم، تلقيت رسالة من وديع حدّاد سلّمها إليَّ حارس كنت قد أقمت معه علاقة جيّدة. وعلمت من الرسالة أن رفاقي كانوا بصدد التحضير لتهريبي من السجن، وذلك عبر ترتيب زيارة عائلية لي في السجن. وبعد تسعة أشهر طويلة من الاعتقال، سمحت إدارة السجن بزيارة عائلية قامت بها رفيقتان زعمتا أنهما ابنتا أختي، بينما الحقيقة أن وديع حداد كان قد اختارهما لتنظيم عملية الفرار. وتم اللقاء بيني وبينهما في مكتب للمخابرات خارج السجن. وأثناء إعادتي إلى الزنزانة، تمكن رفاق لنا كانوا متنكرين بزيّ ضباط سوريين من إيقاف السيارة العسكرية التي كانت تقلّني. وقد حاول أحد الحراس أن يقاوم عندما اكتشف حقيقة ما يجري، لكن رفاقي تمكنوا من اختطافي وتمّ احتجاز الحراس لحين وصولنا إلى الحدود السورية اللبنانية وعندها أُطلق سراحهم وذلك لضمان نجاح العملية؛ ثم أسرعت بنا السيارة باتجاه الحدود السورية-اللبنانية التي تمكنا من اجتيازها دون مشاكل. وهناك، رأيت زوجتي مجدداً في منزل وديع حداد حيث كان ينتظرني عدد من رفاقي في النضال. كانت الطريق التي مررنا بها صعبة المسالك، حيث كان علينا أن نعبر سيراً على الأقدام عدّة جبال مغطاة بالثلوج، وذلك خلال ساعات طويلة قبل وصولنا إلى سهل البقاع.

شكّل فراري من السجن ضربة قاسية لمعنويات عبد الكريم الجندي، لكننا كنا نعلم أن ردّ المخابرات السورية من شأنه أن يكون أشدّ قسوة.

غضب عبد الكريم الجندي غضباً شديداً لفراري، لا سيما وأنه اعتاد أن يقول بلهجة حاسمة لمن يطلبون إليه الإفراج عني: «جورج حبش لن يخرج أبداً من السجن، ولو أطبقت السماء على الأرض!». وقد هدد الجندي باختطافي وإعادتي إلى الزنزانة. وبناءً على نصيحة وديع حدّاد، قررنا الذهاب سريعاً مع أسرتي إلى القاهرة لضمان أمني، بعد أن كنت قد انتهيت من الاطلاع على ما كان

يجري على الساحة العربية وفي داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وقد جاء ذلك في وقته، لأنني كنت أرغب في لقاء الرئيس عبد الناصر لتداول الآراء بشأن الوضع بعد هزيمة الـ٦٧، وإزالة بعض نقاط سوء التفاهم بيننا، بعد نشر مقالات على صفحات مجلتنا «الحرية».

وعلى ذلك، ذهبت إلى مصر في تشرين الثاني/نوفمبر، وأمضيت فيها أربعين يوماً.

وهل التقيت عبد الناصر؟

ما إن وصلت إلى القاهرة حتى طلبت مقابلة الرئيس عبد الناصر. كنت أتساءل عمّا إذا كان يوافق على استقبالي بسهولة كما في السابق، وهل يكون لقاؤنا بمستوى الحرارة السابقة. وكنت أنتظر بفارغ الصبر لأعرف تأثيرات هزيمة الـ٦٧ على نفسية عبد الناصر، والكيفية التي ينوي من خلالها مواجهة المعطيات الجديدة.

استقبلني بالحفاوة نفسها وبالتهذيب عينه. لكنني قرأت في وجهه ونظرته ألماً عميقاً. ذكّرني بأنه كان، بعد الهزيمة، عازماً على الاستقالة، وأن التظاهرات الشعبية الضخمة أقنعته بالعودة عمّا عزم عليه. لم يحاول التنصّل من مسؤولياته، وكان يتحمّلها على المستوى المعنوي. وعلى كل حال، فإن المسؤولية العسكرية كانت تقع على عاتق الجيش وقيادته. شعرت أيضاً بأن عبد الناصر كان يستعدّ لمواجهة العدو الإسرائيلي بهدف استعادة الأراضي المغتصبة. كان يشعر بالكثير من المرارة عندما يأتي على ذكر الخسائر.

أما بخصوص الانتقادات التي وجِّهت إليه من حركتنا، فقد ذكّرته بأن النقد موجّه إلى طبيعة نظامه، لا إلى شخصه، وبأننا ما نزال نكن له الاحترام والتقدير. وأجاب بأنه لا يهتم كثيراً بالانتقادات التي توجهها إليه الصحافة، لانشغاله خصوصاً بإزالة آثار الهزيمة، ولهذه الغاية كان عليه أن يعيد بناء القوات المسلّحة.

كنا نحاول، قبل كل شيء، أن نعود إلى ما كان بيننا من علاقة جيدة.

وأخبرته بأنني أتهيّأ للقيام بزيارة إلى الأردنّ، وسألته عمّا إذا كان بمقدور مصر أن تزوّدنا بأسلحة، فردّ بالإيجاب. وهكذا كان عبد الناصر وراء أول شحنة من الأسلحة (أسلحة خفيفة) تتسلّمها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. التقيت أيضاً الرفاق المصريين من الأعضاء القدامى في حركة القوميين العرب، الذين كانوا قد أصبحوا أعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وقد أعربوا لي عن تخوّفهم من حدوث انشقاق في الجبهة. كما التقيت أصدقاء ومسؤولين مصريين. لم أكن غافلاً عن خطر الانشقاق هذا منذ لحظة خروجي من السجن. كما أن ذلك الخطر كان واحداً من الأسباب الرئيسية التي دفعت وديع حدّاد إلى الإصرار على إخراجي من السجن بالقوة. وقد وعدت الرفاق المصريين أن أفعل أقصى ما يمكن فعله لمنع حدوث مثل ذلك الانشقاق.

من أجل العودة إلى الأردنّ، كان عليّ أن أمرّ بالعراق الذي كان، في تلك الفترة، سندنا الرئيسي. ولم يكن بإمكاني أن أستقلّ الطائرة مباشرة إلى عمّان، لأنني كنت مطلوباً من قبل السلطات الأردنية. وكان الرفاق في عمّان قد أقاموا علاقات جيدة جداً مع المسؤولين العراقيين الجدد. وكانت القوات العراقية المرابطة في الأراضي الأردنية، وتحديداً في المفرق على مقربة من الحدود، تتكفّل أحياناً بأمر مساعدتنا على الدخول إلى الأردن. وفي بغداد، التقيت رئيس الجمهورية، أحمد حسن البكر، ووزير دفاعه، صالح عمّاش، وأعضاء آخرين في قيادة حزب البعث. وقد بحثنا في إنشاء فصيل مسلّح عربي داخل حزب البعث للمشاركة في الثورة الفلسطينية. ولما كانت سوريا قد فعلت ذلك بتشكيل فصيل فلسطيني باسم الصاعقة، فقد أراد العراقيون القيام بعمل مماثل من جانبهم. وهكذا، لم تلبث جبهة التحرير العربية لتحرير فلسطين أن رأت النور. لم أكن راضياً عن هذه المبادرة، لكنني كنت أتوق إلى معرفة ما يمكن أن يحمله إلينا وجود فصيل جديد.

كنت أحاول، من خلال زياراتي إلى بغداد، أن أعزّز علاقتنا على المستويات العليا. وكان وجود الجيش العراقي في الأردنّ يعطينا الأمل فعلاً بأن يقوم بدعم

ثورتنا وحتى بحمايتها. أتذكر جيداً عودتي من بغداد إلى المفرق في سيارة فولسفاغن صغيرة كان السائق يقودها بسرعة ١٣٠ كيلومتراً حتى وصولنا إلى أحد مراكز قيادة القوات العراقية، التي سهّلت أمر وصولي إلى عمّان.

عند عودتك إلى الأردنّ، بداية عام ١٩٦٩، كانت الجبهة على وشك الانقسام إلى تيّارين؟

كانت حالة الانقسام الداخلي الذي يعصف بالجبهة هي أول شيء لاحظته عند وصولي. لم تكن تلك المرّة الأولى، فقد حدثت حالة مشابهة أثناء فترة اعتقالي، بين الفرع الفلسطيني المتشدد من حركة القوميين العرب سابقاً في الجبهة، وجماعة أحمد جبريل. ولكنّ الانقسام الثاني كان مختلفاً تماماً لأنه أدّى إلى صراع مع عناصر في داخل الحركة نفسها. فقد وقف الانفصاليون وراء نايف حواتمة وادّعوا أننا فصيل يميني. وفي نظري كان هؤلاء يمثلون فكراً يسارياً طفولياً. وكانوا مدعومين من فتح والصاعقة وكذلك من الأنظمة العربية التي كان يهمّها أن تضعفنا.

كان نايف حواتمة يعتبر أن البورجوازية الصغيرة غير ذات أهمّية، ومن غير المفيد أن نتعامل معها. أما من جهتي فكنت أقول بضرورة الحوار مع جميع الفلسطينيين، باستثناء الخونة طبعاً. كنت أعتقد، أنا وأنصاري، أن الجبهة يجب أن تكون ماركسية، لكن من غير الإلزامي بالنسبة إلى أعضائها أن تتوافر فيهم شروط خاصة، بمعنى الانتماء الطبقي تحديداً. في البداية، كان نايف ينادي بمبادئ برّاقة جداً. لكنّ كل ذلك تلاشى في ما بعد وانحرف أنصاره باتجاه اليمين. ثم إنهم كانوا يناقضون أنفسهم. كانوا يزعمون بأنهم يساريون، ولكنهم لم يترددوا في التعامل مع أبو عمّار وسوريا وقد تمكّن هذان الفريقان من احتوائهم بُغية إضعافنا.

وباختصار، فإن كثيراً من الحبر قد أريق حول هذه المسألة، لكنني أردت أن أبذل ما بوسعي لمنع حدوث انشقاق جديد. كان بعض الرفاق يقولون بضرورة

حسم المشكلة عن طريق القوة. وكان وديع وغيره من قدماء الجبهة يريدون إنهاء ظاهرة نايف حواتمة. إن وجودي في السجن قد شكّل، بالنسبة إلى نايف، فرصة ذهبية لبسط نفوذه داخل الجبهة. وكان قد هيّأ حتى لعقد مؤتمر للجبهة في محاولة منه للسيطرة على الوضع خلال فترة غيابي لأنه يعلم أنه بحاجة إلى وضع استثنائي للوصول إلى أهدافه، في حين كان الرفاق يؤكدون أنهم يمثلون النواة الصلبة للجبهة في وجه مجموعة من المنشقين الذين يلحقون الضرر بالتنظيم فأرادوا وضع حد لهذا الانشقاق بالقوة. ولكنني رفضت اللجوء إلى القوة لحسم ما كان بيننا من خلافات.

وقد اقترح المنشقون اسماً جديداً لمجموعتهم هو الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين. وعلى الرغم من معارضتنا الأولية، فقد تجنّبنا مواصلة المواجهة لأن مجموعة المنشقين كانت مدعومة من قبل فتح والصاعقة. إذن قبلنا بتلك التسوية، لكن ذلك لم يمنع المنشقين الذين كانوا يعرفون ما تتمتع به الجبهة الشعبية من أهمية بين صفوف الجماهير من مواصلة جمع التبرعات باسم الجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش. وعلى ذلك، فقد استغلّوا اسم جبهتنا لتحقيق أغراضهم.

والآن، بعد مضي أربعين عاماً، يمكن للناس أن يحكموا بطريقة موضوعية: هل مثلت الجبهة الديموقراطية يسار الحركة الثورية، بينما مثلنا نحن يمين تلك الحركة؟ أترك الحكم للقراء، ولكن ذلك الخلاف لعب دوراً سلبياً جداً على مستوى الثورة الفلسطينية بوجه عام، وعلى مستوى اليسار بوجه خاص. فلو كانت قوى اليسار قد نظرت إلى علاقاتها بطريقة سليمة لما كانت الثورة حيث هي اليوم.

واجهت في تلك الفترة تحدّياً كبيراً: كانت المجموعة المنشقة تتهمني بأنني على رأس يمين الحركة، وتشكك في قدرتنا على تحقيق طموحاتنا. وفي هذه الظروف، كان عليّ أن أعيد النظام إلى نِصابه داخل الجبهة وهي ما تزال بعد في بداياتها. وعليه، دعوت في مطلع العام ١٩٦٩ إلى عقد المؤتمر الثاني للجبهة،

بعد أن كنت قد تغيّبت عن المؤتمر الأول الذي انعقد في آب/ أغسطس ١٩٦٨ لأنني كنت سجيناً في سوريا. وفي المؤتمر، رسمت خط الجبهة الإيديولوجي عبر عرض المسألة الماركسية. كانت الظروف تدفعني في ذلك الاتجاه، إضافة إلى قراءاتي عن الماركسية خلال فترة سجني: كانت المجموعة المنشقة تتهمني بالعداء للماركسية، ولم يكن ذلك صحيحاً لأن اقتناعي بصحتها كنهج في تحليل التاريخ كانت قد تعززت بمضيّ الزمن. ومن جهة أخرى، كان معظم الأعضاء في الجبهة ينتمون إلى أوساط بروليتارية أو من اللاجئين. لذا كان ديالكتيك الصراع الطبقي يُحدث وقعاً طيباً في أسماعهم. وقد أقرّ المؤتمر الثاني اعتماد النظرية الماركسية بإجماع شبه كلّي. كما عرضتُ الاستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أي رؤيتي للثورة الفلسطينية، والتي كنت قد كتبتها في إحدى قواعدنا العسكرية في منطقة الأغوار في الأردنّ.

وقد تمّ انتخاب لجنة مركزية من عشرين رفيقاً بينهم وديع حدّاد، وأحمد اليماني، وأبو علي مصطفى، وأحمد إبراهيم (أبو عيسى)، وأبو نضال مسلمة، وحمدي مطر، وزكريا أبو سنينة، وغيرهم. وشعرت بشيء من الارتياح بعد هذا المؤتمر.

وكان في تلك الفترة أن اعتمدتم خطف الطائرات في خطكم السياسي؟

غالباً ما كنت أذهب إلى قواعد الجبهة. لم أكن قائداً عسكرياً، لكن الاحتكاك بالمقاتلين ووجودي بينهم كان مهماً جداً، بالنسبة إليّ وإليهم على السواء. كانت معظم الفصائل الفلسطينية تعتمد الاستراتيجية العسكرية نفسها، في بداية العام ١٩٦٩، وهي محاربة إسرائيل عن طريق عمليات تسلل عبر الحدود. لكن مواصلة هذا الخط أصبح صعباً مع اتخاذ تدابير مضادة من قِبل الصهاينة. كنا نخسر أعداداً أكثر مما ينبغي من الفدائيين، بينما كان العدو يخسر أعداداً أقلّ. وهنا ركّزنا على خطف الطائرات وعلى ضرورة توجيه ضربات مؤلمة إلى المصالح الإسرائيلية والإمبريالية أينما كانت، فقمنا بالهجوم على خط الأنابيب

الأميركي لنقل النفط عبر الأراضي السورية (تابلاين)، كما نفّذنا عمليات في أوروبا. كان هدفنا هو التعريف بالقضية الفلسطينية على الصعيد الدولي. وكنت أسمع من بعض الأجانب، وهم تحديداً من الصحافيين، أن خطف الطائرات يؤدّي إلى ذلك الهدف أكثر من أية وسيلة أخرى. وكان على ذلك الخط أن يعكس تفاقم الآلام التي عاناها شعبنا بعد اقتلاعه من جذوره قبل عشرين عاماً. ومن هنا كانت تلك العمليات تحظى بقبول الفلسطينيين والعرب رغم الانتقادات التي كانت توجه إلينا من بعض القوى.

وكنا قد قرّرنا أيضاً في تلك الفترة عدم المشاركة في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني تعبيراً عن استيائنا من القوى التي دعمت المنشقّين عن الجبهة. ومنذ نهاية الستّينيات لم نتوقّف عن معارضتنا لقيادة عرفات وعن التنديد بتلك القيادة الفردية.

حاولتَ يومها أن تلتقي عبد الناصر في القاهرة، ولكنك لم تتمكن من ذلك في البداية. ما سبب ذلك؟

كنت أريد في الواقع أن أتأكد من دعمه لنا في ما يتعلق بالأحداث داخل الجبهة. وعندما طلبت مقابلته أجابوني بأن ذلك أمر صعب. صُدمت لذلك وفوجئت. فقد كانت المخابرات المصرية قد رفعت إلى عبد الناصر مذكرةً مُفادها أن الجبهة قد نشرت بياناً انتقدت فيه تجربة الجمهورية العربية المتحدة. وقد شكّل ذلك عائقاً إضافياً وضعته المخابرات المصرية أمام علاقتنا بالرئيس عبد الناصر. ولكنني تمكنت يومها، على الأقل، من قضاء بضعة أيام مع أسرتي بعد فترة غياب طويلة في الأردن شعرت خلالها إلى أيّ حدّ كانت ابنتاي قد بدأتا تتعلقان بي.

وعند عودتك إلى الأردنّ، ازدادت حدّة الخصومة مع فتح؟

بالنسبة إلى فتح برئاسة عرفات التي كانت تسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية، لم يكن يُسمع في المنظمة غير صوت واحد هو صوت فتح. وعندما

كنت أسمع بعض قادة فتح وهم يكيلون المديح للديموقراطية الفلسطينية كنت أقول في نفسي إن الديموقراطية لن تُقدّم إلينا كهبة، وعلينا أن ننتزعها بقوة الإصرار والتصميم.

كنا شديدي الفاعلية في وجه فتح. وكنا نحظى بدعم الناس. وما زلت أتذكر اللافتات التي كانت معلّقة في شوارع عمّان وعليها شعارات من نوع: «نريد الوحدة الوطنية، فتح والجبهة الشعبية».

أما على المستوى الأردني، فقد كانت الجبهة تعتبر أن الرجعية العربية تؤيّد المعسكر المعادي لنا. وقد حددنا، في هذا الإطار، علاقاتنا مع النظام الأردني. لم نكن نريد حرباً مع هذا النظام، بعكس ما كان يدّعيه البعض، لكننا كنا على حذر من مخططاته الرامية إلى تصفية الثورة الفلسطينية، وكان موقفنا هذا يحظى برضا الفلسطينيين في الأردنّ. أما على المستوى التنظيمي والنظري، فكنت أرغب في البناء الحزبي لمقاتلينا عن طريق التثقيف والمطالعة. كنت أردّد أمام المنشقين أن الجبهة لم تكن مشدودة إلى النضال المسلّح وحده، بل إننا نمتلك أيضاً رؤية عميقة للعقيدة الثورية وأهدافها. وقد أنشأنا في تلك السنة مدرسة الكادر، وكان المسؤول عن تلك المدرسة هوالرفيق العراقي محسن هاشم (أبو عدنان)، وكان يعمل معه مسؤولان عسكريان هما هيثم الأيوبي وأكرم الصفدي وهما رفيقان من سوريا. وفي تلك الفترة أيضاً، أثار الرفيق غسّان كنفاني اهتمامي بالإعلام من خلال تأسيس مجلتنا «الهدف». لكنّ الأولوية ظلّت للجانب العسكري في اعتقادي. وهكذا بدأت الإشراف على بعض عمليات فدائيينا الذين كانوا يتوجهون نحو الحدود الإسرائيلية. وما زلت أتذكر بعض الفدائيين الشهداء، وأذكر من خيرة هؤلاء المقاتلين كلاً من خالد أبو عيشة، ومحمد اليماني، ورفيق عسّاف، وسكران سكران، الذي وقع في أسر العدو.

بعد أشهر على عودتي من القاهرة، لحقت بي زوجتي وابنتاي إلى عمّان عبر المطار قادمين بجواز سفر يمني وأسماء مستعارة وذلك بفضل مساعدة من الرفاق، رغم الحكم الصادر بمنعهنّ من دخول الأردنّ، حيث كانت قد سحبت

السلطات الأردنية الجنسية الأردنية من زوجتي عام ١٩٦٦ فاضطرت يومها إلى المغادرة إلى بيروت بشكل غير قانوني وهو الأمر الذي يؤكد قوة المقاومة في تلك الفترة.

كنت أسكن في مخيّم الوحدات وأتنقل بين مواقعنا العسكرية والمخيمات. ولأسباب أمنية، انتقلت زوجتي وابنتاي للإقامة في مكان آخر، لكنهنّ كنّ يزرنني بشكل منتظم. وكان وجودهنّ إلى جانبي يزوّدني براحة نفسية كبيرة. فرغم مشاغلي، كنت شديد التعلّق بأسرتي، مع وعيي بأنني لم أكن أقوم بواجبي كما يجب كأب وكزوج.

الفصل الخامس

الطريق إلى أيلول الأسود

كيف كان وضع المقاومة الفلسطينية عند عودتكم إلى الأردنّ، أواخر العام ١٩٦٩؟

كانت الأحداث تتدافع في تلك الفترة. وكان المقاتلون يتمتعون بمعنويات فولاذية وفي منتهى الحماسة والثورة في حالة غليان. لذلك كان من غير المرجّح أن تقوم السلطات الأردنية باعتقالي. وكنا كقوى يسارية، قد وجّهنا نداءات إلى الفلسطينيين المقيمين في الأردن دعوناهم فيها إلى دعم توجهنا. وردّ الكثيرون منهم بشكل إيجابي، ومن بينهم أردنيون، كانوا يساندوننا دون أن يكونوا أعضاء في الجبهة الشعبية.

كنا قد أقمنا قواعد للثورة قرب مخيّم البقعة، على بعد ٢٥ كلم شمالي عمّان، أما مركز القيادة الخاص بنا فكان في مخيّم الوحدات داخل عمّان. لكنّ معظم مواقعنا كانت بالقرب من وادي الأردن على الضفّة الشرقية. كانت السلطات الأردنية على علم بذلك، غير أنها لم تكن قادرة على فعل أي شيء. وكان هدفنا الأساسي هو القيام بنشاط يومي ضد إسرائيل.

هل كان التنسيق قائماً بين مختلف فصائل المقاومة، وبشكل رئيسي بين فتح والجبهة الشعبية؟

لا، ويا للأسف. كانت هنالك مشكلة انشقاق نايف حواتمة، وتشكيل

الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين. ولم يكن مثل هذا الجوّ ملائماً للتنسيق في ما بيننا. وعند عودتي، كان همّي الرئيسي هو العمل على منع حدوث انشقاقات أخرى داخل الجبهة. إذن، كانت لكل مجموعة قواعدها الخاصة لشنّ الهجمات على إسرائيل. ولم تكن هنالك قيادة مشتركة للمقاومة الفلسطينية.

هل كانت تلك القواعد مراقبة من قِبل السلطات الأردنية؟

في البداية، لم تكن هنالك مراقبة، نظراً لوجود اتفاق ضمني مع السلطات، على أساس أن النضال ضد إسرائيل كان أُمنية الشعب كله. وكان الملك حسين يقدّم نفسه على أنه أول المخلصين للقضية الفلسطينية. وكنا نرغب في تصديق ذلك.

متى كان انهيار الاتفاق الضمني بين السلطات الأردنية والفدائيين؟

في ١٠ شباط / فبراير ١٩٧٠. كنت عائداً لتناول الغداء مع أفراد أسرتي، عندما سمعت في نشرة أخبار الساعة الثانية ظهراً بياناً رسمياً يؤكد أن السلطات الأردنية عازمة على مصادرة أسلحة الفدائيين، وأن هذه الأسلحة ستنتقل لتصبح من مسؤولية السلطة. قرأت على الفور ما بين السطور: كانت السلطات تنوي الشروع في الضغط على المقاومة. قبل ذلك، كان النظام الأردني قد حاول، بتاريخ ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٨، ضرب التنظيمات الفلسطينية قبل أن يشتدّ عودها. وقد وقعت اشتباكات حينذاك في مخيّم الوحدات. وكان علينا إذن أن نواجه هذه المناورة الجديدة، إذ لو نجحت السلطة في مثل هذه المحاولة لكان من الطبيعي أن تتبع هذه الخطوة خطوات أخرى وصولاً إلى تصفية نضالنا المسلّح.

توجّهت فوراً إلى الوحدات حيث جمعت قيادة الجبهة بشكل استثنائي لمناقشة ذلك البيان وتحديد موقفنا، قبل وضع خطة للرد عليه. وقد شجعت

الرفاق على تكثيف الاجتماعات بهدف وضع السكان في حالة استعداد لمواجهة ما كانت السلطات الأردنية بصدد تدبيره. وفي الوقت الذي كانت تنعقد فيه تلك الاجتماعات بدأ بعض الفدائيين التابعين للجبهة باعتقال رجال شرطة أردنيين لممارسة الضغط على النظام. وقد أقنعتهم بإطلاق سراحهم، وقلت للجميع إن إسرائيل هي من يجب قتالها وستظلّ عدونا الأول. ثم اجتمعت مختلف الفصائل الفلسطينية في غياب أبو عمّار الذي كان مسافراً خارج الأردنّ، وكانت تلك الفصائل، تحديداً، هي الصاعقة وفتح والجبهة الشعبية والجبهة الشعبية الديموقراطية. وقد اتفقنا على خمس نقاط لتتمّ المصادقة عليها، بعد ذلك، من قِبل دورة خاصة للمجلس الوطني الفلسطيني. وبذلك تمكنا من صياغة موقف فلسطيني موحّد. وشكل ذلك انتصاراً كبيراً للجبهة ولخطها السياسي الوحدوي. وعندما عاد أبو عمّار رفض، ويا للأسف، إحدى تلك النقاط، وهي النقطة التي تعتبر القوى الرجعية والعدو الإسرائيلي شيئاً واحداً. ولم يكن لذلك التنازل إلا أن شجّع السلطات الأردنية على تطبيق قرارها الذي اتخذته في العاشر من شباط/ فبراير.

ثم انتهت الجبهة إلى القبول بمساومة قضت بعدم ذكر القوى الرجعية بالاسم. ولكنّ صياغة الاتفاق الجديد كانت، مع ذلك، واضحة بما يكفي لأن يفهم منها أن المقصود هو أنظمة رجعية بعينها. وعلى هذا الأساس شاركنا في المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في القاهرة بين ٣٠ أيار/ مايو و٤ حزيران/ يونيو سنة ١٩٧٠، وذلك انطلاقاً من موقف جاء قريباً من موقفنا. وفي الوقت نفسه، تراجعت الحكومة الأردنية برئاسة بهجت التلهوني عن قرار شباط/ فبراير، حيث أصدرت السلطات بياناً أكدت فيه أن «قصدها ليس تصفية المقاومة ولا مصادرة سلاحها». وقد عاشت جماهيرنا ومعها الجبهة ذلك الموقف على أنه انتصار نتيجة تصميمها على مواجهة النظام.

لكنّ الهدنة مع السلطات الأردنية كانت موقّتة، حيث اندلعت مواجهات، في الزرقاء، بُعيد انعقاد المؤتمر الوطني الفلسطيني في القاهرة. وامتدّت المواجهات مع القوات الأردنية إلى عمّان. أليس كذلك؟

في ما يتجاوز مطالبنا بالنضال الضروري ضد إسرائيل انطلاقاً من الأردنّ، كنا نهتم بمشكلات الفلسطينيين داخل المملكة الأردنية، الذين كانوا يشكلون منذ ذلك الوقت غالبية السكان. كنا ندعو مثلاً إلى الإضراب بمناسبة عيد العمال، في الأول من أيار/مايو. ولم يكن ذلك مما يعجب السلطات. وكنت على اختلاف، حول هذه المسألة، مع أبو عمّار الذي كان يصرّ على حصر المعركة، انطلاقاً من الأردنّ، بالمقاومة المسلّحة ضد إسرائيل. وبعد حادثة الزرقاء، تم التوصل إلى وقف إطلاق النار بوساطة عراقية. لكنّ مخاوفنا لم تتغير في العمق، لأن النظام كان ينوي قصم ظهر المقاومة وطردها من عمّان، فيما كنا مصمّمين على مواجهة ذلك. ولكن كان علينا أن نجد طريقة لدفع النظام إلى التراجع عن مخططاته. وهنا فكرنا في احتجاز ثلاث مئة صحافي غربي كانوا ينزلون في فندق إنتركونتيننتال في عمّان.

كان ذلك في ١٠ يونيو/حزيران ١٩٧٠. قمنا بتطويق الفندق، وكنت أقود العمليات مع الحاج فايز، وهو رفيق استُشهد خلال عملية عنتيبي... استمرت الأزمة مدة يومين هدّدنا خلالها بتفجير المبنى إذا لم تتم تلبية مطالبنا. وكنا نطالب بإقالة قائد الجيش الأردني، الشريف ناصر بن جميل خال الملك حسين.

لم تكن هنالك اتصالات رسمية مع السلطة، ولكننا شعرنا بأنه لم يكن بإمكانها أن تضحي بالصحافيين الثلاث مئة المحاصرين داخل الفندق. وبعد يومين أكد لنا النظام، ولكن دون أن يعطينا ضمانات رسمية، أن مسألة سلاحنا ستطرح في لجنة سيتم تشكيلها لهذا الغرض. ومقابل ذلك طلبوا إلينا أن نفرج عن الرهائن. وقبل ساعات من الإفراج عنهم، صعدت إلى المنبر وأنا في غاية الإرهاق بعد يومين كاملين من المفاوضات. لم أكن قد نمت طوال هذين

اليومين. وقد ارتجلت خطاباً طويلاً باللغة الإنجليزية شرحت فيه للصحافيين المحتجزين أنهم إذا ما كانوا قد تعذبوا لبضع ساعات، فإن ذلك لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى شعب يتعذب منذ أكثر من عشرين عاماً. واعتذرت إليهم لأننا لم نتمكن من تقديم الماء الساخن وأننا لسنا خبراء في إدارة شؤون الفنادق. وأضفت أن السلطات الأردنية تمنعنا من أن نناضل ضد إسرائيل التي اغتصبت أرضنا في فلسطين. وأعتقد أن الصحافيين الغربيين[1] قد أدركوا جيداً كل ما قلته في الحديث عن نضالنا ومعاناة شعبنا.

شكّلت تلك العملية نجاحاً لنا من وجهة نظرنا. فاحتجاز الصحافيين لم تتخلله أية أعمال عنف، كما أن أسهم الجبهة سجّلت مزيداً من الارتفاع في صفوف فلسطينيي الأردنّ. ولولا تلك العملية لما كانت الحكومة الأردنية لتتراجع مطلقاً عن مواقفها. وقد استقال الشريف ناصر نتيجة هذه العملية، كما خرجت إلى الشارع تظاهرات طالبت باستمرار النضال المسلّح ضد إسرائيل وباستقالة «المتآمرين». وكالعادة لم تكن زوجتي هيلدا تفوّت أية فرصة للمشاركة في التظاهرات والتعبير عن مشاعرها القومية باندفاع وحماس.

عندها تمّ التوصل إلى اتفاق أردني- فلسطيني جديد نصّ على حرية العمل للفدائيين وأمنهم وحقهم في التحرك الشعبي القومي. كما ضمن للأردن سيادته كدولة، هل شكّل ذلك انتصاراً لكم؟ وهل كنتم تعتقدون يومئذ بإمكانية تلافي المواجهة بين الفدائيين والنظام؟

من أجل تطبيق هذا الاتفاق، كان العراق قد أرسل إلى عمّان وزير دفاعه صالح عمّاش. وتدخلت مصر أيضاً ولكن بصورة غير معلنة إلى هذا المستوى. وقد طلبت السلطات الأردنية إلى صالح عمّاش أن يجمع قادة المقاومة الفلسطينية. في البداية، رفضتُ المشاركة في ذلك الاجتماع الذي كان مقرراً في

(١) انظر خطاب جورج حبش في الملحق.

مركز قيادة الجيش الأردني في العبدلي، لأن قائد الأركان، مشهور الحديثي، سيشارك فيه. ولكنني عدت وقررت الذهاب إلى الاجتماع بناء على طلب ملحّ من وزير الدفاع العراقي الذي تمنّى عليّ عدم تعقيد الأمور، بعد أن قدّم لي ضمانات بخصوص أمني الشخصي.

كنت آخر الواصلين إلى الاجتماع برفقة صالح عمّاش. وجدنا أبو عمّار ونايف حواتمة هناك، ولكن عدداً من الجنود الأردنيين نظروا إليّ بحقد لحظة دخولي. ثم قال مشهور الحديثي: «الآن وقد وصل الدكتور جورج حبش، أودّ أن أؤكد لكم أنه قد بات بإمكاننا الحصول على ضمانات». عندها عبس أبو عمّار وتوتّرت أعصابه لأنه اعتبر أنني سرقت منه الأضواء. لم أعلّق على ذلك، ولم أشأ أن أعطي الأردنيين فرصة للاستفادة من تناقضات المقاومة. وباسم الوحدة التي كنت حريصاً على صونها صرّحت أمام الجميع بأن أبو عمار هو زعيمنا وبأنني لم أحضر إلى الاجتماع إلا بقصد تكريس الوحدة الفلسطينية. غير أنني كنت أعلم جيداً أنه، في ما يتعلق بالقادة الفلسطينيين، لم نكن جميعاً نحلل الأمور في العمق بالطريقة نفسها. ثم عبّر أبو عمّار عن رغبته في التهدئة مع الأردنيين مع تفضيل وقف المواجهات من الأساس. باختصار، كان هنالك الكثير من الكلام الفارغ في ذلك الاجتماع. أما النقاشات حول تنسيق ممكن في المستقبل فلم يكن هنالك غير الرياء والمخادعة. كنت أعلم أن مواجهات أخرى سوف تقع عاجلاً أو آجلاً مع النظام الأردني لسبب بسيط ووجيه هو أن ذلك النظام مرتبط من رأسه إلى أخمص قدميه بالولايات المتحدة. وجاء الاتفاق اتفاقاً بالحد الأدنى: كان مجرّد محاولة للتنسيق بين النظام والمقاومة الفلسطينية. ولم يقدّم لنا في الحقيقة أي امتيازات.

وخلافاً لتأكيدات النظام الأردني، لم نكن نريد المشاركة في حكومة وحدة وطنية. فالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لم يحدث لها مطلقاً أن سعت إلى أن يكون لها وزراء في حكومة أردنية. ما كنا نريده بالضبط هو الحصول على شيء من الحرية في توجيه الضربات لإسرائيل وفي تعبئة جميع الفلسطينيين والأردنيين

تحت لواء المقاومة. ولتحقيق هذا الهدف كنا نطلب تنسيقاً حقيقياً مع السلطات الأردنية، وليس قراراً مفروضاً بهدف تصفية المقاومة، فما فعله الملك حسين هو أمر لا يغتفر. فقد كان بإمكانه، بفضل تنسيق أكثر فعالية، أن يتجنب كل ما حصل بعد ذلك من معارك ومجازر. إذ بمجرد أنه رفض التراجع، لم يبق هنالك أي مخرج غير المواجهة.

بالنسبة إلينا، بدا لي خلال النصف الأول من العام ١٩٧٠، وكذلك لقسم كبير من الجماهير، أن بإمكان الجبهة أن تغيّر فعلاً وجهة المقاومة لمنع فتح من التفرّد في اتّخاذ القرارات. واعتباراً من تموز/يوليو ١٩٧٠، كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على قناعة بعدم إمكان تجنّب الصدامات مع النظام. كما أنني أطلقت، بعد شهر على ذلك، تلك العبارة الشهيرة التي قلت فيها بأن «المقاومة مستعدة لتحويل المنطقة إلى جحيم». كانت تلك العبارة تختصر الموقف كلّه. كنا أمام وضع لم نلبث أن وقفنا فيه بوجه جميع أولئك الذين كانوا يريدون القضاء على المقاومة.

في تمّوز/يوليو، وافقت كل من مصر والأردنّ على المشروع الأميركي المعروف بمشروع روجرز الذي أنهى حرب الاستنزاف الإسرائيلية-المصرية على ضفّتي قناة السويس. ما كان تأثير ذلك على المقاومة الفلسطينية؟

كما سبق أن قلت لك، كانت المقاومة في تلك الفترة في أوج مجدها. كانت تحلم بتحرير كامل الأراضي الفلسطينية. ولم يكن بإمكانها إذن أن تقبل مشروع روجرز. وهذا ما يفسّر كون موافقة عبد الناصر على هذا المشروع قد أثارت كل ذلك العنف في تظاهرات الاحتجاج التي اجتاحت جميع مخيمات اللاجئين. وفي الجبهة، خيّب موقف الرئيس عبد الناصر أملنا، خصوصاً أن ذلك الموقف قد أحدث انقساماً داخل المقاومة. وكان لموقف عبد الناصر هذا تأثير سلبي كبير جداً على علاقاته مع الثورة الفلسطينية بوجه عام، ومع اليسار بوجه خاص. وقد علمت في ما بعد أن الرئيس عبد الناصر كان يتحدث بالكثير من

المرارة عن تلك التظاهرات وعن الشعارات المعادية التي أطلقتها المقاومة ضده في تلك الفترة. ذلك أن جميع الفصائل الفلسطينية كانت متفقة على رفض تلك المبادرة الأميركية، باستثناء تنظيم صغير بقيادة عصام السرطاوي. وكان البعض يطالبون بتصفية تلك المجموعة الصغيرة. كانوا يتخيلون أن بإمكانهم أن يستأصلوها خلال بضع ساعات. لكن الأمور لم تجر وفق ما كنا نظن. فقد وقعت، على العكس من ذلك، مواجهات عنيفة في مخيم البقعة، وخشيت من توسّعها لتشمل قوى أخرى. وقد شكّلت تلك المسألة بالنسبة إليّ درساً حول خطورة الاقتتال الداخلي: من الأفضل أحياناً أن نأخذ قرارتنا بتروّ وألا نعمل وفق رأي الرفاق المتهوّرين.

في شهر آب/ أغسطس أيضاً، أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية معارضتها رسمياً لاقتراح روجرز حول وقف إطلاق النار. وفي ٦ أيلول/ سبتمبر، قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف أربع طائرات ركاب مدنية إلى المفرق. وفي ١٤ أيلول/ سبتمبر، تمّ تشكيل حكومة أردنية عسكرية برئاسة الفلسطيني محمد داود، وكلِّف قائد الأركان الأردني، الفريق المجالي، فرض تطبيق حالة الطوارئ. والمجالي هو من أنصار اللجوء إلى القوة في التعامل مع الفلسطينيين. وقد ساد الشعور بأن تعيينه كان بمثابة إعلان حرب.

أجل، كان ذلك بمثابة إعلان حرب وتحدٍّ للمقاومة الفلسطينية.

ومن هنا قرّرت منظمة التحرير الفلسطينية توحيد جميع القوى الفلسطينية المسلحة. كما دعت منظمة التحرير والنقابات الأردنية إلى الإضراب العام. هل كانت صرامة الجيش الأردني مفاجئة بالنسبة إليك؟

كنا نعلم أن قيادة الجيش الأردني كانت مستعدة لفعل أي شيء لضرب المقاومة، لذا فإن ذلك لم يكن مفاجئاً بالنسبة إلينا. وقيل بعدها إنّ مسؤولاً يمنياً ذهب لمقابلة عبد الناصر ليعرب له عن استيائه وعن مدى العنف التي لجأ إليه الجيش الأردني في مواجهته مع الفدائيين. وعندها أدرك جمال عبد الناصر مدى

الفظاعات التي ارتكبت بحق الفدائيين والمدنيين، وأرسل في طلب الملك حسين بُغية وضع حدّ لتلك المذبحة.

صحيح أننا كنا موحّدين على مستوى الفصائل الفلسطينية، لكنّ موازين القوى على الأرض لم تكن لمصلحتنا. فقبيل أيلول/سبتمبر، كان تعداد الجيش الأردني في حدود ٧٠ ألف رجل. وقد خسرنا العديد من الرفاق خلال المعارك، ولكن المدنيين تحديداً كانوا في طليعة ضحايا المذابح التي نفّذها الجيش الأردني. أما الأمر الأصعب بالنسبة إليّ فكان وجودي بعيداً عن المقاومة ومعركتها وذلك بسبب سفري في زيارة رسمية إلى الخارج.

كنت فعلاً في زيارة إلى كوريا الشمالية عندما اندلعت أحداث أيلول الأسود. ما الذي كنت تبحث عنه عند كيم إيل سونغ؟

كنت قد تلقيّت، عبر سفارة كوريا الشمالية في اليمن، دعوة رسمية لزيارة بيونغ يانغ خلال الصيف. ولما كان النشاط الدولي للجبهة الشعبية ما يزال في بداياته، فقد كان من الطبيعي أن أقبل هذه الدعوة الأولى التي وجّهت إلينا من الخارج. كان من شأن ذلك أن يسمح لنا بإقامة علاقات مع الدول الاشتراكية، خصوصاً أن هذه الدول كانت تعتبر عموماً أن عمليات خطف الطائرات التي كنا نقوم بها تلحق الضرر بالقضية الفلسطينية، ولا ترغب في تطوير العلاقات مع الجبهة. وقد رافقني في تلك الزيارة ثلاثة رفاق هم هيثم الأيوبي وهو خبير عسكري وصبحي التميمي وغازي الخليلي.

توقفت بنا الطائرة أثناء ذهابنا في موسكو لبعض الوقت، حيث استقبلنا مسؤول سوفياتي، كان من المقرّر أن نراه أثناء عودتنا. وكنت أقول في نفسي إنّ هذه الرحلة الأولى ستفتح الطريق لعلاقاتنا مع موسكو وبقية البلدان الاشتراكية.

وقد ذهلت، طوال زيارتنا لبيونغ يانغ، بمظاهرعبادة الشخص التي كانت تحيط بكيم إيل سونغ الذي تمّ ترتيب زيارة لنا لرؤية قصره، تحديداً، ومسقط رأسه. وخلال زياراتنا إلى مدارس الحضانة أو المصانع كنا نسمع أناشيد في

تمجيده. كما عرضوا علينا منجزات النظام، لكننا لم نتمكن من مقابلة القائد لأنه كان منهمكاً في التحضير لمؤتمر الحزب. ومن جهتنا، شرحنا لهم تاريخ فلسطين وما يواجهنا من مؤامرات. ولاحظت أنهم لا يملكون رؤية عميقة للمسألة الفلسطينية.

إلا أننا تمكنا من الحصول على مساعدة عسكرية كانت عبارة عن ٥٠٠ كلاشنكوف، كما حصلت شخصياً على هدية من كيم إيل سونغ كانت عبارة عن لوحة مطرّزة يدوياً تمثل امرأة كورية تعمل في الحقل وترفع قطعة سلاح بيدها استعداداً للقتال. وما زلنا نعلّق تلك اللوحة على جدار غرفة الاستقبال في بيتنا حتى اليوم بكل اعتزاز.

كنت أعلم أن مواجهات حزيران/ يونيو في الأردنّ لن تكون الأخيرة. وأدركت أن النظام بصدد التحضير لعمل ما، ولكنني لم أتصوّر أن المعارك ستندلع بمثل تلك السرعة. وعندما علمت ببداية الهجوم القاتل قررت على الفور إنهاء الزيارة إلى كوريا الشمالية التي كانت محددة بأسبوعين. وقد اتصلنا بالسفارة الصينية للمرور عبر بكين لعدم وجود رحلات مباشرة انطلاقاً من كوريا الشمالية. وقد فوجئت بالسرعة التي استجاب بها الصينيون لمطلبنا. وكان علينا أن ننتظر لمدة يومين في الصين قبل أن نتوجه إلى عمّان. وقد اعتبر الصينيون زيارتنا هذه بمثابة زيارة رسمية. ولا بد من الاعتراف هنا بأن الدعم الصيني لحركات التحرر في تلك الفترة كان يفوق دعم الاتحاد السوفياتي. وأتذكر جيداً ما قاله أحد المسؤولين الصينيين عن إسرائيل حيث وصفها بأنها «قاعدة إمبريالية صهيونية رجعية في الشرق الأوسط يجب اجتثاثها، وإن الصين لن تعترف بها على الإطلاق».

دار النقاش خصوصاً حول مسألة خطف الطائرات. وقد شرحنا لهم موقفنا، فأبدوا تفهّماً لوجهة نظرنا وإن عبّروا عن تحفّظهم حيال خطف الطائرات. ونصحونا باعتماد وسائل أخرى للتعريف بقضيتنا، معتبرين أن خطف الطائرات من شأنه أن يؤثّر سلباً على القوى التي تساندنا. قمنا أيضاً بزيارة بعض القواعد العسكرية، إلا أنه لم يكن من الممكن أن نلتقي ماو تسي تونغ بالنظر إلى عدم

الترتيب مسبقاً. كنت في تلك الفترة أميل إلى الموقف السياسي الصيني، لكن أحد أهمّ مبادئنا كان يركز على أهمية وحدة المعسكر الاشتراكي. لم يكن بإمكاننا إذن أن نلعب كثيراً على الخلافات داخل الكتلة الاشتراكية.

وفي موسكو، أثناء عودتنا، أخبرنا أحد المسؤولين بأن أية لقاءات سياسية معنا لن تتم بسبب الطائرات التي كنا قد قمنا بخطفها إلى الأردن. كان السوفيات يعتبرون أن تلك العمليات قد أحدثت صدمة دولية كبيرة جداً. وقد انتقد ذلك المسؤول تلك العمليات وطلب إلينا أن نكفّ عن القيام بها.

وعندما وصلنا إلى بيروت علمنا أن المعارك قد توقفت، وأن الجامعة العربية قد نظمت لقاءً في القاهرة لوضع حدّ لأيلول الأسود وإيجاد حل بخصوص الوجود المسلّح للثورة الفلسطينية في عمّان. وقد أخبرني الدكتور وديع حدّاد بتفاصيل المجازر التي ارتكبها النظام الأردني بحق الفدائيين. وعلى الرغم من حزني شعرت بالارتياح عندما علمت أن المقاومة كانت موحّدة خلال المعارك. وقد كتبت رسالة إلى أبو عمّار امتدحت فيها موقفه خلال المواجهات. ومن جهة أخرى، ارتحت إلى موقف الجبهة في مخيّم الوحدات. لكنني تألمت في المقابل عندما علمت بمقتل الرفيق سمير بيطار، ذلك الشاب السوري الواعد جداً الذي كان مديراً لمكتبي وكان من المفترض أن يكون في عداد وفدنا إلى كوريا الشمالية. كما تألّمت لاستشهاد العديد من الرفاق الذين دافعوا عن الثورة حتى الرمق الأخير وللخسائر الجسيمة بين المدنيين.

بذل عبد الناصر جهوداً مضنية في اجتماعات مكثفة لتسوية الأوضاع بين الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية لحقن الدماء مما سبب له إرهاقاً كبيراً تُوفّي على أثره بأزمة قلبية. وجاءت وفاة الرئيس عبد الناصر خلال أسابيع الانتظار الثلاثة التي أمضيناها في بيروت قبل عودتنا سرّاً إلى الأردن. وأتذكر جميع التظاهرات العفوية التي خرجت عند إعلان نبأ وفاته في الإذاعات. لقد نزل الملايين إلى الشوارع ليبكوا فقدان ذلك القائد الكبير. بكيت بكاءً مريراً وأنا أسمع الهتافات التي كانت تطلقها الجماهير، وتذكرت عندها لقاءاتي مع ذلك

القائد التاريخي الكبير والشجاع الذي سجّل له التاريخ كونه قد مثّل مرحلة أساسية من مراحل انبعاث الأمّة العربية.

كيف وجدت رفاقك عند عودتك إلى الأردنّ؟

كان من الواضح أن أحداث أيلول/ سبتمبر قد شكلت ضربة قوية للثورة. وكانت مسألة وجود الثورة في الأردن قد أصبحت مطروحة على بساط البحث: هل كان علينا أن نبقى في الأردنّ؟ كنت أعلم أنني سأواجه، إذا ما عدت، وضعاً معقّداً. شعرت بالمرارة بسبب غيابي عن المعركة. كانت عودتي إلى الأردن مخاطرة كبيرة. ولم يعد بإمكاني أن أذهب إلى الوحدات، بل بات عليّ أن ألتحق بالفدائيين بأحراش جرش، التي كان مسموحاً لقوات المقاومة بالبقاء فيها، وفقاً للاتفاق الذي عُقد بإشراف الجامعة العربية بين النظام الأردني والمقاومة الفلسطينية.

لقد تشتت القياديون في الجبهة. كان بعضهم في عمّان والبعض الآخر اتخذوا مواقع لهم في جرش. وقد لاحظت أن تغيّراً قد حدث في قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أثناء غيابي. ولم أكن راضياً عن ذلك، وفسّرته كنتيجة لرغبة بعض الرفاق المعارضين لخطي السياسي. وعليّ أن أعترف بأن غيابي قد أثّر موقّتاً في قدرتي على ضبط الوضع داخل الجبهة. يقول المثل العربي إنّ الهزيمة يتيمة، وكان هذا المثل ينطبق على الجبهة. كان الجميع يتهربون من مسؤوليتهم ويلقونها على الآخرين. لكن كان عليّ أن أقف على قدميّ لكي أحدّد الأخطاء وأفصح عنها للجميع.

وكانت أولى مهماتي هي الدعوة إلى اجتماع استثنائي للجنة المركزية في جرش. وكانت الصعوبات ناشئة عن الوضع المضطرب داخل الجبهة، وكذلك عن المعطى النوعي الجديد الذي كان من الضروري أن يؤخذ في الاعتبار من أجل تحديد خطنا السياسي والعسكري. كان النظام الأردني قد استعاد قوته العسكرية عبر تنظيم جيشه وتسليحه مجدداً من الناحيتين الكمّية والنوعية، كما أعاد النظر في

تنظيم جهاز مخابراته. أما إسرائيل فكانت قد اتخذت، من جهتها، جميع الإجراءات الضرورية على الحدود بين الأردنّ والأراضي المحتلة، مما جعل المواجهة مع الجنود الإسرائيليين أكثر صعوبة من ذي قبل. وفي الوقت نفسه لم تكن الثورة قد عزّزت قواعدها داخل فلسطين. وأخيراً كانت مذابح أيلول/ سبتمبر قد بيّنت بوضوح تصميم الإدارة الأميركية على دعم النظام الأردني وإسرائيل في مواجهة الثورة الفلسطينية، ذلك لأن الأميركيين كانوا يخشون امتدادها في المنطقة وما يشكّله ذلك من تهديد لمصالحهم الاستراتيجية في الشرق الأوسط، على ما اعترف به كل من ريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر في مذكراتهما في ما بعد.

وفي المقابل، كان الاتحاد السوفياتي يدعم منظمة التحرير الفلسطينية سياسياً، لكنه لم يكن مستعداً لمساندتها على المستوى العسكري. كان ذلك كلّه واضحاً وغير مفاجئ في نهاية المطاف. غير أن ما لم يكن متوقعاً تمثّل بموقف النظامين العراقي والسوري اللذين لم تتحرّك جيوشهما لدعم المقاومة خلال أيلول/ سبتمبر الأسود. ومع ذلك، كانت بغداد تؤكد، قبل المذابح، أنها لن تسمح بأي شكل بتصفية المقاومة في الأردنّ، وأنها ستقف إلى جانبها إذا ما تعرّضت للتهديد. وعندما بدأت الصدامات لم يفعل الجيش العراقي، الذي كان مرابطاً على الأراضي الأردنية، غير التفرّج على الأحداث. أما سوريا التي كانت تنادي بحرب التحرير الشعبية فقد تراجعت سريعاً أمام هذا الوضع الجديد المعقّد. كان علينا إذن أن نأخذ كل هذه العناصر الموضوعية في الاعتبار.

ضمن اتفاق أردني- فلسطيني تمّ التوصّل إليه في ١٣ تشرين الأول/ أكتوبر «استمرار عمل الفدائيين واحترام سيادة الأردنّ ضمن الحدود التي يفرضها القانون، باستثناء ما هو ضروري لعمل الفدائيين». ألم ينصّ هذا الاتفاق على غالب ومغلوب؟

الواقع أن هذا الاتفاق كان ينصّ على وجوب تراجع المقاومة. لكنّ الفدائيين لم يكونوا مستعدّين للتراجع. والمفارقة أن معنوياتهم كانت في وضع جيد. وقد

أصبح من بين أهدافنا للمرّة الأولى، منذ انسحابنا إلى جرش، قلب النظام في الأردن لأنه كان متحالفاً مع أميركا وإسرائيل ومصمّماً على وضع حدّ نهائي لوجود المقاومة الفلسطينية. ولما لم تكن جميع المنظمات الفلسطينية قد وافقت بعد على القرار الذي اتخذناه، قررنا أن نقطع الجسور مع النظام الأردني.

لماذا كنتم تفضّلون مواصلة النضال انطلاقاً من الجبال الأردنية، بدلاً من الالتجاء إلى لبنان؟

على الرغم من الوضع الصعب والبالغ الخطورة، كنت متمسكاً بمواصلة النضال المسلّح انطلاقاً من الأردنّ. إذ ما الذي سيحلّ بالمقاومة إذا ما فقدنا الساحة الأردنية بشكل كامل؟ لم يكن لبنان مستعداً بعد لاستقبالنا. لذا كنت مقتنعاً بعمق بضرورة بقائنا في الأردنّ. ولتحقيق ذلك كان لا بد لنا من اتخاذ موقف هجومي، بدلاً من تراجع كان من شأنه أن يقودنا بالتدريج إلى قبول جميع مطالب النظام الأردني.

وانطلاقاً من اجتماع اللجنة المركزية للجبهة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠، بدأنا بالدفاع عن قواعدنا في الجبال الواقعة بين جرش وعجلون، في وجه الجيش الأردني الذي كان يحاول تطويقنا وحصارنا بهدف تصفيتنا.

كان الدفاع الفلسطيني يومها مشتركاً بين مختلف التنظيمات. ولكن، عند العودة إلى المخيّم، كان كل واحد يقوم بأعماله المعتادة. كان الجيش الأردني يهاجمنا بالأسلحة الثقيلة. وكان يمتلك الدبابات أيضاً. وأتذكر الفرح الذي كان يشعر به بعض المقاتلين عند تحقيق انتصارات تكتيكية. لكنني وكنت أتوقع حصول هجمات أردنية أخرى، كانت لجنة المصالحة العربية قد اتخذت مواقف واضحة جداً إلى جانب النظام الأردني. وكان أبو عمار من جهته يقبل النقاش بكل مودّة مع ممثلي الجامعة العربية. وفي أحد الأيام طلب عقد اجتماع لجميع الفصائل في الجبل. وظننت أن علينا أن نتخذ موقفاً جماعياً يقضي بالدفاع عن قواعدنا، لأن المقاومة كانت ما تزال تمتلك قوات يمكنها أن تواجه النظام. لكن

ما حصل هو عكس ذلك. وقد وجّه أبو عمّار تهديدات إلى كل من لا يحترم تعليماته وتعليمات لجنة المصالحة العربية. حتى أن أبو الزعيم، وهو أحد قياديي فتح، أنذرنا بأنه مستعد لاستخدام السلاح لضرب كل من يمتنع عن تنفيذ أوامر عرفات. وفي اللحظة ذاتها، أُغلقت أبواب القاعة التي كنا مجتمعين فيها. عندها، وقفت وأوعزت إلى حراسي بأن يكونوا مستعدين لحمايتي. لكن أحداً لم يجرؤ على مهاجمتي لحسن الحظ، فتوجهت مباشرة إلى مركز قيادة الجبهة في الجبل، إلا أنه كان من الواضح أن المقاومة لم تكن تسير في الوجهة التي تتمنّاها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كان أبو عمّار يسير في خط الرضوخ للجنة المصالحة العربية.

وشيئاً فشيئاً، كثّف الجيش الأردني من هجماته على قواعد المقاومة، وأصبحنا في موقع الدفاع(٢). وفي أحد الأيام سقطت قذيفة قريباً جدّاً مني فحماني الرفاق بأجسادهم. ومع اشتداد الهجوم الأردني جمعت رجالي لأُخطرهم بالوضع، وقلت لهم إنه قد أصبح بالغ الصعوبة، وإن من يريد حماية الثورة فنحن نحتضنه بكل سرور ويحظى بتقدير القيادة؛ أما من يعتقد أنه لم يعد قادراً على مواجهة الخطر فإننا لا نلومه بل نسهّل له العودة إلى عمان. وقد اختار عدد قليل من أفراد الجبهة الشعبية أن يعودوا إلى العاصمة الأردنية. لكن معظمهم كانوا يتمتعون بمعنويات عالية، ومنهم الرفيق أبو سمير حمدي مطر الذي راح يمزح رافعاً صوته بأهازيج وطنية.

كنت خلال تلك الأيام الصعبة أكرّس شيئاً من وقتي لإعداد الوثائق حول نظامنا الداخلي في إطار التحضير للمؤتمر المقبل. وكانت زوجتي هيلدا تبعث إليّ بالرسائل من بيروت وبأشرطة أم كلثوم، ما زلت أذكر أغنيتها «بعيد عنك»، كما أنها كانت ترسل إليّ حلويات لذيذة جداً وزجاجات عطر، وكل ذلك كان

---

(٢) في ١٧ تموز/يوليو، أدلى الملك حسين بتصريح قال فيه: «أعتقد أن الصدامات مع الفدائيين قد انتهت».

يرفع من معنوياتي. كنت أقدّر مشاعرها نحوي وأشعر بما تحسّ به من قلق. وما زلت أتذكر ليلة رأس السنة حيث غنيت أنا وأفراد مجموعتنا رغم الحصار العسكري المضروب حولنا. وخلال إحدى جولاتي على قواعد الجبهة، أثناء فترة هدأ فيها القتال، التقيت أحد المقاتلين الشباب واستشففتُ من قسماته أنه لم يكن عربياً. سألته من أين أتى، فأجابني بأنه من أميركا اللاتينية، وأنه كان مشغوفاً بالثورة الفلسطينية وراغباً في أن يصبح واحداً من مقاتليها. وكان صغير السنّ، في حدود العشرين من عمره. وقد كان الدكتور وديع حدّاد يجنّد أحياناً مقاتلين أجانب للمشاركة في بعض العمليات الخارجية، وكان ذلك الشابّ واحداً من أولئك الذين تمّ اختيارهم لتلك العمليات. وهكذا اكتشفت كارلوس الذي أصبح مشهوراً جداً في ما بعد والذي يقبع الآن في سجون فرنسا.

وبين تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٠ وآذار/ مارس ١٩٧١ تقريباً، كنا نقاتل انطلاقاً من جرش. ثم أُجبرنا على اللجوء إلى الجبال أو المغاور في عجلون، حيث بقينا هناك لمدة أربعة أشهر أو خمسة أخرى، نشبت خلالها معارك ضارية بين الجيش الأردني ومقاتلينا استمرت لغاية تموز/ يوليو ١٩٧١.

لا يمكنني أن أنسى ما واجهناه من ظروف صعبة في تلك الفترة. كنا نقيم داخل المغاور في أحراش جرش التي كانت تفيض بمياه الأمطار الغزيرة. كان البرد قارساً والحصار محكماً وفي منتهى القسوة، عانينا شح المواد الغذائية ومياه الشرب. لكننا احتفظنا على الدوام بمعنوياتنا وبتصميمنا العنيد جداً. وقد انتهت المعارك لمصلحة النظام، ولم نكن نمتلك مقومات الانتصار أو الصمود إلى ما لا نهاية في تلك الظروف القاهرة وفي غياب الدعم العربي فقررنا الانسحاب من الأردن بعد معارك ضارية وغير متكافئة، عندها قررنا الانتقال إلى لبنان. وبعد وصولي إلى بيروت لحق بي عدد من كوادر الجبهة. وقد تمّ التخلي عن قواعدنا في الأردنّ، ولم يبق في عمّان غير بعض الرفاق، في حين سُجن بعضهم الآخر في الجفر.

الفصل السادس

خطف الطائرات والعلاقة مع وديع حداد

في السادس من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠، كنت في كوريا الشمالية عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بخطف أربع طائرات مدنية إلى المفرق. من اتخذ هذا القرار؟

وضعني الدكتور حدّاد في أجواء بعض التفاصيل؛ قال لي إنه بصدد التحضير لعملية ستكون مفيدة جداً لقضيتنا. كنت أعلم إذن بأن الجبهة ستقوم بعمل ما، وكان وديع حدّاد يعرف مسبقاً وجهة نظري في ما يتعلق بخطنا العسكري. كنت موافقاً تماماً على ذلك من حيث المبدأ، لكن وديع كان هو من يهتم بالتفاصيل. أما المكتب السياسي للجبهة فلم يكن على علم بتفاصيل عملية الخطف، علماً بأنه كان قد وافق مسبقاً على هذا النوع من العمليات إلا أنه لم يكن يعرف تفاصيل أية عملية سوى المسؤولين عن التخطيط لها والمنفذين.

كانت عمليات خطف الطائرات الغربية إلى مطار الثورة تشكّل أمراً ضرورياً للمقاومة. كنا مقتنعين فعلاً بأن النظام الأردني ينوي أن يمنع بشكل نهائي النضال الفلسطيني المسلح ضد إسرائيل انطلاقاً من أراضيه. لذا كنا نريد القيام بعمل مدوّ بُغية مواجهة ذلك. لكن ينبغي التوضيح أن الهدف الوحيد لعمليات خطف الطائرات تلك كان مبادلة أسرى إسرائيليين بسجناء فلسطينيين في سجون العدوّ. لم تكن تلك العمليات موجّهة البتة ضد الحكومة الأردنية ولا ضد الحكومات الغربية. وقد استغرق التحضير لتلك العمليات ستة أشهر تحت إشراف وديع

حدّاد. وخلال التخطيط للعمليات بدا له أن من المهم أن نكون قادرين على حماية المكان الذي ستهبط فيه الطائرات إذا ما حدثت إشكالات ما. وكانوا قد هيأوا أنفسهم بحيث يتمكنون من مواجهة كل الاحتمالات.

كانت الخطة تقضي بخطف أربع طائرات: أميركية وإسرائيلية وسويسرية وبريطانية. وبالفعل تم ذلك، وهبطت الطائرات المخطوفة في منطقة المفرق الصحراوية.

كيف عاملتم الرهائن؟

بدأنا بإطلاق النساء والأطفال والشيوخ وتمّ نقلهم إلى عمّان حيث كان بإمكانهم أن يعودوا إلى بلدانهم. وبعدها قمنا بفرز الركاب، وبنتيجة الفرز أطلقنا تسعة منهم. أما الباقون فكانوا مواطنين يحملون هويّات مزدوجة. وبعد التحقيق، تبيّن لنا أن بعضهم كانوا إسرائيليين، إذ تمكن أحد رفاقنا من العثور على جوازات سفر إسرائيلية بحوزتهم. وهكذا وجدنا بينهم خمسة عشر إسرائيلياً وقمنا بوضعهم على حِدة.

وبعد ذلك بقليل، تلقينا اتصالاً من وزير الدفاع العراقي، صالح عمّاش، طالبنا بإطلاق الرهائن، لكننا لم نستجب له. وكنا، منذ البداية، قد طلبنا إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن تتابع مطلبنا المتعلق بالسجناء الفلسطينيين في إسرائيل. ومن جهته، حاول أبو عمّار أن يقوم بوساطة عبر وفد أرسله لمقابلة رفاقنا. وكان يرى أن المنطقة قد بدأت تتعرّض لضغوط سياسية، وأن علينا أن نطلق الرهائن لهذا السبب. وبعد ذلك اتهمتنا الفصائل الفلسطينية بأننا أشعلنا الشرارة التي أشعلت أحداث أيلول الأسود، علماً بأن قطار المخطط الأردني الرسمي الهادف إلى تصفيتنا كان قد بدأ، قبل ذلك، بالمسير على سكّته المرسومة.

وقد حاولت فتح تنفيذ مناورة بأن أرسلت رجالاً مسلّحين ومتنكرين بزيّ

تقنيين سمحنا لهم بالصعود إلى متن الطائرات بعد أن زعموا أنهم سيقومون بإجراء فحوصات عليها. لكن هذه الحيلة باءت بالفشل عندما حاول أحدهم عبثاً أن يسيطر على إحدى الطائرات. وكان ردنا على ذلك هو التوقف عن السماح لأي أحد بالصعود إلى متن الطائرات. ومع تفاقم المشكلة قرّر رفاقنا تفجير الطائرات، بعد أن نقلوا الرهائن إلى عمّان من أجل مواصلة التفاوض مع الهيئات الدولية المعنية. ولكن عملية حماية الرهائن لم تلبث أن أصبحت أكثر صعوبة مع بدء الصدامات بيننا وبين النظام الأردني. عندها أعلمتنا السفارة المصرية في عمّان أن الرئيس عبد الناصر يتمنّى علينا إنهاء هذه المشكلة، عارضاً أن تتولّى الحكومة المصرية أمر هذه العملية، على أن يتم نقل الرهائن إلى القاهرة لإنهاء المفاوضات. وبالنظر إلى الوضع المستجدّ في الأردن، أصبحت مشكلة الرهائن ثانوية بالقياس على المذابح التي ارتكبت بحق مقاتلينا. وكان مصير ثورتنا أكثر أهمية من الاحتفاظ بالرهائن. وهكذا انتهت عملية خطف الطائرات دون أن نتمكن من بلوغ هدفنا بتحرير سجناء فلسطينيين في السجون الإسرائيلية. وقد استمرت هذه القضية حتى ١٣ أيلول/ سبتمبر، أي طوال أسبوع كامل. وهنا أريد أن ألفت الانتباه إلى أننا لم نفكر لحظة واحدة في المساس بحياة الرهائن، وأن العملية قد انتهت دون أن تراق فيها نقطة دم واحدة.

ما هو، بالضبط، الدور الذي لعبه وديع حداد في عمليات خطف الطائرات؟

كان الدكتور وديع هو المسؤول عن العمليات الخاصة للجبهة ومسؤول المجال الخارجي. وكان قد زار مسرح العملية قبل أيام من تنفيذها، ثم غادر الأردنّ وواصل تنفيذ عمليات الخطف انطلاقاً من أحد البلدان المجاورة. كان يتابع خط سير الطائرات على الخارطة في أنحاء العالم كافة ولديه نظرة ثاقبة للأمور وفريق عمل ذو كفاءة عالية.

عمليات اختطاف الطائرات هذه، وما رافقها من احتجاز الرهائن، نُظر إليها في الغرب على أنها أعمال إرهابية. ألم تُلحق تلك العمليات ضرراً بالقضية الفلسطينية؟

كان الهدف الأساسي لعمليات خطف الطائرات هو إخراج المسألة الفلسطينية من دائرة النسيان، وعرضها أمام الرأي العام العالمي، لأنها لم تكن معروفة لا في أوروبا ولا في الولايات المتحدة. كان الجهل بعذابات شعبنا عائداً بشكل أساسي إلى احتكار الحركة الصهيونية لوسائل الإعلام الغربية. وكان علينا أن نكسر هذا الاحتكار عن طريق تلك العمليات. لكن الموضوع الذي تثيره يعيدنا إلى نقاش قديم. أتذكر أن بعض أساتذتنا في الجامعة الأميركية في بيروت كانوا يلفتون انتباهنا إلى عزلة قضيتنا؛ كانوا يطلبون إلينا أن نقوم بعمل ما لتنبيه الرأي العام، خصوصاً في الولايات المتحدة. وقد فكّرنا بعد ذلك في الوسائل التي يمكننا من خلالها أن نلفت الرأي العام إلى قضيتنا؛ وخلال فترة الستّينيات اعتمدنا أسلوب خطف الطائرات كوسيلة لإثارة القضية الفلسطينية على الصعيد العالمي.

نفّذنا أولى عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٦٨. لم أكن على علم بالتخطيط لها، لأنني كنت يومها سجيناً في سوريا. لكنني كنت قد عهدت إلى وديع بالمسؤولية عن جميع الأنشطة الخارجية. وكان وديع هو من خطط إذن لتلك العملية. وكنت على ثقة كاملة به، وأترك له حرية التصرّف في تلك الفترة. لا يمكنكم أن تتصوّروا فرح السجناء الآخرين عندما علموا بالعملية حتى أن بعضهم أخذ يرقص داخل الزنازين.

بعد كل عملية من هذا النوع، كان يتم إجراء تحليل نقدي. وقد اعتبرنا، بعد أن نفّذنا سلسلة من تلك العمليات، أن الخط الذي اعتمدناه في هذا المجال قد أسهم في تحقيق أهدافنا، وبات علينا أن نتوقف عن القيام بهذا النوع من العمليات لكسب تأييد الرأي العام العالمي لقضيتنا.

كنا مقتنعين منذ البداية بأن هذه الأعمال لا تشكّل وسيلة ضغط كافية على

الغرب، ولا تسمح بإدخال تغيير أساسي في المواجهة مع إسرائيل؛ ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة لتعريف العالم كلّه بقضيتنا.

ولهذا قررنا، عندما تحقق لنا هذا الهدف، التوقف عن خطف الطائرات. وقد تم اتخاذ هذا القرار الشجاع خلال المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي انعقد في بيروت عام ١٩٧٢. كان وديع يريد مواصلة القيام بتلك العمليات لاعتقاده بأنها ما تزال ناجعة في خدمة القضية الفلسطينية. كنتُ أكنّ له الكثير من الإعجاب بالتأكيد، وكانت تربطني به علاقة فريدة واستثنائية، لذا عرفت كيف أكون صبوراً معه، حتى اللحظة التي قرر فيها المكتب السياسي واللجنة المركزية تجميد عضويته في الجبهة الشعبية. لكن انفصالنا كان موقّتاً وحسب.

إذن، قام وديع حدّاد، بعد ذلك، بتشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - العمليات الخاصة. أليس كذلك؟

أجل، حتى وإن كان يردد أن تنظيمه يشكّل جزءاً لا يتجزأ من الجبهة الشعبية. وقد واصل وديع تنفيذ عملياته باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - العمليات الخاصة. وكانت آخر عملياته الهامة هي عملية عنتيبي في العام ١٩٧٦.

واعتباراً من العام ١٩٧٢، بات الدكتور وديع حداد مستهدفاً من قبل إسرائيل. وذات مرّة تعرّض منزله لقصف صاروخي إسرائيلي، وقد أصيبت زوجته وابنه بجروح متوسطة ونجا هو بأعجوبة. كان يعلم بأنه مهدد.

كان حذراً يتخذ الإجراءات الكفيلة بحمايته، لكن رغم ذلك استطاع الموساد قتله بالسم كما تمّ الاعتراف بذلك بعد ثلاثين عاماً. كنت أشك شخصياً في عملية التسميم تلك، أما زوجتي فكانت مقتنعة تماماً بذلك وبأن الموساد يقف وراء اغتياله. كان وديع في كامل لياقته البدنية ويتمتع بحيوية وصحة جيدة ويقضّ مضاجع الصهاينة، وقد رأيناه في بغداد قبل شهرين من وفاته ثم انهار في غضون تلك المدة، وانتهى إلى فقدان الكثير من وزنه. وقد ذهب إلى الجزائر طلباً

للعلاج، وعندما ساء وضعه الصحي اتخذتُ من هنا قراراً بنقله إلى ألمانيا الديموقراطية على أمل إنقاذ حياة هذا المناضل الكبير الذي كان رفيق دربي. كان الجزائريون يعتقدون أنه قد سُمّم إلاّ أنهم لم يتحمّلوا مسؤولية الإعلان عن ذلك. لكننا كنا نعلم أنه حتى لو اكتشفنا وجود أمر غير طبيعي، فإن ذلك لن يظهر في تقرير طبي. وأخيراً توفي الدكتور وديع في ألمانيا الديموقراطية عام ١٩٧٨، ودُفِن في بغداد حيث أقيمت له جنازة مهيبة. وقد ذهبنا، زوجتي وأنا، من لبنان إلى بغداد للمشاركة في مراسم الجنازة. كان معظم أصدقائه هناك. ومن سخرية القدر أنه كان، في كل مرة نتقابل فيها، بعد القطيعة بيننا، يبدي قلقه بشأن صحتي ويقول لي إن عليّ أن أحترس من أعدائي. وفي النهاية، كان هو من ذهب أولاً. كان موت ذلك الرجل العظيم خسارة كبيرة للشعب الفلسطيني ولقضيته. وستبقى ذكراه حيّة في وجداني وفي وجدان كل محبيه.

حدِّثنا عن علاقاتك بوديع حداد.

كان وديع أقرب رفاقي إليّ وأقدمهم في قضية الكفاح والنضال. وتعود علاقتنا إلى سنوات الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت. وكنت أكنّ له احتراماً كبيراً جداً، حتى بعد أن اختلفنا في أساليب العمل. كان رجلاً صادقاً أعطى كل شيء للقضية الفلسطينية. وكان يعيش ألم الفلسطينيين وعذاباتهم، وهم الذين طرِدوا من بلدهم، شأنهم شأن أسرته، عام ١٩٤٨. وقد كان بالغ النشاط والحيوية في عمله، كما كان صلباً في قراراته لا يهاب شيئاً، ويصل الليل بالنهار دون أن يأخذ لنفسه ولو قسطاً بسيطاً من الراحة. كم أتمنّى لو أُتيح لجميع الذين نعتوه بالإرهابي أن يعاشروه، لأنهم سيكتشفون فيه كائناً استثنائياً. إنني أتكلم عن رفيقي وديع، الإنسان والمكافح. لقد تمتّع بذكاء حادّ وطاقة مذهلة على العمل. وكان نظيف الكف ومات دون أن يترك شيئاً لعائلته. كان مثال الإخلاص ونكران الذات. إنني أستحضر كل تلك الحملات التي استهدفته من قِبل وسائل الإعلام الغربية التي كانت تقدّم نضالنا، في تلك الفترة، على أنه من صنع منظمة إرهابية،

علماً بأن الغرب لم يتورّع عن شيء، طوال تاريخه، من أجل خدمة مصالحه وتجويع الشعوب وتدبير الانقلابات العسكرية وحماية الزعماء الدكتاتوريين الذين ما زالوا يحكموننا حتى اليوم.

كان وديع قد رأى في فترة مبكرة أهمية ضرب الغرب حيث يكون الضرب أشدّ إيلاماً. وعلى هذا الأساس خطط لعملية خطف ناقلة النفط، كورال سي، في مضيق البوسفور، بهدف تنبيه الرأي العام الغربي إلى أهمية سلاح النفط الذي كان ينبغي استعماله في نظره. كما أنه خطط لكثير من العمليات ضد المصالح الإمبريالية. كان شعاره التاريخي الذي أطلقه: «وراء العدو في كل مكان». لقد كان وديع حداد شخصية نادرة بكل المقاييس وظاهرة تستحقّ الدراسة.

هل تلقّى وديع تدريباً في الخارج؟

كان وديع يهتم بقراءة تجارب حركات ثورية أخرى، كالتجربة اليمنية على سبيل المثال. ولكنه لم يتلق تدريباً خاصاً. كان العراق يقدّم له معونات لوجستية. وكان هو يتدبّر أمره في كل عملية من عمليات خطف الطائرات من أجل الحصول على خرائط الطيران ويتابع خط سير الطائرات. وكما سبق أن قلت، كان يلعب دوراً أساسياً في استقطاب الرفاق، بمن فيهم الأجانب، ممن كان عليهم أن ينفّذوا عمليات في الخارج. وفي هذا المجال كان هو من زكّى ترشيح كارلوس. وكان يلعب دوراً في المجال المالي داخل الجبهة، ويشرف على تمويل العمليات، في حين لم يكن يأخذ قرشاً واحداً لعائلته على الصعيد الشخصي.

ما كان تأثير عملياتكم العسكرية، وخطف الطائرات تحديداً، على القاعدة الشعبية الفلسطينية؟

شكّلت تلك العمليات عاملاً رئيسياً من عوامل الانضمام إلى الجبهة. فقد أسهمت في جذب أكبر عدد ممكن إلى جبهتنا. لذا لم يكن من السهل علينا أن نتوقف عن القيام بتلك العمليات. إذ إن الظلم الذي يُمارَس بحق شعبنا كان قد

دفعنا، في البداية، إلى التفكير في إيجاد وسائل ناجعة من أجل تغيير نظرة العالم إلى قضيتنا. كان علينا أن نطلق صرخة بوجه الأسرة الدولية، وفعلنا ذلك من خلال خطف الطائرات كردّ فعل طبيعي. وقد دفع ذلك بالقضية الفلسطينية إلى مسرح الأحداث. إلا أننا فضّلنا، بعد فترة، أن نأخذ في الاعتبار موقف الرأي العام العالمي من تلك العمليات فقمنا بالإعلان عن توقفها.

هل كانت روحية التنافس موجودة بين الفصائل الفلسطينية؟

بالتأكيد. كان الأمر متعلقاً نوعاً ما بتنفيذ أكبر قدر من العمليات من أجل تأكيد الوجود على الساحة. لكننا لم نلبث أن بدأنا بالبحث شيئاً فشيئاً عن دوافع أخرى لنضالنا.

كان التنافس شديداً يومها من أجل إحكام السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية. ولتحقيق هذا الهدف حرصنا على الاستناد إلى أوراق أخرى كخطنا السياسي أو نوعية تنظيمنا. كنا دقيقين جداً داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كانت قد اعتمدت نظاماً ذا قواعد لا بد من احترامها. كنا نضع برنامجاً تثقيفياً للأعضاء الجدد، ونبيّن لهم، بنداً بنداً، ما ينبغي أن يكون عليه برنامجهم التثقيفي، إن على مستوى الإيديولوجيا أو على مستوى الثقافة والسياسة. كان عليه أن يتقبل النقد وأن يمارس النقد الذاتي. لم يكن للأعضاء في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حرية التصرّف حتى على المستوى الشخصي. كنا قد أنشأنا نوعاً من لجنة للرقابة الأخلاقية، وكان على الأعضاء أن يقدّموا إجابات أمام تلك اللجنة، في حال حصول أي انحراف أو تجاوزات.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هي التنظيم الرئيسي خلال فترة النضال في الأردن. وكان ينضمّ إليها المنتسبون الجدد بالآلاف. أما في بيروت، فقد شكلت قوة هامّة احتلت الموقع الثاني من حيث الأهمية. وكانت فتح هي التي تحتل الموقع الأول. ولكن الفرق الحقيقي بين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفتح كان يكمن، في ما يتعدّى الجانب العددي، في واقع أن كل عضو في

تنظيمنا كان عليه أن يحضر اجتماعاً واحداً على الأقل في الأسبوع ليكوّن لنفسه فكرة عن خط الجبهة السياسي وعن مستجدات القضية الفلسطينية. كان على كل عضو أن يلتزم الخط السياسي ويتقيّد بالنظام الداخلي وكل القرارات الصادرة عن القيادة. هذا الفهم العام كان غائباً داخل فتح. كانت فتح حزباً يجمع في صفوفه ألواناً شتّى من المنتسبين. وكانت الكمّية عندهم أكثر أهمية من النوعية، ولم يكونوا يتابعون المنتسبين. أما الشخص الذي يرغب في الانضمام إلى الجبهة الشعبية فكان عليه أن يخضع مسبقاً لفترة اختبار من ستة أشهر.

ما هو الأثر الذي تركته على حياتك الخاصة تلك العمليات التي كانت توصف بالإرهابية من قبل إسرائيل والغرب؟

عند عودتي إلى لبنان كنت سعيداً جداً، على المستوى الشخصي، رغم خسارتنا لمواقعنا في الأردنّ، لأنه أصبح بإمكاني أن أعيش مع أسرتي. كانت ابنتاي تكبران. وأصبحت أراهما أكثر من السابق، حتى وإن كانت الظروف الأمنية لا تسمح بذلك على الدوام. كنت أكرّس كل طاقتي ووقتي للمقاومة، وكنت مستعداً لبذل كل شيء من أجل القضية الفلسطينية، لكن كل ذلك كان على حساب أسرتي.

كانت إسرائيل قد وضعت اسمي، بعد عمليات خطف الطائرات، على لائحة النشطاء المطلوبين من قِبل أجهزتها الأمنية، مما فرض عليّ عدم إهمال الجوانب الأمنية ذات الصلة بشخصي.

كانت هيلدا هي التي تتابع في الغالب هذه المسائل الحيوية متسلحة بالكثير من الشجاعة وعليها كان يقع العبء الأكبر. وبفضل وعيها الحادّ بمسألة أمني الشخصي كانت في حالة يقظة دائمة، إلى حد أنني كنت أشعر أنها تهتم بهذا الأمر أكثر مما يجب. وبذلك أصبحت حياتنا أكثر تعقيداً. كنا نغيّر مكان إقامتنا باستمرار. وفي كل منزل جديد كنا نتخذ لأنفسنا أسماء مستعارة جديدة، وكان على ابنتينا أن تحفظا الاسم الجديد الذي كنا نتخذه عند كل انتقال إلى منزل

جديد. ولم يكن من المسموح لهما أن تتخذا صديقات لهنّ لأنه كان علينا أن نتجنّب استقبال أية ضيوف، وحتى الأصدقاء باستثناء عدد محدود جداً، في المنزل. كان ينبغي لمكان إقامتنا أن يظل سرياً بشكل شبه كامل، أو غير معروف إلا لعدد قليل جداً من الأشخاص. هذه الضغوط كانت تجبر ميساء ولمى على أن تعيشا في حالة من القلق الدائم والعزلة شبه الكاملة. كانت الظروف تجبرنا أحياناً على نقلهما ليلاً وهما نائمتان من مكان إلى آخر ولا سيما بعد الإعلان عن كل عملية فدائية تقوم بها الجبهة. وفي صبيحة اليوم التالي، كانت لمى، ابنتنا الصغرى، تنهض من نومها لتشرع في البحث عن أشيائها من ألعاب وكتب فلا تجدها. كانت غالباً ما تنفجر غضباً بسبب هذه الحياة التي تحرمها من طفولة طبيعية وجميلة شأن جميع أترابها. وقد عانت زوجتي وابنتاي تلك الضغوط خصوصاً أثناء الحرب الأهلية اللبنانية التي عاشتها أسرتي وسط أحياء كان يستهدفها القصف في بيروت الغربية، وذلك حتى رحيلنا عن بيروت في العام ١٩٨٢. إنني أعترف بأن عائلتي، هيلدا وميساء ولمى، قد دفعت غالياً ثمن حياتي الصعبة والمعقدة بما يفوق الاحتمال.

خلال معارك لبنان، كان معظم قادة المقاومة الفلسطينية يتدبّرون أمورهم الأمنية عبر زيادة عدد الحرّاس عند كل تحرّك يقومون به. وفي البداية، كان عدد الحرّاس المكلّفين بحمايتي مكوّناً من أربعة رفاق. كانوا يرافقونني في جميع تنقلاتي. لكننا اعتمدنا وسائل أخرى في ما بعد. وأصبحنا نراهن أكثر على التمويه عند خروجنا إلى أماكن عامة، مع تجنب الروتين إلى الحد الأقصى. كنا نتخفى بشكل ناجح لدرجة أن أصدقاءنا أنفسهم لم يكن بمقدورهم أن يتعرّفوا إلينا عند مرورنا بهم. وفي معظم التنقّلات، كانت هيلدا تضع شعراً مستعاراً وهي تقود السيارة بنفسها. كنا نخرج منفردين، وكنت أحمل مسدساً، دون مرافقة أحد من الحراس، رغم الملاحقة الدائمة التي كنا نتعرض لها من أعدائنا، معتمدين على تغيير مظهرنا الخارجي. أتذكر كيف كنت أضع نظّارةً شمسية وأستعمل أحياناً الشعر المستعار والقبعات. وقد وجدنا أن هذا النوع من الحماية يظلّ، رغم

صعوبته، أفضل من غيره فقد أثبتت هذه الأساليب البسيطة والمبتكرة فعاليتها ونجاحها.

في ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٧٢، دفعت ثمن نشاطك الزائد عن الحدّ عندما تعرّضت للإصابة بالذبحة القلبية؟

كنا يومها، زوجتي وأنا وابنتانا، نتناول الغداء عند أحد الأقارب. وعند عودتنا إلى المنزل، شعرت بضغط في صدري، ثم ازدادت حدة الألم وأخذ العرق يتصبّب من جبيني. وقد لاحظت هيلدا ذلك على الفور، وأسهم ردّ فعلها السريع في إنقاذ حياتي. نزلنا معاً إلى الشارع وأوقفنا سيارة أجرة، إذ لم نكن نمتلك سيارة في ذلك الحين، لتقلّنا بأسرع وقت ممكن إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت. وبقيت ابنتانا وحدهما في المنزل. وعندما وصلنا إلى قسم الطوارئ في المستشفى، طلبوا اسمي لدى دخولنا. أعطتهم زوجتي اسماً مستعاراً، لكنني سارعت، بصفتي طبيباً، إلى التعريف بشخصي لأن وضعي كان خطيراً، كما أن العديد من الأطباء كانوا يعرفونني على كل حال. وما إن عُرفت هويتي حتى دبّت حركة محمومة في المستشفى. وبعد لحظات تعرّضت لنوبة قلبيةٍ ثانية كانت أشدّ من الأولى، وكدت أفارق الحياة. ومرّة أخرى أشاد الأطباء بشجاعة زوجتي وبسرعة تدخّلها لإنقاذ حياتي. لقد فعل الدكتور منير شمّاعة، وهو زميل وصديق حميم، كل ما في وسعه لإنقاذ حياتي، مع الدكتور فؤاد جبران وهو طبيب القلب المعروف الذي أصبح صديقاً لي منذ تلك اللحظة. وقد اعتنى بي أطباء آخرون والعديد من الأصدقاء، وأودّ هنا أن أوجّه تحيّتي إلى الرفاق في الجبهة الشعبية ممّن سارعوا إلى زيارتي في المستشفى، ومنهم غسّان كنفاني[١]

(١) غسان كنفاني، ولِد في عكا عام ١٩٣٦. تنقّل بين لبنان وسوريا وفلسطين. عمل في التدريس والصحافة والأدب والرسم، إلى جانب نشاطه السياسي. التقى جورج حبش وانضمّ إلى حركة القوميين العرب في العام ١٩٥٣. اغتاله جهاز المخابرات الإسرائيلية (الموساد) بتفجير سيارته في منطقة الحازمية قرب بيروت في ٨ تموز/ يوليو ١٩٧٢.

وكانوا جميعاً مصدومين لما حلّ بي. وبالطبع، كان الدكتور وديع حدّاد هو أيضاً إلى جانبي، لكنه كان يهتم خصوصاً بالوضع الأمني في المستشفى وجوارها، لأن العدو الصهيوني كان على جهوزية تامّة في ملاحقتي. وخلال فترة علاجي، سعت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إلى الحصول على ملفي الطبي لتعرف وضعي الصحي بشكل دقيق. ولحسن الحظ، رفض الأطباء المشرفون على معالجتي تسليم تلك المعلومات إلى الأميركيين. وبعد أسبوعين أمضيتهما تحت العلاج، خرجت من المستشفى، وذلك للراحة في منزل في جبل لبنان هيّأته هيلدا وأصدقائي المقرّبون. وللأسف، قُطعت فترة النقاهة تلك مع إعلان خبر اغتيال غسّان كنفاني من قبل عملاء الموساد الذين فجّروا سيارته لحظة صعوده إليها. وقد قتلت معه ابنة شقيقته لميس وهي شابة في مقتبل العمر. كان لاغتيال غسان وقع الصاعقة عليّ، فكم كان باهظاً ثمن ذلك الدرب الذي اخترناه. كنا ندرك أن الطريق ما زال طويلاً وأن قافلة الشهداء ستستمر، وكانت الخسائر الفادحة التي نُمنى بها تزيدنا تصميماً وإصراراً على مواصلة القتال.

كان غسّان على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة إلينا منذ انضمامه، في دمشق في الخمسينيات، إلى حركة القوميين العرب، قبل أن يقوم مع انطلاقة الجبهة بتأسيس مجلة الهدف كمنبر لآرائه ولآراء العديد من المثقّفين الآخرين. كان غسّان متواضعاً وقريباً من القلب ويتمتع بصفات خلقية كبيرة. وقد لعب دوراً بارزاً من أجل التعريف بالقضية الفلسطينية على الصعيدين الإقليمي والدولي. لم يكن عضواً في مكتبنا السياسي وحسب، وإنما كان أيضاً كاتباً كبيراً ومؤلّفاً تُرجمت العديد من رواياته إلى اللغات الأجنبية، وترك بصماته على الأدب الفلسطيني والعربي بوجه عام. ومع مرور السنوات، أصبح صديقاً حميماً لأسرتنا. وكان أولادنا يلعبون معاً في حديقة منزله التي كان يوليها عنايته واهتمامه الخاص. وقد ظلّ غسّان حيّاً بين أبناء شعبه من خلال مؤسّسة غسّان كنفاني التي أنشأتها زوجته آني، وكذلك من خلال كتبه ومؤلفاته، ومن خلال المبادئ التي وجّهت حياته والتي سقط من أجلها. أما أنا فقد عشت وفاته بصورة أشدّ إيلاماً،

لأنني لم أتمكن من المشاركة في دفنه بسبب وضعي الصحي. لكنّ زوجتي قامت بتمثيلي في مراسم الدفن، كما كتبت رسالة تعزية إلى «الأخت آني»، وذلك لدعمها في تلك اللحظة المؤلمة جداً. قلت في تلك الرسالة: «كم هي طويلة قافلة الشهداء، وما زال الطريق طويلاً أيضاً».

أما الضربة المؤلمة الثانية التي تلقيتها فكانت الحادث الذي تعرّض له الرفيق بسّام أبو شريف. فقد وصل ظرف بريدي باسمه إلى مكاتب مجلة الهدف، وعندما بدأ بفتحه وقع انفجار أصابه، على نحو خاص، في وجهه ويديه، وأفقده عينه اليسرى وسمعه، كما تعرّض لتشوّهات مزمنة وخضع للعديد من العمليات الجراحية بلا جدوى. وما زال يعاني جسدياً حتى الآن، لكنه يحتفظ بمعنويات عالية. ومن بين الضربات المؤلمة التي ميّزت ذلك العام نفسه، والتي عشتها بالكثير من الألم والمرارة، العملية التي نفّذها الموساد في باريس باغتيال باسل الكبيسي في شهر نيسان/ أبريل، حيث كان في باريس في مهمة خاصة بتكليف من الدكتور وديع حداد. كان باسل مناضلاً كبيراً ومدعاة لفخرنا، وكان مسؤولاً عن فرع حركة القوميين العرب في العراق.

ذهبت في الصيف نفسه لقضاء فترة نقاهة في الاتحاد السوفياتي، وشكّل ذلك فرصة لك لاكتشاف حليفك الشيوعي؟

بعد مرورنا في براغ، أنا وعائلتي، ذهبنا إلى موسكو لإجراء فحوص طبية. وعند وصولنا إلى المركز الطبي الواقع على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة السوفياتية واجهتنا أولى المصاعب. فقد كانت القوانين المحلية تمنع اصطحاب الأطفال من قِبل ذويهم في المصح. وقد وجدنا حلاً بديلاً بفضل الإخوة في سفارة جمهورية اليمن الديموقراطية وسفيرها هناك، أحمد الشاعر، وهو عضو قديم في حركة القوميين العرب وصديق عزيز، قُتل في حادث طائرة بعد سنوات.

كنا نتمشى أحياناً على ضفاف النهر الذي يمرّ بمحاذاة المركز الطبي. وكان بعض المسؤولين السوفيات والعديد من السفراء العرب يقومون بزيارتنا بين حين

وآخر. كنت يومها أنتبه لوزني وأحرص على التقيد الدقيق بنظام غذائي، إلى حد أن أحد المسؤولين في المركز الطبي اشتكى من عدم إقبالي على ما كانوا يقدمونه لي من طعام. والحقيقة أن وزني قد انخفض من ٨٥ كيلوغراماً عند دخولي المركز، إلى ٧٧ كيلوغراماً عند خروجي منه.

هناك تعرّفت إلى عدد من المسؤولين ونخبة من الأكاديميين وأساتذة الجامعات السوفيات، كنا نتبادل الأحاديث السياسية. وقبل مغادرتنا، وضع لنا الرفاق السوفيات برنامجاً لزيارة الساحة الحمراء وضريح لينين في موسكو، وقصر الهرميتاج في لينينغراد، والنصب التذكاري للجندي المجهول، وغيرها من المواقع المهمة في البلاد.

وعند العودة إلى بيروت اقتصرت نشاطاتي على القراءة وبعض اللقاءات مع الرفاق والأصدقاء. وفي آذار/ مارس ١٩٧٣، صادف عودتي إلى المكتب واستئناف نشاطي السياسي مصرع الشهيد غيفارا غزّة (واسمه الحقيقي محمد الأسمر)، وهو مسؤولنا العسكري البطل في غزّة الذي فعل الكثير مما كان يثير حنق موشي ديان، وزير الدفاع الإسرائيلي، الذي كان يقود حملة لتصفية المقاومة التي كان يقودها غيفارا في غزّة.

بعد أشهر على ذلك، عام ١٩٧٣، قام الإسرائيليون بمحاولة لاختطافك. كيف حدث ذلك؟

كنت على وشك الصعود إلى طائرة لبنانية، تابعة لطيران الشرق الأوسط، متّجهة إلى بغداد، وذلك تلبية لدعوة رسمية من المسؤولين العراقيين. لكنني انتابني شعور بأن أحداً قد أعلم جهة ما بأمر هذه الرحلة. عندها قرّرت مغادرة المطار وتأجيل سفري إلى بغداد على سبيل الاحتراس. وقد تحقق ظني لأن الطائرة اختطفت بالفعل في ذلك اليوم من قبل طيران حربي إسرائيلي. وهكذا نجوت في اللحظة الأخيرة.

في ما بعد، اكتشفنا بنتيجة تحقيق قمنا بإجرائه أن أحد عملائهم في بيروت،

وهو وليد قدّورة، قد سلّمهم المعلومات المتعلّقة بسفرنا وبأنني سأكون في الطائرة المتجهة إلى بغداد. وللأسف، كان ذلك الشخص عضواً في لجنتنا المركزية. وهو يعيش اليوم في دبي.

وفي اليوم التالي، نشرت الصحافة اللبنانية عناوين عريضة عن الحادثة وصوراً لي مع الإشارة إلى أن موشي ديان وقع في فخّ «الحكيم». كانت تلك المحاولة هي الأكثر وضوحاً بين جميع ما تعرّضت له من محاولات، إذ إنني تعرّضت لمحاولات كثيرة أخرى. ففي العام ١٩٦٩، كنت في موكب تشييع جنازة والدي في عمّان، عندما حاول أحد العملاء أن يندسّ بين صفوف المشيّعين بهدف تصفيتي، لكنه انهار قبل ذلك. وحدث مرّة أخرى، أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت ١٩٨٢، أن اشتدّ القصف على الحيّ الذي كنت موجوداً فيه، وربما كانت إسرائيل على علم بمكان وجودي، وقد أصيب منزلي في ذلك القصف وانهار سقف غرفة الجلوس حيث كنت أجلس قبل ثوان. وقد نجوت بأعجوبة لأن قسماً كبيراً من المنزل قد دُمّر تماماً. وفي العام ١٩٨٦، اختطف الإسرائيليون طائرة ليبية خاصة وأجبروها على الهبوط في مطار عسكري قرب تل أبيب ظناً منهم بأنني على متنها، لكنني قمت بتأجيل موعد سفري في اللحظة الأخيرة بطلب من العقيد معمر القذافي لبحث قضايا هامة. كان على متن تلك الطائرة المخطوفة قادة فلسطينيون وعرب آخرون بينهم مسؤول سوري كبير هو عبد الله الأحمر.

كيف جرى ذلك؟

كان الرئيس القذافي قد أرسل طائرة خاصة لتقلّ حوالى خمسة عشر مدعوّاً للمشاركة في الاحتفالات بعيد الثورة. وبعد انتهاء الاحتفالات، استغرب الرئيس القذافي نيّتي المسارعة في الرحيل وقال إن هنالك أموراً هامة يريد أن يبحثها معي. ثم طلب إليّ ألاّ أستقلّ تلك الطائرة وأن أرجئ سفري. وقد استجبت لطلبه. وكان ذلك لحسن حظي، لأن الطائرة اختطفت بعد قليل من إقلاعها

وأُمرت بالتوجّه إلى إسرائيل لتحطّ في أحد مطاراتها العسكرية. وعند هبوط الطائرة، طلب الخاطفون إلى جميع الركاب أن ينبطحوا أرضاً، وعندئذ اكتشفوا أنني لم أكن بينهم.

هل كان القذافي على علم بذلك؟

كلا بالطبع، لكن إصراره هو بلا شك ما جعلني أنجو من الوقوع في يد العدو. كان صراعنا مع العدو صراعاً مفتوحاً، لم يوفر فيه الإسرائيليون وسيلة من أجل ضرب الثورة. ولا بد لي من الاعتراف بأنهم وجّهوا إلينا ضربات مؤلمة جداً عندما اغتالوا غسّان كنفاني، وثلاثة قادة فلسطينيين آخرين هم كمال عدوان(٢) وأبو يوسف النجار(٣) وكمال ناصر(٤) الذين داهمت قوّة إسرائيلية خاصة بيوتهم ليلاً وأطلقوا عليهم الرصاص أمام أفراد عائلاتهم في منطقة فردان في بيروت. وهناك العديد من كبار المسؤولين في فتح الذين اغتيلوا في سنوات لاحقة كالشهيد أبو جهاد(٥).

(٢) كمال عدوان: ولد في قرية بربرة القريبة من مدينة عسقلان في العام ١٩٣٥. لجأ مع عائلته إلى قطاع غزة بعد نكبة ١٩٤٨. درس في مصر وتخرج كمهندس بترول وعمل في السعودية وقطر. شارك في انطلاقة حركة فتح وتولى العديد من المناصب القيادية فيها. اغتالته فرقة كوماندوس إسرائيلية في ١٠نيسان/ أبريل ١٩٧٣ في بيروت.

(٣) محمد يوسف النجار: اشتهر باسم أبو يوسف النجار، وهو من مواليد العام ١٩٣٠، في قرية يبنا الفلسطينية. لجأ إلى غزة عام ١٩٤٨، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين بين العام ١٩٥١ والعام ١٩٥٨. شارك في تأسيس حركة فتح وتولى العديد من المناصب القيادية فيها. اغتالته فرقة كوماندوس إسرائيلية في ١٠ أبريل/ نيسان ١٩٧٣ في بيروت.

(٤) كمال ناصر: من قياديي الثورة الفلسطينية. ولد عام ١٩٢٤ في بير زيت التابعة الآن لمحافظة رام الله والبيرة، واغتيل في بيروت. اغتالته فرقة كوماندوس إسرائيلية في ١٠ نيسان/أبريل ١٩٧٣.

(٥) أبو جهاد: (خليل إبراهيم محمود الوزير) ولِد في الرملة عام ١٩٣٥. وبعد النكبة تنقل في العديد من البلدان العربية وشارك باكراً في تأسيس حركة فتح. تنقل بين الجزائر ودمشق. واضطلع بإدارة العمليات في الأراضي المحتلة بين العام ١٩٧٦ والعام ١٩٨٢. شارك في إدارة العمليات خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. يعتبر أبو جهاد أحد أبرز مهندسي الانتفاضة في الأراضي الفلسطينية المحتلة. سقط شهيداً في قرطاج أثناء وجوده في تونس وذلك في عملية إنزال إسرائيلية نفذت في ١٦-٤-١٩٨٨.

الفصل السابع

الانتقال إلى لبنان ودروس العام ١٩٧٠

لماذا اخترتم لبنان بعد أن أجبرتم على مغادرة الأردن؟

لم يكن لدينا خيار آخر. فسوريا لم تكن تسمح بشنّ عمليات عسكرية ضدّ الإسرائيليين انطلاقاً من الجولان. أما مصر فكانت بعيدة جداً عن عناصر هذه المقاومة. وفوق ذلك، كان هنالك الكثير من الفلسطينيين الذين يعيشون في لبنان، منذ لجوئهم إليه بعد نكبة العام ١٩٤٨. وأخيراً كان اتفاق القاهرة[١] قد أعطى الفدائيين، منذ العام ١٩٦٩، الحق في القتال ضد إسرائيل انطلاقاً من جنوب لبنان. كل هذه العناصر كان لها أثرها في تحديد خيارنا.

كيف كان وضع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في لبنان عند وصولكم إليه؟

لا يمكنني أن أعطي رقماً دقيقاً حول عدد أعضاء الجبهة الشعبية، ولكنني أستطيع أن أقول لكم إن عددهم كان كبيراً. كان مركز قيادتنا في مخيّم شاتيلا

(١) تمّ التوقيع على هذا الاتفاق بين الجانبين اللبناني والفلسطيني في القاهرة، عام ١٩٦٩، تحت إشراف وزير الدفاع المصري محمد فوزي، بهدف تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان. وقد تضمّن الاتفاق بنوداً تسمح للفدائيين الفلسطينيين بحرية الحركة في الأراضي اللبنانية، الأمر الذي اعتبره اليمين اللبناني متعارضاً مع مبدأ سيادة الدولة اللبنانية، في حين اعتبرته إسرائيل خرقاً لاتفاقية الهدنة الموقعة بينها وبين لبنان في العام ١٩٤٨.

للاجئين في ضواحي بيروت، كما كانت لنا قواعد عديدة في الجنوب، قريباً من الحدود مع فلسطين المحتلة، وبضع قواعد أخرى في المناطق اللبنانية. وكانت قيادة المقاومة الفلسطينية موجودة أيضاً في بيروت، ولكنها غير موحّدة، على غرار ما كانت عليه في الأردن.

مع بداية وجودنا في لبنان، كانت جميع عملياتنا موجهة ضدّ الإسرائيليين. وكانت هذه العمليات عبارة عن أعمال تسلّل يقوم بها المقاتلون عبر الحدود، حيث كانوا يدخلون إلى المستوطنات، بغية تحديد الأهداف في مرحلة أولى. لم يكن التسلّل إلى إسرائيل بالأمر السهل، ولكن فدائيينا كانوا على درجة عالية من التنظيم والكفاءة القتالية. كانوا يستفيدون من دعم اللبنانيين الوطنيين الذين كانوا يساعدونهم سرّاً على اختراق الحدود، وكذلك من التنسيق بين الجبهة الشعبية في لبنان وفرعها في فلسطين. وكان الاتصال بين البلدين يتم في الغالب عبر رسائل كان ينقلها سكان القرى الحدودية إلى الجانب الآخر، دون أن يكونوا بالضرورة من أعضاء الجبهة، أو بواسطة أشخاص غربيين كانوا ينقلونها بشكل مباشر. وكان هؤلاء، تحديداً، مقاتلين من أميركا اللاتينية انضمّوا إلى الثورة وصاروا يدخلون سرّاً إلى فلسطين مروراً بإسرائيل. وكانوا يأتون بأعداد كبيرة في بداية السبعينيّات.

بقاؤكم غير موحّدين في لبنان يعني أن المقاومة لم تستفد من درس هزيمتها في الأردنّ. أليس كذلك؟

خروجنا الإجباري من الأردنّ هو ما فرض نظام سلوكنا خلال العقود القادمة. كان علينا أن نبقى موحّدين على مستوى الفصائل الفلسطينية عندما نتعرّض لمحاولات تهدف إلى تصفيتنا. لكن كان بإمكاننا أن نختلف عند البحث عن حلول لخلافاتنا السياسية.

كانت خسارتنا لقاعدتنا الأردنية إحدى أصعب الفترات في حياتي السياسية الطويلة، لأن الهزيمة تولّد اضطراباً وقلقاً على الدوام. لكن كان عليّ بصفتي قائد

الجبهة وأميناً عاماً أن أمتلك الشجاعة والإرادة لتجاوز تلك المحنة. أصبح من الضروري بعد تلك التطورات المصيرية بالنسبة إلينا أن نعقد مؤتمراً سياسياً وتنظيمياً للجبهة بهدف تحليل الهزيمة والوضع المعقد الذي نشأ عنها، وكذلك للتصويت على مشروع نظامنا الداخلي، ولتشكيل قيادة جديدة.

وإذا لم يكن من الصعب تحليل أسباب هزيمتنا في الأردن ورسم مهامنا المستقبلية، فقد كان تفسير التناقضات الداخلية التي استمرّت في بثّ الاضطراب داخل صفوف الجبهة، وتحديد موقف القيادة من هذه المشكلات، أمراً أكثر تعقيداً بالنسبة إلينا. وكان من المرجّح لهذه النقاط التي شكّلت محطّ اهتمامي الرئيسي بعد خروجنا من الأردن أن تعرّض الجبهة لانشقاق جديد. وقد قمت بمعالجة النقاط الأولى في تقرير هام قدّمته إلى المكتب السياسي، وتمّ إقراره بعد ذلك في المؤتمر الثالث للجبهة الذي انعقد في آذار/ مارس ١٩٧٢.

أما في ما يتعلّق بتناقضاتنا الداخلية، فقد كانت لي رؤية خاصة لم تُقبل من جانب عدد كبير من الرفاق في المكتب السياسي. وعلى ضوء هذا الرفض الذي تعرّضت له رؤيتي تلك، دعوت إلى عقد مؤتمر للجبهة بهدف التأكيد على ضرورة المحافظة على الوحدة داخل تنظيمنا، وذلك عبر إعطاء الأمين العام للجبهة صلاحيات كاملة لتشكيل نظام سياسي جديد.

وكان علينا، مباشرة قبل انعقاد المؤتمر في مخيّم البداوي في شمال لبنان، أن نواجه الانشقاق الثالث داخل الجبهة، وهو الانشقاق الذي قاده أبو شهاب الذي كان عراقياً ذا توجّه ماركسي يساري انتهازي غذّته مزايدات بعض الجهات التي كانت تعمل على إضعاف الجبهة الشعبية.

لكن هذا الانشقاق لم يُحدث أثراً كبيراً لحسن الحظ، لأن المجموعة التي قامت به لم تكن قادرة على رسم خط واضح لتسير عليه. وقد اكتشفنا، بعد ذلك، أن هذا الانشقاق كان من تدبير أجهزة المخابرات اللبنانية عبرعميل استطاع اختراق صفوف التنظيم.

شكلت العلاقات الأردنية-الفلسطينية والدور الذي كان على الأردن أن يقوم به في ما يخص القضية الفلسطينية، واحدة من المسائل التي أثارت الاضطراب على المستوى السياسي بين الفلسطينيين، بعد هزيمة العام ١٩٧٠. فالمعروف أن فتح ما لبثت أن عادت سريعاً إلى إقامة علاقات مع الأردن. ما كان موقف الجبهة الشعبية بهذا الخصوص؟

ظلّت علاقاتنا مع الأردن مقطوعة لفترة طويلة من الزمن. فقد عمدت السلطات الأردنية إلى سحب جوازات سفرنا، ولم تكن لدينا أية رغبة في إحياء الصلة مع الأردن، لأن خلافنا السياسي العميق جداً معه كان ما يزال قائماً. ولم أتمكّن من العودة إلى الأردن إلا بعد أزمة الخليج، عام ١٩٩٠/ ١٩٩١، وكان ذلك للمشاركة في مؤتمر شعبي لدعم العراق.

هل كانت الشكوك تراود الجبهة الشعبية في ما يتعلّق بمحاولات ياسر عرفات الهادفة إلى إعادة العلاقات مع الأردن؟

كانت البورجوازية الفلسطينية والأنظمة العربية تعمل جاهدة من أجل إعادة العلاقات مع الأردن. ولكنّ عدداً من التيارات داخل فتح لم يكن موافقاً على ذلك. غير أن الورقة الرابحة الكبيرة التي كانت بيد عرفات تمثّلت بتحكمه في المسألة المالية التي كانت كافية لحشد الجميع حول قراره.

كانت جميع التيارات الفلسطينية تؤيد انفصال ضفّتي الأردن، الغربية والشرقية، إحداهما عن الأخرى. هل كان ذلك موقف الجبهة الشعبية أيضاً؟

كنا يومها مع إنهاء صِلة الأردن بالضفة الغربية وفك الإرتباط بينهما، للحفاظ على الهوية الفلسطينية وحمايتها في وجه المشروع الصهيوني الذي كان يهدف دائماً إلى طمسها.

ما كانت تداعيات وحدة نضال الفلسطينيين في الأردن على بنية منظمة التحرير؟ فالجبهة الشعبية لم تكن في تلك الفترة عضواً في منظمة التحرير

الفلسطينية، ولكنها قاتلت إلى جانب فتح. هل كان ذلك أسلوباً استخدمته الجبهة بهدف اجتذاب فتح نحو مواقف أكثر راديكالية؟

نعم، كنا نسعى إلى جعل فتح أكثر راديكالية. ولكنّ أبو عمار كان، ويا للأسف، لا يتصرف إلا على هواه. يمكن القول إنه كان يحاول «السباحة مع التيار». كان براغماتياً، الأمر الذي لم يكن يشكّل موقفاً حاسماً بالنسبة إلى قائد بحجم أبو عمار. كانت خشيته من النظام الأردني تقوده إلى قبول الكثير من التنازلات. وغالباً ما كنا نرفض ذلك داخل الجبهة.

تمّ خلال المواجهات المسلّحة في الأردن تشكيل المجلس المركزي داخل منظمة التحرير الفلسطينية. وقد تمثّلت الجبهة الشعبية في ذلك المجلس، في حين لم تكن ممثّلة في اللجنة التنفيذية. ألم يكن هنالك تناقض في ذلك؟

لم نكن دائماً خارج اللجنة التنفيذية؛ كنا نرسل ممثلين إليها في بعض الأحيان. كانت مشاركتنا في اللجنة التنفيذية تتوقف بالدرجة الأولى على الظروف السياسية. لكننا كنا نشكّل بالمقابل جزءاً من المجلس المركزي في منظمة التحرير الفلسطينية. كنت أقول في تلك الفترة: «نحن موجودون رمزياً في التآلف الفلسطيني أي في المجلس الوطني وفي المجلس المركزي. وفي الوقت نفسه، كنا نوعاً ما في الخارج، لأننا لم نكن دائماً ممثلين في اللجنة التنفيذية. وكان ذلك يسمح لنا بممارسة ضغوط كبيرة بهدف ضمان اتخاذ مواقف سليمة داخل منظّمة التحرير».

يهاجم أبو أياد، وهو واحد من رفاق درب ياسر عرفات، في مذكراته المواقف الديماغوجية للجبهة الشعبية في تلك الفترة، كما يهاجم مزايدات كل فصيل بهدف الظهور أكثر ثورية من غيره. هل تشاطره هذا التحليل؟

كل فصيل داخل منظمة التحرير كان يعتبر نفسه الفريق الذي ربح معركة التنافس على النفوذ في تلك الفترة. كان بعض عناصر فتح يؤيدون خطاب الجبهة

الشعبية لأنه كان أكثر راديكالية من الخطابات الأخرى. لكنهم كانوا يقولون: «قلوبنا مع الجبهة الشعبية، وأيدينا مع فتح». كانت هنالك إدانات داخل فتح بعد هزيمة العام ١٩٧٠ وبعض الكوادر تمرّدوا على الوضع وحمّلوا أبو عمّار مسؤولية الهزيمة. لكن، في الواقع كانت الكفة في النهاية ترجح لمصلحة فتح. وفوق ذلك، لم تكن اللحظة مناسبة بالنسبة إلينا للوقوف في وجه فتح، كان ذلك عديم الفائدة.

ولهذا كانت الأولوية لديكم للوحدة الوطنية. هل كان ذلك هو السبب الذي جعلكم تقرّرون الانضمام أخيراً إلى اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير، عبر إرسال ممثل عن الجبهة الشعبية. لماذا لم تقم أنت شخصياً بهذه المهمّة؟

فهمنا، على ضوء الهزيمة في الأردن، أن الوحدة هي ما يسمح لنا بمواصلة النضال. هاجس الوحدة هذا عبّرنا عنه من خلال مشاركتنا في إحدى دورات المجلس الوطني الفلسطيني، في القاهرة، في نيسان/ أبريل ١٩٧٢.

وقد استعنا، خلال ذلك الاجتماع الذي عقد في القاهرة، بتنظيمات صغيرة لهدف معلن هو التكاتف عبر النضال. كنت أشارك شخصياً في اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني، لكن الاتصال بالشعب، بهدف تعبئته، كان أكثر أهمية بالنسبة إليّ من القيام بدور تمثيل الجبهة في هذا المجلس أو ذاك. كما أنني لم أعتقد مطلقاً بإمكانية اجتذاب فتح، من خلال مواقفي الراديكالية. كنا نتبادل الأفكار، لكن لم تكن عندي أية أوهام. كان هدفنا، في المقام الأول، هو العمل على تجنّب الانحراف من قِبل فتح. كنا نريد أن نكبح علاقة فتح بالأنظمة اليمينية كالنظامين الأردني والمصري. أما هدفنا الثاني، فكان الاتفاق على عمل مشترك من أجل تجنّب الانقسام في أوقات الأزمات. ولهذا السبب، قبلنا الانضمام إلى اللجنة التنفيذية. ولكن المعركة بيننا وبين فتح على تصحيح الخط السياسي لمنظمة التحرير كانت طويلة وشائكة.

اشتدّت الصدامات بين المقاومة الفلسطينية والجيش اللبناني اعتباراً من ربيع العام ١٩٧٣ . هل كان الفلسطينيون يسعون، كما سبق لهم أن فعلوا في الأردن، إلى إقامة دولة داخل الدولة من أجل مواجهة إسرائيل بشكل أفضل؟

كنا خلال العامين ٧٢ و٧٣ نتمتع بحرية الحركة في لبنان. كان وجودنا مؤثراً ومزعجاً بالنسبة إلى السلطات اللبنانية. فالجيش اللبناني كان ضعيفاً جداً، خلافاً لما كان عليه الجيش الأردني، الأمر الذي كان يسمح لنا بتجاوزه وفق ما نشاء. وفوق ذلك،أصبح الفلسطينيون في لبنان قوة لا يستهان بها. كما كنا نستفيد أيضاً من دعم اليسار اللبناني والقوى الوطنية. لكنّ الأمور ساءت في ما بعد، واتجهت علاقاتنا مع السلطات اللبنانية نحو الاضطراب ثم أصبحت بالغة الصعوبة. ثم دخلت بعض القوى اللبنانية في صراع معنا حول مخيمات اللاجئين في بيروت مع كون عملياتنا العسكرية الرئيسية كانت ما تزال موجهة ضد إسرائيل. وكانت السلطات اللبنانية قد لاحظت جيداً أن تجربتنا الأردنية منيت بالفشل الذريع، فأرادت أن يتكرر ذلك السيناريو في لبنان أيضاً. من هنا، كانت تعمد، كلما سنحت لها الفرصة، إلى التضييق على المقاومة التي كان لكل فصيل من فصائلها عناصر مسلحة في بيروت. وكانت مهمة مقاتلي الجبهة الشعبية حماية الثورة، وتنسيق العمل مع الحركة الوطنية اللبنانية، والتعبئة العامة لدعم القضية الفلسطينية.

وفي أيار/ مايو ١٩٧٣ ، بدأ الجيش اللبناني بضرب المقاومة، قبل أن تصبح قوة تشكل خطراً على الدولة. كان ردّنا على الضغط المتصاعد من حولنا هو تعبئة الجماهير الفلسطينية في صبرا وشاتيلا وعلى طريق المطار وفي مخيم برج البراجنة وحي الفاكهاني وفي التجمعات الفلسطينية كافة في لبنان.

وقبل ساعات قليلة من بدء المعارك، كنت في منزلي الكائن على مقربة من إحدى ثكنات الجيش اللبناني في منطقة بئر حسن في بيروت، عندما جاءت هيلدا لتخبرني بأن الوضع قد بات خطيراً وعلى وشك الانفجار. وبعد أقل من ساعة على ذلك، بدأ تبادل إطلاق النار والاشتباكات، وأصبح التنقل من مكان إلى آخر

في منتهى الخطورة. وقد سقطت بعض القذائف على المبنى الذي كنت أقيم فيه فأجبرتنا على النزول إلى الطابق ما تحت الأرضي. وكان هذا الملجأ غير مجهّز ومملوءاً بالحشرات. كيف السبيل إلى الخروج للالتحاق بالمقاتلين؟ قرّرنا أنا وزوجتي أن أتظاهر بأنني مريض وأن أخرج في سيارة إسعاف. فاتصلت هيلدا بأحد الأصدقاء، وهو طبيب لبناني لم يلبث أن وصل مع زوجته في تلك الظروف الخطيرة. وهكذا تمكنت من الخروج من دائرة المعارك في حين كانت القذائف تتساقط على المنزل. وقد قدرنا لذلك الصديق خطوته الشجاعة تقديراً عالياً.

كانت الهجمات المكثفة تجعل التنقل أمراً عسيراً جداً. لكنّ هذه المرحلة الأولى من المعارك توقفت دون أن يتمكن الجيش اللبناني من توجيه ضربة قاسية إلى المقاومة. ثم تمّ التوصل إلى هدنة موقتة بيننا وبين الجيش اللبناني.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، أُعلنت الحرب على إسرائيل من قبل الجيشين المصري والسوري. ولكن تلك الحرب لم تكن حربكم. أليس كذلك؟

شكّل ذلك مفاجأة للجبهة الشعبية. كنا نظنّ أن تلك الأنظمة غير قادرة عسكرياً وغير جاهزة سياسياً لمواجهة إسرائيل. وكنا قد كتبنا الكثير حول عجزها عن تحرير فلسطين.

وعندما نشبت الحرب، خشينا على جماهيرنا من أن تنخدع بأهداف الأطراف المتصارعة، خصوصاً خلال الأيام الأولى عندما نجح الجيش المصري في عبور قناة السويس واختراق خط بارليف. لم نكن نعارض تلك الحرب بشكل مطلق، لكننا - وهذا أمر كنا غالباً ما نقوله في تلك الفترة- كنا نعتبر أن هدف تلك الحرب هو تحقيق تقدّم عسكري للتوصل إلى تسوية سياسية. وكنا نعلم أن الهدف الحقيقي لتلك الحرب هو شيء آخر غير تحرير فلسطين. كما كنا نعلم أن هدف الرئيس أنور السادات هو استعادة سيناء، وأن رؤيته الخاصة بالمشكلة الفلسطينية كانت مختلفة جداً عن رؤيتنا. فإذا كان السادات مع إقامة دولة

فلسطينية، فإن عودة اللاجئين لم تكن أساسية بالنسبة إليه. أما السوريون فكان يهمهم، قبل كل شيء، أن يستردوا هضبة الجولان التي خسروها عام ٦٧، ومن ثمّ الاستمرار في مواصلة الدعم للقضية الفلسطينية.

كانت رؤيتنا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين واقعية وواضحة جداً حول جميع هذه النقاط. لم يكن بإمكانهم إقناعنا بأية حلول وهمية.

غير أنني اعتبرت أن التطورات الجارية في المجال العسكري تشكل حدثاً يجب أن يؤخذ في الاعتبار. كان علينا أن نعترف ببطولة الجيشين المصري والسوري خلال المعارك، والاستعدادات العسكرية التي أُنجزت في مصر بين العام ١٩٦٧ والعام ١٩٧٣ تحت إشراف سعد الدين الشاذلي. كان عبد الناصر قد حرص على الإسراع في إعادة بناء المؤسسة العسكرية، بهدف التمكن من شنّ حرب الاستنزاف ضد إسرائيل بشكل أفضل، وهو الأمر الذي يثبت أن إرادة ذلك القائد الكبير لم تكن قد تحطمت بفعل هزيمة العام ٦٧. وكان الإعداد لهذه الحرب قد تم بإشراف محمد فوزي الذي كان في منصب وزير الدفاع.

إذاً لم يكن تحرير فلسطين هو الهدف الرئيسي لتلك الحرب، فهل يعني ذلك أن السوريين والمصريين أرادوا وضع يدهم على القضية الفلسطينية؟

كان للسوريين وللمصريين مصالحهم الخاصة. لكنني لا أريد الانتقاص من بطولة الجيشين السوري والمصري وما سجّلاه من انتصارات عسكرية بفعل ما بذلاه من تضحيات كبرى على أرض المعركة. غير أن الإشارة تظل ضرورية إلى أن النظامين السوري والمصري لم يكن يغيب عن ذهنهما أن هنالك ثورة ومقاومة، وأن عرفات كان رجلهم المفضّل. فهم كانوا يتباحثون مع أبي عمار لأنه كان يستجيب لرغباتهم. وعلى هذا جرى استبعاد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تلك الفترة. كان موقفنا واضحاً وحاسماً إلى حد كان يصرفهم عن التعامل معنا.

كان المكسب الكبير الذي حققته منظمة التحرير الفلسطينية، بفضل تقاربها مع الأنظمة العربية خلال حرب تشرين/ أكتوبر، هو تحصيل الاعتراف بها في القمة العربية التي انعقدت في الجزائر، في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣، بوصفها «الممثّل الشرعي الوحيد للفلسطينيين»، أليس كذلك؟

كان ذلك مكسباً كبيراً بالفعل. وقد هنّأت نفسي عليه في الجزائر بصفتي مسؤولاً عن تنظيم عضو في منظمة التحرير الفلسطينية.

إنّ انتصار حرب أكتوبر لم يكن منفصلاً عن الحروب العربية-الإسرائيلية السابقة. فوفقاً لما كان يريده هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركي، كان على حرب تشرين/ أكتوبر هذه أن تدفع البلدان العربية في طريق إنهاء الصراع العربي-الإسرائيلي. ومن جهته، كان أبو عمّار يعرض لنا الوضع بطريقة تخفي نياته الحقيقية. وكل هذه المسائل كانت في قلب النقاشات التي جرت في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني التي انعقدت في حزيران/ يونيو ١٩٧٤. وكانت النتيجة الرئيسية التي تم التوصل إليها هي موافقة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بعد الكثير من النقاشات الداخلية، على قيام سلطة وطنية فلسطينية على كل جزء يتم تحريره من الأرض الفلسطينية مع مواصلة معركة التحرير انطلاقاً منه. كنا نطمح جميعاً إلى قيام تلك السلطة الوطنية، شرط أن تمارس على أرض محررة، بما يسمح لها بتحقيق نتائج جيدة ويضمن نجاعتها في استمرارية النضال. كان أبو عمّار يبدو متفقاً معنا عندما كنا نثير هذا الموضوع، وكان يظهر الكثير من الحماس الوطني والقومي. أما في الكواليس، فقد كان يقوم باتصالات تظهر أنه لن يفعل ما كان يعدنا به.

بعد شهرين من انعقاد المجلس الوطني، أي في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٤، قامت الجبهة الشعبية بسحب ممثلها من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وذلك احتجاجاً على «انحراف» عرفات. ومن جديد، حدثت تصدّعات في الساحة الفلسطينية حول الخيارات الاستراتيجية، وخصوصاً حول

المراحل التي يفترض أن تؤدي إلى تحرير فلسطين. لماذا انسحبتم من اللجنة التنفيذية؟

كانت الأولوية عندنا لمسألتين هما المحافظة على الوحدة الوطنية الفلسطينية وتعزيز مواقعنا داخل منظمة التحرير لمواجهة انحرافات عرفات. فقد لاحظنا أن كلام عرفات كان بعيداً كل البعد عن أفعاله. كان يقول في حضورنا إن الثورة يجب أن تستمر؛ لكنّ الجميع كانوا يلاحظون عودته عن أقواله في الكواليس. كنا نشعر بوجود مبادرات عربية، اعتبرناها بمثابة انحرافات عن القضية المقدسة للثورة، ومن هنا قرّرنا تشكيل «جبهة الرفض» للردّ، تحديداً، على محاولات أبو عمار إعادة العلاقات مع الأردن.

انسحبنا إذن من اللجنة التنفيذية وقمنا بتشكيل جبهة الرفض مع ثلاثة تنظيمات أخرى (جبهة التحرير العربية، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين- القيادة العامة بقيادة أحمد جبريل، وجبهة النضال الشعبي). وكان الرفيق أبو ماهر (أحمد اليماني) هو مسؤول جبهة الرفض التي كانت تعقد اجتماعاتها مرة كل شهر، وكنت أسعى بكل جهدي لحضور تلك الاجتماعات.

وباستثناء العراق، لم تحظ جبهة الرفض باعتراف البلدان العربية الأخرى. غير أن الجزائر وليبيا سعتا في تلك الفترة إلى إقامة علاقات مع الجبهة الشعبية. وعلى ذلك، قمت بزياراتي الأولى لهذين البلدين للإعلان عن بداية تلك العلاقات. وهكذا، كنا نوسّع دائرة حلفائنا، لأننا لم نكن، حتى العام ١٩٧٣، على اتصال بغير اليمن والعراق. كانت فتح تتهمنا باللاواقعية، وبأننا نريد تحرير فلسطين كلها دفعة واحدة. فكان ردنا بأن الظروف لا تسمح بحلّ يأخذ توازن القوى في الاعتبار، والذي لم يكن لمصلحتنا بأي حال من الأحوال. وحتى لو تم التوصل إلى حل قائم على تقسيم فلسطين، فإننا سنرفض هذا الحل. لأننا كنا نخشى أن تجعل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، أي أبو عمّار، من هذا الحل الموقّت حلاً نهائياً، وفي أسوأ الظروف، للقضية الفلسطينية.

هل كنتم على علم بالاتصالات الأولى بين منظمة التحرير الفلسطينية والأميركيين؟

جرت تلك الاتصالات عبر وسطاء كنا نعرفهم. كانت البورجوازية الفلسطينية تدفع باتجاه التقارب مع الأميركيين. فالعديد من الشخصيات الفلسطينية التي سبق لها وناضلت من أجل تحرير كامل فلسطين غيّرت رأيها تدريجاً، وبالتحديد بعد حرب ١٩٧٣ التي أعطتهم جرعة زائدة من التفاؤل. كما أن هذا التفاؤل شجّع شخصيات أخرى أن تطالب عرفات بإقامة اتصالات مع الأميركيين.

لم يكن خطاب عرفات أمام الأمم المتحدة، بعد ذلك بقليل، أي عام ١٩٧٤، وهو يرفع غصن الزيتون بيد والمسدس باليد الأخرى خطاب رجل استسلامي. ما كان رأي الجبهة الشعبية بهذا الخصوص؟

استقبلنا هذا الموقف بالتأييد الكامل. وإذا كان من الصحيح أن خلافات قد وقعت داخل الجبهة الشعبية بهذا الصدد، فقد حرصَنا على منعها من الظهور إلى العلن. وحتى مع كون هذا الخطاب أمام الأمم المتحدة قد شكل اعترافاً جيداً بالشعب الفلسطيني وبمنظمة التحرير الفلسطينية، بما فيها الجبهة الشعبية، فإن المشكلة ظلت متعلقة، على المستوى الداخلي، بالأهداف الحقيقية لعرفات، وبما يريد تقديمه من تنازلات لإسرائيل أو للأسرة الدولية. كنا نريد تجنّب أن يكون الثمن الذي علينا أن ندفعه هو القبول بنهج التسوية حيث عاش عرفات نشوة انتصاره الديبلوماسي. وكان عرفات يريد استثمار هذا الانتصار لتحقيق أهداف سياسية تلحق الضرر، من وجهة نظرنا، بثوابتنا الوطنية. فبعد حرب العام ١٩٧٣، أصبح عرفات يراهن كثيراً على الطريق الديبلوماسي، ويستخدم في ذلك علاقاته مع العديد من الحلفاء في العالم. وعلى العكس من ذلك، كنا نعلم أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، كما قال الرئيس عبد الناصر، وأن الصهاينة لن يتخلوا مطلقاً عن الضفة الغربية أو عن فلسطين بالسبل الديبلوماسية.

كنتم إذن مع المسدّس، لا مع غصن الزيتون.

لم نكن نستبعد الرأي العام ولا الديبلوماسية، لكننا كنا نعطي الأولوية للبندقية. فالنضال المسلح هو ما كان من شأنه أن يسمح لنا فعلاً بالدخول في مفاوضات ونحن في وضع جيد. إذ كما في كل حرب، ينتهي المتحاربون إلى الجلوس حول طاولة واحدة للتفاوض. لكن، وبالنظر إلى معرفتي الجيدة جداً بالصهاينة وقراءاتي النظرية، حيث أنني قرأت عنهم الكثير من الكتب، كنت أعلم أن من الضروري أن نصل إلى المفاوضات ونحن في موقع القوة لكي نتمكن من انتزاع حقوقنا. أما ونحن في موقع الضعيف فإن المفاوضات لن تفضي إلى شيء. كان من الضروري أن يتم التمهيد للمفاوضات، فالتوقيت الذي حدده عرفات لم يكن توقيتاً صحيحاً، لأننا لم نكن قد تهيأنا بما فيه الكفاية للطريق الديبلوماسي.

كنا نتمنّى لو أننا نستطيع تحرير أرضنا دون إراقة دماء. ولكن إسرائيل لم تكن مستعدّة لأن تمنحنا حقوقنا بمثل هذه السهولة.

لم تكن طموحات إسرائيل مقتصرة على فلسطين وحدها، فالعالم كله يعلم أن هذه الطموحات تمتد لتشمل سائر المنطقة العربية. وبعد حرب العام ١٩٧٣ مباشرة، ظن الكثيرون من الفلسطينيين أن الدولة الفلسطينية لم تعد حلماً بعيد المنال. لكنني واصلت الاعتقاد بأن نصرنا لن يتحقق إلا بعد حرب تحرير شعبية طويلة وقاسية ومريرة. لقد حافظت على قناعتي بضرورة وضع إسرائيل أمام الأمر الواقع، عبر خلق معطيات جديدة على الأرض، لكي نتمكن من انتزاع حقوقنا بالقوة.

لماذا واصلتم اعتبار الدولة الفلسطينية حلماً بعيد المنال، في ظل الخوف الذي أحدثته حرب العام ١٩٧٣ عند الإسرائيليين؟

حرب العام ١٩٧٣ كانت أولاً انتصاراً نفسياً للعالم العربي. لقد رفعت

معنويات العرب جميعاً، وتولّدت حالة من الزعزعة حتى داخل المجتمع الإسرائيلي. فالجيش الإسرائيلي لم يعد العملاق الذي لا يُقهر. فكّرنا يومها أنه كان من الممكن فعل المزيد، ولكن المشكلة كانت تتمثل بعدم رغبة السادات في تحقيق تطلعات الشعب المصري. كنت أرى أن السادات لن يستخدم انتصاره العسكري في مواصلة السير في هذا الطريق؛ كان يسير في طريق الأميركيين، وهذا ما ظهر بعد سنوات قليلة عندما ذهب إلى القدس.

تعتبرون أن النضال المسلح هو ما ينبغي له أن يقود الفلسطينيين إلى طاولة المفاوضات وهم في موقع القوة إزاء إسرائيل. ولكنّ القائد في فتح أبو جهاد يعتبر في مذكراته أن «النضال المسلح يخدم العنف المسلح ويندرج في حركة واسعة ومنظمة يشكل بالنسبة إليها قوة مكملة ويسهم في منحها زخماً جديداً في زمن الرفض أو الهزيمة». أي أن النضال المسلّح يشكّل قوة دعم للمفاوضات السياسية عندما تصل إلى حالة الجمود، لكنكم تدافعون عن تصوّر مختلف، حيث أنكم تنظرون إلى النضال المسلّح على أنه الوسيلة الأساسية للتحضير للمفاوضات؟

أعتقد أن التفاوض يجب أن يتمّ في وضع نكون فيه طرفاً قوياً ومؤثراً، إذا ما كنا نريد الحصول على ما نريد. موازين القوى لم تكن ملائمة بالنسبة إلينا. إذ منذ ما يقرب من أربعين عاماً، وهذه القضية كانت مدار خلافات قوية بين فتح والجبهة الشعبية. وغالباً ما تحدثت مع أبو جهاد حول هذا الموضوع. كنت أحترمه كثيراً لأنه كان دائم الحرص على الاستماع إلى من يتحدّث إليه.

الفصل الثامن

اندلاع الحرب اللبنانية والتدخّل السوري

تحوّل الوجود الفلسطيني المسلّح في لبنان إلى واحد من عناصر تفجير الحرب الأهلية التي أدمت بلد الأرز بين العام ١٩٧٥ والعام ١٩٩٠. كيف عايشتم المعارك الأولى؟

كنا يوم الأحد، الواقع فيه ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٧٥، نتناول طعام الغداء مع العائلة عند أحد الأصدقاء في صيدا، عندما تعرّضت حافلة تقلّ عمالاً فلسطينيين لاعتداء في حيّ عين الرمّانة المسيحي في بيروت، وقُتل عدد كبير من ركّاب الحافلة. وقد صدمت لخطورة هذا الاعتداء الذي ارتكبته القوى الانعزالية. وعلى الفور، طرحت على نفسي السؤال التالي: هل نجم الحادث عن مصادفة مؤسفة؟ أم أنه عمل مخطط له بعناية بغية جرّ المقاومة الفلسطينية إلى صدامات تُفضي إلى تصفيتها؟ كنت أعرف جيداً أن الطرف المعادي لا يمكنه أن يترك المقاومة تعزّز تحالفها لفترة أطول مع الحركة الوطنية اللبنانية لتجعل من لبنان قاعدة ثورية. لم يكن خصومنا يقبلون أن تتعزّز مواقعنا العسكرية كما كانت عليه قبل سنوات في الأردن.

وخلال الأيام التي أعقبت هجوم عين الرمانة، لم يكن بإمكان المكتب السياسي للجبهة، ولا بإمكاني، أن نتوصّل إلى حسم الموقف حول هذا الحدث، وذلك لأن أية معلومات واضحة لم تُقدّم من قِبل منفّذي الهجوم. ومع استمرار المواجهات، ظهر لنا بشكل واضح أن مخططاً قد تمّ وضعه بهدف

اجتثاث المقاومة الفلسطينية من لبنان والتخلّص من الوجود العسكري الفلسطيني. وعندها اقتنعنا بأن حادث عين الرمانة كان الشرارة التي ستحرق كل شيء في طريقها. وانطلاقاً من ذلك، توقّعنا نشوب حرب طويلة الأمد.

ومن هنا، بدأت أفكر في ضرورة وضع خطّة للردّ تتمحور حول أولويات خمس:

١) يجب على الحركة الوطنية اللبنانية أن تكون القوة الأساسية في المواجهات، ومن المفيد أن تُعطى أهمية خاصة في جميع المسائل المتعلقة بلبنان.

٢) علينا أن نُبغد الطابع الطائفي بقدر الإمكان عن المعركة، مع اعترافي بصعوبة ذلك في تلك الفترة.

٣) علينا أن نفعل كل ما يمكننا فعله من أجل الحيلولة دون تدخّل عسكري سوري. وبالمقابل، يمكننا أن نقبل قيام دمشق بدور سياسي كوسيط محايد.

٤) علينا أن نحتفظ بوجود عسكري فلسطيني في جنوب لبنان من أجل مواصلة المعركة ضد إسرائيل وصدّ هجماتها والمحافظة على عمل الفدائيين.

٥) أخيراً، علينا أن نؤمّن حماية المدنيين في مخيمات اللاجئين، وأن نمنع أية محاولة للهجوم على هذه المخيمات، وأن نجعلها تشارك إلى أقصى حدّ ممكن في المعركة إلى جانب المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية.

تفجّرت في العام ١٩٦٩، ثم في العام ١٩٧٣، أحداث خطيرة بين المقاومة والجيش اللبناني. وبعد كل عملية كان يقوم بها الفدائيون كان الجيش الإسرائيلي يردّ بضرب لبنان. أي أن المشكلة تعود كما كانت في الأردن من حيث أن المقاومة الفلسطينية تعرّض سيادة لبنان على أراضيه للخطر. كيف كنتم تنظرون إلى هذه المسألة في تلك الفترة؟

كنا نفهم هواجس اللبنانيين وتخوّفهم من الأوضاع. كنا نقول لهم إن الفلسطينيين ليس لديهم أي أطماع في لبنان كما أننا نرفض التوطين جملة

وتفصيلاً، وإن العودة إلى ديارنا هي أمنيتنا الوحيدة. كنا مقاومين ولم يكن بإمكاننا أن نفعل شيئاً غير أن نقاتل. خصوصاً أن اتفاقية القاهرة الموقّعة عام ١٩٦٩ تعطينا الحق بالردّ على الاعتداءات الإسرائيلية من لبنان.

صحيح، ولكن اللبنانيين كانوا يتعرّضون لضربات انتقامية.

إسرائيل هي التي كانت تقوم بأعمال عدوانية وتمنع عودة اللاجئين. لم يكن عندنا خيار غير البقاء في لبنان من أجل أن نقاتل في سبيل العودة.

ما الذي جعلكم تعتقدون بأن هذه الحرب ستكون حرباً طويلة؟

موقف القوى الانعزالية تجاه المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية جعلني أقتنع بأن الحرب كانت أمراً لا يمكن تجنبه. كانت هنالك مشكلتان في لبنان: مشكلة تتعلق بالطبقات الاجتماعية، ومشكلة تتعلّق بالطائفية. كانت جميع العناصر مهيأة لنشوب الحرب. وبصفتي رجلاً يسارياً، كنت ألاحظ الفوارق الصارخة بين حياة البورجوازية الكبيرة في لبنان وبؤس الطبقات المحرومة في الجنوب والبقاع والكثير من المناطق اللبنانية الأخرى بما فيها بيروت حيث كانت توصف المناطق الفقيرة المحيطة ببيروت بـ«حزام البؤس». أعلم أن لبنانيين كثيرين اعتقدوا على الدوام بأن «الفلسطينيين هم السبب في اندلاع حرب لبنان»، على ما كانوا يقولون. وأنا أجيبهم بأن تلك الحرب كانت حرباً بين الطوائف، وأيضاً بين الطبقات الاجتماعية، وأن الفلسطينيين قد فرضت عليهم تلك الحرب. صحيح أنهم كانوا متحالفين مع كمال جنبلاط والحركة الوطنية اللبنانية، ولكن الهوّة الطبقية بين اللبنانيين والتركيبة الطائفية كان لهما دور كبير في تلك الحرب. كان المجتمع اللبناني يعاني الكثير من مظاهر الخلل الفاضحة، حيث كان الشيعة مهمّشين. ولا شكّ في أن الانقسامات الاجتماعية كانت أحد الأسباب المباشرة للحرب الأهلية مما انعكس بلا شك على التجمّعات الفلسطينية في لبنان. بالنسبة إلينا، كانت مقاومة إسرائيل هي الأمر الوحيد الذي يهمّنا.

سمح لكم تحالفكم مع الحركة الوطنية اللبنانية بتعزيز عمليات المقاومة ضد إسرائيل، كما سمح للصف الإسلامي-التقدمي بتكثيف مطالبه الداعية إلى تقاسم جديد للسلطة بين الجماعات اللبنانية. أليس كذلك؟

بالفعل، سمح التحالف مع الحركة الوطنية اللبنانية بأطرافها كالحزب الشيوعي اللبناني، والحزب السوري القومي الاجتماعي، والتيار الناصري، والحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة كمال جنبلاط، سمح بتعزيز مواقع الجانبين. فالفلسطينيون، شأنهم شأن مناصري جنبلاط ومجمل أطراف الحركة الوطنية اللبنانية، كانوا يشعرون بأنهم مهمّشون. لذا كان هؤلاء يدعمون مطالبنا الرئيسية، وكنا نفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى مطالبهم. لكن، ومع التقاء الطموحات بين اليسار اللبناني والإسلاميين والفلسطينيين، فإن الأولوية ظلت متمثلة، بالنسبة إلينا، بالدفاع عن القضية الفلسطينية. لم نكن نرى في الحركة الوطنية غير عنصر دعم لقضيتنا.

بلغت المقاومة ذروتها في عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦. وعندما كان كمال جنبلاط يقول: «نحن نستند إلى القوة التي يمكنها أن توصلنا إلى السلطة»، فإن ذلك كان يُظهر مقدار قوتنا. كان الحزب التقدمي الاشتراكي متمركزاً في الجبل، أما نحن فكنا نحصل على السلاح عن طريق البحر. كان في لبنان كثير من تجار السلاح الجاهزين لعقد صفقات رابحة. وكان أبو عمّار يمتلك ما يكفي من المال لشراء الأسلحة اللازمة، وإن كان تنظيمه، أي فتح، لا يتقاسمها مع الأطراف الأخرى إلا في النادر. كانت لكل فصيل ترسانته الخاصة. أما في الجنوب، على الحدود مع إسرائيل، فقد كان تعايشنا مع الجيش اللبناني يتم بطريقة جيدة بشكل أو بآخر. كان الأمر يتوقف في ذلك على قائد المنطقة. لم يكن الجيش اللبناني يقوم بأي دور في دعم المقاومة.

هل لك أن تحدّثنا عن كمال جنبلاط؟

كان جنبلاط شخصية من نوع خاص. كان أسلوبه في الحياة فريداً في نوعه.

كان نباتياً مثلاً. أهدى إليّ مرة كتاباً بعنوان «العلاج بالقمح». كان يأوي إلى فراشه كل يوم في التاسعة مساءً، خلافاً لأبو عمّار الذي لم يكن ينام مطلقاً في الليل. كان ذلك مزعجاً لأبو عمّار الذي لم يكن يعقد اجتماعاته إلا بعد منتصف الليل. لقد عرفت كمال جنبلاط عن قرب وقد لاحظت ما كان يتمتع به من الهيبة والكاريزما والقدرة على التأثير.

كيف كان السكان الفلسطينيون يتوزّعون في العاصمة اللبنانية؟

كانت بيروت وضواحيها نقطة الثقل في الحرب الأهلية. وكانت العاصمة منقسمة إلى قسمين هما بيروت الشرقية وغالبية سكانها من المسيحيين، وبيروت الغربية ذات الأغلبية المسلمة.

أما في ما يخصّ اللاجئين الفلسطينيين، بعد وصولهم إلى لبنان، عام ١٩٤٨، فقد كانوا موزّعين بغضّ النظر عن الانتماء الطائفي. ففي بيروت الشرقية مثلاً، كان هنالك مخيمان: مخيم ضبيه وسكانه من الفلسطينيين المسيحيين الذين استهدفتهم عمليات القتل والإبادة من قِبل الكتائب والقوات اللبنانية، دون أخذ انتمائهم الديني في الاعتبار. وقد انتهى بهم الأمر إلى الطرد من المخيم. كما كان هنالك مخيم تل الزعتر الأكثر اكتظاظاً حيث كان يعيش فيه حوالى ٣٠ ألف لاجىء فلسطيني. وقد تمّ ضرب هذا المخيّم بمنتهى القسوة ونُفذت مجازر وحشية بحقّ المدنيين، بعد أن كان المخيّمان قد حوصرا من قبل الكتائب اللبنانية، منذ كانون الثاني/يناير عام ١٩٧٦. أما في بيروت الغربية فكانت التجمعات الفلسطينية تتركز في مخيمي صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة والفاكهاني، عدا عن الوجود الفلسطيني خارج العاصمة، كمخيّم عين الحلوة في صيدا، ومخيّم الرشيدية في صور، والبداوي ونهر البارد في الشمال.

إنه الحصار الرهيب الذي تعرّض له تلّ الزعتر!

استمرّت المقاومة التاريخية في تلّ الزعتر لأكثر من ستين يوماً، رغم انقطاع

الماء والكهرباء وندرة الموادّ الغذائية، ورغم كل أشكال الدمار الذي أصاب المخيم. أتذكر لحظة سقوط المخيم في ١٢ آب / أغسطس ١٩٧٦، حوالى الساعة الثانية عشرة ظهراً. كنت عندها مارّاً بالقرب من منزل أحد الأصدقاء. دخلت إلى ذلك المنزل وانتابنتي حالة من الضيق الشديد. وبفعل الضغط النفسي، ذرفت دموعاً حارّة. تذكّرت الأصدقاء ونضالهم الأسطوري، ومنهم محمد عبد الكريم الخطيب (أبو أمل)، عضو اللجنة المركزية. كان مثالياً ببساطته وصدقه. لقد وهب حياته للثورة في بداياتها، عندما ذهب إلى الجليل بهدف الإعداد لنضالنا المسلح. خسرنا الكثير من كوادرنا وقياداتنا في تلك المعارك إضافة إلى العدد الهائل من الضحايا المدنيين.

تخيلت أمام عينيّ صورة المجازر التي ارتكبها الانعزاليون. بدأت ترد إلينا الأخبار عن الفظائع التي ارتكبتها الكتائب اللبنانية. كانوا يشربون الشمبانيا فوق الجثث احتفالاً بانتصارهم. لقد أحدثت فينا تلك المأساة صدمة رهيبة، واعتبرنا أن تلك الحرب هي حرب إبادة بحق شعبنا.

إن أصناف العنف التي استُخدمت بحق من نجوا من المجزرة تفوق الخيال. ليس من عائلة إلا وفقدت عدداً كبيراً من أفرادها الذين كانوا يخرجون من المخيم فيقتلهم الكتائب والقوات اللبنانية على الحواجز المحيطة به. كانوا يقتلونهم على الهوية، ويظهرون بذلك حقدهم الأعمى على الفلسطينين. قتلوا حتى النساء الحوامل اللواتي كان بينهنّ من أُجهضنَ أثناء خروجهنّ من تل الزعتر. وبعد سقوط المخيم ووصول آلاف الأسر التي نجت من المجزرة، بدأت معالم المأساة التي عانتها تلك الأسر بالظهور إلى العيان. تلك الأحداث الرهيبة التي عاشها شعبنا عصفت عميقاً بزوجتي التي شعرت بمسؤولية كبرى تجاه هؤلاء الناس الذين كانوا في وضع نفسي ومادي شديد الصعوبة وبحاجة إلى أشكال من العلاج والعناية الخاصة. بدأت هيلدا تقوم بزيارتهم في الأمكنة الموقتة التي خُصّصت لإيوائهم؟ كانت تحاول أن تؤمّن لهم احتياجاتهم اليومية وأن تدعمهم لتخفيف آلامهم. كان المشهد مرعباً، والكلام عاجزاً عن التعبير عن هول المأساة.

عملت زوجتي بتفان كبير ولساعات طوال تحت القصف المكثف. كانت تزور الجرحى والمصابين وأسر الشهداء. كما كانت تجمع التبرعات الضرورية لاحتياجات المنكوبين من أدوية وثياب وموادّ غذائية. كان النازحون من المخيم يكنّون لها احتراماً كبيراً رغم أنها لم تكشف لهم يوماً عن اسمها الحقيقي. كانت تتحرك تحت اسم مستعار هو الرفيقة منى. ولم يعرفوا هويتها إلا بعد خمس سنوات خلال حفل تكريم لأسر الشهداء أقمناه في مخيم شاتيلا. كانت هيلدا إلى جانبي، وكان الناس يتساءلون عن العلاقة بين الرفيقة منى والأمين العام جورج حبش. وعندما اكتشفوا أنها زوجتي ازداد احترامهم وحبهم لها لأنها بذلت كل جهدها في مساعدتهم على تحمّل آلامهم. عملتْ أيضاً على رأس لجنة طبية اجتماعية تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وأشرفتْ على مشروع يهتمّ بالتراث الفلسطيني ويهدف إلى تأمين فرص عمل لأكبر عدد ممكن من النساء الفلسطينيات في مخيمات لبنان. ومن خلال هذا العمل الحرفي، استطاعت أن تؤمّن لهاتيك النسوة دخلاً يسمح لهنّ بتغطية نفقاتهن الخاصة وتجنّب الحرمان والفاقة.

وكان من الطبيعي، في هذه الظروف، أن يردّ الفلسطينيون والقوى الوطنية اللبنانية على ما حدث في تل الزعتر. وقد جاء هذا الرد من خلال معارك الدامور، ومن خلال المواجهات التي نشبت في المنطقة التجارية والأسواق والكرنتينا ومجمل المناطق التي تسيطر عليها القوى الانعزالية.

الواقع أن تلك الحرب قد بلغت قمّة البشاعة البشرية. إن القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية ارتكبت هي أيضاً كثيراً من التجاوزات التي أساءت إلى سمعة الثورة. وقد تميّزت الجبهة الشعبية في تلك الفترة بتجنّبها للكثير من هذه التصرّفات. فقد أوعزنا إلى عناصرنا بحماية أملاك المدنيين اللبنانيين، وحتى بمعاقبة كل رفيق يقوم بأي تصرّف مسيء. وقد حاولت الكتائب اللبنانية أن تجعل من معركة الأسواق صراعاً طائفياً، في حين كانت المقاومة الفلسطينية تسعى إلى تجنّب الوقوع في هذا الفخ. كانت تختلط في تلك المعركة مجموعات من القوى

المتصارعة. وقد نزل جميع المقاتلين إلى منطقة الأسواق لأن كل فصيل كان يسعى إلى السيطرة على مركز العاصمة بيروت. وكنا، نحن والحركة الوطنية اللبنانية على وشك أن نربح الحرب، ولكن التدخل السوري، في أيار/مايو قلب جميع الموازين لمصلحة القوى الانعزالية.

إلامَ تُرجعون الأخطاء التي ارتكبها الفلسطينيون؟

يعود الخطأ الكبير في سلوك المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية إلى تعدد القادة وغياب النهج السلوكي. كان من الممكن لقوى اليسار أن تُظهر تميّزها، ولكنني آسف للقول إنها لم تفعل ذلك. لقد زرت الدامور ومنطقتها بعد المعركة، ورأيت حجم الدمار الذي حل بتلك الناحية. كانت بعض العبارات المكتوبة على الجدران تكشف عن الفظاعات المرتكبة باسم الثورة. وتساءلت في سرّي: «أين يكمن مصدر فخرنا وعظمتنا في تلك الكتابات الحاقدة»؟ كانت الجبهة الشعبية تدين تلك التجاوزات. فمثل هذه الأعمال تسيء إلى الثورة وسمعتها.

ما الذي دفع السوريين إلى التدخّل في لبنان؟

خلال معركة الشوف في ربيع العام ١٩٧٦، بين قوات الحركة الوطنية اللبنانية والانعزاليين، كانت الغلبة في البداية من نصيب المقاومة. وقد خاف الانعزاليون من تعاظم نفوذ الحركة الوطنية، خصوصاً أن شخصية جنبلاط الكارزمية كانت تجتذب إليه تعاطف الكثير من اللبنانيين. عندها، اتصل الانعزاليون بالأميركيين، وبدأوا يطالبونهم بالدعم خشية أن تسير الأمور على نحو أسوأ. وهكذا، دفع الأميركيون بالسوريين إلى التدخّل لدعم الانعزاليين. وكان السوريون يخشون، من جهتهم، من انتصار الفلسطينيين والحركة الوطنية. كما كانوا لا يثقون بجنبلاط، لأنهم كانوا يرون فيه قوة ديموقراطية تشكّل خطراً عليهم. ولولا التدخل السوري لكنّا ربحنا المعركة، ولكان جنبلاط قد أصبح زعيم لبنان الأوحد. ولم يكن ذلك بالأمر الذي يقبله السوريون والانعزاليون.

وقد نفى السوريون على الدوام كونهم قد تدخلوا لإفشال هذا السيناريو. كانوا يقولون إنهم فعلوا ذلك من أجل إيجاد توازن بين القوى.

ثم تعقّد الوضع في العام التالي، أي بعد اغتيال كمال جنبلاط، عام ١٩٧٧. وعندها بدا واضحاً أن دخول الجيش السوري كان يهدف إلى منع لبنان من التحوّل إلى بلد ديموقراطي داعم للثورة الفلسطينية. وقد شعرت مع اغتيال جنبلاط أن الفلسطينيين قد فقدوا حليفاً استراتيجياً هاماً جداً.

لقد فُرضت علينا تلك المواجهة مع السوريين. وأكرّر أن الأميركيين كانت لهم مصلحة في إنهاء مثل هذا الوضع، لأن قيام تحالف بين اليسار اللبناني والفلسطينيين كان من شأنه أن يُفضي إلى اختلال موازين القوى في لبنان. لذا، فإن تدخّل السوريين جاء ليعزز مواقع الانعزاليين. وكان علينا كفلسطينيين أن نقاتل إلى جانب القوى الوطنية اللبنانية، مع كوننا لم نكن نرغب في مواجهة مع دمشق. لكنّ الواجب كان يدعونا إلى التكاتف مع الحركة الوطنية اللبنانية.

لقد ابتعدنا الآن كثيراً عن تلك الأجواء، لكنني لست نادماً أبداً على تحالفنا مع القوى الوطنية اللبنانية. كان مبدأنا الأساسي يدفعنا إلى البحث عن تحالفات مع جميع القوى التقدمية والوطنية في العالم. ومن جهة أخرى، كان الحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة جنبلاط يمثّل حركة ديموقراطية كبيرة، ولو أنه ربح المعركة في لبنان، لكان وضع الفلسطينيين أفضل بكثير.

ما كانت انعكاسات التدخّل السوري على نضالكم؟

أحدث التدخّل السوري تغييراً نوعياً في طبيعة المعركة، ووجدنا أنفسنا أمام وضع جديد. كان لا بدّ لنا من الدفاع عن وجودنا في الساحة اللبنانية. وقد دفعت المكتب السياسي إلى العمل على تعزيز نضالنا. طلبنا إلى الرفاق في بعض المناطق أن يدافعوا عن أنفسهم حتى الموت. لكنّ الاختلال في ميزان القوى بيننا وبين الجيش السوري كان واضحاً، ولم يكن الخيار بيدنا. وعندما امتدت المواجهات إلى المخيمات، قررنا أن ندافع عنها بضراوة أياً كانت عواقب ذلك.

وقد أدّى قرارنا هذا إلى مواجهة مع الجيش السوري لدى مروره في منطقة شاتيلا، حيث قُتل ضابط سوري برتبة عالية. عندها أعاد السوريون حساباتهم. لا أقول هنا بأنهم راجعوا موقفهم بخصوص دخول قواتهم إلى لبنان، لأن ذلك كان موقفاً استراتيجياً من قِبل دمشق، لكنهم أعادوا النظر في حرب المخيمات.

مررتم، خلال حرب المخيمات، بمرحلة عصيبة رويت فصولها في مذكراتك اليومية بين ٧ حزيران/ يونيو و١٢ تموز/ يوليو ١٩٧٦. وهذا ما كتبته في عزّ الهجوم السوري على المخيمات:

الأربعاء ٧ حزيران/ يونيو ١٩٧٦. يوم أمس، سقط مخيّم جسر الباشا. ينتابني هذا الصباح حزن عميق وأنا أفكر في أطفال المخيّم ونسائه وشيوخه، وأتذكر صور شعبنا في فلسطين خلال الثلاثينيّات، يوم كانت قوات الانتداب البريطاني تفرض منع التجوّل ثم تجبر الناس على الخروج من منازلهم بهدف تفتيشها. إنها صور مؤلمة جداً خصوصاً عندما يكون الأطفال في حال من الذعر الشديد. وهذا الصباح، جاء انقطاع المياه عن المكان الذي نسكن فيه ليضاعف من ألمي. أفكر في جميع الصعوبات التي سيكون على هؤلاء اللاجئين مواجهتها في عملية تهجير جديدة. أخشى أن يكون جسر الباشا بداية سلسلة من الهزائم التي قد تتعاقب، الواحدة تلو الأخرى، لتفضي في النهاية، بالإضافة إلى المجازر التي تعرّض لها أطفالنا ونساؤنا، إلى تراجع سياسي جديد من قِبلنا.

قلت للرفاق خلال الاجتماع اليومي لقيادة الجبهة هذا الصباح إننا لن نستسلم. وسألت الرفيق أبو أحمد (المسؤول العسكري) عن خطته العسكرية لمواجهة الوضع الجديد. كانت استراتيجيته تقوم على إنزال قواتنا إلى أطراف تل الزعتر، وهي خطة أكّد أنها كفيلة بأن تغيّر الوضع على أرض المعركة.

هل يمكننا أن نتراجع؟ هل يمكننا أن نعيش تجربة الأردن مرة أخرى؟ كان في ذهني تصميم لا يتزعزع على رفض مثل هذا السيناريو. وفي تلك الليلة الساخنة، كان لنا لقاء مع مندوب فتح أبو إبراهيم (ناجي علّوش). كانت قيادة

فتح ما تزال بصدد البحث عن تسوية. لذا كان تنظيم عرفات يرغب في تقليص المواجهة مع النظام السوري بهدف الوصول إلى وضع من التوازن يسمح له بالتهيّؤ للتفاوض. لم تكن فتح راغبة في قطع جميع الجسور مع النظام السوري.

الاثنين ١٩ حزيران/ يونيو ١٩٧٦. تمكّنت الحركة الوطنية اللبنانية والقوى الفلسطينية من إحراز الكثير من التقدم خلال الشهور الأربعة عشر الماضية. كان الأميركيون والبورجوازية اللبنانية يريدون ضرب هذا التحالف. وقد وضع الأميركيون خطة مع دمشق تقضي بدخول القوات السورية إلى لبنان لهدف واضح هو تهيئة لبنان لتسوية داخلية، تعقبها تسوية مع الفلسطينيين. وقد أدركنا أنهم مستعدّون لفعل أي شيء من أجل تحقيق هذا الهدف. لكن السوريين فوجئوا بالمقاومة الشعبية البطولية التي تصدّت لهم. عندها قرروا أن يضربوا بشدّة. لكنّ المعركة لم تقف عند هذا الحدّ.

وفي الأسبوع نفسه، التقينا السفير الكوبي الذي أعلمني بأن بلاده قد أبلغت دمشق بمعارضتها للتدخّل السوري في لبنان، وعبّرت عن دعمها للحركة الوطنية اللبنانية وللمقاومة الفلسطينية. وكان هذا الموقف أكثر وضوحاً من موقف الاتحاد السوفياتي.

وفي تلك الفترة، نُفّذت عملية عنتيبي[1] التي خطّط لها وأشرف عليها مباشرة الدكتور وديع حدّاد الذي كان حاضراً في المكان قبل ساعات قليلة من وصول القوات الإسرائيلية إلى المطار. ولم تكن الجبهة الشعبية مسؤولة عن تلك العملية.

---

(١) عملية عنتيبي: نفذتها قوة كوماندوس إسرائيلية في مطار عنتيبي (أوغندا) في ٤ تموز/ يوليو ١٩٧٦، بهدف تحرير رهائن اختطفتهم مجموعة من المقاتلين العاملين بتوجيه من وديع حداد بعد أربع سنوات من انقطاع العلاقة بينه وبين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكان الرهائن على متن طائرة ركاب فرنسية كانت تقوم برحلة بين تل أبيب وأثينا. وقد أسفرت العملية عن مقتل الخاطفين وأربعة إسرائيليين وعشرين أوغاندياً. وقد ألصقت وسائل الإعلام مسؤولية العملية بالجبهة الشعبية رغم نفي هذه الأخيرة أية علاقة بها.

الأحد ٤ تموز/ يوليو ١٩٧٦. استيقظت هذا الصباح على أخبار أذاعها الراديو عن العملية الإسرائيلية في مطار عنتيبي ورحت أفكّر في تداعياتها على مستوى معنويات أهلنا في الأراضي المحتلة. فللأسف، تمكنت إسرائيل من إفشال العملية، واستشهد فيها عدد من الرفاق الأكفاء الذين كنت أحبهم من كل قلبي. وقد شعرت بالكثير من الحزن لفقدهم.

لم أكن أتوقّع مطلقاً أن تقوم إسرائيل بشنّ هجوم على الطائرة المخطوفة. كنا نظنّ أن إسرائيل ستوافق على الإفراج عن المطران إيلاريون كبّوشي وغيره من السجناء الفلسطينيين. تصورت أن إسرائيل ستضع العراقيل أمام المفاوضات لتوهم الرأي العام بأنها فعلت كل ما بوسعها من أجل إنقاذ حياة الرهائن، دون أن تتمكّن من تحقيق ذلك. وعندما أُبلغت بفشل عملية الاختطاف، تألّمت لذلك وتصوّرت الفرحة التي ستطغى على العدو والحزن الذي سيشعر به أهلنا في الداخل. كما فكرت في الحالة النفسية التي سيعيشها وديع حدّاد، وودت فعلاً لو أنني كنت قادراً على مساعدته. علمت بعد ذلك، أنه كان ما يزال موجوداً في مكان العملية قبل ساعات قليلة من وصول القوات الإسرائيلية إلى مطار عنتيبي. كان هو من خطط للعملية وأشرف على تنفيذها. وقد جاء إخفاق العملية ليثبت فشل خطه المغامر الذي سبق لنا أن رفضناه في استراتيجيتنا بشكل حاسم وجذري.

الاثنين ٥ تموز/ يوليو ١٩٧٦. أُعلمت هذا الصباح بأسماء الأشخاص الذين شاركوا في عملية عنتيبي، وفوجئت عندما لاحظت أن بينهم قيادياً في الجبهة هو الرفيق جايل العرجا. كذلك كان من بين الشهداء الرفيق فايز جابر الملقّب بالحاج فايز ورفيق عراقي لُقب بأبو الدرداء. افترضت أن ثمّة علاقات كانت ما تزال قائمة بين بعض الرفاق من أعضاء الجبهة وأبو هاني (الاسم الحركي لوديع حدّاد) الذي كان قد استُبعد من الجبهة قبل أربع سنوات. ولم تقف التعقيدات المرتبطة بعملية عنتيبي عند هذا الحد. ففي هذا الصباح ووجِهت بطلبات قدّمها عدد من الرفاق في قسم العلاقات الخارجية في الجبهة من أجل أن تتبنّى الجبهة الشعبية

شهداء عنتيبي، لا لسبب إلا لأن الرفيق جايل العرجا كان واحداً منهم. كانت تلك محاولة واعية أو غير واعية، غذّتها عوامل انفعالية من النوع الذي ينشأ عند مثل هذه الأحداث، للضغط على القيادة. وللحظات، كان الجو متوتّراً جداً بيننا. فقد غضب البعض، لكنني تذكرت جميع الجهود المبذولة خلال السنوات السابقة من أجل وضع نظام داخلي، وقررت الإصرار على الرفض، لأن الاستسلام لذلك المطلب من شأنه أن يشكّل ضربة لمصداقيتنا، وأن يؤجّج خلافاتنا الداخلية. إذن رفضت بشكل حاسم ومع كل احترامي للشهداء تبنّي عملية عنتيبي من قِبل الجبهة الشعبية. كنت أتكلم وأنا أضع يدي على قلبي. وعندما أنهيت كلامي، انتظرت بشيء من القلق ما سيقوله الرفاق. لكنني شعرت بارتياح كبير عندما وافقوا على وجهة نظري. وما أزعجني بعد ذلك إصرار جميع نشرات الأخبار على أن العملية قد نُفّذت من قِبل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش. أذكر من بين شهداء تلك العملية الحاج فايز وهو من أصلب المناضلين، كما استشهد عدد آخر من المقاتلين الأكفاء.

الاثنين ١٢ تموز/يوليو ١٩٧٦. بدا واضحاً، خلال الأيام الأخيرة، أن موازين القوى العسكرية لم تكن في صالح الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. كان ذلك منطقياً تماماً، بعد دخول القوات السورية. لكنّ المعارك المظفّرة التي خاضها السكان في صيدا وبيروت كانت قد أخفت بشكل موقت هذا الواقع. أما في ما بعد، فقد باتت الأمور في منتهى الوضوح: لقد سمح التدخل السوري للقوى الانعزالية باستعادة الحيوية في مواجهة الثورة. غير أننا نجحنا، يوم الاثنين الماضي، في الرد في الشمال، على سقوط جسر الباشا وحصار تل الزعتر. لكنّ الأمور تغيّرت في اليوم التالي، إذ تمكنت القوى الانعزالية من التفوّق مجدداً. عندها بدأت أكتشف مدى خطورة الوضع وتبلورت الصورة جليّة في ذهني. من الواضح أننا كنا نواجه مرحلة حاسمة من مراحل مصيرنا. فالقوات السورية تقدمت في الجبل وبعلبك والشمال، ووجهت ضربات إلى المنشآت النفطية في الزهراني جنوباً، وبدأت حلقة الحصار تضيق حول تل الزعتر. وأدّى

ذلك كله إلى تفاقم مشكلات الحياة اليومية عند الأهالي الذين شعروا بخطورة الوضع الإنساني على نحو أشد إيلاماً من خطورة الحصار العسكري المفروض عليهم. وهنا ظهرت نيّات النظام السوري: قطف ثمار هذا الضغط وإخضاع قيادة المقاومة.

وفي هذه الظروف، زارنا المسؤول الليبي السيد عبد السلام جلّود[٢] مبعوث الرئيس القذافي، واقترح على قيادة المقاومة أن تقوم بزيارة إلى دمشق، وكان من الواضح أن المطلوب منا هو بكل بساطة قبول الإذلال.

كان ذلك الأسبوع إذن صعباً بوجه خاص. فعلى الصعيد العسكري، كان علينا أن نعزز مواقعنا في بيروت، وأن نشنّ حرب مناوشات على القوات السورية في البقاع والشمال والجبل، في حين لم يكن بمقدورنا أن ننفّذ أكثر من هجمات تكتيكية على بعض مواقع الانعزاليين في بيروت. كيف يمكننا تجنّب تراجع جديد؟ كان من واجبنا، رغم الاختلال في موازين القوى، أن نصرّ على رفض الاستسلام، وعلى ضرورة شنّ حرب لا هوادة فيها على كل من يقبل الخضوع.

عندما يخطر ببالي ما قد تعنيه خسارة تلك الحرب على مستقبل ثورتنا وشعبنا، أشعر بأن علينا أن نستنفر كل ما عندنا من تصميم. فالعامل المعنوي كان أساسياً في تلك المعركة؛ إذا فقدناه نكون قد فقدنا كل شيء. وإذا ما كان الشعب وحده قد صمد حتى الآن في تل الزعتر وبيروت، فإن ما نملكه من أسلحة وعزيمة ما يزال بإمكانه أن يغيّر مسار الحرب. وقد تحدث مفاجآت. ذلك هو خيارنا الوحيد.

تركت فيّ كلمات جلّود أثراً كبيراً. كان يكلّمنا كما لو أن ثورتنا لم يبق لها من الحياة غير بضعة أيام. تملّكني عندها شعور حادّ بعُقم هذا الكلام الذي

---

(٢) عبد السلام جلّود: رجل سياسي ليبي ولد في العام ١٩٤١ وانضم إلى السلك العسكري قبل أن يلتحق بالضباط الأحرار الذين غيروا نظام الحكم في ليبيا، بقيادة العقيد معمر القذافي في العام ١٩٦٩. تولى جلّود عدداً من المناصب العليا، باعتباره الرجل الثاني في ليبيا، ولكنه أُبعد أو ابتعد عن العمل السياسي لأسباب غامضة، في العام ١٩٩٢.

أسمعه منذ مدة طويلة، في حين أن الإمبريالية، بكل إمكانياتها، لم تتمكن بعد من إسقاط البندقية الفلسطينية. كيف يمكن لهذا السيد أن يتخيّل أن كل طموحاتنا وأحلامنا يمكنها أن تنهار في أيام قليلة؟ إنني أتذكر الآن، أكثر من أي وقت مضى، ثورة الشعب الكمبودي، وكيف أن سبعة ملايين إنسان تمكنوا من مواجهة الإمبريالية الأميركية.

ولكن عليّ أن أعترف بأن هذه المبادرة الليبية تخدم النظام السوري أكثر مما تخدم مصالح الثورة. إلا أننا لا نريد الدخول في خلاف مع ليبيا. فهنالك احتياجاتنا إلى المال والإمدادات، إضافة إلى ضرورة التحالف مع أية قوة عربية. لا يمكنني أن أنسى حالة التمزق التي يعيشها المرء في مثل هذه اللحظات.

مرّ هذا الأسبوع بطيئاً وكأنه شهور طويلة. تلقيت برقية علمت منها أن ماو تسي تونغ على وشك مفارقة الحياة، وتبعتها برقية أخرى عن سقوط رفيقين لنا في معركة عين الرمّانة.

تأثّرت كثيراً لسقوط هذين الرفيقين في المعارك. شعرت بالحاجة إلى البكاء، وبكيت فعلاً، غير أنني عدت وتمالكت نفسي أمام أحد الرفاق، انتظرت حتى خروجه ثم واصلت البكاء. إنني أشعر أحياناً بغليان في داخلي وسط كل هذه الأسئلة التي تدور في ذهني. أذهب إلى المنزل، فأشعر بشيء من الهدوء. لا بدّ من ضبط الأعصاب. أشعر أحياناً بأن مشاعري تترنّح، وأنني لم أعد أعرف في أي يوم أنا. دويّ كل انفجار يذكّرني بالمأساة التي عشناها قبل ثلاثين عاماً. أشعر في كل مرّة كما لو أن شظيّة أصابت أحد أفراد أسرتي. يجتاحني للحظات شعور بالكآبة والمرارة، لكن رؤية زوجتي وابنتيَّ كانت تريحني وتخفّف عني شيئاً من ثقل الأحداث الحزينة التي نعيشها فتشحن قلبي حماساً من جديد.

الفصل التاسع

السادات في القدس وكامب دايفيد...
مشاكل صحية جديدة

ما الذي شعرت به عندما قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارته إلى القدس في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٧؟

بعد سقوط القدس عام ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لباقي الأراضي الفلسطينية ومرتفعات الجولان وسيناء، وقبله انفصال سوريا عن مصر في بداية الستينيّات، كانت تلك الزيارة يوماً أسود جديداً في تاريخ الأمة العربية. فقد سجّلت تلك المبادرة المدانة تغيّراً استراتيجياً بالغ الأهمية على مستوى الصراع العربي- الإسرائيلي. لقد وقّع السادات وثيقة موته في ذلك اليوم، وقُتل فعلاً بعد سنوات قليلة على ذلك أي في العام ١٩٨١. وما زلت حتى الآن أشعر بحيرة شديدة عندما أقارن بين السادات وعبد الناصر، هذين القائدين اللذين تعاقبا على حكم هذا البلد العربي الكبير مصر. أحدهما عمل من أجل مصالح الأمة العربية ومن أجل بلده، أما الثاني فزجّ بالأمّة في زوبعة المفاوضات غير المجدية التي لم تفض إلى تحقيق الأهداف العادلة للشعب الفلسطيني وللأمة العربية. ولحسن الحظ فإن ردّ الفعل العربي على زيارة السادات إلى القدس قد ظهر واضحاً من خلال المعارضة التي أبدتها الجماهيرالعربية ومعظم الأنظمة القائمة. لقد شكلت تلك الزيارة صدمة للشعب الفلسطيني وللقادة الفلسطينيين وللعرب جميعاً.

ظنّ عرفات في البداية أن هذه الزيارة ستعطي بعض الثمار بالنسبة إلى القضية

الفلسطينية، لكنه تراجع في النهاية عن هذا الظن. وبعد شهر على الزيارة، أي في كانون الأول/ ديسمبر، دعا العقيد مُعمَّر القذافي مُجملَ الحركات الوطنية العربية والفلسطينية إلى طرابلس الغرب من أجل الاتفاق على ردّ على مبادرة السادات. فالجزائر والعراق وليبيا واليمن الديموقراطي وسوريا كلها لم تؤيّد خطوة السادات. أما في ما يخصّ الفلسطينيين، فقد كان القذافي يعتقد، قبل ذلك الاجتماع، بضرورة تكوين جبهة الرفض والتصدّي لتلك المبادرة، ولم يكتفِ بحضور عرفات ومنظمة التحرير إلى طرابلس. كانت سبعة فصائل فلسطينية هي فتح، والجبهة الشعبية، والصاعقة، والجبهة الشعبية الديموقراطية، والجبهة الشعبية-القيادة العامة، وجبهة التحرير العربية، وجبهة التحرير الفلسطينية، قد اعتمدت قبل الاجتماع برنامجاً من ست نقاط تدعو إلى «تكوين جبهة الصمود والتصدّي ومقاطعة مصر» من أجل مواجهة تلك المؤامرة. وعلى ذلك، قررت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين حلّ جبهة الرفض التي كنا قد شكّلناها قبل سنوات على ذلك. وقد هنّأنا أنفسنا عندما رأينا أن سياسات الفصائل الفلسطينية الأخرى تعود إلى الطريق الصحيح، وتحديداً مع الإدانة التي وجّهها عرفات إلى السادات. ومع ذلك طغت الخلافات الداخلية على اجتماع طرابلس.

اتهمنا قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بأنها لم تفعل ما يكفي من أجل مواجهة هذا الانحراف. فأبو عمّار أشاع الانطباع بصمته، في البداية على الأقلّ، أنه يبارك تلك الزيارة إلى العدو الإسرائيلي وكان يعارض وجود أية جبهة رفض. لكنّ القذافي كان يرى أن مهمة الاجتماع هي توحيد الصف الفلسطيني وحل المشكلة الراهنة.

وكان العراق من جهته يربط مشاركته في الاجتماع بمشاركتنا، في حين كانت ليبيا والجزائر ترغبان في مشاركتنا وتعتبران أن من الضروري التوصل إلى حلّ ودّي، بهدف عدم إغضاب أبو عمار. ولم يكن هنالك تقبّل للموقف العراقي لأن الوضع كان يتطلب جمع كل القوى العربية المعارضة لخطوة السادات. إلا أن بغداد كانت تصرّ على التزام سوريا بموقف متطرّف، وهو المطلب الذي اعتبرناه

غير واقعي من جهتنا. وقد حاول العراقيون اجتذابنا لتأييد مطالبهم، ولكنني رفضت انزلاق الجبهة نحو ذلك الموقف الراديكالي. وقد وجد الرئيس السوري حافظ الأسد بما يتحلّى به من ذكاء تسويةً لم يعارض بموجبها إنشاء جبهة واسعة للوقوف في وجه مبادرة السادات.

أما بالنسبة إلى معظم الفصائل الفلسطينية، فإن زيارة السادات إلى القدس قد جعلت عقد هذا الاجتماع أمراً مُلحّاً، شأنه شأن إعادة تموضع منظمة التحرير الفلسطينية حول القوى التي ترفض الاستسلام. وقد رحّبتُ بالطبع بهذا التطور وطالبت بأن نستفيد منه عبر التأكيد، بشكل واضح، على كيفية الإقصاء النهائي للتوجّه الذي سمح لأبي عمّار بتقديم التنازلات مجّاناً في قضايا مصيرية.

وقد خرج الاجتماع بوثيقة طرابلس الشهيرة بلاءاتها الثلاث: لا للسلام، لا للمفاوضات، لا للاعتراف بإسرائيل. ولا بد لي من الاعتراف بأن أبو إياد (صلاح خلف) قد لعب دوراً مهماً في صوغ تلك الوثيقة، وهو الأمر الذي لم يعجب ياسر عرفات. والحقيقة أن الجو العام للاجتماع لم يكن في مصلحة زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، خصوصاً وأن عبد السلام جلّود، وهو المسؤول الليبي الكبير، كان يدفع المندوبين العرب الآخرين إلى حشد القوى المعارضة لخطوة السادات.

وهكذا، اختتمت كل من ليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية واليمن الديموقراطي وسوريا ذلك الاجتماع بتشكيل جبهة الصمود والتصدّي[(١)] التي قررت تجميد العلاقات مع مصر، وأكّدت دعمها الكامل لسوريا كبلد يتصدر موقع المواجهة مع إسرائيل.

عدنا إلى لبنان ونحن على اقتناع بأن ما أحرزناه من تقدّم سياسي سيسمح بتسوية علاقاتنا مع السوريين في لبنان. وعند وصولنا إلى بيروت، فوجئنا بوجود

(١) ضمّت جبهة الصمود والتصدي من الجانب الفلسطيني كلاً من فتح والجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية والصاعقة والجبهة الشعبية (القيادة العامة) وجبهة التحرير العربية وجبهة التحرير الفلسطينية.

حاجز للجيش السوري عند مخرج المطار، حيث طُلب إلينا إبراز أوراقنا الثبوتية. كان ذلك مفاجأة شبه-مضحكة بالنظر إلى كوننا خارجين من اجتماع اتفقنا فيه مع دمشق في طرابلس الغرب. ولحسن الحظ، تمّت تسوية المشكلة سريعاً بفضل الإخوة الليبيين.

لقد وضعت مبادرة القذافي كلاً من الأنظمة الوطنية العربية والفصائل الفلسطينية أمام مهمة جديدة هي رفض التوجه الذي كان السادات يسعى إلى فرضه على الأمة العربية.

هل أحدثت زيارة السادات إلى القدس تشدّداً في موقفكم تجاه ياسر عرفات؟

على الأصحّ، بقي كل منا على موقفه. لم يكن هنالك مجال لأن نرفع مستوى التشدد في موقفنا، لأن موافقة منظمة التحرير على الانضمام إلى جبهة الصمود والتصدّي شكّلت، من وجهة نظرنا، شيئاً من الردع في وجه انحرافات عرفات، وإن كنا قد احتفظنا بشكوكنا في موقفه. ولكن للتعبير عن حرصه على العلاقات الجيدة في ما بيننا قام عرفات بخطوة لطيفة عندما فاجأنا بمجيئه لحضور الاحتفالات بالذكرى العاشرة لانطلاقة الجبهة الشعبية، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧. وقد اعتبرنا ذلك اعترافاً من قِبله، وانتصاراً صغيراً أيضاً. فإذا كان عرفات يريد أن يثبت بذلك أنه مع توحيد الصف الفلسطيني، فإنه كان يحثّ الجبهة الشعبية أيضاً على العودة إلى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. ومنذ ذلك الحين تحسّنت علاقاتنا بصورة موقّتة مع أبو عمّار ومنظمة التحرير.

هل خان السادات القضية الفلسطينية عندما وقّع اتفاقيات كامب دايفيد، بعد شهور على ذلك، في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨؟

بل طعنها في الصميم. لقد باع القضية الفلسطينية. لم يكن مهتماً يومها بغير المصالح المصرية. وكل ما كان يريده هو استرجاع سيناء. لم يكن، في جملة

المطالب المصرية، معادياً لفكرة تقديم العون للقضية الفلسطينية، فيما لو أمكنه ذلك. لكنّ إرضاء الفلسطينيين لم يكن هدفه الأول. ولكن ما الذي وقّع عليه السادات؟ علينا أن نتذكر ذلك. تقترح اتفاقيات كامب دايفيد حُكماً ذاتياً يتم التفاوض عليه، لكنه مجرّد حكم ذاتي إداري وليس سياسياً، ولا يُفضي مطلقاً إلى إقامة دولة. وبالمقابل، كان الإسرائيليون يواصلون سياسة الاستيطان ومصادرة الأراضي في الضفة الغربية. كما أن هذا الحكم الذاتي كان يعني استبعاد أية سيادة فلسطينية على الضفة الغربية لمصلحة مصر والأردن. بالطبع، لا مجال لأن نوافق على ذلك، لأنه لم يكن يقدّم أي حل للصراع العربي-الإسرائيلي. ولا بد لي من التذكير بأن اتفاق كامب ديفيد تجاهل مشكلة اللاجئين الذين يشكلون ٥٦ في المئة من الشعب الفلسطيني، كما تجاهل حق العودة.

الواقع أن ما أراده السادات بهذه الخطوة هو فكّ الارتباط نهائياً مع الاتحاد السوفياتي واستكمال انتقاله إلى الحضن الأميركي. لقد قام بطرد جميع الخبراء السوفيات من مصر. كما أن السادات لم يبع القضية الفلسطينية وحسب، بل إنه باع مصر بثمن بخس للأميركيين، وغيّر موقعه بشكل كامل. وبالطبع، فإنه يزعم في تصريحاته بأنه فعل الكثير من أجل فلسطين. كما أنه وجّه اللوم إلى العرب لأنهم فوّتوا الفرصة الذهبية لتسوية خلافاتهم مع إسرائيل.

في شهر أيار/مايو ١٩٧٨، تقدّمت خمسة فصائل فلسطينية بمذكرة طالبت فيها اللجنة المركزية لفتح باتخاذ موقف سياسي موحّد إزاء «تصاعد المؤامرات» التي كانت تهدد منظمة التحرير الفلسطينية. وكان نصّ المذكرة يتّهم قيادة المنظمة الفلسطينية بالاعتماد على «أنظمة رجعية واستسلامية عربية» هي تحديداً العربية السعودية ومصر. هل يعني ذلك أن خطوة السادات قد رصّت صفوف الفلسطينيين ولم تنجح في إزالة خلافاتهم الداخلية؟

بعد تشكيل جبهة الصمود والتصدّي، جاء انضمام منظمة التحرير إلى هذه الجبهة ليعطينا الكثير من الأمل في التوصل أخيراً إلى توحيد صفوف المقاومة.

ولهذا أعلنا، في اجتماع لجبهة الصمود والتصدي عُقد في سوريا، عام ١٩٧٩، استعدادنا للعودة إلى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، شرط المباشرة الفورية باعتماد سياسة أكثر وضوحاً. وكنا في تلك اللحظة على وشك تحقيق ذلك.

ما هو المقصود بـ «السياسة الواضحة»؟

طالبنا بدولة فلسطينية عاصمتها القدس، وبحق اللاجئين في العودة، وبانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧، وبتفكيك المستوطنات. وخلال ذلك الاجتماع الذي كان يهدف إلى تحديد تلك السياسة الواضحة، كان أبو عمّار يخرج من الاجتماع لبعض الوقت، بحجّة التعب، وذلك في كل مرة كان يتم فيها الاتفاق على قرار لا يحظى برضاه. شعر يومها بأنه معزول ومخذول حتى من قِبل الأكثرية الساحقة من أعضاء فتح. لم يكن بمقدوره أن يتحمّل عدم قدرته على الإمساك بجميع خيوط اللعبة.

ما هي إذن الأسباب التي حالت دون اعتماد منظمة التحرير الفلسطينية لتلك «السياسة الواضحة» التي كنتم تطالبون بها؟

خلال الدورة الرابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني التي انعقدت في دمشق، في كانون الثاني/يناير ١٩٧٩، شعرت بأن من الممكن لي أن أستفيد من الوضع القائم. فالحقيقة أن الاجتماع الأخير للمجلس كان قد أقرّ القرارات التي اتخذت في ليبيا قبل عام على ذلك، كما أن النقاشات التي جرت بعد ذلك في بيروت كانت قد أعطت بدورها مزيداً من الدفع لخط الرفض هذا. وكان علينا، في اجتماع دمشق للمجلس الوطني الفلسطيني، أن نتفق على تشكيل لجنة تنفيذية جديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وهنا أطلّت المشاكل برأسها. كان أبو عمّار يعرف أنه يستطيع أن يفاجئنا بإخراج ورقة أخيرة هي ورقة المستقلين الذين كان يراهن عليهم من أجل إفشال جميع الخطط التي يطرحها خصومه. أما نحن فكنا

نقول بأن هؤلاء المستقلين من أعضاء اللجنة التنفيذية الجديدة يجب ألاّ يتم اختيارهم من قِبل أبو عمّار وحده، بل من قِبل مجمل فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. لذا أحسّ عرفات بأنه محاصر لأن جميع التنظيمات، بمن فيها عدد من أعضاء فتح، كانت موافقة على جميع ما تم الاتفاق عليه في بيروت. عندها شعر عرفات بالغيظ، وأحدق بالمجلس الوطني الفلسطيني خطر التفكك. وفي تلك اللحظة، شعرت بأنني أمتلك فرصة فريدة لممارسة الضغط على أبو عمّار، وقلت في نفسي: لماذا لا نتّخذ موقفاً حازماً من شأنه أن يسمح لنا بالتحرّر من أسلوب عرفات، أي من مسلكه الانفرادي في تقرير شؤون منظمة التحرير؟

ولكن الأمور لم تذهب، ويا للأسف، في الوجهة المرجوّة، لأن السوريين تدخّلوا في شؤوننا في تلك اللحظة. إذ إن جميع الفصائل التي كانت تؤيّدنا، وخصوصاً الصاعقة والجبهة الشعبية-القيادة العامة، غيّرت رأيها بشكل مفاجئ. وبالتدريج، وجدنا أننا قد أصبحنا وحدنا في الساحة، وتمكن أبو عمّار من اختيار أعضاء القيادة بمفرده، في حين وجدت نفسي في موقف صعب جداً. لقد فضّلت سوريا اعتماد سياسة «فِّرق تَسُد»، وتمكنت من إحباط كامل المسعى. وكانت الوسائل التي تمتلكها بسيطة جداً: هنالك تنظيمان مؤيّدان لسوريا هما الصاعقة والجبهة الشعبية-القيادة العامة، وكان من السهل إقناعهما بعدم اتباع طريق الوحدة. وكان الفصيلان المذكوران يُظهران أنهما يريدان الوحدة، لكنني كنت أعلم أن ذلك لم يكن غير كلام بكلام.

إذن، وجدت نفسي معزولاً، وكانت هذه الانتكاسة صعبة جداً، لأن الجبهة الشعبية كانت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق اختراق تاريخي. شعرت بالكثير من المرارة، فإذا كانت سوريا قد أسهمت فعلاً في تأجيج انقساماتنا، فإن أبو عمّار كان ملوماً أيضاً بسبب طريقته في حضور الاجتماعات وكأنه رئيس دولة لا رئيس منظمة ثورية. غير أن إدانة التصرفات السورية بشكل علني كانت مستحيلة لأن المسؤولين السوريين سيقومون على الفور بتكذيب اتهاماتنا، وسيصدّقهم الرأي العام.

من كان يؤيّد تلك الوحدة بين أعضاء فتح؟

يسار فتح. كان مطلب الوحدة هذا هو شرط عودة الجبهة الشعبية إلى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. ولو أننا تمكنا من تحقيقها لكان ذلك انتصاراً كبيراً لأنه سيعني تأييد فتح لمواقفنا. لكن المفاجأة الحقيقية لم تأت في هذه المسألة من ناحية أبو عمّار، لأننا كنا معتادين أسلوبه، بل جاءت من ناحية السوريين. لقد اكتشفنا يومها موقفهم السياسي الذي أحدث، بعد ذلك، أثراً كبيراً في القضية الفلسطينية، وشكّل مثالاً على سياسة تدخّل الأنظمة العربية في شؤون منظمة التحرير الفلسطينية. لقد أصرّ النظام السوري على التصدّي للجبهة في محاولاتها الرامية إلى تصحيح الخط الذي اعتمده أبو عمّار. كانوا يقولون لنا في ذلك الوقت: لماذا تركتم أبو عمّار يقود منظمة التحرير الفلسطينية على هواه؟ كان ذلك فرصة للتأكيد على مدى قوة تدخّلات الأنظمة العربية في الخيارات الاستراتيجية لمنظمة التحرير الفلسطينية طوال تاريخها.

قبل عام من ذلك، أي في العام ١٩٧٨، كان لقاؤك المباشر الأول مع الرئيس السوري حافظ الأسد، أي بعد عشر سنوات على دخولك السجن في سوريا، مع الإشارة إلى أن الرئيس الأسد كان قد أعلن تأييده لهذه الوحدة بين الفصائل الفلسطينية.

صحيح. كان السوريون يؤيّدون رسمياً هاجسنا الوحدوي ويعتبرون أن الخلافات بين الفصائل الفلسطينية لا ينبغي لها أن تتفجر عندهم. لكنّ توجهاً أكبر من جهتهم نحو هذه الوحدة كان من شأنه أن يدعم مواقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الأمر الذي سيقودهم إلى إغضاب أبو عمّار. والواقع أنهم لم يكونوا يريدون ذلك في تلك الفترة.

عدت إلى دمشق للمرّة الأولى منذ العام ١٩٦٨، بعد تشكيل جبهة الصمود والتصدي في ليبيا. كانت سوريا طرفاً في الجبهة، وكذلك كنا نحن ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد شجّعني هذا الوضع السياسي الجديد على القيام بتلك

الخطوة في مطلع العام ١٩٧٨. كان الاجتماع الثاني لجبهة الصمود والتصدي سينعقد في سوريا. وقد سرّ الرئيس الأسد لمشاركة الجبهة الشعبية، وطلب أن أقابله وجهاً لوجه.

ماذا عن الحديث الذي دار في ذلك اللقاء؟

لا أتذكّر كلّ شيء. قال الرئيس في ذلك اللقاء إنه رغم التباين في وجهات النظر لكنّه يكنّ لي كل التقدير والاحترام وأكّد أننا نحن في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين نتحرّك وفق روحية ثورية حقيقية. كان يميّزنا بذلك عن أبو عمّار الذي كان يتصرّف وكأنه رئيس دولة، حتى ولو لم تكن له دولة يرأسها.

هل كان الرئيس الأسد ينتقد أبو عمّار وإن لم يكن ذلك بالصوت الواضح؟

أجل. لقد وجّه بالفعل بعض الانتقادات بخصوص سياسة أبو عمّار.

هل حدّثته يومها عن دخولك السجن في سوريا؟

بالطبع، وقد تكلّمنا على ضرورة أن نطوي صفحة الماضي. لكنّ مجرّد لقائنا كان يعني بالتأكيد أن تلك الصفحة قد طويت بشكل أو بآخر. لكننا ركّزنا أكثر في ذلك اللقاء على جبهة الصمود والتصدي، وعلى كيفية مواجهة المحن المقبلة. واتفقنا على أن علينا إيجاد التمويل الضروري لبقاء تلك الجبهة على قيد الحياة، وأن ليبيا والجزائر يمكنهما أن تكونا المساهمين المثاليين في هذا المجال. لكنهما لم تكونا، ويا للأسف، متحمستين كثيراً للدعم المادي.

وهل وجدتم التمويل في نهاية المطاف؟

المؤتمر الأخير والاجتماع الأخير لجبهة الصمود والتصدي انعقدا في دمشق. ثم لم تنعقد اجتماعات أخرى لأننا لم نجد المال اللازم لتأمين الاستمرار في هذه الجبهة.

لماذا لم يقم السوريون بتمويل تلك الجبهة؟ وكيف كان المال ليستخدم بشكل ملموس، لو تمّ تأمينه؟

كنا لنستخدمه في الإمداد العسكري للمقاومة. كان الجولان محتلاً. . . وستجد الجبهة أمامها الكثير مما يمكن عمله ضدّ إسرائيل وحلفائها. وما لبثت تلك الجبهة أن انهارت، ولكنّ نجاحها الأكبر تمثل في كونها قد أظهرت سوريا بوصفها بلداً داعماً للمقاومة، فاحتلّت بذلك موقعاً متقدّماً على مسرح دول المواجهة.

كيف كنتم تنظرون إلى هذا الدعم السوري؟ ألم يكن لديكم بعض الشكوك في نيّة السوريين الحقيقية؟

كنا قد دخلنا من قبل في تجربة العلاقة مع السوريين، وكان الشك قائماً. لكنّ الرئيس حافظ الأسد لم يكن ليحيد عن المبدأ الأساسي لحزب البعث، أي مبدأ الوحدة. وكان ذلك يجعلنا نشعر بالاطمئنان.

كيف كانت علاقاتكم في تلك الفترة مع الأنظمة العربية؟

كانت الدول الداعمة لنا بشكل رئيسي هي الجزائر وليبيا واليمن الديموقراطي، وألمانيا الديموقراطية من خارج العالم العربي. لقد أدركت الجزائر وليبيا، منذ العام ١٩٧٥، أن الجبهة الشعبية كانت محقة بخصوص مصر والسادات. وكان الأمر مشابهاً بالنسبة إلى العراق واليمن الديموقراطي اللذين اكتشفا صحة مواقفنا. لكن كل ذلك يجب ألاّ ينسينا عجز تلك الأنظمة عن تحقيق ما كانت تعلنه من طموحات. كانت تلك الأنظمة تدعو إلى تحرير فلسطين وإلى الوحدة العربية، لكنها لم تكن قادرة على تحقيق هذه الأهداف. ما هي أسباب ذلك العجز؟ لماذا أخفقت تلك الأنظمة في مواجهة إسرائيل وفي دعم الثورة الفلسطينية؟ أعتقد أن غياب الديموقراطية والتناقض الطبيعي بين الثورة والدولة هما السببان الرئيسيان اللذان يفسّران حالة الضعف التي ينوء بها العالم

العربي. لكن الأمر لا يقتصر على ذلك. وعلينا أن نستمرّ في البحث عن أسباب أخرى لذلك الإخفاق، لأن هذه الشعارات محقة بذاتها. أليس من حق الشعب الفلسطيني أن يعيش حرّاً وسيّداً في وطنه؟ أليس من حق اللاجىء الفلسطيني أن يعيش فوق أرضه؟ أليس من حق المواطن العربي أن يعيش في محيط مستقرّ ونظام ديمقراطي؟ إذا كان جيلي قد فشل في تحقيق هذه المُثل القائمة على العدل، فإن علينا، على الأقل، أن نستخلص العِبر من هذه الإخفاقات، لكي نتجنّب وقوع الجيل القادم في الأخطاء ذاتها.

وبعد ذلك، تفرّغت للتحضير للمؤتمر الرابع للجبهة، ولكن مشكلات صحية عادت وألمّت بك خلال صيف العام ١٩٨٠. أليس كذلك؟

بعد الخلافات التي عصفت بمنظمة التحرير الفلسطينية، عدت إلى بيروت لكي أنهمك في التحضير للمؤتمر الرابع للجبهة الذي كان يجب أن ينعقد، وفقاً لنظامنا الداخلي، في العام ١٩٧٧.

كنت متحمساً جداً لفكرة القيام بكتابة التقرير السياسي للمؤتمر الوطني الرابع للجبهة. وكانت أفكاري الرئيسية التي تمحورت حول الوضع الذي أدّى بمصر، ذلك البلد العربي الكبير، إلى الانعزال عن الصراع العربي-الإسرائيلي، تحظى بموافقة الرفاق. ولكن هذا الموضوع كان شديد الخطورة. صحيح أن المشروع الصهيوني لا يكتفي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، بل يسعى أيضاً إلى جعل إسرائيل قاعدة إمبريالية صهيونية يمكنه من خلالها فرض هيمنته على العالم العربي. وصحيح أيضاً أن القوة التي يمكنها أن تقف في وجه مشاريع إسرائيل هي مصر، ذلك البلد الكبير. غير أن السادات خرج بمصر من المعركة، فيما فشلت سوريا والعراق في توحيد الخطى ضد كامب دايفيد. كان علينا أن نأخذ كل ذلك في الاعتبار. كما كنت أفكر أيضاً في الدور الذي لعبه النفط في التسبب بفشلنا بدلاً من أن يكون سلاحاً بيدنا. وقد كانت لاتفاقيات كامب دايفيد خلفية اقتصادية وثيقة الصلة بالنفط وتأثيراته. وكان النفط قد أدّى،

في العديد من بلدان الخليج تحديداً، إلى نشوء طبقة اجتماعية ربطت مصالحها بمصالح الأميركيين.

وفي اليوم الذي اختتم فيه النقاش، داخل اللجنة المركزية، حول التقرير الذي قدّمته في هذا الموضوع، شعرت بنوع من الارتياح على اعتبار أني أنجزت مهمة كبيرة. وكنت في مثل هذه الحالات أحبّ أن أتمشّى ليلاً، ولو على حساب ما قد أتعرّض له من خطر من الناحية الأمنية. وهذا ما فعلته مساء ذلك اليوم في بيروت. لكنني لم ألبث أن شعرت بتشنّج في أصابع يدي اليمنى.

وفي اليوم التالي، نصحني الطبيب بإجراء فحوصات للجهاز العصبي ورغم ذلك زاولت نشاطي في ذلك اليوم كالمعتاد. وبالنظر إلى عدم وجود تجهيزات طبية في بيروت، بسبب الحرب، لم يكن لي بد من الذهاب إلى دمشق لإجراء صورة طبقية محورية كشفت عن وجود نزف في الدماغ.

لكن النزف توقف بعد مرور بعض الوقت، ولم يمنعني المرض من العودة إلى مزاولة نشاطي بشكل شبه عادي بعد شهر من الراحة. وفي ظل هذا الوضع كنا، أنا وهيلدا والأطباء، نتساءل عما إذا كان من الضروري إجراء عملية جراحية لمنع حدوث نزف جديد؟ وعلى الرغم من خطورة مثل هذه العملية على الدماغ، قررنا أن من الأفضل إجراءها. عندها، كلّفت الجبهة الشعبية طبيباً صديقاً الذهاب إلى فرنسا للاتصال بطبيب مرموق في مجال جراحة الدماغ والأعصاب، هو البروفسور غرو، دون إعلامه بهوية الشخص الذي سيكون عليه أن يقوم بعلاجه. وقد وافق البروفسور على المجيء إلى بيروت في ٣٠ آب/ أغسطس. ولكن الأطباء، وهم من الرفاق القدامى في الجامعة الأميركية، أصرّوا، قبل يومين من وصوله، على إجراء العملية لتجنّب نزف جديد، لأنني كنت أعيش في ظروف شديدة التعقيد والخطورة وفي توتر مستمر بسبب الحرب والظروف السياسية. وقد وافقت على ذلك للأسف الشديد، وحتى الآن لا أعلم لماذا لم أنتظر الطبيب الفرنسي. وأدخلت إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، في ٢٨ آب/ أغسطس تحت اسم مستعار هو «سليم فاخوري». وبدلاً من أن تستغرق

العملية التي أجراها الدكتور موريس سابا ثلاث ساعات، استغرقت سبع ساعات لأنني تعرّضت خلالها لنزف مفاجىء. ولم تتوقف مكبّرات الصوت في المستشفى عن إطلاق النداءات في طلب الدم لسليم فاخوري. فمن بعدها أصبت بضعف وارتخاء في اليد والساق اليمنى لأن خطأً قد وقع لسوء الحظ، على ما يبدو، خلال إجراء العملية.

وعندما وصل البروفسور غرو إلى بيروت في ٣٠ آب/ أغسطس، كان الأوان قد فات، ولم يعد من الممكن فعل أي شيء. لقد أخطأنا بعدم انتظار وصول ذلك الطبيب. بقيت أربعين يوماً في قسم العناية الفائقة، وأوشكت عدة مرات على الموت، بفعل مضاعفات خطرة من النوع الذي يعقب العمليات الجراحية. ولم أتمكن إلا بعد ثلاثة أسابيع من التلفّظ باسم هيلدا، زوجتي التي يتوجّب عليّ مرّة بعد مرة أن أتوجّه إليها بالتحية لأنها تمكنت من البقاء قوية جداً وأن تستوعب الصدمة التي أحدثها مرضي بالنسبة إليها. لقد نظرت إلى الأمر بطريقة إيجابية وانتهت إلى اعتبار ما حصل على أنه إصابة حرب في ظل الظروف القاسية التي كنا نمرّ بها في لبنان.

كثيرون كانوا يرغبون في زيارتي في المستشفى. لكن الأطباء كانوا قد أوصوا بعدم السماح بالزيارات، مما شكل إحراجاً أمام بعض المسؤولين اللبنانيين وغيرهم من الأصدقاء ممن جاءوا من الخارج خصوصاً للاطمئنان إلى صحتي. وفوق ذلك، كانت هناك أيضاً الهواجس الأمنية. كان يمكن للخطر أن يأتي من الأدوية، أو من إمكانية أن يتغلغل العدو إلى داخل المستشفى. أصبحت الناحية الأمنية تثير القلق الذي تزايد مع بقائي في المستشفى لمدة أربعين يوماً قضيتها في قسم العناية الفائقة وتعرّضت خلالها لمضاعفات خطيرة وعديدة. كان أيّ من تلك المضاعفات الكثيرة كافياً لأن يودي بحياتي. لكنني صارعت المرض بإرادة وتصميم على الحياة وعلى الاستمرار، وشهَد الأطباء بأنها كانت أشبه بالمعجزة، ولا سيما حين استطعت بعد ذلك أن أنهض من جديد وأقف على قدميّ لأعود إلى موقعي كأمين عام وإلى مسؤولياتي بعد كل تلك الانتكاسات الصحية الخطيرة.

كانت هذه الأوضاع الضاغطة ماثلة على الدوام في ذهن هيلدا التي امتلكت حسّاً عالياً بالمسؤولية تجاهي. وعند خروجي من العناية الفائقة، اخترنا الذهاب إلى أحد البلدان الاشتراكية - كانت تشيكوسلوفاكيا هي ذلك البلد - لمتابعة العلاج الذي كنت بحاجة إليه في ظروف آمنة.

وما زلت أذكر حالة الاستنفار حول مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت لحظة خروجي؛ فقد كان السوريون قد اتخذوا احتياطات أمنية في المنطقة، قبل أن تأتي سيارة إسعاف تحرسها مدرّعات سورية لتقلّني إلى طائرة الهليكوبتر التي حملتنا إلى مطار دمشق، حيث كانت تنتظرني طائرة ليبية خاصة نقلتنا إلى براغ. وقد حضر بعض المسؤولين السوريين لتحيّتي قبل المغادرة. كما كانت الحكومة الجزائرية بقيادة الرئيس الشاذلي بن جديد قد أرسلت طائرة مجهزة طبياً لتحملنا إلى الجزائر. وكان الأطباء الجزائريون الذين وصلوا لمتابعة وضعي الصحي هم أنفسهم الفريق الطبي الخاص بالرئيس الشاذلي بن جديد في تلك الفترة.

وقد ثمّنت هذه المواقف النبيلة لجميع الجهات التي قدّمت لي المساعدة خلال مرضي، من الإخوة السوريين وكذلك الإخوة في ليبيا والجزائر. كان كل شيء جاهزاً للذهاب إلى براغ عن طريق سوريا. ورغم جميع الصعوبات، تابعت عن كثب تطور الوضع داخل الجبهة الشعبية. وكان الرفاق يرسلون إليّ بشكل منتظم أحد أعضاء المكتب السياسي ليطلعني على التطوّرات الداخلية في الجبهة.

هل اتصل بك أبو عمّار خلال فترة مرضك؟

كان يتصل على الدوام. جاء مرّة لزيارتي في المستشفى. وكان يتصل بي بانتظام عندما كنت في براغ. وكان سفير منظمة التحرير الفلسطينية هناك يهتم بكل كبيرة وصغيرة ويقوم شخصياً بتنظيم زيارات السفراء العرب في براغ ممن كانوا يرغبون في الاطمئنان إلى وضعي. كما أن أبو عمّار أرسل أبو جهاد إلى براغ لهذه الغاية.

أمضيت فترة نقاهة تجاوزت الأربعة أشهر في براغ. وعند العودة، أرسل

الإخوة الليبيون طائرة خاصة لتكون طرابلس الغرب أول محطة لي على طريق العودة إلى بيروت التي وصلت إليها قبل انعقاد المؤتمر الرابع للجبهة الشعبية الذي انعقد بحضوري. لقد استقبلني الليبيون بالكثير من الحفاوة، وقابلت العقيد القذّافي خلال إقامتي القصيرة في طرابلس. كما قابلت العديد من المسؤولين الليبيين، إضافة إلى عدد كبير من السفراء العرب والأجانب، وقبلت العديد من الدعوات التي وجّهت إليّ. وبعد ذلك، انتقلنا إلى الجزائر حيث أمضينا عشرة أيام. وكنت حريصاً على توجيه الشكر إلى كل من ساعدني خلال فترة مرضي، وخصوصاً المسؤولين الجزائريين الذين عبّرنا لهم، هيلدا وأنا، عن شكرنا واعترافنا بجميلهم لما بذلوه من مساعدة ثمينة خلال واحدة من أصعب فترات حياتي. كما جرى لقاء حارّ بيني وبين الرئيس الشاذلي بن جديد. لقد أحاطنا المسؤولون الجزائريون باهتمام كبير، ونحن لن ننسى لفتتهم الإنسانية النبيلة.

وكيف أنسى كل ما أظهرته زوجتي هيلدا من ثبات طوال تلك الفترة الصعبة؟ عليّ أن أقول إنها لعبت دوراً كبيراً ساعدني على تحمّل ما كنت فيه. كانت ابنتنا لمى قد بقيت في لبنان عند بعض الأقارب؛ أما ابنتنا الأخرى ميساء فكانت في ألمانيا حيث بدأت بدراسة الطب هناك في ذلك العام. كان من الصعب على زوجتي الابتعاد عن ابنتينا لهذه الفترة الطويلة إلا أنها كانت تعطي الأولوية دائماً للبقاء إلى جانبي.

كيف كانت علاقاتكم مع الكتلة الاشتراكية في تلك الفترة؟

شهدت علاقاتنا مع الكتلة الاشتراكية فترات من القوة وأخرى من الفتور خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة. وقد تحسّنت العلاقات بيننا بعد أن توقّفنا عن خطف الطائرات الذي تقرر في المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية عام ١٩٧٢. لكن شيئاً من التصلّب اعترى هذه العلاقات بعد انضمامنا، عام ١٩٧٤، إلى جبهة الرفض. وقد استمر هذا البرود في العلاقات حتى زيارة السادات إلى القدس عام ١٩٧٧. وبعد هذا التاريخ، عادت علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي

وبقية البلدان الاشتراكية إلى التحسّن. وعلى ذلك، فإن العلاقات لم تكن بالمستوى نفسه مع الجميع. فقد كانت ممتازة مع ألمانيا الديموقراطية وبلغاريا وتشكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي. لكنها كانت عاديّة مع هنغاريا التي لم أزرها إلا مرتين، وكذلك الأمر مع رومانيا التي لم أذهب إليها إلا مرة واحدة.

هل كان يمكن لمثقف مثلك ألاّ يكون على وعي بالنواقص الخطيرة التي كانت تشلّ عمل البلدان الاشتراكية؟

ابنتي ميساء التي كانت تدرس الطب في لايبزغ في جمهورية ألمانيا الديموقراطية، كانت قد حدثتني عن الاستياء الذي كانت تشعر به شريحة واسعة من السكان لدى مقارنة أوضاعهم المعيشية مع الأوضاع في ألمانيا الغربية. كما أتذكر أيضاً بعض الرفاق، وخصوصاً، ممن كانوا يشكّكون في الأرقام التي كانت تقدمها الأنظمة الاشتراكية لدى امتداحها لإنجازاتها الاقتصادية.

وكان بعض الأصدقاء ينصحونني بقراءة الكتب التي كان ينشرها خبراء غربيون حول الحرب الباردة بين الشرق والغرب، والذين كانوا يتوقعون انتصار الإمبريالية قبل نهاية القرن (الماضي). ولا بد لي من الاعتراف بأن كل ذلك لم يؤثر على قناعاتي ورؤيتي بخصوص المعسكر الاشتراكي. لم يكن ذلك خطأي الوحيد في التقدير. فقد ارتكبت خطأً آخر في تلك الفترة بخصوص قضيتنا الفلسطينية. كنت أتوقّع أن تتم تصفية ثورتنا الفلسطينية على يد الجيش اللبناني، لا على يد الجيش الإسرائيلي كما حدث في ما بعد، عام ١٩٨٢.

الفصل العاشر

صدمة الاجتياح الإسرائيلي للبنان
صيف العام ١٩٨٢

هل فوجئت بالاجتياح الإسرائيلي للبنان في حزيران/ يونيو ١٩٨٢؟

في الرابع من حزيران/ يونيو، وبينما كنت في دمشق في زيارة عمل، شن الطيران الإسرائيلي غارات جوية مكثّفة على المدينة الرياضية في بيروت، مستهدفاً نقاطاً قريبة جداً من مركز قيادة المقاومة الفلسطينية. عدت سريعاً إلى بيروت تحت القصف الشديد، وعند وصولي رأيت سيارات الإسعاف وهي ما تزال تنقل الشهداء والجرحى في محيط المدينة الرياضية، في حين كانت الطائرات الإسرائيلية تواصل التحليق في سماء بيروت. وبصراحة، لم أكن أتوقّع أن تكون تلك الغارة بداية اجتياح إسرائيلي تاريخي للبنان. كان اجتياح عاصمة بلد ذي سيادة يقوم فيه مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية يبدو لي أمراً بعيد الاحتمال. فعندما كنت أفكّر في المصاعب التي ستواجهنا، كنت أتصوّرأن الثورة الفلسطينية ستتعرّض للتصفية على يد الجيش اللبناني، لأن السلطة اللبنانية كانت تقوم بتهيئة الجيش للقيام بهذه المهمة، متّبعة في ذلك مثال الحكومة الأردنية قبل اثنتي عشرة سنة مضت. ولم تكن الكتائب والأحزاب الرجعية اللبنانية المدعومة من بعض الأنظمة العربية، وهي نفسها أنظمة رجعية، لتعارض تصفيتنا. وفي المقابل، كنت أستبعد قيام إسرائيل بمغامرة عسكرية بهذا الحجم، وخصوصاً أن تصفية وجودنا من قِبل الجيش اللبناني المدعوم بالقوات اللبنانية المعادية في بيروت، حيث مركز قيادة المقاومة، كان يبدو أمراً أكثر احتمالاً.

لكن اجتياح الجنوب اللبناني بدأ منذ اليوم التالي للقصف الجوي الإسرائيلي على المدينة الرياضية، أي في ٥ حزيران / يونيو، وذلك بالتوازي مع اشتداد الغارات الجوية على بيروت. وعلى ضوء ما جرى في العام ١٩٧٨ أي الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان والمقاومة الباسلة التي تصدّت للقوات الإسرائيلية في ذلك الوقت، كنت أتوقع أن تكون المقاومة شديدة جداً في الجنوب. لذا كانت المفاجأة كبيرة، عندما تمكّنت القوات الإسرائيلية، بعد عدة أيام فقط، ورغم المقاومة الشرسة، من إحداث اختراق نحو بيروت ومن إجبار المقاومة على التراجع. وبعد ذلك، تواترت الأخبار بأن الإسرائيليين قد وصلوا إلى صيدا، وأخذوا بالتقدم نحو الدامور. كانوا بذلك على بعد ٣٠ كيلومتراً فقط من بيروت. ولا بد هنا من توجيه التحية إلى المقاومة البطولية في قلعة الشقيف في الجنوب، حيث خاض المقاتلون معركة مجيدة حتى النفس الأخير، وأوقعوا خسائر بالجيش الإسرائيلي قبل استيلائه على تلك القلعة التي بناها الصليبيون فوق قمة جبل صخري. وقد اعترفت الصحافة الإسرائيلية نفسها بتلك المقاومة الشرسة التي واجهت الجيش الإسرائيلي.

كنت أعتقد، حتى تلك اللحظة، أن إسرائيل تحاول إعادة تجربة العام ١٩٦٧، عبر القيام بهجوم سريع يسمح لها بالقضاء على المقاومة الفلسطينية في لبنان خلال بضعة أيام، وتدمير مركز قيادتها وإجبارها على الانسحاب من بيروت. كنا عندها أمام خيار تاريخي. إما الاستسلام والانسحاب، وإما الدفاع عن الثورة حتى آخر نقطة من دماء مقاتلينا وقادتنا، لكي يحتفظ التاريخ لنا بمثل ذلك الموقف البطولي كمصدر للإحساس بالكرامة والعزة لأجيالنا القادمة. لذا، عقدت مؤتمراً صحافياً أكدت فيه ضرورة الدفاع عن بيروت، وأننا سنحوّلها إلى ستالينغراد جديدة، بفضل مشاركة رفاقنا في الحركة الوطنية اللبنانية الذين دعوتهم أيضاً إلى تلك المشاركة. كنت أشعر بأن التنسيق بين فصائل المقاومة والقوات الوطنية المشتركة سيكون سلاحاً أساسياً في المعركة التي كانت ملامحها قد ارتسمت في الأفق. كانت إسرائيل معتادة في حروبها مع العرب اعتماد عنصر

المفاجأة والحرب النفسية. لذلك كنت أنا أيضاً حريصاً، هذه المرة، على استخدام سلاح الحرب النفسية، ومن هنا كانت نداءاتي باعتماد مثال ستالينغراد لشحذ عزيمة المقاومة. لم يكن أبو عمّار يومها في لبنان. كان في الخارج، لكنه عاد بأسرع ما يمكن ما إن بدأت الغارات الجوية الإسرائيلية على بيروت. التقيته فور وصوله، وأتذكر جيداً تعابير وجهه. لا يمكنني أن أقول إنه كان خائفاً، لكنني لم ألاحظ أنه كان مصمّماً بشراسة على جعل الدفاع عن بيروت مثالاً للأجيال القادمة، وعلى تلقين شارون[1] درساً قاسياً. كانت تبدو على أبو عمّار علامات القلق هذه المرة. لكنه لم يكن قلقاً على حياته. كان على علم بالمخطط الإسرائيلي، ويدرك أنهم سيطلبون منا الانسحاب من بيروت. كان بقاؤنا على المحكّ، وقد أدّى بنا ذلك إلى التوحّد وكنا نلتقي يومياً لنستعرض معاً آخر التطوّرات الميدانية على أرض المعركة.

كيف كنتم تعيشون حياتكم اليومية في جحيم بيروت؟

كان مكتبي موجوداً داخل أحد التحصينات، لكنني غالباً ما كنت أتنقل من مكان إلى آخر. كنت أفعل كل ما بوسعي لكي أتفقد المقاتلين على خطوط الجبهة كل صباح لأطمئن إلى أوضاعهم، وذلك لإيماني بأهمية الحالة المعنوية في هذا الوضع الذي لم يكن متوازناً من الناحية العسكرية. وكم كنت أشعر بالفرح عندما ألاحظ حماستهم القتالية على الرغم مما تكبدناه من خسائر فادحة. وبعد ذلك أعود إلى مركز قيادة الجبهة حيث كنا نناقش الوضع مع الرفاق، وننظر ما إذا كانت قد وصلت إلينا رسائل من دمشق أو من بلدان عربية أخرى، ثم

---

(١) أرئيل شارون، أو آرِك شارون. وُلد في العام ١٩٢٨ في قرية كفار ملال بفلسطين، أيام الانتداب البريطاني، لأب بولندي وأم روسية. تولى العديد من المناصب الوزارية، وشغل منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي. مسؤول عن عدد كبير من المجازر المرتكبة ضد الفلسطينيين قبل وبعد العام ١٩٤٨. وقاد عملية اجتياح لبنان في العام ١٩٨٢. وفي ٢٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ كان تدنيسه للحرم الشريف في القدس هو الحدث الذي أدّى إلى اندلاع الانتفاضة الثانية. وفي العام ٢٠٠٦، أصيب بجلطة دماغية أدخلته في حالة غيبوبة شبه كاملة ما زال يعاني منها حتى اليوم.

أنكبّ على إعداد البيانات الصحفية. وعند الظهر، كنت أعقد على الدوام اجتماعاً مع القيادة في مكتب الجبهة. أما في المساء، فألتقي قادة الفصائل الفلسطينية الأخرى للنظر في حصيلة أحداث النهار. كان كل من جورج حاوي، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، ومحسن إبراهيم، أمين عام منظمة العمل الشيوعي، يقومان بدور هام إلى جانبنا. كذلك لا أنسى الدور الذي لعبه الحزب السوري القومي الاجتماعي بقيادة إنعام رعد والحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة جنبلاط وباقي تنظيمات المقاومة الوطنية اللبنانية.

تنقلت كثيراً خلال الأيام الثمانية والثمانين التي استغرقها الحصار. ولكي تطمئنّ إليّ، كانت هيلدا تزورني باستمرار تقريباً برفقة ابنتينا. وكانت لقاءاتنا غالباً ما تتم في أحد التحصينات التي كنت أختبىء فيها تحت الأرض، وذلك رغم خطورة الوضع. وفي أحد الأيام، اشتد القصف بينما كانت تتهيأ لمغادرة المكان، فطلبت إليها أن تمضي ليلتها في الموقع. وفي المساء وجدت البقاء تحت الأرض أمراً لا يُحتمل ومثيراً للقلق ففضّلت الصعود عند منتصف الليل إلى الطابق الأرضي في المبنى نفسه، حيث أمضت باقي الليل إلى جانب المقاتلين الذين كانوا يقومون بأعمال الحراسة، فقد وجدت هناك بعض الهواء النقيّ للتنفس. كان خطر الصواريخ أفضل بالنسبة إليها من الاختناق تحت الأرض. كنا مضطرّين إلى التنقل بشكل دائم بسبب القصف الذي كان يطاردنا. وكان بعض الرفاق يمرّرون رسائل إلى زوجتي لإعلامها بمكان وجودي في لحظة ما فتؤمّن لي الاحتياجات الأساسية من طعام وشراب. وعندما تخفت حدّة المعارك كنت أمرّ أحياناً على المنزل لتناول فنجان من القهوة وأتبادل مع أسرتي الأحاديث والآراء. كان الوضع خطراً بحيث لا أتمكن أحياناً من إيجاد مكان أختبىء فيه، فأضطرّ إلى النوم في السيارة مع بعض الرفاق. كان حجم الدمار هائلاً والطائرات الإسرائيلية تعربد في سماء المدينة، وتنتهك حياة المدنيين والأبرياء بلا رحمة، مدعّمةً بالبوارج الأميركية المرابطة أمام شواطىء بيروت المدينة المحاصرة بالموت والدمار. لم يكن أمامنا إلا التنقل الدائم من

مكان إلى آخر ومحاولة الاستمرار والصمود أمام ذلك الطاغوت اللعين.

كنت قد خضعت لعملية جراحية قبل عامين. كيف كان وضعك الصحي خلال حصار بيروت؟

كنت منصرفاً كلياً لمتابعة المعارك الدائرة. كما أني ركزت كثيراً على الجانب الإعلامي وأعطيت الكثير من الأحاديث والمؤتمرات الصحفية في تلك الفترة حتى يصل صوتنا إلى العالم. وكنت أعمل أكثر من عشرين ساعة يومياً. كنت أتنكر حرصاً على ألاّ أُعلم أحداً بالمكان الذي أنوي الذهاب إليه. وكنت أبدّل دورياً أماكن إقامتي أنا وعائلتي من دون أن نكشف عن أسمائنا الحقيقية. كان هذا الجانب الأمني يشكّل هاجساً لزوجتي هيلدا التي كانت تشرف على كل تلك التفاصيل بنفسها. وكنا قد لجأنا إلى تلك الأساليب في الاختفاء طوال فترة بقائنا في لبنان في السبعينيات وبدايات الثمانينيات ولم أكن أعتمد على الحراسة المشدّدة والمرافقين لحمايتي، بل على العكس من ذلك فضّلت تلك الأساليب غير التقليدية التي نجحت، بفضل العناية الإلهية، أن تبقيني على قيد الحياة وتقيني شرّ عدو شرس كان يتربّص بي في كل خطوة. وفي النهاية تُوّجت معاناتنا بذلك الحصار الذي دام ثمانية وثمانين يوماً. لكن مقاومتنا الشرسة شكّلت صدمة لإسرائيل التي لم تكن تتوقّع ذلك. ولا بدّ لي من توجيه التحية إلى ياسر عرفات الذي كنت أصفه غالباً بأنه غير واضح. لقد كان شجاعاً جداً خلال الحصار، وشجاعته انعكست من خلال ما كان يتخذه من قرارات. كان بعض المقاتلين يطالبون بأن نلقي السلاح وأن ننسحب. لكن عرفات كان يرفض ذلك، ويصرّ على المقاومة حتى الخروج من الأزمة بطريقة مشرّفة. وكانت إسرائيل تستخدم ضده وضدي الحرب المعنوية والنفسية بإذاعة أخبار تتحدّث عن غارات استهدفت منزله أو منزلي، وتزعم أننا قد أصبنا بجروح. لكن ذلك لم يكن صحيحاً.

هل جعلت تلك الأيام الثمانية والثمانون من أبو عمّار المنتصر الأكبر في الاجتياح الإسرائيلي للبنان؟

لقد شكّل ذلك (بالنسبة إلينا جميعاً) واحدة من أهم المعارك التي تصرّف فيها أبو عمّار كقائد وطني. كانت تلك المرّة الوحيدة في تاريخنا المشترك التي كنا فيها على حد كبير من التقارب. كنت أراه بعد ذلك باستمرار في تونس، لكن تلك الأيام الثمانية والثمانين كانت أكثر زخماً من جميع مراحل تجربتنا السياسية الطويلة. وبما أن أبو عمّار كان هو القائد الأول، فمن الطبيعي أن يعود الفضل في انتصارنا المعنوي على إسرائيل إليه، وإلى المقاتلين الأبطال، من دون أن ننسى القيادات الأخرى.

هل كنتم تعوّلون على دعم خارجي يساعدكم على الخروج من الحصار؟

لاحظت سريعاً أن إسرائيل، ومن ورائها القوى الانعزالية اللبنانية، تعمل على اجتثاث المقاومة الفلسطينية وإجبارها على الخروج من بيروت بطريقة مذلّة، بغية إرغام قيادتها على قبول أي اقتراح يقدّم إليها. كنت على علم أن الرأي العام العالمي متعاطف معنا. كنت أعقد يومياً العديد من المؤتمرات الصحافية والنقاشات العامة لتحريك الرأي العام وتعزيز تعاطفه معنا حتى يعي العالم أجمع مدى الكارثة التي كنا ضحيتها، رغم أن حالة التعاطف معنا لا يمكن أن تدفع باتجاه تدخّل عسكري ما لمصلحتنا. وكان بعض الرفاق قد بدأوا يتحدثون علناً عن غياب الدعم السوفياتي للمقاومة. فقلت لهم إن الأمر لا يمكن أن يكون إلا كذلك، وأن من غير المنطقي أن يتدخل الاتحاد السوفياتي عسكرياً لإنقاذ المقاومة، ولن يقاتل بالنيابة عنا، والاعتقاد بعكس ذلك يدلّ على سوء تقدير ورؤية غير واضحة لتوازنات القوى الدولية.

أما في ما يخصّ جبهة الصمود والتصدي التي كنا قد أنشأناها قبل سنوات في ليبيا، بعد ذهاب السادات إلى القدس، فإنها لم تكن قادرة على فعل أي شيء لأنها كانت قد زالت من الوجود. وكنت أعلم، على ضوء الأوضاع العربية، أن

ليس بإمكاننا أن نعتمد على أحد غير أنفسنا ومعنوياتنا ومقاتلينا المستعدين للشهادة دفاعاً عن قضيتنا. كان العقيد القذافي قد صرّح علناً، أثناء المعركة، بأن أفضل ما يمكننا أن نفعله هو الانتحار. وكنت أفضّل لو أنه طلب إلينا أن نقاتل حتى الشهادة. وخلال اجتماعاتنا المتلاحقة، كان أبو عمّار يشدد على أهمية مساندة جميع فصائل الحركة الوطنية اللبنانية.

كان عرفات خلال النقاشات يحرص على عدم إبداء رأيه. كان يستمع أولاً إلى الآخرين، وكنت أستغل الفرصة لأقول إن هدف إسرائيل هو إلحاق هزيمة كاملة بنا، لكي لا يعود الشعب الفلسطيني إلى التفكير مجدداً في مواجهة جيشها عسكرياً. وبالتالي، ليس أمامنا غير المقاومة والمقاومة ولا شيء غير المقاومة، والصمود والصمود ولا شيء غير الصمود. وأظن أن هذه العزيمة كانت عاملاً أساسياً من عوامل صمودنا الذي دام ثمانية وثمانين يوماً. وكان الجو العام يميل، بعد تلك اللقاءات، إلى مواصلة المقاومة البطولية إزاء الهجوم الوحشي الذي شنّه العدو الإسرائيلي علينا.

كيف استقبلتم الوساطة الأميركية التي قام بها فيليب حبيب؟

مع وصول فيليب حبيب إلى بيروت، كانت الأمور قد أصبحت واضحة ولكنها اتخذت مساراً مأساوياً. فقد استند العدو إلى المناورات السياسية التي كان يقوم بها فيليب حبيب، ولجأ إلى تشديد الضغط العسكري على الفلسطينيين. فقد ظن شارون أن بمقدوره تحقيق حلمه بتدمير القاعدة السياسية والعسكرية للمقاومة الفلسطينية، وأسر أعضاء القيادة واقتيادهم إلى تل أبيب لعرضهم أمام جموع الإسرائيليين. وبذلك يكون قد قضى على كل أمل في ولادة ثورة فلسطينية جديدة.

وعلى هذا الأساس، بدأ شارون بتوجيه حمم القصف على مراكز القيادة الفلسطينية. كانت أطنان من الصواريخ والقنابل تتساقط على مواقعنا. وكان القصف كثيفاً إلى حد دفع بأحد الضباط الإسرائيليين إلى الاستقالة، لأنه لم يعد

قادراً على تحمّل هذه الجرائم التي كان عليه أن يرتكبها بحق المدنيين وبحق قيادتنا العسكرية. ويوماً بعد يوم، كان القصف يشتدّ، لكن المقاومة صمدت، وتملّكت الجماهير الفلسطينية والعربية خارج لبنان مشاعر الاعتزاز إزاء هذه المقاومة الأسطورية وصمودها البطولي والتي ستبقى صفحة مضيئة تنير الطريق أمام الأجيال القادمة.

أتذكر أياماً ثلاثة كانت قاسية بوجه خاص خلال الحصار. كان عليّ أن ألتجىء إلى منزل لقضاء الليل فيه، ولكنه لم يكن قد جُهّز من الناحية الأمنية مسبقاً من قِبل رجالنا. وما إن وصلنا إلى ذلك المنزل، حتى فوجئنا بقصف كثيف انهمرت معه القذائف بجوار البيت. كان القصف مركّزاً مما جعلنا نعتقد أن إسرائيل قد حصلت على معلومات عن طريق عملائها بوجودي في تلك المنطقة. انتقلت مع رجال الحرس من غرفة الاستقبال إلى ممر داخلي، وبعد ثوان قليلة سقطت قنبلة على الغرفة التي كنا جالسين فيها قبل لحظة ودمّرتها تماماً. كنا محظوظين جداً في ذلك اليوم، إذ خرجنا سالمين من بين الركام مباشرة قبل انهيار السقف بشكل كامل. كنت أخرج بين لحظة وأخرى للاطمئنان إلى معنويات الرفاق، وأُفاجأ حين أجدهم يستقبلونني بابتسامات تكاد تفيض بمشاعر الحماسة، فأشعر بالكثير من الارتياح إزاء كل هذه الشجاعة. بقيت زوجتي هيلدا وابنتي لمى في بيروت خلال الاجتياح. لم توافق هيلدا على السفر إلى ليبيا أو العراق بناء على اقتراحات قُدّمت إلينا. وقد أصرّت على البقاء قريباً مني ومن المقاتلين. كانت تتنقل تحت القصف، لكنها كانت قوية وذات معنويات عالية. وبعد كل غارة جوية على مواقعنا تأتي للبحث عني والاطمئنان إلى سلامتي. كان وجودها قريباً مني يمنحني المزيد من الشجاعة والقدرة على مواجهة الظروف القاسية. ولم تغادر هيلدا بيروت إلا عندما اتخذت الجبهة الشعبية قرارها بخروج العائلات. وقد ذهبت مع ابنتنا لمى في سيارة أجرة يقودها سائق لا تعرفانه. وقامت صديقة لبنانية مخلصة بمرافقتهما على سبيل التغطية لئلاّ يفطن أحد إلى هويّتهما. كانت كلٌّ منهما تحمل جواز سفر عراقياً

مزوّراً. وكانت الطريق التي سلكها السائق (طريق الجبل نحو دمشق) خطرة جداً لأن المنطقة كانت قد وقعت في أيدي الإسرائيليين. بالنسبة إلى ابنتي لمى، كان مجرد رؤية الإسرائيليين على الأرض اللبنانية أمراً لا يطاق، فلبنان هو بلدها الذي أحبته إذ لم يسبق لها أن عرفت فلسطين. كانت تلك مغامرة في غاية الخطورة بالنسبة إليهما، إذ كان عليهما أن تمرّا على حواجز إسرائيلية ونقاط تفتيش تابعة للقوات اللبنانية. وما تزال ابنتي لمى حتى هذه اللحظة تعتبر أن يوم خروجها من بيروت كان وسيبقى واحداً من أصعب الأيام في حياتها. كما كان يوم الفراق هذا بالنسبة إليّ من الأيام الأشد قسوة في حياتي. لم يكن بإمكاننا أن نعرف، وسط ذلك الجحيم، ما إذا كنا سنلتقي مجدداً، أم أنه يوم وداعنا الأخير. وعندما أرسلتُ من يخبر هيلدا بمجيئي لوداعها لم تكن مسرورة بتاتاً عندما علمت أنني صعدت درجات السلم إلى الطابق السادس عشر، بسبب انقطاع التيار الكهربائي، طوال فترة الحصار، لأنني جئت لوداعها من دون أن أفكر في تداعيات ذلك على وضعي الصحي والأمني. لكن كان من المستحيل عليّ أن تغادر زوجتي وابنتي في مثل تلك الظروف دون وداعهما مهما كانت المخاطرة.

لماذا قرّرت الجبهة الشعبية إخلاء بيروت، بعد أن كانت مصمّمة على أن تجعل منها ستالينغراد جديدة؟

بعد شهرين من المعارك بيننا وبين عدو كان قد جمع كل قواته بهدف تدميرنا، كنا لا نزال قادرين على الصمود. وهذه المقاومة التي فاجأت العالم أجمع أثارت إعجاب فلسطينيي الداخل والجماهير العربية. ولكن هل كان بإمكاننا أن نواصل الصمود في وضعية التحدي تلك أمام عدو يفوقنا قوة؟ بدأنا، قادة آخرون وأنا، بطرح أسئلة على أنفسنا: هل ينبغي الاستمرار في رفض الإخلاء؟ وفي حين كانت إسرائيل تصرّ، عبر فيليب حبيب، على أن نسلّم سلاحنا قبل الرحيل، فرفضنا ذلك بقوة، لأننا كنا ندرك أن إسرائيل لم تكن

تسعى إلى القضاء علينا وحسب، بل إلى إذلالنا على مرأى من العالم. لكن تصميمنا أجبر إسرائيل على القبول بخروج المقاومة من بيروت بسلاحها، وهو الأمر الذي اعتبرناه نصراً معنوياً بالغ الأهمية.

هل كان ذلك هو العامل الوحيد الذي أدّى بنا إلى القبول بإخلاء بيروت؟ لا، لأن الجماهير الفلسطينية واللبنانية كانت قد بدأت تعاني تداعيات الحصار، من انقطاع الماء والكهرباء وشحّ المواد الغذائية التي بدأت بالنفاد، ومن القصف الوحشي المتواصل بأطنان من القذائف وارتفاع عدد القتلى والجرحى من المدنيين الأبرياء. عندها أخذت الثورة الفلسطينية العنصر الإنساني في الاعتبار، ولا سيّما أن المواجهات كانت غير متكافئة، بالنظر إلى التفوق العسكري الكبير لمصلحة إسرائيل، وغياب أي دعم خارجي وعربي للمقاومة. وكان من شأن مواصلة المقاومة في هذه الظروف أن تقود المدينة كلها إلى الانتحار، نظراً إلى ضخامة الآلة العسكرية التي حشدتها إسرائيل لإحكام قبضتها علينا في بيروت. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، كنت أنظر إلى المواجهة مع العدو الصهيوني ليس فقط من خلال الإطار الفلسطيني وحده، بل أيضاً من خلال تحالفنا مع الحركة الوطنية اللبنانية، وخصوصاً مع الحزب الشيوعي اللبناني. وقد كان من الواضح، بالنسبة إليّ أن المواجهة مع العدو الصهيوني في لبنان سوف تتواصل، وأن مسؤولية استمرارها ستقع في المرحلة التالية على عاتق الوطنيين اللبنانيين بدعم من المقاومة الفلسطينية عن بعد.

وقد عقدنا اجتماعاً مع الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، جورج حاوي، بهدف التحضير لمواصلة المعركة. لكن الفرق كان قائماً بين مواجهة يخوضها الفلسطينيون ومواجهة يخوضها حلفاؤنا اللبنانيون. وفي هذا الإطار، كان علينا أن نكتفي، بعد خروجنا من بيروت، بالمشاركة في العمليات ضدّ إسرائيل وتقديم الدعم إلى الحركة الوطنية اللبنانية المقاومة في مناطق البقاع والجبل والجنوب اللبناني.

من الذي اتخذ قرار الخروج من بيروت، وكيف تمّ تنظيم الانسحاب؟

كان هنالك تنسيق بين الفصائل الفلسطينية، لكنّ أبو عمّار هو من كان يجري المفاوضات بنفسه. كان هو من يقوم بمقابلة رئيس الوزراء اللبناني، شفيق الوزّان، وكان هذا الأخير يتصل بفيليب حبيب ليضعه في صورة الوضع. وكانت السلطة اللبنانية تريد أن تشرف على عملية الانسحاب لتتأكد من تخلّينا عن السلاح، ومن أننا سننسحب فعلاً. لكننا نجحنا في مغادرة بيروت حاملين أسلحتنا معنا.

وقبل أيام من اقتناعنا بأن لا مناص لنا من الانسحاب، طلب أبو عمّار أن أقابله بمفردي، وأخبرني بأنه سيغادر إلى تونس، وأنه سيقترح على فصائل المقاومة أن تلحق به وحاول إقناعي بالخروج معه إلى تونس. وقد شعرت بغضب شديد إزاء فكرة الخروج من لبنان واللحاق به في تونس. فهذا الابتعاد كان يعني بوضوح أنه يلقي النضال المسلح جانباً ليتجه نحو الخيار الدبلوماسي. ناقشنا ذلك خلال ساعة تقريباً من دون توتّر ولكنّ الحوار بيننا كان صريحاً. قلت له أن لا سبيل لي للابتعاد عن فلسطين، وأن الذهاب إلى سوريا يظل دائماً أفضل الخيارات. لكنه أجابني بقوله: «أنت تعرف جيداً أن سوريا لن تسمح لنا بأن نقاتل انطلاقاً من أراضيها. ولذلك فإن تونس هي الحل الوحيد».

فهم أبو عمّار تماماً ما كنت أقصده. لكنه استمر في اللجوء إلى ألف حيلة وحيلة لإقناعي بأن النضال المسلح سوف يستمر، وبأنه يعطيه الأولوية. كان ياسر عرفات بارعاً، في تلك اللحظات، في إخفاء نيته الحقيقية، وكان ذلك واحداً من الوجوه الأساسية في شخصيته. كان يمارس سياسة الـ«لعم» (لا ونعم). وكان يبرّر رحيلنا عن بيروت بقوله إن الشعب الفلسطيني قد عانى أكثر مما ينبغي، ولم يساعده أحد خلال الحصار، ولم يعد من المفيد أن نخوض المعركة انطلاقاً من أراض أخرى. لذا قرر التوجّه نحو الحلول الديبلوماسية.

أما بالنسبة إلينا، فقد كانت المقاومة على العكس من ذلك، قد بدأت تؤتي

ثمارها على أرض الواقع، على الأقل في الأوساط الشعبية حيث كنا نحظى بتأييد الجميع. لذا حافظت على قناعتي بأن تحالفنا مع الحركة الوطنية اللبنانية سيمكننا من مواصلة النضال المسلح، وأن المقاومة الفلسطينية لم تكن قد انتهت.

كانت الأسرة الدولية والبلدان العربية قد منحتنا إحدى إمكانيتين: إما تونس وإما دمشق. اختار أبو عمار تونس، ومعه عدد من أعضاء فتح. أما أبو جهاد، وكثيرون من أنصار فتح فقد أرادوا الذهاب إلى سوريا، شأنهم في ذلك شأن جميع الفصائل. وكانت دمشق مستعدة لاستقبالنا من دون شروط.

كانت تصفية منظمة التحرير الفلسطينية هي الهدف الذي يسعى إليه شارون. متى فهمتم أن عليكم أن تغادروا بيروت؟

لو أننا انسحبنا في أيام القصف الأولى لكنا تركنا انطباعاً سيئاً عند الناس. لكننا أعطينا كل ما عندنا خلال ثمانية وثمانين يوماً من الحصار. وقد ودّعنا المدنيون الفلسطينيون الذين ظلوا في لبنان، ومعهم الكثير من اللبنانيين، بباقات الزهور. على كل حال، كنا قد استنفدنا كل إمكانياتنا من الناحيتين المعنوية والمادية. وفوق ذلك، كانت معاناة الناس شديدة جداً. فشعرنا بأن وجودنا بينهم قد تسبب لهم بالكثير من المعاناة: بدأ اللبنانيون يضيقون ذرعاً فكان علينا أن نغادر بيروت حفاظاً على أرواح المدنيين الباقين.

بعض أعضاء فتح وجهوا انتقادات إلى عرفات، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة. أما أنا فقد جمعت اللجنة المركزية للجبهة وأخبرتها بأن «القرار هو الانسحاب بالإجماع». وقد وافق الجميع إلا ثلاثة أعضاء من أصل خمسة وثلاثين كانوا يريدون مواصلة المعركة في بيروت. لكننا اضطررنا إلى الرحيل أخيراً بعد أن سطّرنا ملحمة من الصمود نحن والحركة الوطنية اللبنانية والجماهير الفلسطينية واللبنانية.

عند نهاية الحصار واستخلاص حصيلة المواقف المتخذة من قِبل كلّ من البلدان الأساسية الفاعلة، قام كثيرون بتوجيه النقد إلى الاتحاد السوفياتي بسبب

عدم تدخّله لإنقاذ المقاومة. كان نايف حواتمة، مثلاً، مستاءً من السوفيات لأنهم لم يتدخلوا لفك الحصار عن بيروت. وكنت واحداً من الفلسطينيين القليلين الذين قالوا بأن تدخّلهم لم يكن ممكناً لأن موسكو لا تريد الدخول في حرب مع الأميركيين. كنت أقول للرفاق: «لا تنتظروا من السوفيات أن يأتوا للقتال بدلاً منا». وبعد ذلك، وجّه إليّ السفير السوفياتي في لبنان دعوة وشكرني على تفهّمي للموقف. وفي ما بعد، ذهبت إلى موسكو حيث استُقبلت بحفاوة بالغة.

عندما غادرتم بيروت مع المقاتلين، في آب/ أغسطس ١٩٨٢، هل كنت تشعر بالقلق بشأن المدنيين الذين ظلوا في لبنان وتعرّضوا، بُعيد ذلك، للمجازر التي جرت في صبرا وشاتيلا؟

المشكلة هي أننا لم نترك مقاتلين في بيروت. لم نترك غير المدنيين. كانت مخيمات اللاجئين بلا حماية جيدة. وكان عدم تأمين الحماية الكافية هو الخطأ الذي ارتكبه عرفات، والذي ارتكبه أيضاً مسؤولون فلسطينيون آخرون، بمن فيهم أنا. لم أكن أجهل أن اللاجئين كانوا بلا حماية في المخيمات، لكنني لم أكن أتوقّع قيام الكتائب اللبنانية بارتكاب مجزرة بهذا الحجم تحت غطاء إسرائيلي. كان يجب على القيادة أن تأخذ ضمانات بعدم المس بالمدنيين في المخيمات بعد رحيل المقاومة.

مَن الذي ربح في النهاية؟ الإسرائيليون الذين تمكّنوا من إخراج منظّمة التحرير الفلسطينية من بيروت، أم الفلسطينيون الذين صمدوا ثمانية وثمانين يوماً؟

ربحت إسرائيل من الناحية العسكرية. لم يكن في ذلك أي شك منذ اليوم الأول للاجتياح الإسرائيلي للبنان. لكن الفلسطينيين أحرزوا نصراً معنوياً، عندما تمكّنوا من الصمود لمدة ثمانية وثمانين يوماً. لم يتمكن أي نظام عربي من الصمود في وجه إسرائيل لفترة طويلة كهذه، لأن إسرائيل كانت تشنّ حروباً

خاطفة على الدوام. لقد ضربت المقاومة الفلسطينية رقماً قياسياً بالصمود. كنت أشعر، وأنا أقرأ الصحف يومياً، بأن العالم كله يساندنا. وكنت فخوراً لأن المقاومة قاتلت حتى النهاية، وطوال تلك الفترة. ولذلك قيل بأن الشعوب قد خجلت من أنظمتها لأنها لم تحاول مساعدتنا.

لكن المقاومة لم تنته بخروجنا من لبنان بل استمرّت من خلال الحركة الوطنية اللبنانية التي قاومت ببسالة حتى خروج آخر جندي إسرائيلي من بيروت. واستمرّت المقاومة من خلال الانتفاضة الأولى في فلسطين عام ١٩٨٧، والانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠، وتُوّجت بانتصارات حزب الله بتحرير الجنوب عام ٢٠٠٠ أيضاً وانتصاره المشرّف على إسرائيل عام ٢٠٠٦ الذي بعث فينا الأمل والاعتزاز. لذلك أقول لإسرائيل بأنها لن تهنأ بالعيش في هذه الأرض العربية مهما طال الزمن.

كيف يمكن، تحديداً، وبعد انكفاء الأنظمة العربية، أن يقال بأن الوحدة العربية ما هي إلا وَهْم؟

صحيح أن تلك الأنظمة لم تفعل شيئاً من أجل المقاومة في يوم من الأيام، وأنها عملت حتى على إضعاف القضية الفلسطينية. لكننا كنا، وما زلنا، نراهن على الشعوب العربية. الشعوب هي المهمة بالنسبة إلينا. خلال الحصار، اكتفت الدول العربية وقادتها بالكلام في وسائل الإعلام، أما الشعوب العربية فقد انتقدت بقاء الأنظمة العربية بلا حراك. الرئيس اليمني هو الوحيد الذي قام بجولة في العالم العربي ليرى ما يمكن أن تكون عليه طبيعة المساعدة التي يمكن تقديمها إلى المقاومة الفلسطينية، ولكن هذه الجولة لم تُفضِ إلى نتيجة ملموسة. لم يساعدنا أي نظام عربي باستثناء النظام اليمني. اتصل بي القذّافي مرّة بالهاتف، أثناء الحصار، وتمنّى لي أن «أكون بخير» وقال «ليكن الله معكم». وبُعيد انسحابنا من بيروت، دعاني القذافي مع الأخ أحمد جبريل (الجبهة الشعبية-القيادة العامة) والأخ نايف حواتمة (الجبهة الشعبية الديموقراطية) لزيارة ليبيا في

مناسبة عيد الثورة. وقد وجه نقداً لاذعاً للقيادة الفلسطينية، في خطاب أمام الضيوف العرب وأعضاء القيادة الليبية والشعب الليبي. وعندما أنهى خطابه وغادر الاحتفال، احتجّت زوجتي بصوت عالٍ أمام الضيوف والقيادات وأكدت أن المرأة الفلسطينية قد قاومت إسرائيل بشكل أفضل بكثير مما فعلته الأنظمة العربية مجتمعة. وقد تطرّقت محادثاتنا هناك إلى سياسة التقارب الجديدة بين أبو عمّار ومصر. وبما أننا كنا حريصين على الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع ليبيا كان موقفنا ملتزماً حدود الشكليات. ولم نوجّه أية انتقادات إلى القذافي، إذ كان علينا أيضاً أن نأخذ في حسابنا واقع أن ليبيا كانت تموّلنا جزئياً وتقدم لنا بعض الدعم السياسي والمعنوي.

الفصل الحادي عشر

على الطريق نحو منفى جديد...

ما هي ذكرياتك حول رحيلكم الإجباري عن بيروت؟

عشت أياماً مُرّة كثيرة خلال مسيرتي النضالية الطويلة. ولكنني لا أذكر أنني شعرت بحنين بقسوة ذلك الحنين الذي شعرت به عند مغادرتي بيروت، تلك المدينة التي لا تشبهها أية مدينة أخرى في العالم العربي. إنها عاصمة الحضارة والثقافة، والتي تعرف قلوب سكانها كيف تنبض بالحياة في ظلال الموت والأسى والدمار. تلك هي بيروت التي أمضيت فيها أجمل سنوات شبابي. الرحيل عنها كان قاسياً جداً. غير أن إحساساً بالفخر كان يمتزج بذلك الحزن العميق، يوم كنا نستعدّ للرحيل. لم يكن الأمل بالمستقبل يفارقني لحظة وأنا أنظر إلى كل تلك الشعارات التي كتبها على الجدران المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون، وكذلك السكان المدنيون من الجانبين، وهم الذين كانوا يعبّرون عن عرفانهم وعن رغبتهم في مواصلة النضال المشترك ضد العدو الصهيوني. كان وداع المقاتلين لعائلاتهم وللأسر اللبنانية التي كان أفرادها يذرفون الدموع لفراقنا مؤثراً جداً؛ وكذلك كانت هتافات النسوة والأطفال الذين كانوا يوجّهون التحية إلى المقاومة البطلة في مزيج من الإحساس بالعزّة والألم العميق.

توجّهت عن طريق البحر إلى طرطوس مع عدد من المقاتلين والقادة الفلسطينيين، تاركاً ورائي الحب والتقدير لذلك البلد الجميل وشعبه الوفي الكريم. وعند وصولنا إلى ميناء طرطوس السوري، كان بانتظارنا مدٌّ بشري

هائل. فلسطينيون وسوريون حملوني باعتزاز على أكتافهم لأننا صمدنا أمام الجيش الإسرائيلي طوال ثمانية وثمانين يوماً. كان ذلك استقبالاً شعبياً حافلاً وحتى مهيباً إلى حدّ ما. وفي دمشق، تم استقبالنا رسمياً من قِبل الحكومة، حيث بدأنا بلقاء مع وزير الدفاع، اللواء مصطفى طلاس، الذي أدان في حضورنا غياب الردّ العربي خلال الاجتياح. كما عبّر الرئيس حافظ الأسد أيضاً عن خيبة أمله. ومن جهتي، لم أنطق بكلمة واحدة عن خيبة أملي أنا أيضاً إزاء غياب الرد العربي الرسمي الذي يشمل الموقف السوري كذلك. كان هنالك ما يدعو إلى الغضب حقاً. وحتى مع كون سوريا قد مُنيت بخسائر كبيرة في صفوف جيشها خلال الحصار. إلا أن هذا الجهد لم يكن بمستوى التحدي الذي واجهتنا به إسرائيل. لكننا كنا أمام مرحلة جديدة وواقع جديد كان علينا أن نتكيّف معه.

وبعد وصولنا إلى دمشق، اجتمعنا كما تجتمع أسرة واحدة بعد وفاة عزيز أو وقوع مصيبة. إلا أنه على المستوى الشخصي كان فرحي كبيراً بلقاء أسرتي من جديد بعد فترة الحصار الرهيبة حيث لم نكن نأمل التئام شملنا من جديد، وقد أتت ابنتي ميساء من ألمانيا لرؤيتنا بعد أن عاشت أياماً عصيبة في الغربة بسبب حالة القلق علينا لأنها كانت تجهل مصيرنا تماماً وسط الحصار فكان اللقاء حاراً ومؤثراً.

كيف كنت تنظر إلى ما تمتلكونه من هامش للمناورة إزاء السوريين؟

كان الرئيس حافظ الأسد رجلاً ذكياً ويعرف جيداً أننا سنمتعض بالتأكيد لو فُرضت علينا قيود زائدة على الحد. كان السوريون يسمحون لنا بأن ننسّق أعمالنا مع الحركة الوطنية اللبنانية، وكان هامش المناورة عندنا واسعاً في البداية. كما كان التنسيق مع الحزب الشيوعي اللبناني وغيره من التنظيمات يتم بحرية كبيرة أيضاً، حيث أننا واصلنا دعم الحركة الوطنية اللبنانية. وكان الفلسطينيون ينفّذون عمليات عسكرية ضد إسرائيل بالتعاون مع الفصائل اللبنانية، كما أن فلسطينيين

ممّن بقوا في لبنان كانوا يتحركون تحت غطاء لبناني. ولا ننسى أن مذبحة صبرا وشاتيلا قد أثبتت أن المخيمات الفلسطينية لم تؤمّن لها الحماية بعد خروج المقاومة. كما احتفظنا بعدد من القواعد في مناطق بعلبك والجبل، وكان مقاتلونا ممن لم يغادروا لبنان ينسّقون مع الوطنيين اللبنانيين.

كان مقاتلون من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ينتقلون أيضاً بين لبنان وسوريا مع وجود معسكرات لنا في سوريا، خزنّا فيها أسلحة لم تزل قائمة حتى اليوم، وكانت خاضعة بالطبع لإشراف السوريين. وعلى كل حال، كنا حريصين على أن يظل عملنا منحصراً بالقضية الفلسطينية. كان السوريون يراقبون من دون أن يتدخلوا في شؤوننا، لذا لم يكن الأمر مزعجاً البتّة.

هل كان الفدائيون يتدرّبون في تلك المعسكرات؟

كان هنالك الكثير من الشباب الذين يأتون بشكل سرّي من غزّة والضفّة الغربية لتلقّي التدريبات قبل أن يعودوا إلى فلسطين. وقد عاد معظم مقاتلينا الذين كانوا يعيشون في سوريا إلى المخيمات، في حين تشتّت بعضهم الآخر في الجزائر أو ليبيا. كنا جميعاً بحاجة إلى شيء من الراحة بعد حصار بيروت. وقد قام أحد الأصدقاء، وهو سفير بلغاريا في سوريا، بمساعدتنا على قضاء عطلة عائلية في فارنا على شاطىء البحر الأسود، حيث سعدت باللقاء، للمرة الأولى، مع الزعيم السياسي المصري التاريخي خالد محيي الدين، رئيس حزب التجمّع وأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة سابقاً. وكان هو أيضاً برفقة زوجته «أم أمين»، فنشأت بيننا علاقة صداقة حميمة. كان لقاؤنا مناسبة لتبادل الأفكار حول حركة التحرر العربية والوضع في مصر، وحول واقع الثورة الفلسطينية بعد خروجنا من بيروت. كنت أشعر بسعادة إضافية لوجود زوجتي وابنتيَّ بالقرب مني. أما بالنسبة إلى عائلتي فقد كان وجود السيدة أم أمين يضفي على الإجازة جواً عائلياً جميلاً نظراً لما كانت تتمتع به هذه السيدة الفاضلة من روح مرحة وحضور جميل. كما التقيت هناك الأمين العام للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح) مائير فيلنر

وزوجته. كان رجلاً لطيفاً جداً وشديد التهذيب يعلن تعاطفه مع القضية الفلسطينية، وإن كان هذا التعاطف لا يصل إلى حد إنكار شرعية وجود إسرائيل على الأرض الفلسطينية.

هل كان ذلك اللقاء سرّياً؟

لم يكن سرّياً ولا علنياً. لقد تمّ مصادفةً. لم أذهب إلى بلغاريا للقاء رئيس الحزب الشيوعي الإسرائيلي، ولكن صُودِف وجودنا في الفندق نفسه، ولم يكن المسؤولون البلغار قد أخطرونا بذلك. كنا في منتجع لضيوف الدولة الرسميين وتكررت لقاءاتنا أثناء الغداء أو العشاء بشكل طبيعي.

كان بإمكانك أن ترفض اللقاء معه؟

لم أشعر بالحاجة إلى رفض ذلك اللقاء، لأنني كنت مهتماً بالحديث مع تلك الشخصية اليسارية. وفوق ذلك، كانت الجبهة الشعبية وأنا نميّز على الدوام بين أحزاب أقصى اليسار الإسرائيلي التي كانت تدعم الفلسطينيين، وأحزاب اليمين الإسرائيلي. كانت مواقف الحزب الشيوعي الإسرائيلي معروفة في استنكار حصار بيروت وفي دعم الفلسطينيين. لم يكن ذلك خرقاً لنظامنا الداخلي الذي لا يمنع أي عضو في الجبهة من اللقاء مع أعضاء أحزاب تدعم قيام دولة فلسطينية.

كانت المرّة الأولى التي تلتقون فيها شخصاً إسرائيلياً. لذا، أكان هنالك في البداية شيء من الإحجام بدر عنك وعن ابنتيك؟

كانت البداية انسيابية تماماً. فأنا لست معادياً لليهود، خصوصاً إذا كانوا معادين للصهيونية. وقد التقيت هذا الرجل عدة مرات خلال إقامتي في بلغاريا. ولا تنسوا أنني كنت ألتقي يومياً الكثير من اليهود قبل قيام دولة إسرائيل. لكن الأمر كان أكثر صعوبة بالنسبة إلى ابنتيّ اللتين لم ترغبا في مصافحته أو مصافحة زوجته.

هل عبّر لكم عن تأييده؟

خلال لقائنا الأول استمع إليّ حتى النهاية، من دون أن يعبّر عن وجهة نظره. وبالطبع، كان هنالك الكثير من الاختلاف بين مواقف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومواقف الحزب الشيوعي الإسرائيلي. كنا نريد دولة فلسطينية علمانية على كامل التراب الفلسطيني، حيث يعيش اليهود والفلسطينيون في ظل المساواة في الحقوق والواجبات. أما هم فكانوا يريدون للفلسطينيين دولة يبقون فيها خاضعين للإدارة الإسرائيلية، أي كياناً منزوع السيادة.

وهل التقيته مجدّداً؟

لا أبداً. لكنني غالباً ما كنت أرى الحاخام ناتوري كارتا[١] المعادي للصهيونية الذي كان عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني.

ماذا كانت أولوياتكم لدى عودتكم إلى سوريا؟

كنت مصمّماً على عقد اجتماع للجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بهدف تحديد التوجّهات الجديدة لمعركتنا. وكان هنالك توجّهان اثنان: الأول هو التركيز على الداخل الفلسطيني بعد خروجنا من الأردنّ ولبنان؛ والثاني هو التركيز على تحالفاتنا العربية والدولية، مع التشديد على أن الثورة لم تنته

(١) ناتوري كارتا: حاخام يهودي معاد للصهيونية يقود جماعة معروفة باسمه. وهو ينادي بإنهاء الكيان الإسرائيلي بطريقة سلمية، على أساس اعتقاده بلا أحقية اليهود، بسبب خطاياهم، في إقامة دولة خاصة بهم قبل خروج المسيح، وأن أية محاولة لإقامة هذه الدولة بالقوة هي مخالفة للإرادة الإلهية. وعلى هذا الأساس لا يطالب ناتوري كارتا بالانسحاب حتى حدود الـ ٦٧، بل بعودة فلسطين كلها إلى الفلسطينيين، حيث يمكن لليهود أن يتعايشوا مع العرب في ظل الدولة الفلسطينية. ومن هنا، حصل على حقيبة وزارية في حكومة السلطة الفلسطينية. وقد أيدت الجماعة في أكثر من مناسبة تصريحات القادة الإيرانيين حول إزالة إسرائيل من الوجود، معتبرة أن التهديد موجه إلى الصهاينة لا إلى سائر اليهود المسالمين. كما أنها تدين استخدام الصهاينة للهولوكوست كوسيلة للضغط السياسي على العالم.

بانسحابنا من بيروت، وأنها ستستمر من خلال تحالفنا مع الحركة الوطنية اللبنانية بالاعتماد على الدعم السوري.

لقد سمح لنا انتقال قيادة الجبهة إلى دمشق بإقامة اتصالات مع القوى الوطنية والتقدمية في سوريا، وتحديداً مع السيد خالد بكداش، الأمين العام للحزب الشيوعي، الذي كان قد قام بزيارتنا، مع قادة الجبهة الوطنية في سوريا. وفي أواخر العام ١٩٨٢، نظمنا احتفالاً في دمشق، بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لتأسيس الجبهة الشعبية، بمشاركة أبو عمّار الذي ألقى كلمة في الاحتفال. وفي العادة يكتفي أبو عمّار، في مثل هذه المناسبات، بالتطرّق إلى الأمور العامة ذات الطابع العاطفي. ولكنّه ركّز هذه المرّة على ضرورة استمرار الثورة الفلسطينية، على الرغم من مغادرتنا لبنان. ثم تكلّمت بعده لأؤكد أن علينا الاستفادة من دروس لبنان، مضيفاً أن وضعاً مشابهاً قد حصل في روسيا مع فشل الثورة البلشفية عام ١٩٠٥، من دون أن يمنع ذلك من عودة القوى الداعمة لها إلى الإمساك بزمام المبادرة، لتحقق انتصار ثورة أكتوبر، بعد مضيّ اثني عشر عاماً. فالضربة القاسية التي تلقيناها في بيروت لا بد لها من أن تشكّل بداية نهوض جديد. وهذا النهوض الجديد تحقق، بعد عدة سنوات، مع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧، مع ثورة الشباب الفلسطيني في الأراضي المحتلة وثورة أطفال الحجارة.

في شباط / فبراير ١٩٨٣، انعقدت الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، وتم فيها رفض منظمة التحرير الفلسطينية لمشروع ريغان. أليس كذلك؟

ألقيتُ في تلك المناسبة واحدة من أهم خُطبي خلال عملي السياسي. وقد تحدثت عن موضوع المراحل على طريق الثورة، وذكرت السابقة الروسية في هذا المجال. لقد صفّقوا لي بحرارة بعد ذلك الخطاب المتدفق الذي عرضت فيه أسباب رفض الجبهة الشعبية لمشروع ريغان، قبل أن أحدد المراحل المستقبلية في نضالنا. وكان العديد من المدعوين، وخصوصاً من البلدان الاشتراكية، قد

أبدوا حرصهم على حضور اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني ذاك. كما قمنا، خلال ذلك الاجتماع، بالإعداد للزيارة التي قمنا بها إلى الاتحاد السوفياتي.

لقد أبدى الرفاق السوفيات تقديرهم لموقف الجبهة خلال فترة الاجتياح. وفي موسكو، كان لنا حديث، للمرة الأولى، مع بوناماريوف، المندوب المكلّف العلاقات الدولية في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الحاكم ولقاءات عديدة مع المسؤولين وعدد من الأصدقاء والأكاديميين السوفييت وعلى رأسهم الرفيق بريماكوف. وعند عودتنا إلى دمشق، علمنا بأن أبو عمّار قد صرف عدداً من أعضاء القيادة العسكرية في فتح، الأمر الذي أثار غضب العديد من الضباط التقدميين الذين انتفضوا دفعة واحدة ضد عرفات، بدعم من قاعدة الحركة.

بالفعل، قام ياسر عرفات، في أيار/مايو ١٩٨٣، بتعيين ضابطين متهمين بالفساد في المناطق اللبنانية الخاضعة للنفوذ السوري، وهما أبو الزعيم والحاج إسماعيل. وقد قوبل ذلك بتمرّد قاده أبو موسى. وأدّت هذه الخلافات إلى نشوب معارك بين الفلسطينيين في طرابلس، وهي المعارك التي أجّجها السوريون عندما دعموا متمرّدي أبو موسى ضد الموالين لعرفات. ماذا تقول عن دور السوريين في هذه القضية؟

عارضنا في البداية هذه التعيينات التي كان من الواضح أنها ستؤدّي إلى انشقاقات لأن ٩٠ في المئة من أعضاء فتح كانوا يعارضونها أيضاً. لكننا لم نكن نريد أن يصل الأمر إلى درجة الانفصال الكامل والاقتتال الداخلي. وعندما وقع الانفصال، حاولنا التقريب بين الفريقين. ولا بد لي من القول بأن ذلك التمرد قد بعث فيّ الأمل بتصحيح الوضع، ليس فقط داخل فتح، بل أيضاً داخل منظمة التحرير الفلسطينية. كنت أشعر بأن من شأن ذلك التمرّد أن يسمح لي بتصحيح الخط السياسي في فتح وبالتأثير في توجهات منظمة التحرير الفلسطينية. وأذكر في بداية تلك الانتفاضة أن أبو جهاد نفسه، رحمه الله، كان قد أكد أن ٩٩ في المئة من حركة فتح هي مع الرغبة في التغيير داخل فتح. كنت أعتقد بأن تلك

الانتفاضة ستحدث تغييراً في موازين القوى داخل منظمة التحرير الفلسطينية، وأنه قد بات من الممكن تغيير أسلوب أبو عمّار في اتخاذ القرارات الفردية من دون الرجوع إلى القادة الفلسطينيين الآخرين.

وقد شارك في قيادة التحرك، إلى جانب أبو موسى (سعيد موسى مراغة)، كل من أبو خالد العملة وأبو صالح الذي كان يحلم بتحالف بين فتح وسوريا والحركة الوطنية اللبنانية. وكنا نتمنى قيام مثل هذا التحالف لأنه كان يسمح لنا بمواصلة ثورتنا بشكل أفضل. وعندما أُجبرت القوات الإسرائيلية على الانسحاب من الجبل تحت ضربات المقاومة اللبنانية، التقى أبو صالح قائد «المرابطون» في لبنان، إبراهيم قليلات[٢] قبل أن يطلق تصريحات لاهبة لم تعجب السوريين. عندها طلبت إليه دمشق أن يعود سريعاً إلى سوريا. ومنذ تلك اللحظة، اكتشفنا الحدود التي يمكن لسوريا أن تفرضها على الثورة الفلسطينية، وخصوصاً على أي نشاط فلسطيني جديد في لبنان. فمنذ ذلك الحين، أصبحت دمشق غير راغبة في أن يخرج ذلك النشاط عن رقابتها.

هل كانت تلك اللحظة هي التي شهدت انقطاع الجسور بشكل نهائي بين دمشق وعرفات؟

كان هنالك تناقض دائم بين أبو عمّار والقيادة السورية. وكان هذا التناقض قائماً خلال وجود عرفات في لبنان، لكنّه تعمّق عندما اختار أبو عمّار الذهاب إلى تونس بدلاً من دمشق. وعندما حدث التمرّد داخل فتح، كان من الطبيعي

---

(٢) إبراهيم قليلات: يعرف أيضا باسم «أبو شاكر». وهو قائد حركة الناصريين المستقلين المعروفة أكثر باسم «المرابطون». شارك في ثورة العام ١٩٥٨ المناوئة لحكم الرئيس كميل شمعون، وسجن بين العام ١٩٦١ والعام. ١٩٦٧ وكان تنظيمه من التنظيمات الفاعلة خلال الحرب الأهلية اللبنانية. وقد أصيب بجروح في معارك التصدي للاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢. وفي العام ١٩٨٥، وقعت صدامات بين المرابطون وقوات الحركة الوطنية اللبنانية في بيروت توجه قليلات على إثرها ليعيش في باريس. وقد عاد المرابطون في الآونة الأخيرة إلى الظهور مجدداً على الساحة اللبنانية.

لهذه التوتّرات أن تشهد مزيداً من التفاقم بقدر ما كان أبو عمّار يراهن على حل سلمي للقضية الفلسطينية، في ظل العلاقات المميزة مع الأردنّ والأنظمة العربية الأخرى.

وعندما قررت سوريا، في ٢٤ حزيران/ يونيو عام ١٩٨٤، أن تعطيه مهلة ٢٤ ساعة لمغادرة دمشق، شعرتُ بأن أزمة كبرى قد بدأت تلوح في الأفق، لأن أبو عمّار كان يمثّل الشرعية الفلسطينية في نظر العرب والعالم أجمع. وهنا وجدت الجبهة الشعبية نفسها بين نارين: فمن جهة هناك أبو عمّار والانحراف الذي يفرضه على ثورتنا، ومن جهة أخرى هنالك وجودنا في سوريا والدعم الذي كانت تقدّمه لنا الحركة الوطنية اللبنانية في لبنان. وكنا نشعر بصعوبة ألا نكون في بلد على خطّ المواجهة مع إسرائيل مثل سوريا.

وقد تأثرت كثيراً لقرار السلطات السورية، وحرصت على مرافقة أبو عمّار إلى مطار دمشق لوداعه. كان ذلك نوعاً من توجيه الشكر إليه لأنه جاء، قبل أشهر، لحضور احتفالات الذكرى الخامسة عشرة لتأسيس الجبهة الشعبية، وكذلك للتعبير عن تضامني مع أبو عمّار كأحد رموز النضال الفلسطيني، وللتشديد على ضرورة العمل من أجل الوحدة الفلسطينية. والحقيقة أن السوريين لم يكونوا يوماً على وفاق مع أبو عمّار. وكانوا لا يريدون وجوده في سوريا. ثم إن سوريا كانت مستعدة لدعم النضال الفلسطيني ما دام متركّزاً على التراب الفلسطيني في الداخل، ولكنها لا تسمح لأي شخص، غير الرئيس السوري، بأن يتصدّى، من دمشق، لمعالجة القضايا العربية. لذا كان أبو عمّار يشكّل منافساً مزعجاً. وفي الجهة المقابلة، لم يكن أبو عمّار ينتظر الدعم إلا من المصريين والأميركيين، وكان السوريون يعارضون بشكل مطلق رؤية الأمور وهي تسير بهذه الطريقة.

وقد أدّى إبعاد عرفات إلى قيام وضع جديد كان ردنا عليه بأن أقمنا، مع الرفاق في الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، تحالفاً وضع لنفسه هدفين أساسيين: الأول هو مواجهة الخط السياسي الذي اختاره أبو عمّار، بعد مغادرتنا بيروت، بشكل أكثر فاعلية؛ والثاني هو مواجهة المحاولات الهادفة لاحتوائنا،

سواء كان مصدرها سوريا أو غيرها من الأنظمة العربية. وقد تحمّست كثيراً لإقامة هذا التحالف مع الجبهة الديموقراطية. وعلى الرغم من شكّي في قدرة نايف حواتمة على الدخول في مواجهة مع ياسر عرفات، كنت آمل أن يسمح لنا هذا التحالف بتقوية التيار الديموقراطي داخل منظمة التحرير الفلسطينية، بهدف تصحيح مواقفها السياسية والدبلوماسية، وامتلاك ثقل على الصعيد التنظيمي الداخلي. وقد شكّل هذا التحالف بين الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية، الذي انضمّ إليه الحزب الشيوعي، قوة هامة جداً من شأنها أن تدفع باتجاه توحيد المقاومة الفلسطينية لمواجهة المشاكل الخطيرة التي كانت تواجهها. وقد أصدرنا بياناً مشتركاً تضمّن إدانة للانشقاق الحاصل داخل فتح، وحذّرنا أبو عمّار من خطورة الوضع، كما أصررنا عليه لمراجعة التعيينات التي كانت أساس الأزمة. كذلك حذرنا أبو موسى وأبو خالد اللذين انشقا عن فتح وطلبنا إليهما الابتعاد عن الاقتتال الداخلي. كان من الضروري لنا أن نتّحد لكي نضع حدّاً للحروب الداخلية التي كانت تُلحق الضرر بالقضية الفلسطينية. وبعد فترة قصيرة استنكرنا انتقال أبو عمّار إلى طرابلس في لبنان، لأننا كنا على قناعة بأن سوريا والتيار المنشق عن فتح بزعامة أبو موسى لا يمكنهما القبول مطلقاً بعودته إلى لبنان، وهي العودة التي كان من شأنها أن ينظر إليها على أنها استفزاز لهما. وللأسف، كان ذلك ما حصل بالضبط.

هل حاول ياسر عرفات أن يعود إلى لبنان بعد أن أُبعد من سوريا؟

كان أبو عمّار يعتقد أن بإمكانه العودة إلى لبنان. وإلى جانبه كان بعض الرفاق في قيادة فتح يعتقدون أيضاً أن بإمكانهم استعادة مواقعهم العسكرية كما في السابق. أما نحن، في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فكنا نعتقد بأن الحركة الوطنية اللبنانية هي وحدها من يحق له تولّي قيادة مرحلة النضال الجديدة في لبنان، الأمر الذي لم يكن يعني انتهاء دور المقاومة الفلسطينية بل ضرورة اقتصار هذا الدور على دعم الحركة الوطنية. وقد قمنا بهذا الدور، في دعم وليد

جنبلاط، عندما اندلعت حرب الجبل وأدّت إلى انسحاب الإسرائيليين. وكان ذلك فرصة، في نظر الجبهة الشعبية، لتعزيز موقع الحركة الوطنية اللبنانية في النضال ضد العدو الإسرائيلي.

وقد اعتبرت سوريا عودة عرفات إلى طرابلس بمثابة تحد وإهانة لسلطتها من شأنهما أن يقوّضا مشاريعها على الساحة اللبنانية. ومن هنا بدأت المعركة الضارية بين أنصار أبو عمّار وحلفائه في طرابلس ممّن التفّوا حول الشيخ سعيد شعبان من جهة، والنظام السوري وحلفائه من الفلسطينيين واللبنانيين من جهة ثانية. وقد اشتدت المعارك وسقط فيها قتلى كثيرون من الجانبين. وكانت المواجهات بين الفلسطينيين عديمة الفائدة وبالغة الخطورة، وشكّلت مصدراً للمرارة الشديدة. وقد قمنا مع الجبهة الديموقراطية بإدانة هذه المجازر بين الإخوة، وطالبنا بإيقافها في أسرع وقت ممكن. كما طلبنا من أبو عمّار إخلاء طرابلس والرحيل عن لبنان. فقد كانت القوى المعارضة لرجاله أكثر عدداً من أن تسمح له بالبقاء، وهذا ما جعله يقرر الرحيل عن طرابلس.

وعندما توقفت المعارك، اتجهت جميع الأنظار نحو أبو عمار. كنا نتساءل: إلى أين يمكنه أن يذهب هذه المرّة؟ إلى اليمن؟ إلى قبرص؟ وقد فوجئنا كثيراً عندما اتجه إلى القاهرة، أي إلى النظام المصري المرتبط مع إسرائيل باتفاقيات كامب دايفيد، تلك الاتفاقيات التي شكّلت أكبر انتصار للعدو الإسرائيلي بعزله أكبر دولة عربية عن خط المواجهة. كما أن الكثير من العرب والفلسطينيين ممن عارضوا خطوة السادات قد ذهلوا لخيار عرفات. وقد ساهم ذهابه إلى مصر في تعزيز الانقسام الفلسطيني. كان من المفترض أن يتكلم عرفات باسم جميع الفلسطينيين. لم نكن نريد السير في نهج الاستسلام والتطبيع الذي سلكه السادات. وكان من الضروري إيجاد مخرج من هذه المشكلة لأن قرار عرفات قد شكّل، في نظرنا، انحرافاً خطيراً عن الخط الوطني الفلسطيني.

وعندما حلّلتُ أسبابَ ذهابه إلى مصر استنتجتُ أن البلدين الوحيدين اللذين يمكنهما، في نظر عرفات، أن يساعدا في إقامة دولة فلسطينية هما الأردنّ

ومصر. وقد أشرت في أحد خطاباتي إلى وجود «سادات فلسطيني بين صفوفنا». فأنا أحدّد عادة موقفي السياسي بعد تفكير عميق. لكن مرّت خلال الثورة لحظات كنت أفكر فيها بعقلي، ولحظات أخرى أفكر فيها بمشاعري؛ وأعترف بأن النظرة إلى الأمور أحياناً كانت تختلط بين العقل والعاطفة. لقد تقبّل الشعب عبارة «السادات الفلسطيني»، لكنني لاحظت أن بعض الرفاق بدأوا يبدون خشيتهم من تكرار هذه العبارة، ومما ستحدثه من انشقاقات عميقة في صفوف الثورة. ومنذ تلك اللحظة، حاولت التوقف عن استخدام هذه العبارة التي أثارت الجدل.

ظننتَ مرة أخرى أن الفرصة قد سنحت لك لتصحيح انحرافات ياسر عرفات، ولإقناع غالبية داخل منظمة التحرير الفلسطينية باتباع نهجك. أليس كذلك؟

شكّل ذهاب أبو عمّار إلى مصر مفاجأة حتى لعدد من كبار قادة فتح من أمثال أبو إياد (صلاح خلف)[٣] وأبو الهول (هايل عبد الحميد)[٤]. عندها خطر في ذهني أن الفرصة قد سنحت لي لتوحيد الساحة الفلسطينية ولتغيير الخط السياسي الذي كان يتفرّد به أبو عمّار حتى تلك اللحظة. وعلى ذلك، توجّه رفاق من الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية إلى تونس لينظروا ما كانت عليه مواقف

---

(٣) أبو إياد (صالح خلف): ولد في يافا، عام ١٩٣٣. ثم انتقل إلى غزة، ومنها إلى مصر حيث نشط في العمل السياسي مع ياسر عرفات وآخرين، قبل أن يعود إلى غزة، ومنها إلى الكويت حيث عمل في التدريس وساهم مع عرفات وأبو جهاد في تأسيس حركة فتح. برز أبو أياد بصفته عضواً في اللجنة المركزية لفتح، ثم مفوّض جهازها الأمني وقائد أجهزتها الخاصة. وقد عرف أبو إياد بقدرته الفائقة على إدارة العمل في مجالي الرصد والديبلوماسية على السواء. سقط شهيداً في تونس في عملية اغتيال جرت في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، ووجهت أصابع الاتهام إلى إسرائيل، لكن بعض الروايات تؤكد أن اغتياله قد تم بتوجيه من صدام حسين الذي نقم عليه بسبب إدانته لغزو الكويت من قبل العراقيين.

(٤) أبو الهول: (هايل عبد الحميد): ولد في صفد عام ١٩٣٥، وهاجر عام النكبة مع أهله الى سوريا. سافر إلى ألمانيا حيث التقى العديد من المناضلين الفلسطينيين. انخرط في جيش التحرير الفلسطيني وأصيب بجرح في حرب الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧. اضطلع بمسؤوليات سياسية وعسكرية في حركة فتح. تم اغتياله في تونس في الليلة التي اغتيل فيها أبو إياد.

كوادر فتح وقيادييها من ذهاب عرفات إلى القاهرة. كان من الضروري أن نستفيد من الفرصة التي لاحت من أجل توحيد الصف الفلسطيني، خصوصاً بعد أن لمسنا رغبة العديد من قياديي فتح في ذلك.

وقد رغب العديد من قادة القوى والحركات التقدّمية في مساعدتنا على تحقيق مهمة التوحيد هذه، ومنهم الرفاق في اليمن الديموقراطي، والحركة الوطنية اللبنانية، والحزب الشيوعي اللبناني، والحكومة الجزائرية، والحزب الشيوعي الفلسطيني، وجبهة التحرير الفلسطينية. وفي هذا الإطار، قمنا بتوقيع اتفاقية عدن-الجزائر، وأقفلنا الباب بذلك على اتفاقيات كامب دايفيد ومشروع ريغان والمقترحات الأردنية. لقد أعدنا وضع ما توصّلت إليه الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني من قرارات في صميم أولوياتنا. وبذلك تخلّصت الساحة الفلسطينية من عبء ثقيل. كما شدّ من أزرنا وصول عدد كبير من برقيات التأييد من بلدان كثيرة. ومع كل هذا، كنت مصمّماً على التحقق من أن أبو عمّار سيحترم اتفاقية عدن-الجزائر، لكنّه أهملها على الفور في تصريحاته ويا للأسف. كان يريد استخدامها فقط كغطاء لسياسته المنحرفة التي اعتمدها منذ خروج الفلسطينيين من بيروت. وكان ذلك خطيراً جداً لأن اتفاقية عدن-الجزائر كانت بمثابة الأساس الذي يمكن أن تُبنى عليه وحدة فلسطينية حقيقية. وقد احتجّت الجبهة الشعبية على ذلك بأن أرسلت مذكّرة إلى اللجنة المركزية لحركة فتح عرضت فيها مبادئ اتفاقية عدن-الجزائر، وشددت على أن إصرار أبو عمّار على الانحراف عن تلك الاتفاقية سيفضي إلى انقسام بين الفلسطينيين. وللأسف، فإن الجبهة الديموقراطية لم تدعم موقفنا هذا.

وبهذا يكون تحالفكم مع الجبهة الديموقراطية قد انهار مرّة أخرى، ولم تتوصّلوا إلى إفشال عرفات. أليس كذالك؟

كانت اللجنة المركزية لفتح تريد أن تدعو المجلس الوطني الفلسطيني إلى الانعقاد في الجزائر، بأقصى سرعة ممكنة، ولكن من دون وجود نيّة حقيقية

للضغط على عرفات. وطالبت الجبهة الشعبية من جهتها بعقد اجتماع المجلس الوطني على أسس وطنية صحيحة، مع الإصرار على ضرورة اتخاذ موقف من عدم احترام أبو عمّار لاتفاقية عدن-الجزائر. كانت تلك الفترة واحدة من أصعب الفترات بالنسبة إليّ. وما زاد في خيبة أملي هو موقف الجبهة الديموقراطية التي خرجت من قيادتنا الموحدة، كما لو أن سبب المشكلة هو موقف الجبهة الشعبية واحترامها للمبادئ، وليس سببها المواقف التي كانت تدور في فلك أبو عمّار. فواقع الأمر أن الجبهة الشعبية الديموقراطية لم تكن شديدة الحرص على تصحيح خط أبو عمّار، وهو التصحيح الذي أردناه من أجل تعزيز الوحدة الفلسطينية.

كان ذلك أمراً مؤسفاً. فتردُّد الجبهة الديموقراطية جعلنا نخسر فرصة تاريخية لبناء وحدة وطنية على مبادئ واضحة، في حين أن ياسر عرفات لم يكن ينظر إلى الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية وإلى المعارضة إجمالاً إلا كغطاء لسياسة المساومات المعتمدة من قبله.

وفي ظل الانقسام في صفوفنا، تمكن أبو عمّار من تأمين انعقاد الدورة السابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في عمّان، بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤، وهو الاجتماع الذي رفضنا الاعتراف بما سيصدر عنه من قرارات. كنا نعتبر أن الدورة السادسة عشرة ما تزال الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الوحدة الفلسطينية. كما أن اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في عمّان لم يكن يمثل جميع الفصائل الفلسطينية.

عندها، بدأنا نفكّر، نحن في الجبهة الشعبية، في تشكيل تحالف جديد بهدف التصدي لسياسة أبو عمّار. وهكذا تشكلت جبهة الإنقاذ من الفصائل الفلسطينية المعارضة لعرفات والموجودة في سوريا. كنا نشعر بأن المناخ السياسي السائد يشجعنا على ذلك. وعندما اجتمعت اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لحسم هذه المسألة وافق جميع الأعضاء على تشكيل تلك الجبهة. كنا متحمسين جداً، وكنا نتصور أن الفصائل الأخرى ستنضم إلينا وأن الجبهة سيكون لها دور مركزي. لكننا فوجئنا بأن الأمور لم تجر وفق هذا التصور، وبأن الجبهة

لم تجتذب الفصائل الأخرى. وعلى الرغم من هذه الانتكاسة، بقيت مقتنعاً بأن بإمكاننا مواجهة أبو عمّار لأن الغالبية سوف تؤيدنا في مواجهة النتائج الهزيلة التي توصّل إليها اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في عمّان، خصوصاً أن اتفاقاً قد تم التوصل إليه، بعد أسابيع، في ١١ شباط / فبراير ١٩٨٥، بين ياسر عرفات والقيادة الأردنية.

وقد استندت معارضتي لذلك الاتفاق إلى الأمور التالية:

١- إدانة شخصيات فلسطينية عديدة لذلك الاتفاق.

٢- دعوت إلى مؤتمر شعبي فلسطيني لإعلان معارضتنا للاتفاق لأن المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في عمّان والذي زعم المصادقة على ذلك الاتفاق، لم يكن يمثل الشعب الفلسطيني.

٣- بذل النظام الأردني جهوداً حثيثة لإضفاء شرعية عربية على اتفاق عمّان، وأدّى ذلك إلى انعقاد قمة عربية تركزت أعمالها على الاعتراف بتلك الشرعية.

٤- سعيت إلى تعزيز علاقتنا بموسكو بهدف مواجهة خصومنا السياسيين. لذا قمت بزيارة إلى الاتحاد السوفياتي حيث شرحت موقفنا في مؤتمر صحفي. كان الأردن يريد، في نظري، أن يحوّل منظمة التحرير الفلسطينية إلى حكومة حُكم ذاتي، في حين كان أبو عمّار يظن أن من شأن علاقته مع الأردن أن تسمح بإقامة دولتين في نظام فيدرالي، كحلّ كان يعتقد بأن الولايات المتحدة وإسرائيل يمكنهما القبول به. لكنه كان يتجاهل موقف سوريا والفصائل الفلسطينية المعارضة ونظرتهم إلى مثل ذلك المشروع بوصفه مشروعاً في غاية الخطورة. فدمشق لم تكن ترغب في ذلك المشروع لأن بنوده تفضي إلى تهميش دور سوريا في المعادلة الفلسطينية، بل حتى تغييب ذلك الدور.

وهنا، جاءت اللحظة التي وضعتكم فيها سوريا في موقف شديد الصعوبة عندما قررت إنهاء الوجود الفلسطيني المسلح داخل مخيّمات اللاجئين في لبنان. أليس كذلك؟

بينما كان أبو عمار منغمساً تماماً في المشاريع الأردنية، أصبحت منظّمة التحرير الفلسطينية خارج دائرة التأثير السوري، فقرّرت دمشق أن تلقي بكل ثقلها في المسرح اللبناني بُغية سحق الفصائل الفلسطينية المسلحة في مخيمات اللاجئين. ومنذ تلك اللحظة، اندلعت حرب مخيمات جديدة في لبنان، وضعت الجبهة الشعبية ومجمل الحركة الوطنية الفلسطينية في موقف صعب جداً. وقد وجدت نفسي أمام معضلة حقيقية: كان هنالك المشروع الأردني الهادف إلى احتواء منظمة التحرير من جهة، والمشروع السوري الهادف إلى القضاء على الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان من جهة أخرى. ولتحقيق هذا الهدف، اعتمدت سوريا على حركة أمل الشيعية، ثم انطلقت المواجهات من مخيّم شاتيلا في بيروت، قبل أن تمتدّ إلى مخيّم برج البراجنة. ولم يكن الحسم بالأمر السهل. فقد كانت سوريا مركز قيادتنا، وكنا نعتبرها قاعدة لاستمرار ثورتنا وفي الوقت نفسه كان علينا أن نتخذ موقفاً شجاعاً إزاءها.

هل كان يمكنني أن أتسلح بالشجاعة اللازمة لمواجهة موقف صعب من شأنه أن يفضي إلى خروج الجبهة الشعبية من سوريا وإنهاء وجودها فيها؟ ذهبت بعد ذلك بوقت قصير إلى الجزائر وصرّحت للصحافة بأن أمل لا تجرؤ على مواجهتنا في لبنان من دون ضوء أخضر من سوريا. بعد ذلك التصريح كتبت الصحافة أن جورج حبش أصبح ممنوعاً من العودة إلى سوريا ولكن المفاجأة كانت دعوة الرئيس حافظ الأسد لي للعودة ولعقد لقاء فيما بيننا. وعندما بدأت أمل، بدعم من سوريا، بمحاربة الوجود الفلسطيني المسلح في بيروت، هبّ المقاتلون والسكان إلى المقاومة. لم تكن تلك المقاومة متوقعة، لا من قِبل أمل ولا من قِبل سوريا. وقد استمرت المواجهات طوال شهر كامل وأُجبرت أمل وسوريا على وقف عدوانهما وتوقيع اتفاق مع الحركة الوطنية اللبنانية عُرف باسم اتفاق دمشق. وبالطبع، لم يكن بإمكاننا اعتبار ذلك الاتفاق بمثابة انتصار كامل للفلسطينيين، أو بمثابة انتصار جيد، إذا ما تذكرنا أن هدف أمل كان في البداية ضرب السلاح الفلسطيني داخل المخيمات. ومن المؤسف أن حركة أمل لم

تستوعب الدرس، لأنها واصلت هجماتها في منطقة صيدا تحديداً حيث اشتدّت المواجهات. وهنا ينبغي تذكر معركة مغدوشة الضخمة التي أحدثت تغييراً بمقدار ما تمكن أنصار عرفات من لعب دور أساسي في حماية المخيمات. وبالنظر إلى امتلاكه لمقدرات كانت لا تزال على جانب من الأهمية، اعتقد أبو عمّار بأن الفرصة قد سنحت له مجدداً للعب دور في لبنان. لكن سوريا حالت دون ذلك. كانت تلك المعركة هي الأكثر قسوة بالنسبة إلينا، من الناحية المعنوية، لأنها دارت بيننا وبين بلد حليف كسوريا. كنت أتمنى لو أن الإمكانيات التي استخدمت في تلك المعركة قد وجّهت نحو العدو الصهيوني.

الفصل الثاني عشر

الاتفاق بين عرفات والأردن وانطلاق الانتفاضة الأولى

ابتداءً من العام ١٩٨٥، كرّستم قسماً من وقتكم لمواجهة التقارب بين ياسر عرفات وأردنّ الملك حسين في ظل المسعى الهادف إلى إقامة حكم ذاتي في الضفّة وقطاع غزّة. ما قولكم في ذلك؟

المعارك التي شهدتها المخيّمات الفلسطينية في لبنان لم تُنسني أن الأميركيين مصمّمون على أن يفرضوا علينا أفكارهم من خلال اتفاقية عمّان. ففي ١٩ شباط/ فبراير ١٩٨٦، ألقى الملك حسين خطاباً أمام البرلمان الأردني شرح فيه مواقفه من هذه الاتفاقية. وقد اعتبر أن هذه التسوية تسمح له بإدخال منظمة التحرير الفلسطينية في نظام إدارة ذاتية لأراضينا. وكان ذلك بالضبط هو الخطة الأميركية عينها التي حُبكت بعد خروجنا من بيروت. كان الملك حسين يؤيّد الأفكار الأميركية على الدوام. وبذلك اتضحت توجّهات النظام الأردني، حتى لقيادة فتح، خصوصاً مع بدء الأردنيين باستخدام جماعة أبو الزعيم[1] بُغية حمل منظمة التحرير الفلسطينية على تمرير تلك الخطة. لكنّ السلطات الأردنية فشلت

---

(١) أبو الزعيم (عطا الله عطا الله): رئيس الاستخبارات العسكرية الفلسطينية في الفترة بين ١٩٧٠ و١٩٨٠. قاد انشقاقاً على عرفات بدعم أردني، في العام ١٩٨٦، بعد قيام حركة فتح بإلغاء اتفاق عمّان. لكن عرفات عاد وعفا عنه تلبية لرغبة بعض الدول العربية، وسعى إلى تسليمه مسؤوليات أمنية في سلطة الحكم الذاتي.

في شقّ منظمة التحرير الفلسطينية، لسبب رئيسي هو صورة أبو الزعيم السيّئة في نظر قواعد فتح وكوادرها. كانوا قد اختاروا حصان طروادة السيّئ بهدف التأثير في القيادة الفلسطينية المركزية.

كان عرفات يعتبر أن اتفاقية عمّان التي تؤيّد إقامة دولة فلسطينية يمكنها أن تشكّل، في ما بعد، اتحاداً كونفدرالياً مع الأردنّ. لكنه لم ينتبه على الفور إلى واقع أن تلك الاتفاقية لم تكن تعطي الفلسطينيين دولة ذات سيادة، بل نظام حكم ذاتي، بعيداً جداً عن الاستقلال الحقيقي الذي ما زلنا نقاتل من أجله حتى اليوم. ولم يغيّر أبو عمّار موقفه إلا بشكل تدريجي، بعد أن لاحظ أن النظام الأردني لا يفعل شيئاً من أجل منحه تلك الدولة. كانوا يعطون أبو عمّار حكماً ذاتياً؛ ومع ذلك، ظل الملك حسين هو اللاعب الرئيس في ظل هذا الوضع الجديد. وعندما أدرك أبو عمّار أخيراً حدود اللعبة تراجع عن رؤيته بخصوص المستقبل، وعاد إلى تفضيل الوحدة الوطنية على حساب علاقاته مع الأردنّ.

أمّا من جهتي، فكنت أعتبر أن تردّد عرفات، إضافة إلى خطاب الملك حسين، وموقف القوى الوطنية داخل فتح، وخصوصاً موقف أبو إياد، يمكن أن يحدث تطوّراً في الساحة الفلسطينية في الاتجاه الصحيح، وهو تطوّر يكون علينا أن نستفيد منه في إرساء وحدة وطنية على أسس صحيحة. حاولت إذن وضع برنامج جديد للنضال، لكن كلاً من الجبهة الديموقراطية والحزب الشيوعي كانا قد أعطيا الأولوية لعلاقاتهما بفتح على حساب علاقاتهما مع الجبهة الشعبية، وذلك عبر عدّة لقاءات جرت بينهما وبين فتح في موسكو وبراغ.

وكان قياديو فتح الوطنيون يعلمون عدم إمكانية إبعاد الجبهة الشعبية عن تلك التطورات. فقد كانت لقاءات موسكو وبراغ غير كافية، بنظري، لإقامة وحدة وطنية كاملة. وكنت أعتقد أن من الممكن تحقيق تلك الوحدة على قاعدة أفضل. لذا بادرت إلى الاتصال بالمرحوم أبو جهاد واقترحت أن نلتقي في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦ في براغ للردّ على ما يجري، وهو الأمر الذي وافقني عليه دون تردد.

في براغ، أخبرت أبو جهاد بأنني لن أتمكن من المشاركة في اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني المقررة، إذا لم يتم إلغاء اتفاق عمّان بشكل علني في دورة المجلس المذكور. وقد أكّد لي أبو جهاد أن قيادة فتح ستأخذ في الاعتبار أهمية حضور الجبهة الشعبية، وضرورة إلغاء اتفاق عمّان. وعلى هذا الأساس عُقد اجتماع تحضيري للمجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، مثّلنا فيه الرفيق أبو علي مصطفى، للتحقق من كون ذلك الاتفاق سيلغى بالفعل، وقد طمأنني بعد عودته من الجزائر عندما أخبرني بأن اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية كانت موافقة على ما تم التوصل إليه في لقائي مع أبو جهاد.

وللأسف، لم تنته بذلك المعركة. فقد فعل أبو عمّار كل ما بوسعه، خلال اللقاءات التي تلت، من أجل عدم إلغاء اتفاق عمّان بشكل علني. كان يكتفي بالقول، في تصريحاته، بأن ذلك الاتفاق غير مطروح على جدول الأعمال، ولا مجال إذن للإدلاء بتصريح حوله، وأن الإجماع الفلسطيني حول هذه المسألة يعني، في النهاية، إلغاء اتفاق عمّان. لكنني كنت أعرف الطرق التي يستعملها وقدرته على التلاعب بالألفاظ.

لكنك كنت راضياً عن ذلك، في النهاية. أليس كذلك؟

كنت أعرف أن ذلك الإجماع على إلغاء اتفاق عمّان، حتى ولو كان يشكّل انتصاراً للجبهة الشعبية وللقوى الوطنية العربية، بوجه عام، لم يكن كافياً لتعطيل التحركات الأميركية في الشرق الأوسط. كان ذلك الإلغاء يفتح معركة علاقات منظمة التحرير الفلسطينية مع القاهرة، إضافة إلى التحدي داخل منظمة التحرير التي كان عرفات يواصل قيادتها وفق مشيئته. فالواقع أن عرفات قد عمد، مباشرة بعد اجتماع الجزائر التحضيري، إلى تجديد علاقاته بالنظام المصري. وقد نشبت معركة حامية في الكواليس بيننا وبين فتح بسبب زيارة عرفات إلى القاهرة. والحقيقة أننا استفدنا في ذلك، إلى حد كبير، من مساعدة الرئيس الجزائري، الشاذلي بن جديد، ومن الأخ محمد مساعدية رحمه اللّه، وهو وزير جزائري

سابق، وشخصية مرموقة تتمتّع باحترام الجميع كنت قد شرحت له مخاطر العلاقة بين عرفات والقاهرة، وهي العلاقة التي كانت أهمّ بكثير في نظر عرفات من العلاقات التي كان قد نسجها مع الأردنّ. ولا بدّ لي أيضاً من توجيه التحية إلى ليبيا واليمن لما قدّماه من دعم لجهودنا في تلك المرحلة. أما بالنسبة إلى التحدي داخل منظمة التحرير الفلسطينية، فقد كان وجود أبو علي مصطفى في اللجنة التنفيذية للمنظمة يسمح لنا بممارسة نفوذ أكبر فيها.

بعد حالة الانقسام التي عاشتها المنظمات الفلسطينية في عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦، عادت والتقت في نيسان/ أبريل عام ١٩٨٧، في دورة للمجلس الوطني الفلسطيني عُقدت في الجزائر. ماذا حدث في ذاك اللقاء؟

عندما وجد أبو عمّار أنه لن يحصل على ما يريده من خلال الأردن، قرر العودة إلى الصف الفلسطيني. وكان شرطنا هو الإلغاء الكامل والعلني لاتفاق عمّان. وهكذا تمّت إعادة اللحمة بيننا في دورة المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، عام ١٩٨٧. وقد شكّلت عودة أبو عمّار انتصاراً مزدوجاً بالنسبة إلينا، حيث أنها حالت دون التصدّع الداخلي، من جهة، وكرّست خطنا السياسي، من جهة أخرى. وبذلك، خرجت الجبهة الشعبية من تلك الفترة وقد عزّزت قوّتها، وحازت واقعيتها تأييداً واسعاً، إذ إن كثيرين قد عرفوا أننا كنا على الخط الصحيح في اجتماع الجزائر. ولكن الانتفاضة الأولى، بوجه خاص، هي التي أتاحت، بعد عدة أشهر، إعادة اللحمة إلى الصف الوطني الفلسطيني.

هل فوجئت عندما انطلقت «ثورة الحجارة» في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧، ضد المحتل الإسرائيلي، على يد الشبيبة الفلسطينية في الأراضي المحتلة؟

كانت الجبهة الشعبية معتادة على اعتبار شهر كانون الأول/ ديسمبر بمثابة فترة للنشاط المكثف ضد الاحتلال، وذلك بالارتباط مع إحياء ذكرى انطلاقة الجبهة

في مثل هذا الشهر من عام ١٩٦٧. لذا، اعتبرت أن الأحداث التي ترافقت في مطلع كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧، ومقتل أربعة من الشباب الفلسطينيين على أيدي الجنود الإسرائيليين، يمكنها أن تكون مؤشراً على اشتداد المواجهة مع العدو. لكنني، وبصراحة، لم أكن أظنّ أنها ستكون مؤشراً على انطلاق انتفاضة ستستمر طوال سبعة أعوام، وصولاً إلى اتفاقيات أوسلو. لقد فوجىء العالم كله بالانتفاضة الأولى، ويكذب كل أولئك الذين يزعمون عكس ذلك. كانت هنالك بالطبع ظروف ممهدة، لكن قوّة وزخم الانتفاضة فاجأ الجميع، وقد كانت تلقائية، جاءت من الداخل من معاناة الناس، ولم تحدث بأوامر من الخارج ولكنها حظيت بكل الدعم والمساندة من طرفنا.

وقد شكّلت تلك الانتفاضة فرصة لحركة حماس، التي لم تكن ذات تأثير كبير حتى تلك اللحظة، للظهور على المسرح الفلسطيني. وسرعان ما تحوّلت الانتفاضة إلى ثورة دائمة بفضل مشاركة جميع الفئات الاجتماعية المهنية الفلسطينية. ومنذ تلك اللحظة، اعتبرت حماس أنها هي التي أطلقت شرارة الانتفاضة. ولا أريد العودة هنا إلى ذلك السجال.

وقد امتدّت الانتفاضة إلى المدن والقرى ومخيّمات اللاجئين في الضفّة الغربية، ووصلت حتى إلى القدس. وبدأ شعار «الدولة إمكانية تاريخية» الذي سبق أن طرحته بالتبلور، لأن الدولة أصبحت، مع هذه الانتفاضة، «إمكانية واقعية جداً». عندها دعوت اللجنة المركزية للجبهة إلى اجتماع للنظر في هذه المرحلة الجديدة من مراحل نضالنا. وقد وافق جميع أعضاء اللجنة على التحليل الذي قدّمته.

لكن قيادة منظّمة التحرير الفلسطينية كانت تنظر إلى الوضع بصورة مختلفة. وفي نظرنا، كان من الممكن للانتفاضة أن تُفضي إلى إقامة دولتنا، لكن الطريق إلى ذلك سيكون طويلاً ويتطلب الكثير من التضحيات. لكنّ أبو عمّار كان يرى أن فكرة إقامة الدولة قد أصبحت في متناول اليد.

في ذلك الوقت، وبعد عدة أشهر على انطلاق الانتفاضة، تعرّفت إلى الرفيق

أحمد قطامش، مسؤول الجبهة في الأراضي المحتلة، وذلك من خلال الرسائل السرّية التي كان يبعثها إليّ مباشرة. وما زلت أحتفظ بتلك الرسائل التي كانت تحتوي على أفكار مهمة جداً من الناحيتين السياسية والتنظيمية. وبفضل تلك الرسائل، كوّنت تصوّراً حول الأحداث على الأرض، لأنها كانت تتضمّن تفصيلات مهمة حول الوضع في الأراضي المحتلة، ومجريات الانتفاضة، والتوقعات حول مستقبل الثورة الفلسطينية. وقد انزعجت كثيراً عندما انسحب الرفيق قطامش من الجبهة في اللحظة التي تخلّيت فيها أنا نفسي عن موقعي كأمين عام للجبهة.

ما هو الدور الذي كنت تقوم به خلال الانتفاضة الأولى؟

لقد كرّست جلّ وقتي وجهدي وبذلت كل ما بوسعي من أجل دعم الانتفاضة واستمرارها. وكان عملي متمثلاً بتنسيق الاتصالات مع رجالنا في داخل الأراضي المحتلة، وخصوصاً مع مسؤول الجبهة الشعبية الذي كان عضواً في القيادة السرية الموحدة للانتفاضة، والذي سُجن لمدة ستة عشر عاماً. كنت أتصل به كل يوم تقريباً بواسطة الهاتف أو الرسائل أو عبر الرسل. وكنت أبذل جهدي لتلبية جميع الطلبات الواردة من الداخل، وخصوصاً تلك المتعلقة بالمسائل المالية الضرورية لدعم أسر الشهداء وجرحى الانتفاضة.

كنا نعمل على قاعدة الإصرار على تعزيز الانتفاضة بكل الوسائل، لأن الوضع في الأراضي المحتلة من شأنه أن يساعد الجبهة على التحول إلى قوة أساسية، وبالتالي منع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من الاستجابة للمخططات الأميركية. لكن مشكلة مالية واجهتنا بسبب الأعباء الإنسانية التي نجمت عن الانتفاضة. لذا، سافرت إلى الكويت والإمارات العربية المتحدة في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٨٨، في ذكرى يوم الأرض[٢]، لطلب المساعدة من بلدان الخليج.

(٢) يوم الأرض: في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٧٦ قُتل ستة أشخاص من فلسطينيي العام ١٩٤٨، على يد =

وقد استجابت الكويت لطلبنا. كما كان اللقاء إيجابياً أيضاً مع الشيخ زايد الذي كان يومها رئيساً لدولة الإمارات، والذي طلب مني رقم الحساب الذي يمكنه أن يحوّل عليه أموالاً إلى الجبهة الشعبية. وقد سُررت جداً لهذا الوعد؛ إلا أننا لم نتلقّ، للأسف، أية أموال من جانبه.

ما الذي جعلك تعتقد يومها أن بإمكانك أخيراً تحقيق أهدافك؟

كانت الانتفاضة موضع اعتزاز للجبهة الشعبية؛ لأنها كانت، هذه المرّة، التجربة الوحيدة التي أخذت شكل تحرّك شعبي عفوي، لا شكل عملية عسكرية. وكونها حركة جماهيرية يتماشى مع رؤيتنا الإيديولوجية. فالواقع أننا كنا نردد، منذ البداية، أن العمل يجب أن ينطلق من الشعب، أي من القاعدة. وقد تمكّن أطفال فلسطين من جذب اهتمام العالم بأسره بحجارتهم البسيطة في مواجهة عدو مدجج بالأسلحة الفتاكة. وما زلنا حتى اليوم نقول بأن التحرك الشعبي يجب أن يشكل جزءاً من مجموع الأنشطة، وأن العمل العسكري هو نشاط من بين أنشطة أخرى.

وقد حملتني عوامل نوعية عديدة على الاعتقاد بأننا نستطيع بلوغ أهدافنا. أولها أن جميع التنظيمات الفلسطينية شاركت في هذه الانتفاضة الشعبية. والعامل الثاني هو تعزيز دور الداخل في النضال. ففي الأراضي المحتلة، كانت فتح والجبهة الشعبية والتنظيمات الأخرى تشكل القوة الأساسية التي وجّهت الانتفاضة من خلال الاجتماعات المكثفة والبيانات المشتركة التي كانت تحدد أدواراً يقوم بها الجميع. قبل ذلك كانت التوجيهات تأتي من خارج الضفّة الغربية وقطاع غزّة. أما القيادة الموحّدة فهي أمر لطالما تمنّينا وجوده على الدوام.

كانت القيادة الموحّدة للانتفاضة تصدر بياناً كل أسبوع تحدد فيه ما ينبغي

= قوات الاحتلال الإسرائيلي، في تظاهرات الاحتجاج على المصادرات الإسرائيلية للأراضي العربية. ومنذ ذلك الحين يحتفل الفلسطينيون بهذه المناسبة باسم «يوم الأرض» تعبيراً عن التمسك بأرضهم وهويتهم.

تنفيذه من مهمّات. وكانت الجبهة الشعبية، شأن التنظيمات الأخرى، تساهم في كتابة تلك البيانات. وكان نصّ البيان مكوّناً، في الغالب من فقرتين، تشتمل الأولى على تحليل للوضع السياسي، والثانية على المهمّات المطلوب تنفيذها. وكانت هذه البيانات توزع بشكل علني مرّة كل أسبوعين تقريباً. ولم نكن نحن في الخارج على علم بجميع التفاصيل، لكننا كنا نعلم أن بإمكاننا أن نعتمد على عناصرنا في الداخل لأنهم كانوا ثوريين حقيقيين. وثمة أمر آخر إيجابي تمثّل بتقلّص دور أبو عمّار وسلطته عمّا كانا عليه في السابق، لأن قيادة الانتفاضة في الداخل كانت تحت إشراف أبو جهاد. كان ذلك يشكّل ضمانة للجبهة الشعبية، لأن خطر الانحراف كان محدوداً في ظل أبو جهاد الذي طالما اهتم بإطلاق حوار ديموقراطي معنا. لكنّ الأمور تغيّرت للأسف بعد وفاته. وليس من قبيل الصدفة أن تكون إسرائيل قد حرصت على قتله. وقد عمل الصهاينة على شق الانتفاضة عبر خلق أوضاع تصعب السيطرة عليها. لقد شكّل رحيل أبو جهاد ضربة قاسية للانتفاضة الفلسطينية في الداخل.

لماذا؟

لقد استهدفه الإسرائيليون لأنهم كانوا يعلمون بأنه كان يسعى إلى تشكيل قيادة موحّدة لجميع فصائل المقاومة. كان أبو عمّار يخصّص بالتأكيد أموالاً لعوائل الشهداء، لكنّ التنسيق الفعلي كان كلّه بيد أبو جهاد، إضافة إلى القيادة العسكرية. وقد شكّل اغتيال هذا المناضل الكبير من قبل إسرائيل، في نيسان/ أبريل ١٩٨٨، ضربة موجعة جداً لقيادة الانتفاضة ولمجمل التحرك الفلسطيني داخل الأراضي المحتلّة وخارجها.

ولا أنسى استقبال الجماهير السورية والفلسطينية لجثمان أبو جهاد عند وصوله من تونس إلى مطار دمشق ثمّ تشييعه إلى مقبرة الشهداء في إحدى ضواحي العاصمة السورية. كان استقبالاً من النوع الذي لا يحظى به غير كبار الزعماء. وقد شاركت مع زوجتي، إلى جانب الرفاق في قيادة منظمة التحرير

الفلسطينية، في استقبال جثمان أبو جهاد. وما إن وصلت أم جهاد، زوجته، وأبناؤه حتى غصّ المكان بالحزن والمرارة. كان الصمت في تلك اللحظات أبلغ من الكلام. وفي اليوم التالي، تم تشييعه من قِبل حشد هائل من المودّعين. انطلقنا من مستشفى «المواساة»، بمشاركة أعضاء من القيادة السورية والقيادات الفلسطينية، وسرعان ما أحاطت الجموع الغفيرة بالجثمان، أثناء تقدّمنا البطيء نحو المقبرة، وسط هتافات «عاش أبو جهاد، عاشت الثورة الفلسطينية!».

لنعد إلى ياسر عرفات، ولنسأل عن الفرق بين رؤيته هو ورؤيتك أنت إلى الانتفاضة؟

كانت الجبهة تسعى إلى استمرار الانتفاضة، لكي يتمكن الفلسطينيون أخيراً من الانعتاق بتحرير أرضهم من الاحتلال. والحق أنني كنت مقتنعاً بأن إسرائيل لن ترضخ لشرط الانتفاضة بإقامة دولة مستقلة ذات سيادة. وكان من الضروري إذن أن تستمر الانتفاضة لعدة سنوات أخرى، لكي تقبل إسرائيل في النهاية بتحقيق مطلبنا. لكنّ أبو عمّار، كان يماطل تبعاً لعادته. كان يجد على الدوام وسيلة لدفع ما كان يتعرّض له من ضغوط.

كنتَ في دمشق في تلك الفترة، حيث كنتَ تستقبل شبّاناً قادمين من الضفّة الغربية لتلقّي التدريب. أليس كذلك؟

بالفعل كان يتم تدريب مقاتلين في معسكراتنا في سوريا. لكنّ هذه الانتفاضة الشعبية كانت قد غطّت، في نظري، على جميع أشكال النضال الأخرى وتجاوزتها. وذلك هو السبب في احتفاظ الانتفاضة الأولى بطعم خاص في ذاكرتي. لقد أوضحت للعالم كله جوهر المشكلة المتمثل باحتلال أرضنا من قِبل الصهاينة. كان ذلك مهماً أيضاً بقدر أي عمل عسكري. فقد نجحت الانتفاضة في تحطيم أسطورة إسرائيل التي لا تُقهر. إن رؤية الأطفال وهم يواجهون الدّبابات بأيديهم العزلاء وصدورهم العارية قد صدّعت الإسرائيليين. وما زلت

أتذكر ذلك الطفل الذي كان بعمر أربع سنوات، والذي أثار حفيظة الجنود الإسرائيليين وهو يرسم بإصبعيه إشارة النصر، ما دفعهم إلى اقتحام منزل ذويه حيث غمسوا يده الصغيرة في الزيت المغلي، أثناء قيام والدته بتحضير الطعام.

لقد مثلت المواجهة بين الأطفال الفلسطينيين والجنود الإسرائيليين ظاهرة تميّزت بها الانتفاضة الأولى. وبلغت الفظاعات التي ارتكبها الصهاينة حدوداً لا توصف، إذ كان الجنود الإسرائيليون يفتحون النار، على مرأى ومسمع الأسرة الدولية، على أطفال لا يحملون سلاحاً غير الحجارة. لقد استطاع هؤلاء الأطفال أن يهزّوا صورة إسرائيل أمام العالم بحجارتهم الصغيرة.

وفي العام ١٩٨٩، دعوت اللجنة المركزية للجبهة إلى اجتماع قلت فيه للرفاق إنّه، بفضل الانتفاضة، أصبحت إقامة دولة فلسطينية إمكانية واقعية.

ألم تُليّن الانتفاضة من مواقفكم المعارضة لإقامة دولة فلسطينية؟

لا أبداً. كانت الانتفاضة مرحلة أولى من شأنها أن تسمح لنا برؤية ولادة الدولة الفلسطينية. لكنّ الطريق نحو استرجاع كامل فلسطين كانت تبدو لنا طويلة جداً. وما زال هذا الهدف يحتاج إلى المزيد من النضال السياسي والعسكري.

هؤلاء الأطفال الفلسطينيون الذين تمكنوا من إثارة مشاعر الرأي العام العالمي، ، بفضل الحجارة التي كانوا يرمونها، ألم يطعنوا بذلك في صلاحية عملكم العسكري؟

لا. ليس هنالك من تناقض بين نضالهم ونضالنا. فالانتفاضة جاءت بالأحرى لتكمل عملنا النضالي. ففي البداية، كانت عملياتنا في خطف الطائرات مثلاً تهدف إلى طرح القضية الفلسطينية والمقاومة على خارطة العالم، وبعد ذلك توقفنا، في العام ١٩٧٢، عن تنفيذ تلك العمليات. ثم لم يحدث لنا مطلقاً بعد ذلك أن تخلّينا عن النضال على المستوى الشعبي والسياسي والعسكري.

قبل مرور عام كامل على انطلاق الانتفاضة، عمد ياسر عرفات أخيراً إلى دعوة المجلس الوطني الفلسطيني للانعقاد، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٨، لإعلان إقامة دولة فلسطينية مستقلة. لماذا كنتم تعارضون ذلك؟

بحسب الوقائع، لم يكن بإمكاننا أن نعارض ذلك. كان هدف أبو عمّار هو إعلان دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس، رغم عدم توافر الظروف الموضوعية لتحقيق ذلك. كنا موافقين تماماً على مبدأ إقامة تلك الدولة. لكننا كنا على خلاف حول الشكل الذي ستأخذه تلك الدولة. لم نكن نريد أن نسارع إلى القبول بدولة منزوعة السيادة. كنا ندعو إلى إقامة دولة حقيقية. وهذا يتطلب اعتماد استراتيجية على المدى الطويل في مواجهة إسرائيل، في حين أن أبو عمّار لم يكن يفكّر إلا تكتيكياً.

بالنسبة إلى فتح وعرفات وقادة فلسطينيين آخرين، كان المطلوب هو إقامة دولة إلى جانب إسرائيل، ما يعني قيام دولتين منفصلتين على أرض واحدة، في حين أن الجبهة الشعبية وقوى أخرى كانت تناضل من أجل إقامة دولة والاستمرار، بعد ذلك، في النضال ضد العدو الصهيوني. وانطلاقاً من هذا الخلاف، كانت النقاشات حادّة جداً خلال اجتماعات طويلة كنا نعقدها من أجل التوصل إلى نصّ يؤكد على ضرورة مواصلة النضال من أجل التحرير الكامل للأرض الفلسطينية، أي طبقاً لميثاق منظمة التحرير الفلسطينية. لكن القرارين ٢٤٢[٣] و٣٣٨[٤] الصادرين عن مجلس الأمن لا يتحدثان إلا عن انسحاب

---

(٣) صدر القرار رقم ٢٤٢ عن مجلس الأمن الدولي في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧ في أعقاب حرب الخامس من حزيران/ يونيو، وتضمن بنوداً منها احترام سيادة الدول على أراضيها وحرية الملاحة في الممرات الدولية وحل مشكلة اللاجئين. ولكن البند المتعلق بانسحاب الإسرائيليين من الأراضي المحتلة جاء ملتبساً في نصه الانكليزي حيث يستحيل التمييز بين كون الانسحاب من «أراض عربية»، على ما يريده الإسرائيليون، أو من «الأراضي العربية»، على ما يريده العرب.

(٤) صدر القرار ٣٣٨ عن مجلس الأمن الدولي في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ خلال حرب تشرين/ أكتوبر بين كل من سوريا ومصر من جهة، وإسرائيل من جهة. نص القرار على وقف إطلاق النار والتطبيق الكامل والفوري للقرار ٢٤٢ بكل بنوده. ودعا إلى «مفاوضات بين الأطراف =

إسرائيل من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. والأرجح أن فتح اعتبرت هذين القرارين مرحلة أولى تسمح بالتوصل إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة. لكننا تقدمنا من جهتنا بتحفظات على القرارين، على أساس أن هدفنا الاستراتيجي هو التحرير الكامل لجميع الأراضي الفلسطينية.

لقد سمح إعلان الجزائر لكل فصيل فلسطيني بقراءة الوثيقة بالشكل الذي يناسبه. وقد حظي هذا الإعلان بالتأييد في العديد من المهرجانات، ووقف المجتمعون في المجلس الوطني الفلسطيني جميعاً وتبادلوا التهاني وسط جوّ مفعم بالفرح. وقد امتد الفرح إلى الأراضي المحتلة والشتات، وبدا كما لو أن الدولة قد دخلت حيّز الواقع.

وبعد الجزائر، توجّه أبو عمّار إلى سويسرا حيث التقى البورجوازية الفلسطينية المستعدة للعب دور الوسيط مع الولايات المتحدة استناداً إلى قرار مؤتمر الجزائر حول الدولتين. وكانت تلك المرة الأولى التي ينتزع فيها عرفات مثل هذا القرار من المجلس الوطني الفلسطيني. كما أن الاعتراف الضمني بإسرائيل، كما فهمه عرفات، كان يمنحه شرعية الحركة. إن الإعلان عن فلسطين مستقلة إلى جانب إسرائيل بيَّن بوضوح ماهيّة الخط الذي سيعتمده عرفات منذ تلك اللحظة فصاعداً: إقامة دولة فلسطينية من دون تحديد ظروف إقامتها. فما كان يريده أبو عمّار هو البدء بقطف ثمار الانتفاضة. كان يأمل أن تحظى هذه الخطوة برضى الولايات المتحدة، لكنّ هذا التنازل لم يكن كافياً في نظر الأميركيين، الذين طلبوا إلينا صوغ بعض المبادىء الواضحة حول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وإدانة نشاط الفدائيين باعتباره نشاطاً إرهابياً.

أما الجبهة الشعبية فقد نظرت إلى إعلان الاستقلال هذا بوصفه نتيجة لتصاعد

= المعنية» بهدف إقامة «سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط». وضع هذا القرار، الذي قبلته كل الأطراف، حداً للقتال في الجولان وسيناء، وتم تنفيذ وقف إطلاق النار في ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر. إلا أن إسرائيل، ما زالت حتى اليوم ترفض الانسحاب الكامل من الأراضي العربية المحتلة.

الانتفاضة، وأعلنت تمسّكها بقناعاتها القائلة بأن الدولة الفلسطينية لا يمكنها أن تقوم على أساس تقديم تنازلات مجّاناً، بل تكون ثمرة لاستمرار النضال ضد الكيان الصهيوني، عبر تكبيده أقصى ما يمكن من الخسائر البشرية والمعنوية والاقتصادية.

وقد استشعرنا، من خلال سلوك المجموعة التي كانت تسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية، طبيعة الأخطار التي بدأت تُحدق بالانتفاضة. وبالفعل، لم يمض وقت طويل على إعلان الجزائر حتى بدأت الاجتماعات السرّية تُعقد بين قادة فلسطينيين من الداخل والخارج ومسؤولين أمريكيين وإسرائيليين. وقد اعتبرنا، من جهتنا، أن هذه اللقاءات إنما تتم خارج إطار قرارات المجلس الوطني الفلسطيني، وأن سلوك اليمين يلحق الضرر بالانتفاضة وبمكتسباتها الوطنية. وقد دعونا، خلال اجتماع للجنة المركزية للجبهة عُقد في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٩، إلى إطلاق حوار جماعي بهدف تعزيز الانتفاضة ووضع حدّ للتراجعات. كنت أكرر القول يومها بأن إقامة الدولة الفلسطينية لا يمكن أن يتم إلا من خلال النضال، وليس عبر التنازلات المجانية، وأن «ثورة الحجارة» هي بالضبط ما سمح لتلك الدولة بأن تصبح أمراً ممكناً وواقعياً تماماً، الأمر الذي يستلزم استمرارنا في هذا النهج.

قبل ذلك وفي نيسان/ أبريل ١٩٨٩ انعقد المجلس المركزي الفلسطيني في تونس، وخرج بنتائج إيجابية. لكن الوحدة لا تعني نهاية الخلافات فيما بيننا. وعلى الرغم من محاولات الكيان الصهيوني لتشديد الحصار على المدن الفلسطينية، وتكثيف عمليات الاعتقال والإبعاد بحق المناضلين، فإن الانتفاضة كانت ما تزال في ذروة حيويتها. وبالمقابل، كانت القيادة الرسمية لمنظمة التحريرتواصل تقديم التنازلات غير المفيدة. وعندما قام عرفات بزيارة لفرنسا في ٢ أيار/ مايو ١٩٨٩، أدلى، بعد لقائه الرئيس فرنسوا ميتران، بتصريح قال فيه بأن الميثاق الوطني الفلسطيني قد عفّى عليه الزمن.

وفي ذلك الوقت بالذات، طرح رئيس الوزراء الإسرائيلي مبادرة بهدف

الالتفاف على الانتفاضة وإضعافها. كما اقترح وزير الدفاع الإسرائيلي، إسحق رابين، أن يصار إلى انتخاب ممثلين عن الضفة الغربية وغزّة للدخول في مفاوضات مع إسرائيل، من أجل التوصل إلى حل موقّت للصراع. ولم يكن هذا الحل في الواقع غير حُكم ذاتي محلّي. وخلال الزيارة التي قام بها إلى الولايات المتحدة في نيسان/أبريل ١٩٨٩، تبنّى إسحق شامير مبادرة رابين التي تم تمريرها في الكنيست بعد شهر على ذلك. وقد عُرفت تلك المبادرة باسم «خطة شامير». واعتُبرت هذه المناورة بمثابة «رشوة» سياسية لا يمكن لشعبنا أن يقبلها.

أما على الصعيد العربي، فكانت الأمور، ويا للأسف، تسير في الاتجاه الذي تتمنّاه الولايات المتحدة: فقد عادت مصر إلى حظيرة الجامعة العربية خلال القمة التي انعقدت في الدار البيضاء في شهر أيار/مايو عام ١٩٨٩. ثم بدأ الرئيس المصري، حسني مبارك، بدفع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية نحو المستنقع الأميركي، فقدّم مبادرة تهدف إلى التخلص من الانتفاضة، ولكنها رُفِضت من قِبل شخصيات فلسطينية في الداخل كما في الخارج. وكانت خطة مبارك، في نظر الجبهة الشعبية، ترجمة لخطة شامير حول الحكم الذاتي في الأراضي الفلسطينية. وكان الأميركيون يسعون، من خلال هذه المناورات، إلى إنقاذ الخطة الإسرائيلية بُغية وقف الانتفاضة ضد الاحتلال. وفي تلك المرحلة أيضاً، دخلت الولايات المتحدة الأميركية، بفعل ضغط الانتفاضة، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨، في حوار رسمي مع منظمة التحرير عبر سفيرها في تونس(٥). وقد شكّلت هذه الخطوة نصراً للانتفاضة، لكننا كنا نعلم أن هدف الأميركيين من هذه المباحثات هو دفع منظمة التحرير الفلسطينية إلى قبول أفكارهم حول تسوية القضية الفلسطينية.

وقد تواصلت المساعي الأميركية، بعد ذلك، من خلال الزيارات التي قام بها إلى المنطقة وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر. لكنّ الجبهة الشعبية اعتبرت

---

(٥) الحوار بين مسؤولين أميركيين وسفير منظمة التحرير في تونس.

مشروع بيكر مشابهاً تماماً لخطة شامير. وبناء على ذلك، نادينا بتعزيز الانتفاضة، ودعونا جميع الفصائل الفلسطينية إلى عقد اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني، مطلع العام ١٩٩٠، للنظر في تطورات الوضع. وكان الخيار الوحيد الذي يطرح نفسه بالنسبة إلينا هو تكثيف المواجهة من خلال الانتفاضة بُغية إقامة توازن في القوى. وفي بداية العام ١٩٩٠، كانت الانتفاضة ما تزال قائمة.

الفصل الثالث عشر

العلاقات مع العراق وإيران وحزب الله

شكّل العراق لفترة طويلة بلداً تطمح إليه الأبصار في العالم العربي. ما الذي مثّله العراق بالنسبة إليك وإلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

كانت للعراق ذلك البلد العزيز مكانة خاصة في قلبي منذ تأسيس حركة القوميين العرب في الخمسينيّات. وكان العراق واحداً من حلفائنا الرئيسيين حتى العام ١٩٧٧. وقد ابتعدنا بعض الشيء عن العراق لأنه لم ينضمّ إلى جبهة الرفض، بعد اتفاقيات كامب دايفيد. ولكن التقارب عاد مجدداً مع الحرب الأولى التي أعلنت على العراق في العام ١٩٩١. وبخلاف فتح التي كانت تراهن على الحكومات، سعينا في الجبهة الشعبية إلى تعبئة الشعوب ضد تلك الحرب الأميركية.

لقد شكّل اجتياح العراق للكويت، في ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠، مفاجأة بالنسبة إليّ، إذ لم أكن أتصوّر أن بإمكان صدّام حسين أن يُقدم على مثل تلك الخطوة. لم أصدّق أذني: قيام بلد عربي باجتياح بلد عربي آخر شكّل صدمة بالنسبة إلينا. كنت قد تابعت بانتباه الأزمة التي نشبت خلال الأشهر السابقة بين العراق والكويت. كانت بغداد تطالب ببعض حقول النفط الواقعة على الحدود، وتتهم الكويت بإغراق سوق النفط لخفض الأسعار، في حين كان العراق بحاجة ماسّة إلى المال لتغطية إعادة الإعمار بعد ثماني سنوات من الحرب ضد إيران.

وعلى الرغم من التوتّر الذي كان واضحاً بالنسبة إلى الجميع، فإنني لم أكن أتصوّر أن الجيش العراقي سيقوم باجتياح الكويت.

وبعد ثلاثة أيام من بدء الاجتياح، دعوت إلى اجتماع استثنائي للمكتب السياسي للجبهة الشعبية للبحث في الموقف الذي ينبغي لنا اتخاذه. وقد طُرحت آراء مختلفة، وشعرت للمرة الأولى أن المكتب السياسي لا يأخذ الرأي الذي اقترحته عليه في الاعتبار. فبعض الأعضاء كانوا متحمسين للعملية العراقية؛ أما أنا فقد كنت مقتنعاً بأن الأسرة الدولية لن تسمح بأن يبقى هذا الغزو بلا ردّ.

وأخيراً، جاء الرد الأميركي على طلب المساعدة الذي تقدّمت به الكويت ليحسم معظم خلافاتنا الأولية حول هذا الموضوع. وبالفعل، سرعان ما جاءت التهديدات الأميركية بالتدخل. وقد شعرت في تلك اللحظة بأن من واجبي أن أذهب إلى العراق، ولا سيّما أن بعض الأنظمة العربية، كمصر وسوريا بوجه خاص، كانت قد اتخذت مواقف مؤيّدة للكويت ولعدوان أميركي كان قد بدأ يلوح في الأفق. لكنّ ما كنت أفكر فيه كان حرجاً جداً. فذهابي إلى العراق، العدو اللدود لسوريا التي كانت تستضيفنا، يمكنه أن يؤثر في علاقاتنا مع دمشق، لا بل يهدد وجودنا في سوريا. وعلى الرغم من هذه المخاطر، قررت الذهاب لمساندة العراق الذي كان يواجه التهديدات الإمبريالية والأميركية. والرحلة نفسها كانت أمراً في غاية الصعوبة. فسوريا والعراق كانا قد قطعا العلاقات الديبلوماسية بينهما قبل سنوات، وطريق دمشق-بغداد لم تكن مفتوحة أمام المرور. كا أننا لم نكن قد أعدنا العلاقات بيننا وبين الأردن بعد، ما جعل سفري عن طريق عمّان أمراً بالغ الصعوبة. ولحسن الحظ، قام السفير العراقي في عمّان بالاتصالات اللازمة من أجل الحصول على موافقة الحكومة الأردنية على دخولي الأردن، وتمكنت من السفر إلى بغداد عن طريق مطار عمّان.

كيف كان لقاؤك وصدّام حسين؟

ما إن وصلت إلى بغداد حتى أخبرني مسؤولون عراقيون بأن موعداً قد حُدّد

لي مع الرئيس صدّام حسين في اليوم التالي لوصولي. وقد استقبلني الرئيس العراقي بحرارة وتقدير وأعرب عن تقديره لزيارتي. ودار النقاش بيننا، طوال ساعة ونصف الساعة، حول المسألة التالية: كيف يمكن مواجهة الصلف الأميركي الوحشي والعنيف؟ استعرضنا الخطوات التي كان يمكن اتخاذها من قِبل العراق أو من قِبل البلدان العربية، وتساءلنا عن الدور الذي ينبغي لنا أن نضطلع به لمساندة هذا البلد الشقيق والمحافظة على سيادته. وفي الوقت نفسه، أعلمت صدّام حسين بأن غزو الكويت لم يكن ينبغي له أن يكون. قلت له إن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تسكت على تحدّ يطلقه العراق بوجه الأسرة الدولية.

كنت معارضاً للغزو العراقي للكويت. ولكن منذ اللحظة التي استعانت الكويت فيها بتحالف أجنبي ليحررها، أصبحت معادياً لهذا التحالف، وبالتالي مناصراً للعراق، في وجه التدخل والهيمنة الأميركية على المنطقة. وقد أكدت لصدام حسين أنني سأسانده بشكل كامل في وجه التهديد الأجنبي. كما أبلغته بأنني دعوت المكتب السياسي للجبهة الشعبية منذ لحظة تفجّر الأزمة، وكان هدفنا الحوار معه لدفعه إلى التعقّل، عبر تعريفه بما ستؤدي إليه خطوته من نتائج على مستوى العالم العربي، لكن التعبئة الدولية جعلتني أنصرف عن هذا الهدف المتمثل بالتحذير لأتّخذ موقف الدعم الكامل للعراق في وجه التدخل العسكري الأجنبي.

بِمَ أجابك صدّام حسين؟

كان صدّام واثقاً تماماً أنه سيقاوم حتى النهاية، وأن خياره الوحيد لن يكون غير التسلح بالصمود، حتى ولو جاء التحالف الذي كان في طور التكوّن لضرب العراق. كان يريد أن يعرف ما إذا كان الدعم المقدّم من الجبهة الشعبية ومن الفلسطينيين ثابتاً وقابلاً للاستمرار. وكان حريصاً على الاستعداد لمقاومة قوات التحالف. لكنّ صدّام حسين كان رجلاً من النوع الذي يستحيل معرفة ما يفكّر به. تكلّمنا كثيراً بالتأكيد، لكنه كان يعرف جيداً كيف يخفي لعبته إلى حد أن ملاحظتي لما دار بيننا من حديث ظلّت متوقّفة عند نقطة البداية. وعلى ذلك،

خرجت من اللقاء معه بانطباع مفاده أن صدّام حسين لم يكن مستعداً للتراجع عن قراره، وأنه كان، على العكس من ذلك، مصمّماً على القتال حتى النهاية ضد القوى الأجنبية إذا ما تعرّض بلده للغزو.

وقبل أن أغادر العراق، قابلت سعدون حمّادي، رئيس البرلمان العراقي الذي باح لي بأن عودة الكويت إلى أحضان العراق من شأنها أن تسمح لبغداد بامتلاك ٢٠ في المئة من الاحتياطي النفطي العالمي، وأن ذلك سيجعل من العراق القوة الأولى في العالم العربي. ثم غادرت بغداد وقلبي يخفق بالحب والقلق تجاه هذا الشعب وهذا البلد العزيز.

ولكن كيف سيكون رد الفعل السوري على زيارتي للأشقّاء الألدّاء؟ بعض الرفاق من الجبهة كانوا يتوقعون عدم السماح لي بالعودة إلى سوريا بعد لقائي صدّام حسين. وقد فوجئت بالموقف السوري، حيث لم يتخذ أي إجراء سلبي بحق الجبهة ولا بحقي شخصياً.

وفي هذه الأثناء، تواصل الدعم الشعبي الفلسطيني والعربي للعراق. نزلت الجماهير العربية في المغرب واليمن والأردن ومعظم البلدان العربية إلى الشوارع للتعبير عن دعمها لبغداد. وكانت الجبهة الشعبية تشارك في ذلك بشكل فعّال. وفي عمّان، دعت القوى الوطنية إلى مؤتمر للتضامن مع العراق، في وقت كان يتصاعد فيه التهديد أكثر فأكثر من قِبل الأميركيين وحلفائهم. وكان من المهم جداً بالنسبة إليّ أن أشارك في ذلك المؤتمر. لكن مشكلة كبيرة كانت تطرح نفسها: كيف يمكنني أن أذهب إلى الأردن علماً بأن علاقاتنا معه مقطوعة منذ عشرين عاماً. وفي النهاية، تم التوصل إلى اتفاق ضمني بين القوى الوطنية والنظام الأردني الذي كان يساند العراق بفعل الضغط الشعبي، وبات بإمكاني أن أعود إلى الأردن، للمرة الأولى، بعد عشرين عاماً على أحداث أيلول الأسود. وقد رافقتني زوجتي في تلك الرحلة، وكانت طوال الوقت إلى جانبي. وشكلت تلك العودة بعد الغياب الطويل حدثاً كبيراً بالنسبة إلى أسرتي.

عند وصولي إلى العاصمة الأردنية، كان السؤال الذي يشغلني هو ردود فعل

الناس على هذه الزيارة وكيف سيكون استقبالهم لي. وجاءني الجواب منذ اليوم الأول من أيام المؤتمر حيث استقبلني حشد من الناس. كنت أتصوّر أنني سألقى دعماً من قبل الأشخاص الأكثر تقدّماً في السنّ ممّن كانوا قد عرفوني في فترة الخمسينيّات والستينيّات، لكنّ المفاجأة جاءت من طرف الأعداد الغفيرة من الشبان الذين كانوا يهتفون باسمي، دون أن تكون لهم معرفة سابقة بي. لقد كانت تلك الاستقبالات الحارة من قِبل أعداد كبيرة من الأشخاص الذين جاءوا وهتفوا باسمي دليلاً على دعمهم لمواقفي ولأفكاري، وهو الأمر الذي ظل محفوراً في ذاكرتي وفي قلبي. كان من الصعب علينا أن نشقّ طريقاً بين الجماهير التي احتشدت لاستقبالي. وعند خروجي من قاعة المؤتمر في يومه الأول كان من المستحيل على زوجتي التي كانت تقود السيارة أن تقلع بها وسط ذلك الازدحام الجماهيري الكثيف الذي جاء تعبيراً عفوياً عن سعادة هؤلاء لوجودي بينهم.

كذلك قامت نقابة المهنيين بتنظيم احتفال شعبي على شرفي، تحوّل إلى تظاهرة كبرى شارك فيها عدد كبير من الشخصيات الوطنية الأردنية والفلسطينية، وأتاح لي الفرصة للقاء أصدقاء قدامى لم أكن قد التقيتهم منذ سنوات طويلة. وقد ألقيت خطاباً هاماً في قصر الثقافة الملكي أخذ شكل تحليل دقيق للوضع على الساحة العراقية، وكذلك على الساحة العربية والدولية. وكانت فرحتي كبيرة عندما اجتمع شمل العائلة وزرت بيتنا في الأردن للمرّة الأولى حيث كانت ابنتاي ميساء ولمى تسكنان.

كنت أوزّع وقتي، خلال الأيام الأولى من كانون الثاني/يناير ١٩٩١، بين الاهتمام بالملف العراقي، والمساعدة الواجب تقديمها للانتفاضة في الأراضي المحتلة، واجتماعات القيادة الفلسطينية في تونس. صبيحة الخامس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٩١، كانت صعبة جداً بالنسبة إليّ، فقد بلغني فيها نبأ اغتيال أبو إياد وأبو الهول وأبو محمد[١]. لقد كان لمصرعهم أثر قاس جداً على

(١) أبو محمد العطية: مسؤول أمني فلسطيني جرى اغتياله في تونس مع أبو إياد وأبو الهول. انظر الهوامش السابقة.

القوى الفلسطينية التي كانت في تلك اللحظات بأمسّ الحاجة إلى هؤلاء الرفاق الذين كانوا أيضاً أصدقاء حميمين لي من الناحية الشخصية.

وفي اليوم التالي، بدأت القوات الأميركية وحلفاؤها بشنّ هجماتها الجوية الوحشية على العراق. وكانت الأخبار الأولى التي وصلتنا من الجبهة مثيرة للقلق، إن لجهة الأهداف التي تم تدميرها، أو لجهة غياب الرد العراقي. لكن الردود العراقية ما لبثت أن ظهرت في اليوم التالي، من خلال صواريخ سكود التي أطلقت على تل أبيب. كانت سعادتنا بذلك كبيرة جداً، وكنت أرى الفرح يغمر وجوه الناس من حولي.

وفي الأول من شباط/ فبراير ١٩٩١، شاركت في اجتماع لدعم العراق عُقد في العاصمة اليمنية صنعاء، بعد أن واجهت صعوبات عديدة قبل الوصول إليها، بسبب الحظر الجوي المفروض في ظروف عمليات القصف الأميركي على العراق. وبعدها ذهبت إلى الخرطوم حيث كان لقائي الأول مع الرئيس السوداني عمر البشير، قبل أن أنتقل إلى طرابلس في ليبيا. ومن هناك، كنت أنوي التوجه إلى بغداد لأعرب عن تضامني مع الشعب العراقي الجريح. وقد طلبت مساعدة السفيرين الأردني والإيراني لهذا الغرض، ولكن ذلك لم يكن ممكناً. كانت تلك الأيام التي كنت أتابع فيها الهجمات على العراق من بعيد مضنية جداً بالنسبة إليّ. كنت أتمنّى بشدة أن أكون إلى جانب العراقيين في مواجهة الغطرسة الأميركية. وقد طلبت إلى الأخ عبد السلام جلّود (وهو مسؤول ليبي كبير) أن يتدخل لتسهيل انتقالي إلى بغداد في محاولة لإقناع صدّام حسين بالخروج من الكويت. لكنّ سفري إلى العراق لم يكن ممكناً، وتألّمت كثيراً لذلك. وهكذا بقيت في تونس حتى نهاية الحرب.

وفي ٢١ نيسان/ أبريل، شاركت في اجتماع مهم لمنظمة التحرير الفلسطينية خُصص لتأثيرات الحرب على القضية الفلسطينية. وفي اليوم التالي، وصل الأخ طارق عزيز من العراق. وقد تألمت كثيراً لما رواه عن الدمار والشهداء المدنيين والعسكريين الذين سقطوا بفعل القصف الأميركي والخسائر الفادحة في صفوف

الجيش العراقي. وبعد أسابيع على ذلك، أي في العاشر من حزيران/ يونيو، وتحديداً بعد اجتماع للمكتب السياسي للجبهة، ذهبت إلى بغداد عن طريق البر من الأردن.

وهناك، التقيت صدام حسين بعد الحرب مباشرة. ما هو الانطباع الذي خرجت به عنه؟

كان لقاؤنا هذا هو الثاني خلال عام واحد. كنا، في الجبهة الشعبية قد اعتبرنا أن الحرب قد شكّلت ضربة قاسية لهيبة العراق. لكنّ صدّام حسين كان يرى في ذلك نصراً للعراق. فقد كان المعيار الوحيد بالنسبة إلى القيادة العراقية هو بقاء النظام الحاكم. وبالتالي، فإن حرب العام ١٩٩١ كانت بالنسبة إلى صدّام حسين، الذي احتفظ بموقعه القيادي الأول، بمثابة الانتصار. وكان يطلق على تلك الحرب اسم «أم المعارك».

بعد تلك الزيارة، عقدت الجبهة الشعبية اجتماعاً للجنتها المركزية. كان عدد من الرفاق مقتنعين بأن صدّام حسين قد تجاوز الحدود بغزوه للكويت. أما أنا فقد حافظت على قناعتي بأن الأميركيين قد ضربوا العراق ليواصلوا تأمين سيطرتهم على منابع النفط، مع اقتناعي أيضاً بأن غزو الكويت كان عملاً طائشاً. ولم ألتق صدّام حسين خلال سنوات الحصار التي أعقبت الحرب.

انطلاقاً من معرفتك الجيّدة بصدّام حسين، هل فوجئت برفضه الرضوخ للإملاءات الأميركية عام ٢٠٠٣؟ وما كان رد فعلك على التدخل الأميركي في تلك السنة؟

كنت أتوقّع نشوب تلك الحرب بنسبة ٨٠ في المئة، مع أننا كنا قد ضاعفنا من جهودنا السياسية وتحركاتنا الشعبية، وعززنا التعبئة تعبيراً عن رفضنا لذلك التدخل. معرفتي بصدّام حسين كانت تدفعني إلى الاعتقاد بأنه ليس من نوع الرجال الذين يستسلمون. كنت أعرف أنه سيتحدّى الأميركيين حتى النهاية. وفي الرسائل التي كان يبعثها إليّ وزير الخارجية السيد طارق عزيز قبل الحرب، كان

يشدد هو أيضاً على أن صدّام حسين سيظل صامداً، ويقول لي إن العراقيين سيقاومون. وعندما زارني طارق عزيز في دمشق، قبل خمسة عشر يوماً من بداية العمليات العسكرية عام ٢٠٠٣، عاد وأكّد لي مجدداً أن الأمور تسير على ما يُرام رغم صعوبة الوضع. كان يقوم يومها بجولة في المنطقة.

طارق عزيز هو صديق كنت أقيم معه علاقات جيدة، ومن خلاله حافظت على صلتي بصدّام حسين، وقد حرص على المجيء لرؤيتي في منزلي، لا في مكتب الجبهة. كانت معنوياته مرتفعة، وقال إن العراق سيمضي حتى النهاية ولن يتراجع أمام الضغوط الأميركية، استناداً إلى خطة دفاعية وضعتها القيادة العراقية، على مثال الحرب الفييتنامية. وكانت تلك الخطة تتضمن معارك شوارع وكمائن للمقاومة الشعبية بحيث يمكن توريط الجنود الأميركيين فيها. كان طارق عزيز يبدو واثقاً، ولم يحدث له مرّة واحدة أن انتقد بحضوري استراتيجية صدّام حسين. وأعتقد أنه لم يكن هو نفسه يتوقع حرباً بكل هذه الضخامة. وكنت أقول في نفسي إن طارق عزيز لم تكن لديه فكرة عما سيحدث. كان يعتقد بأن العراقيين مستعدون بشكل جيد وسيقاتلون حتى النفس الأخير. وكانت الصدمة الكبرى بالنسبة إليه، كما بالنسبة إليّ، أن كل شيء قد انتهى خلال أسابيع قليلة رغم كل الاستعدادات التي اتخذها النظام لمواجهة الحرب.

كيف تفسّر تلك الهزيمة السريعة التي مُني بها العراقيون في بغداد؟

عوامل عديدة أسهمت في التسبب بهزيمة صدّام حسين السريعة في بغداد بوجه خاص. هنالك أولاً قوة الأسلحة الأميركية المتطورة جداً والممنوعة دولياً لفظاعتها والتي استخدمت ضد الشعب العراقي، وكان كل شيء معدّاً لضرب الجيش والمقاومة العراقية بأقصى سرعة ممكنة. ثانياً، وخلافاً لما كانت تزعمه القيادة العراقية، لم تكن هنالك خطة حقيقية وضعها صدّام حسين وقيادته للقتال الناجع والطويل الأمد ضد الجيوش الأجنبية التي اجتاحت العراق. أخيراً، وهذا أمر نعلمه اليوم، وقعت خيانة داخل قيادة الجيش العراقي. وقد كان من الممكن

لولا تلك الخيانة أن يكون الوضع مختلفاً جداً، لأن العراقيين كانوا مهيّئين، رغم كل شيء، لخوض الحرب لستة أشهر. وكانوا قد وزّعوا السلاح والتموين على الفئات الشعبية، إضافة إلى أسلحة أخرى تم توزيعها داخل الجيش. لذا كنت أتصور أن معركة شرسة ستنشب في بغداد لا أن تسقط العاصمة سقوطاً شبيهاً بانهيار قصر من الورق المقوّى.

هل كنت تتصوّر في تلك الفترة أن قسماً من العراقيين سيستمر في القتال ضد الاحتلال الأميركي بعد أربع سنوات على بداية الحرب؟

لم أكن أتوقّع حدوث هذه الفوضى، لكنني كنت أعلم أن العراقيين لن يلقوا السلاح. كنت مقتنعاً على الدوام بأن الأميركيين سيدفعون غالياً ثمن القرارالذي اتخذوه بغزو العراق، على ما اقترفوه من الفظائع فترة الحرب وما بعدها. وقد كان صدّام يمتلك ما يكفي من الوقت من أجل الاستعداد لمواجهة التدخل الأميركي. كان قد وزّع المال والسلاح على كل من كان يظنّ أنهم سيقاتلون الجيش الأميركي. وكان الشعب يمتلك من المؤن ما يكفيه لمدة ستة أشهر. ولم يكن هنالك نقص في مستودعات الأسلحة. أما اليوم، فإن الأميركيين يتخبّطون في المستنقع العراقي. إنهم ضائعون. وقد خسروا الكثير من قوتهم على الصعيدين الاقتصادي والبشري، واعترف بوش نفسه بأن إدارته لم تُحسن حساب هذه العملية. ومع ذلك، كان الرئيس الأميركي قد صرّح بعد أيام من بدء الحرب بأنه قد أنجز مهمته بنجاح كامل. وهذا يشكّل في نظري رؤية محدودة جداً للوضع من قبل رئيس الولايات المتحدة الأميركية.

أخذاً للتنوّع الطائفي في العراق بعين الاعتبار، هل يمكن لهذا البلد أن يُحكم إلا من قِبل نظام قوي؟

ينبغي للعراق أن يُحكم من قِبل حكومة ديموقراطية يمكنها أن تضع حداً لصراعات الجماعات التي تمزّق اليوم هذا البلد. لو كانت هنالك حكومة

ديموقراطية فعلاً في العراق لرأيتم أن التعصب والامتيازات الممنوحة لهذه الطائفة بدلاً من تلك ستتلاشى. فهذه الظواهر الجديدة على العراق يغذّيها الأميركيون إلى هذا الحد أو ذاك. قبل الحرب، كان العراقيون يتعايشون بلا مشاكل تزيد عن الحد. كان الجيش بغالبيته مكوّناً من الشيعة، والشعب العراقي لم يكن من الناحية التاريخية شديد الارتباط بطائفية السلطة. لا أرى للعراق شيئاً آخر غير الديموقراطية. لكنها ليست الديموقراطية التي ينادي بها الأميركيون.

أما بخصوص الأكراد، فأنا مع منحهم نوعاً من الحكم الذاتي. وبالمقابل، فإن أي شيعي عراقي لن يقول لك مطلقاً بأنه يريد استقلال المناطق الشيعية. فالشيعة يشعرون جميعاً بأنهم عراقيون. باستثناء قادتهم الحاليين الذين يرغبون في إقامة دولة شيعية؟ ربما يكون هؤلاء القادة متمسّكين بفكرة الحكم الذاتي لمناطقهم، لكن عموم الشيعة لا يرغبون مطلقاً في الانفصال عن الحكومة المركزية في بغداد. ينبغي للعراق أن يبقى موحّداً؛ أن يبقى بلداً واحداً لجميع طوائفه. لا تعيروا انتباهاً مفرطاً لما يقوله القادة الحاليون في العراق. فبعضهم بلا شرعية، وأكثرهم وصل إلى بغداد فوق الدبابات الأميركية. لقد عاشوا طويلاً خارج العراق وتركوا البلد لمشاكله. إنهم لا يمتلكون قاعدة شعبية في بلدهم.

وقد انتقدت أخيراً أحد أصدقائي القدامى، وهو جلال الطالباني، رئيس الجمهورية، بسبب علاقاته الوثيقة بالأميركيين. فهو كلّما ذكر المشكلة الكردية تحدّث ضمناً عن الدولة الكردية بدلاً من أن يتحدث عن الحكم الذاتي، الأمر الذي يستتبع تقسيم العراق. كان جلال الطالباني واحداً من أصدقائي في فترة الستينيّات، عندما كان يناضل جنباً إلى جنب مع القوميين العرب. وفي العام ١٩٦٨، بعث برسالة تشجيع إلى زوجتي يوم كنت سجيناً في سوريا. وكان الطالباني وزوجته غالباً ما يزوران ليبيا في ذكرى عيدها الوطني وكنا نلتقي كثيراً، وكانت تربطه علاقة جيدة في تلك الفترة بالليبيين. أما اليوم، فإنه لم يعد صديقي. لقد أصبح صديق الأميركيين.

هل تعتقد بأن النفوذ المتزايد لكل من إيران والقاعدة هو مصدر قلق للعراق. هل يمكن القول بأن الدولة العراقية ما زالت موجودة في وقت تودي أعمال العنف بحياة العشرات يومياً، إضافة إلى أن الحرب الأهلية قد بدأت فعلاً؟

قبل الحديث عن تفكّك ممكن للعراق تحت تأثير العاملين المذكورين، ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار قوة ثالثة هي أهم منهما بكثير. إنها القوة التي تجمع الشعب العراقي، وتلك القوة هي المقاومة الوطنية العراقية، التي تناضل يومياً ضد المحتل الأميركي. إنني مستاء جداً من وسائل الإعلام الغربية لأنها تقدم تلك المقاومة على أنها مجموعات صغيرة من الإرهابيين. ذلك الطريق الثالث موجود حقاً وصدقاً، وهو يجمع في صفوفه سنّة وشيعة. والعراقيون بأجمعهم يدركون الأخطار التي تنجم عن انقسام المقاومة. إنني أعيد وأكرر أن ما حصل في العراق يحزّ كثيراً في نفسي، وأنا سأكون حزيناً جداً إذا ما استمر في تقدّمه نحو المزيد من التخبّط. إن وجود هذه المقاومة الوطنية القوية في قلب هذا المشهد القاتم يضفي كثيراً من الوضوح على صورة الوضع القائم، وذلك بمقدار ما يمكنها أن تحول دون تفكّك العراق. وهذه المقاومة دفعت بالأميركيين إلى عمق الأزمة، وهذا أمر اعترف به جورج بوش حيث جنوده يتخبطون ولا همَّ لهم غير الخروج من المستنقع العراقي.

إن نفوذ القاعدة ينبغي أن يوضع بالتأكيد بين المظاهر السلبية لهذا المشهد. كما أن المطالب الكردية تطرح بدورها مشكلات كبرى. أعتقد بأنه لا ينبغي لهم أن يصلوا إلى حد المطالبة بالاستقلال، لأن تقسيم العراق سيكون أمراً سيئاً، بما في ذلك بالنسبة إليهم أيضاً.

لا يمكننا أن ننفي إمكانية تفكك العراق. إلا أنني أعتقد بأن أولئك الذين يمسكون بالسلطة الحقيقية هم عناصر المقاومة. لذا أودّ أن أوجه نداءً إلى الصحافة العربية والعالمية: خذوا في حسابكم عناصر هذه المقاومة، ولا تقدّموا

إلى العالم صورة واحدة عن الوضع. بالنسبة إليّ، المقاومة الحقيقية هي التي تستهدف المحتل، وليست الجماعات الإرهابية الظلامية التي تستهدف حياة المدنيين والأبرياء العراقيين.

أليس هنالك خطر ممكن، إذا ما تغلبت القاعدة على الحركات الجهادية السنّية الأخرى، في أن تستند المقاومة السنّية بالكامل إلى قوة القاعدة، وأن يصبح العراق السنّي إمارة للقاعدة؟

هذا الخطر قائم فعلاً؛ أنت محق في ذلك. لكنني لا أعتقد أن من الممكن للعراق أن يتحول إلى إمارة للقاعدة. إلا أن القاعدة ستحاول التغلغل في صفوف المقاومة، ولكن سيكون هنالك على الدوام خط أساسي داخل المقاومة العراقية، وهذا الخط سيرفض خط القاعدة. فالمقاومة تضم فصائل متعددة لكنها غير موحّدة للأسف. هنالك بعثيون قدامى مسلّحون بشكل جيد، وهم لن يأتمروا مطلقاً بأمر القاعدة. ومع هذا، فإن وسائل الإعلام تقدّم المقاومة دائماً على أنها إسلامية بالكامل، ولا تقدّم وصفاً دقيقاً لمكوّناتها.

هنالك الآن بعثيون قُدامى يتعاونون مع الإسلاميين. ما هو تفسيرك لذلك؟

ليس هنالك ما هو غريب في هذه الظاهرة. لا بل إن هذه الظاهرة قد أصبحت شائعة في عموم العالم العربي-الإسلامي. ذلك لا يثير استغرابي، لأنه أيضاً نتيجة للحرب ومن باب توحيد القوى كافة وكل الجهود لمقاومة الاحتلال. أؤكد أننا لسنا ضدّ من يقتدي بالدين لكننا ضد التطرف الديني.

كان العراق من قبل بلداً علمانياً في ظل نظام قوي يلجم الشعور الديني. لكننا نشهد، منذ بداية الحرب، صحوة للنعرات الطائفية في العراق، عند الشيعة كما عند السنّة والطوائف الأخرى.

هل تعتقدون بأن تدخّلاً أميركياً في سوريا يمكنه أن يُحدث التاثيرات نفسها على السوريين؟

آمل ألا يتكرر هذا السيناريو في أي بلد عربي آخر. لكن ذلك محتمل جداً، لأن المحتل نفسه هو الذي يغذي التوجه الطائفي في الأساس. لي أصدقاء مسيحيون كثر في سوريا. وهم لم يتعرضوا مطلقاً للاضطهاد من قبل المسلمين. إنهم يتمتعون بحرية كبيرة في ممارسة شعائرهم، وهم في عداد المسيحيين الأوفر حظاً في العالم العربي. كما أن ظاهرة التعصب هذه لا وجود لها اليوم في سوريا.

إننا نلاحظ أيضاً وجود أعداد متزايدة من النساء المحجّبات في سوريا. كما نشهد عملية أسلمة متصاعدة تشجّعها السلطة. أليس كذلك؟

إن الدولة في سوريا علمانية ولا يمكن أن تشجّع التطرّف الديني كما أنها لا تمارس الهيمنة على معتقدات الناس الدينية. إجمالاً هذه الظاهرة باتت معمّمة في مجمل العالم العربي. إن ما نشهده من نهوض للإسلام يعود إلى فقدان معالم التوجّه، وخصوصاً فقدان حلم القومية العربية. لقد وجد البعض ملجأ في الحركات الإسلامية. وكان ذلك ردَّ فعلٍ طبيعياً على الهيمنة الأميركية في المنطقة. وقد أسهمت إدارة بوش تحديداً في تغذية النعرات الدينية.

هل تشعر بالقلق، ككثيرين في المنطقة، بسبب النفوذ الإيراني؟ فإيران تُدخل يدها فعلاً في كل مكان تقريباً، في لبنان والعراق... والملك الأردني تحدث عن «هلال شيعي»، ومبارك قال بوجوب الانتباه. ماذا تقول في ذلك؟

صحيح أن النفوذ الإيراني يتجه نحو التصاعد. لكن أعتقد بأن من الضروري أن تؤخذ كل حالة على حِدة. فأنا أؤيّد ما يقومون به في لبنان، إذ من الضروري جداً أن تتدخل جهة ما إلى جانب حزب الله لدعم خط المقاومة ضدّ إسرائيل. لكنني لا أستحسن ما يفعله الإيرانيون في العراق.. وعلى الرغم من بعض الاختلافات في وجهات النظر، فإن علاقتنا جيدة بالإيرانيين. فقد كانت السفارة الإيرانية في دمشق هي التي تدير شؤون علاقاتنا مع طهران. إن ما بيننا هو علاقة سياسية. وعندما كان وضعي الصحي يحول بيني وبين الذهاب إلى طهران، كنت

أبعث إليها برفاق من المكتب السياسي للجبهة ينوبون عني. وقد التقيت الرئيس خاتمي، وتذكّر أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قد قدّمت كثيراً من الدعم للثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. كما أنه دعاني حتى إلى الجلوس إلى جانبه خلال لقائنا. وفي كل مرة كانت تصل فيها شخصية إيرانية إلى دمشق كان الإيرانيون يدعونني للمشاركة في الاجتماعات. ولا ينبغي أن ننسى أن إيران هي اليوم واحدة من أهمّ القلاع في رفضها للمشاريع الأميركية الإمبريالية.

هل شعرت بأن إيران قد رغبت في التقارب مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

كانت هنالك بالطبع محاولات للتعبير عن وجهات نظر بُغية التأثير على الجبهة الشعبية في خطها السياسي. لكن الإيرانيين كانوا يعلمون أننا لن نكون طيّعين في ذلك. كانت مواقفنا تلتقي أحياناً، عند نشوب حروب أو صراعات في المنطقة، كما في حالة الحرب اللبنانية، أو في حالة دعمهم للانتفاضة. كما كانت وجهات نظرنا تختلف في حالات أخرى. لكن محاولاتهم للتأثير علينا لم تتجاوز الحدود على الإطلاق.

ألا تسعى إيران حالياً إلى وضع يدها على حماس؟

إن لحماس حلفاء في كل مكان في العالم الإسلامي. وحماس هي تنظيم مستقل، ولا يعتمد على إيران وحدها كحليف في مسيرته النضالية.

هذا أكيد. ولكن عندما تمنح إيران ١٢٠ مليون دولار لحماس، يصبح من حقنا أن نتساءل عما إذا لم يكن هنالك خطر في أن تضع إيران يدها على المكتب السياسي لحماس، وخصوصاً على خالد مشعل.

أولاً، ليست عندي أية فكرة عن المبلغ الذي تتحدث عنه. هنالك عامل حاسم في العلاقة بين إيران والفلسطينيين وإيران وحزب الله، وهذا العامل هو

الدين. وحزب الله مكوّن من الشيعة، وهذا يفسّر كون علاقته مع إيران أقوى مما هي العلاقة بين إيران والفلسطينيين. من هنا أعلم أن خالد مشعل الذي التقيته مرّات عدّة، وهو رجل محترم جداً، لا يقبل مطلقاً بأن يكون دمية في يد الإيرانيين. لذا فإن الخطر الذي تتكلم عنه بعيد جداً.

وحتى قائد حزب الله، السيد حسن نصر الله، وهو ثوري حقيقي، لا يقبل مطلقاً بأن يكون دمية. فهو يختلف أحياناً مع الإيرانيين حتى وإن كان الدعم المالي والسياسي الذي تقدّمه إيران يترك بالضرورة بصماته على حزب الله. نحن نخطىء كثيراً عندما لا ننظر إلى أعضاء حزب الله إلا على أنهم منذورون للشهادة، وليس كأناس مسؤولين سياسياً وأقدامهم ثابتة في الأرض وتفكيرهم سديد.

هل تعتقد بأن نصر الله ينوي إقامة جمهورية إسلامية في لبنان؟

لا، هذا مستحيل. حتى أن الفكرة لا تخطر بباله، لأن قراءته الجيدة للوضع في لبنان تحول بينه وبين التفكير في إمكانية ذلك. إنه يعرف النسيج الاجتماعي في لبنان. وهو، فوق ذلك، رجل شريف جداً. إنه يتمتع بانفتاح فكري كبير، وهو ليس متعصباً مطلقاً. إنه يعتبر أن الوحدة الوطنية في لبنان هي قبل أي شيء آخر.

منذ العام ٢٠٠٠، أصبح حزب الله على صلة أكبر بالانتفاضة الثانية. أليس كذلك؟

صحيح. هنالك أيضاً في لبنان تعاون أكبر بين حماس والجبهة الشعبية وحزب الله. كما أن علاقة حزب الله مع التشكيلات الفلسطينية الرافضة للمفاوضات مع إسرائيل هي أقوى من علاقته مع فتح. وهو يقدّم الدعم المعنوي للشعب الفلسطيني في داخل الأراضي المحتلة وخارجها فهو حليف استراتيجي للشعب الفلسطيني.

الفصل الرابع عشر

رحلة استشفاء مضطربة إلى باريس
شباط/فبراير ١٩٩٢

كيف كان وضعك الصحي قبل ذهابك للاستشفاء في باريس في شباط / فبراير ١٩٩٢؟

بعد الحرب على العراق، كانت قيادة المقاومة تعقد اجتماعات متلاحقة في تونس. لم يكن وضع الفلسطينيين سهلاً، بعد الدعم المعنوي الذي قدّموه لصدّام حسين عام ١٩٩٠. وكانت تلك الاجتماعات طويلة ومكثفة. وفي كل مرة، كان عليّ أن أسافر من دمشق إلى تونس. كنت أبذل الكثير من الجهد وانتهى بي الأمر إلى الوقوع فريسة للتعب. وكنا قد قرّرنا، هيلدا وأنا، أن آخذ قسطاً من الراحة في مركز للعلاج الفيزيائي في ضاحية العاصمة التونسية، على أن تلحق بي إلى تونس يوم الأحد ٢٦ شباط/ فبراير بعد الانتهاء من العلاج الطبيعي. غير أنني عدت وطلبت إليها في مكالمة هاتفية أن ترجىء قدومها إلى تونس ليوم الأربعاء التالي، لأن صحتي كانت جيدة وكنت أشعر بتحسّن كبير نتيجة العلاج الطبيعي. وفي اليوم التالي، تلقّت هيلدا في عمّان اتصالاً هاتفياً من مكتب ياسر عرفات أعلموها فيه بأنني في المستشفى بسبب وعكة مفاجئة، وأني أعاني من ضغط دم مرتفع. فوجئت زوجتي لأنها كانت المرة الأولى التي يرتفع فيها ضغطي بشكل مفاجئ إلى هذا المستوى. كما أعلمها مدير المكتب بأن طائرة إسعاف ستقلّني إلى فرنسا، وعرضوا أن يرسلوا إليها طائرة لتقلّها إلى باريس لموافاتي هناك. بدا

هذا السيناريو غريباً بالنسبة إليها. كنا قد تكلمنا عشية ذلك اليوم عبر الهاتف، وكل شيء كان على ما يرام. كنت في وضع صحي جيد جداً. لذا ردت زوجتي التي أدارت بعد ذلك القسم الأكبر من هذه القضية، بأن رفضت نقلي قبل حضورها، وطلبت الحصول قبل ذلك على تقرير طبي. وأنا نفسي كنت أقول لأبو عمّار إنني لن أسافر قبل وصول زوجتي. كنا نطرح، كلانا، التساؤلات ذاتها، في حين أُدخلت إلى مستشفى توفيق الذي يديره البروفسور عبد الستار بن حميدة الاختصاصي في الأمراض القلبية.

ما الذي حصل بالضبط ليلة الأحد - الاثنين؟

أغمي عليّ وفقدت الوعي لمدة عشرين دقيقة تقريباً فنقلت فوراً إلى المستشفى. غير أنني لم أكن في حالة كوما لحظة وصولي إلى المستشفى إذ كنت قد استعدت الوعي. كما لم أصب بجلطة دماغية على ما روّجته بعض المصادر الإعلامية. كانت لهيلدا شكوك جدية حول هذا الحادث الغريب لأني لم أعانِ يوماً من ارتفاع ضغط الدم. غير أن وضعي الصحّي تحسّن بعد ساعات، وعندما وصلت زوجتي يوم الأربعاء وجدتني في حال أفضل. لم يكن لديها الوقت الكافي للتحدث مع الأطباء. لكنها نجحت في الحصول على التقرير الطبي. وبذلك بات كل شيء جاهزاً لنقلنا إلى فرنسا. وبعد ساعتين من وصول هيلدا أقلّتنا طائرة إسعاف تابعة للصليب الأحمر الفرنسي وأقلعت بنا باتجاه باريس. كان وصولنا إلى مطار بورجيه بُعيد الساعة التاسعة مساءً. لم نكن نريد، هيلدا وأنا، أن يُكشف أمر سفرنا هذا. وحرصنا على أن يظل الأمر سرّاً إلى حين عودتنا إلى تونس. وكانت هيلدا قد طلبت من أبو عمّار قبل مغادرتنا أن يبقي الأمر قيد الكتمان فطمأنها بهذا الخصوص، وأخبرها بأن اتصالات على أرفع المستويات مع قصر الإليزيه قد جرت وتضمن السرّية الكاملة. وكان قصر الإليزيه قد أعطى موافقته على مجيئي للاستشفاء.

عند وصولنا إلى باريس، كان رجال الأمن الفرنسيون بانتظارنا، وكذلك

الأمر بالنسبة إلى الممثل العام لمنظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا، إبراهيم الصوص، الذي صعد إلى الطائرة لتحيّتنا. وقد تحدثت معه زوجتي وفوجئت، بعد نزولنا من الطائرة، أنه قرر نقلي في سيارة إسعاف. فرفضت ذلك بغضب وأعلمته بأن الحكيم يمكنه أن يمشي على قدميه بدليل أنه نزل بشكل طبيعي من على سلّم الطائرة، وخلصت إلى القول إن نقلي في سيارة الإسعاف أمر لا معنى له. ظنّت هيلدا أنهم يريدون إظهار وضعي الصحي وكأنه في منتهى الخطورة، بينما لم يكن الأمر كذلك في الواقع. كنا لا نزال في اللحظات الأولى من سوء تفاهم كبير. وأخيراً وافقت على الصعود إلى سيارة الإسعاف على أن أجلس إلى جانب السائق، لا في الردهة الخلفية.

أما المفاجأة الكبرى التي لم نحسب لها حساباً فهي عدسات المصوّرين التي كانت تسلط الضوء علينا لحظة الوصول. ولم يكن من الممكن أن نتخلص من كل هذا الحشد من المصورين «البابارتسي» الذين طاردوا موكبنا بعد الانطلاق. عندها طلبت هيلدا إلى إبراهيم الصوص أن يبلغ رجال الأمن الفرنسيين المرافقين لنا بأن يوقفوا هذه المهزلة. شعرنا حينها بأن خبر وصولنا قد انتشر بسرعة. وقد استمرت ملاحقة الصحافيين لنا حتى باب المستشفى ولم يكن تجنبهم بالأمر الممكن. وردّ إبراهيم الصوص على هيلدا قائلاً: «لو أنكم أخبرتموني بالأمر من قبل، لنصحتكم بعدم المجيء إلى فرنسا». وبالفعل، لم يكن أحد قد استشاره بهذا الخصوص. كانت سهى عرفات تعمل يومها ضمن طاقم سكرتارية مكتب أبو عمار في تونس، وكانت هي التي أجرت الاتصالات بالصليب الأحمر في باريس. وقد أدانت زوجتي هذا التصرّف غير المسؤول من قِبل سهى لأن البعد الأمني لم يكن مأخوذاً في الاعتبار لعدم خبرتها في هذا المجال. علماً بأنني في كل مرة كنت أسافر فيها إلى أحد البلدان الاشتراكية بقصد الاستشفاء كان الأمر يتم بمنتهى السرّية.

وعند وصولنا إلى مستشفى هنري دينان، قفزت زوجتي من السيارة لتمنع الصحافيين من التصوير أثناء دخولي إلى المستشفى. عندها تدخّل رجال الأمن

لمساعدتها في تفريق الصحافيين. وفي حدود العاشرة مساءً، بعد رحلة شاقّة ويوم غني بالمفاجآت، نصح إبراهيم الصوص زوجتي بأن تذهب لتأخذ قسطاً من الراحة في أحد الفنادق حيث كانوا قد حجزوا لها إحدى الغرف. لكن هيلدا رفضت أن تفارقني، بعد أن ساورتنا الشكوك. ثمّ عادت ووافقت بعد إلحاح إبراهيم الصوص على أن تستريح قليلاً بعد عناء الرحلة من عمّان إلى تونس فباريس. لم تغب أكثر من ساعة واحدة فقط. وكانت هذه الفترة كافية لفعل كل ما يلزم لإظهار الأمر كما لو أن حرباً قد نشبت. كانت الشرطة تحاصر المستشفى من الخارج. وكان العشرات من رجال الأمن قد اتخذوا مواقع لهم في الطابق الذي كنت فيه. كما تم إخلاء جميع المرضى. واستفاد عدد من عناصر شعبة مكافحة الإرهاب "DST" داخل الأراضي الفرنسية من غياب زوجتي فدخلوا غرفتي وبدأوا بتفتيش حقائبي، فقلت لهم باستياء شديد إننا لسنا هنا بهدف تنفيذ عملية انتحارية في باريس من داخل المستشفى!.

ولدى عودة زوجتي شعرت بأن الهرج القائم ليس طبيعياً، ولا سيّما أنهم عززوا الإجراءات الأمنية حول المستشفى، وكان من الصعب عليها أن تدخل إلى المبنى. فقد منعت الشرطة أحد الحراس الذين كانوا برفقتها من الدخول. وعندما رأت ذلك العدد الكبير من رجال الأمن في الطابق الذي كنت فيه، ظنت أنني أصبت بمكروه. فأسرعت الخطى باتجاه غرفتي وبعد الاطمئنان إليّ، أدركت أن المسألة قد أخذت أبعاداً سياسية. وبدلاً من البدء بإجراء الفحوصات الطبية، وجدنا أنفسنا في موقع المتهمين. عندها خرجت هيلدا إلى الممرّ لتصرخ في حشد من رجال الأمن قائلة «أين هي حقوق الإنسان؟ أهذه هي الحضارة الفرنسية؟ زوجي مناضل فلسطيني وليس إرهابياً. تصرّفكم البربري هذا هو بالضبط ما تفعله إسرائيل تجاه الفلسطينيين، كلكم صهاينة، أشعر وكأنني في تل أبيب لا في باريس! أحذّركم إذا حدث لزوجي أي مكروه فسأحمّلكم كامل المسؤولية. من يمارس الإرهاب؟ نحن أم أنتم!». وطلبت رؤية المسؤول عن الأمن على الفور. وكانت تريد مقابلة وزير الداخلية. ثم استدعت إبراهيم

الصوص وبدأت الاتصالات على أعلى مستوى. وفي صباح اليوم التالي لوصولنا أصدر القاضي بروغيير مذكرة توقيف بحقّي بحجّة تهمة ملفّقة.

كانت مهمّة الفرنسيين هي المحافظة على أمنكم. أليس كذلك؟

كانوا خائفين منا وخائفين علينا في الوقت ذاته. ولكنني كنت في حكم المعتقل. بدأنا نسمع ضجيجاً غريباً في محيط المستشفى استمرّ طوال الليل، واتضح أن هناك نشطاء صهاينة يتظاهرون مطالبين باعتقالي وهم يصرخون: «الموت، الموت لجورج حبش» عندها أدركنا مدى تغلغل اللوبي الصهيوني في فرنسا وعلى أعلى المستويات. كما دُعي الكنيست إلى الانعقاد للنظر في هذه القضية، وقام أحد النواب الإسرائيليين بإحراق صورتي خلال تلك الجلسة، وعُرض ذلك المشهد في وسائل الإعلام. لم تنم زوجتي طوال الليالي الأربع التي أمضيناها في باريس ولم تتوقف عن إجراء مكالمات هاتفية مع أبو عمّار عبر الهاتف وعدد من المسؤولين والأصدقاء.

بِمَ كان يجيبها؟

كان يقول إنه لم يتوقع حصول كل هذه الضجّة وأنه يحاول إطلاق سراحنا بكافة الوسائل المتاحة. طلبنا إلى الفرنسيين أن يسمحوا لنا بالرحيل. لكن قوات الأمن أرسلت خبيرين، زعما أنهما طبيبان، بهدف استجوابي، فصاحت فيهما زوجتي قائلة: «كل هذا لا علاقة له بالناحية الطبية. ما يجري هو مسألة سياسية، وإذا ما حصل مكروه لزوجي فإنكم ستتحمّلون المسؤولية! وإن أردتم التحقيق معه فإن ذلك سيكون على جثتي..». ولم نكن قد طلبنا حضور أي طبيب.

كنت راقداً في سريري كل ذلك الوقت. وكان من الصعب عليّ أن أغفو، في وقت أصبح التلفزيون الفرنسي يبث صوري طوال الوقت وأنا أنزل من سلّم الطائرة. وكانوا يصفونني بالإرهابي ويعرضون صور عمليات تفجير الطائرات. كانت تلك طريقتهم في تبرير احتجازي أمام الرأي العام الفرنسي.

بعد ذلك رفضنا قبول العناية الطبية التي عرضوا توفيرها، وأعلنا أننا نريد مغادرة المستشفى. ومنذ الليلة الأولى، اختفى الطبيب اللبناني الذي كان يرافقني، ولم نره خلال الأيام الثلاثة التي أمضيناها في باريس، وقد فوجئنا بذلك السلوك كثيراً لأننا توقعنا منه أن يبقى إلى جانبنا خلال تلك الهجمة الشرسة التي تعرّضنا لها، ولا سيما أنه يحمل الجنسية الفرنسية وجاء بصفته طبيبي المرافق. كان هو الطبيب الذي أنقذ حياتي وسط القصف عام ١٩٧٣ في المعارك بين الجيش والفدائيين لكنه تخلّى عني هذه المرة. أما الجزائريون فقد كانوا رائعين. وبما أنني كنت أتنقل بجواز سفر جزائري ديبلوماسي، اتصلت هيلدا، في صبيحة اليوم التالي، بالأستاذ الأخضر الإبراهيمي، وهو صديق قديم لنا، وكان يشغل حينها منصب وزير الخارجية الجزائري، فتكفّل شخصياً بمتابعة القضية لأنه يكنّ لي محبة كبيرة. فتدخّلت حكومة الجزائر لدى الحكومة الفرنسية لكي يسمحوا لنا بمغادرة فرنسا بأمان. وعلى الفور، جرت اتصالات رفيعة المستوى بين الجانبين.

«الحكيم هو أخ وصديق، وأنا سأهتمّ شخصياً بالموضوع». ذلك ما أكّده الإبراهيمي لهيلدا مضيفاً أنه والشعب الجزائري فخورون بها للدور الذي تقوم به كما قام بتشجيعها على الصمود.

وفي اليوم نفسه، تلقّت زوجتي اتصالاً من إذاعة مونت كارلو للاستفسار عن صحّة الحكيم فتحدّثت هيلدا عبر إذاعة مونت كارلو وطمأنت الناس وجميع المحبّين بأن صحتي لا تدعو للقلق. وبعد ذلك، قامت مونت كارلو بتغطية أخبارنا خلال الأيام الثلاثة. وبين هذا وذاك، حاول الأخ والصديق الأخضر الإبراهيمي أن يتصل بنا في المستشفى، لكنهم كانوا يقولون له في كل مرة إنني مشغول. كانوا في الحقيقة قد منعوا عنا الاتصالات والزيارات، الأمر الذي أثار حفيظة زوجتي التي خرجت مرة أخرى إلى الممرّ لتصرخ في وجوه رجال الأمن. سألتهم إذا كانت هنالك مذكرة توقيف بحقها، ولما أجابوها بالنفي، قالت لهم إن من حقّها إذن أن تتّصل بالعالم الخارجي، وتريد أن تتكلّم مع ابنتيها في عمّان

لطمأنتهما. كانت ابنتانا قلقتين ولا تصلهما الأخبار إلا من خلال الإذاعات. وأخيراً كان أبو عمّار هو من اتصل بهما من تونس لطمأنتهما.

وقد خرجت تظاهرات في أماكن عديدة من العالم العربي للاحتجاج على احتجازي. كما خرجت تظاهرات ضخمة في الأراضي المحتلة مطالبة بإطلاق سراحي. وانهالت برقيات الاستنكار على وزارة الخارجية الفرنسية وطالبت بإطلاق سراحي بوصفي قائداً فلسطينياً. وفي عمّان، شاركت ابنتاي في تظاهرة حاشدة، رغم رداءة الطقس وتساقط الثلوج، نظمت داخل مبنى النقابة المهنية. وقد وصفت الصحافة الفرنسية ذلك الأسبوع بأنه أسبوع الجنون في فرنسا. كانت «قضية حبش» كما أطلق عليها الإعلام الفرنسي، على كل شفة ولسان، وطغت على جميع الأحداث السياسية الأخرى في وسائل الإعلام.

كان رئيس الجمهورية، فرانسوا ميتران، ووزير خارجيته، رولان ديما، في زيارة رسمية لسلطنة عُمان. وكانت رئيسة الوزراء، إديت كريسون، في واجهة الحدث، وبدت شديدة الغضب لأن مجيئك إلى فرنسا قد أثار قضية كبرى على مستوى الدولة. أليس كذلك؟

لا أفهم ذلك. عندما سُئل فرانسوا ميتران عما إذا كان على علم بوجود جورج حبش في باريس لغرض الاستشفاء، ردّ بالإيجاب وقال إن بإمكاني أن أعود إلى تونس ما إن ينتهي العلاج. حاولوا أن يلصقوا بي تهمة مفادها أن بضع قطع من السلاح تم العثور عليها في غابة في ضاحية باريس، وأنها تعود للجبهة الشعبية، ومن الضروري استجوابي لهذا السبب. لم تكن معركتنا ضد فرنسا. ولا علاقة لنا بقصة تلك الأسلحة التي ادّعوا بأنهم عثروا عليها. عدوّنا هو إسرائيل. وهنالك علاقات صداقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وفرنسا. وهذا هو السبب الذي جعلنا نقبل تلقّي العلاج في فرنسا وذلك للمرة الأولى والأخيرة أيضاً في بلد غربي.

مساء اليوم الذي وصلنا فيه، أصدر القاضي لويس بروغيير مذكرة توقيف

بحقي، كما ذكرت، من أجل التحقيق في قضية الأسلحة الملفقّة التي لم تكن لنا أية صلة بها. وفي اليوم الأخير، جاء إلى المستشفى. كان يوجّه رسائل إلينا، الأخ إبراهيم الصوص، قائلاً: «دعوني أقم بالاستجواب فذلك في مصلحتكم»، وكان يصرّ على ذلك، ولكنه لم يواجه زوجتي. كان خائفاً بلا شك من أن يقال إن امرأة صمدت في وجهه كما صمدت في وجه جميع رجال الشرطة الذين كانوا يحيطون بنا طوال فترة وجودنا التي استمرت أربعة أيام. كانت المفاوضات تتم عبر إبراهيم الصوص، وقد رفضنا الخضوع للاستجواب لأن الاتهام كان باطلاً ويشكّل إهانة كبيرة لي وللشعب الفلسطيني.

وعندما علم الرئيس ميتران بأن العدالة الفرنسية ترغب في استجوابي، عمد إلى نشر بيان أوضح فيه أنه يترك العدالة لتقول كلمتها. لم يكن هنالك ما أخشاه لأن الاتهامات الموجّهة إليّ كانت غير صحيحة. وكان رجال الشرطة يواصلون محاولاتهم لإقناع زوجتي بضرورة قبولنا بمسألة الاستجواب، لكنها أصرّت على موقفها؛ ثم قرّرنا، هي وأنا، أن نعلن الإضراب عن الطعام لمواجهة الطريق المسدود الذي وصلنا إليه. كانت هيلدا هي التي اقترحت ذلك تضامناً معي، إلا أنها كانت تقدّم لي خفية بعض الحساء بالنظر لحالتي الصحية. كما كنا نرفض الطعام والدواء الذي قدمته المستشفى، وذلك لاعتبارات أمنية.

وقد حدث في هذه الأثناء، وتحديداً في الليلة الثانية، أن حاول رجال الشرطة وعناصر من شعبة مكافحة الإرهاب أن يستفيدوا من فترة الراحة الصباحية، فحاولوا الدخول في ساعة مبكرة عند الفجر لإجباري على الخضوع للاستجواب. لكن زوجتي كانت متيقظة تماماً، ولم تكن قد ذاقت النوم طوال أيام ثلاثة خوفاً من أن يحدث لي شيء ما.

لقد تميّزت هيلدا بشجاعتها وبهدوء أعصابها وقد نعتها مسؤول الأمن الفرنسي بـ«النمرة». وكانت بذلك، مرة أخرى، ملاكي الحارس.

ما الذي حدث بالضبط بعد أن وضعت مصيرك في أيدي الجزائريين؟

كان الأمر معقّداً جداً. فإسرائيل تدخّلت بوقاحتها المعهودة وطالبت السلطات الفرنسية بتسليمي لها. وبالنظر إلى تعقيد الموقف، كان الفرنسيون يرغبون بكل بساطة أن ينتهوا من هذه الفضيحة السياسية التي أطاحت بأربعة من كبار المسؤولين الفرنسيين، في حين كانت الصحافة تطلق العنان لهجماتها عليّ وعلى تهاون الحكومة. وأخيراً طلبوا إلى إبراهيم الصوص أن يقنعنا بالموافقة على التنازل التالي: أن يذكر في البيان الختامي أن ترتيبات الزيارة تمّت بين الهلال الأحمر الفلسطيني والصليب الأحمر الفرنسي. لكن زوجتي رفضت ذلك، لأن الهلال الأحمر الفلسطيني لم تكن له أية علاقة بالأمر، ولا حتى على علم به.

لماذا كان الفرنسيون يرغبون في إشراك الهلال الأحمر والصليب الأحمر في إنهاء هذه القضية؟

كانوا يريدون إضفاء صفة طبية بحتة على زيارتي، ليصبح بإمكانهم القول بأنهم استقبلوني لاعتبارات إنسانية فقط. كان الضغط النفسي الذي مارسوه علينا شديداً إلى الحد الذي دفع زوجتي إلى الصراخ في وجه إحدى الشرطيات التي قضت الليل وهي تمشي ذهاباً وإياباً أمام حجرتنا بخطوات عالية مستفزة فقالت لها: «أنحن في مستشفى أم في ثكنة عسكرية!». «هذا شيء مخجل! إن عظمة فرنسا هي خرافة تنهار في ظلّ سلوكم هذا». وعندما شعرت بأنها استنفدت كل ما تملكه من أسلحة للمقاومة، صرخت في وجه مسؤول الأمن قائلة: «ألا توجد لفرنسا مصالح في العالم العربي؟ أليست لكم سفارات ورعايا فرنسيون؟ لا يمكننا أن نضمن لكم سلامة هؤلاء الناس بسبب ما أثرتموه من غضب شعبي بتصرفكم المشين هذا».

هل كنتم تخشون من تعرّضكم للاعتقال أو التسليم لإسرائيل؟

لم نكن نظنّ بأن فرنسا ستقوم بتسليمنا إلى الإسرائيليين، على الرغم من ضغط المتظاهرين الصهاينة حول المستشفى وضغط الحكومة الإسرائيلية لأن

الموضوع يمسّ هيبة فرنسا أمام العالم. لكننا لجأنا، مع ذلك، إلى تكليف أحد المحامين للدفاع عني، إلا أنه لم يلبث أن أظهر عدم جدواه بسبب التصريحات التي أدلى بها. لكنني كنت أخشى من مفاجأة في اللحظة الأخيرة، كأن يعمد الإسرائيليون إلى اختطافي مثلاً. كانوا قد حاولوا ذلك في السابق. أما زوجتي فإنها لم تكن تعتقد بأن الإسرائيليين سيلجأون إلى تنظيم عملية اختطاف على الأراضي الفرنسية، لأن إسرائيل حريصة على علاقاتها مع فرنسا، لكنها كانت حذرة بوجه خاص مما يمكن أن يحدث منذ اللحظة التي سنكون فيها على متن طائرة العودة.

وفي النهاية، وافقنا على أن يُذكر في البيان الختامي قصّة التعاون المزعوم بين الهلال الأحمر الفلسطيني والصليب الأحمر الفرنسي، لأن ذلك الطلب لم يكن مهماً جداً بالنسبة إلينا وخصوصاً أنه يساعد في إطلاق سراحنا. وكانت زوجتي قد نعتت أحد مسؤولي الأمن بأنه «صهيوني». وقد جاء ذلك المسؤول بعد قرار الإفراج عنا، ليقول مازحاً بأنه «الصهيوني» الذي سيطلق سراحنا. كنت إذن على وشك مغادرة فرنسا من دون أن أحصل على علاج طبي، ومن دون أن أخضع لاستجواب القاضي بروغيير. وللحفاظ على ماء الوجه، كتب الفرنسيون في البيان الختامي أن السبب الوحيد لعدم استجواب جورج حبش يتعلق بوضعه الصحي، وبالطبع، كان ذلك عارياً عن الصحة.

هل كنت خلال كل ذلك على صلة بأبو عمّار؟

أجل. كانت هيلدا تتصل به عدة مرات في اليوم، وكان قلقاً جداً وعلى اتصال دائم بالفرنسيين وبإبراهيم الصوص. كما كان يتصل بها الأخضر الإبراهيمي أيضاً، ولن أنسى ما حييت تضامن الجزائر معنا في هذه القضية الشائكة.

وكيف تمّ التوصل إلى حلّ هذه المشكلة؟

كان الفرنسيون منزعجين ولا يعرفون كيف يتصرفون، من جهة إزاء اللوبي

اليهودي الذي كان يمارس الضغط على الحكومة، ومن جهة أخرى مع العالم العربي الذي عبّر عن غضبه بالتظاهرات التي جرت في المغرب والأردن والعديد من الدول العربية. وقد سقطت بعض الرؤوس بسبب تلك القضية، فاستقال أربعة من كبار المسؤولين الفرنسيين هم جورجينا دوفوا، التي كانت قد تولت العديد من المناصب الوزارية، وبرنار كيسيدجيان، المقرّب من رولان ديما، وزير الخارجية آنذاك، وكريستيان فيغورو المعروف بعلاقاته الوثيقة مع أجهزة الشرطة، وأخيراً فرانسوا شير، المختص بالشؤون الإيرانية. كان من الضروري إنهاء المشكلة في أسرع وقت ممكن. وقد تمّ التحضير لمغادرتنا من قبل السلطات الجزائرية ومسؤولين كبار في الحكومة الفرنسية، قبل أن يتم الإعلان عن ذلك. وللتمويه، انطلقت ثلاثة مواكب رسمية، اثنان منها وهميّان إلى مطاري بورجيه وديغول وتبعهما الكثير من الصحفيين ظناً منهم أننا فيهما والثالث هو الموكب الذي كنا فيه، والذي توجّه نحو مطار أورلي الذي أُخضع لحراسة مشددة. وقد طلبت زوجتي أن نذهب إلى الجزائر لنشكر السلطات فيها على ما أسدته إلينا من مساعدة، ولكنني فضّلت العودة إلى تونس لأن أبو عمّار كان قد ساعدنا كثيراً في إنهاء تلك القضية المؤلمة. كما كنت أريد أن أحافظ على علاقات سليمة بين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة التحرير الفلسطينية، لأن الوحدة الوطنية الفلسطينية تأتي بنظري في المقام الأول.

ذهبتم إذن إلى تونس من دون أن تتلقّى أي علاج طبي، ما يظهر أن وضعك الصحي لم يكن في غاية السوء. كيف نظرت إلى مجمل هذه القضية؟

صحيح أنني كنت متأثّراً في البداية، كما كنت مرهقاً بسبب تلك العاصفة التي عشتها في فرنسا. وقد صُدمت عندما لاحظت أن الأمور نحت منحى سياسياً، في حين أنني قدمت لتلقي العلاج. تعجبت كثيراً لما أخذته تلك القضية من أبعاد. أظن أن تدخّل إسرائيل ومطالبتها بتسلّمي من السلطات الفرنسية، إضافة إلى ضغوط اللوبي اليهودي، هي التي عقدت المشكلة.

وأودّ الآن، بعد أن انتهينا من تلك المشكلة، أن أوضح مسألتين في غاية الأهمية: لم أشعر بالخوف في أية لحظة من تلك اللحظات. فقد كانت زوجتي إلى جانبي، وكانت ثقتي بالله كبيرة. كما كنت واثقاً أن فرنسا لن ترضخ مطلقاً لطلبات إسرائيل، وأنها ستخرجنا من ذلك الوضع، وأنه لا يمكن لبلد قوي كفرنسا أن يخضع لشروط إسرائيل. كانت العلاقة التاريخية بين فرنسا و«الثورة» الفلسطينية ماثلة في ذهني على الدوام.

ماذا قال لكم ياسر عرفات عندما استقبلكم بعد عودتكم إلى تونس؟

عانقني بحرارة وقال إن عودتي سالماً هي نصر لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولكنه لم يقدّم إلي أي تفسير لما حدث، ولا أي اعتذار. طلبت، بعد ذلك، إلى قيادة الجبهة الشعبية وإلى أبو عمّار تشكيل لجنة تحقيق لمعرفة الحقيقة حول تلك القضية. ولكن منظمة التحرير رفضت، للأسف، وذلك بلا شك لعدم تعكير علاقتها بفرنسا، على ما قاله لنا بعد أيام أحد المسؤولين في فتح عندما جاء ليتمنى لي الشفاء العاجل. كما أن الجبهة الشعبية فضلت عدم متابعة الموضوع وإسقاط الدعوى. وعندما جاء الصحافيون إلى تونس لإجراء تحقيقات حول الموضوع، لم يكن من أبو عمّار ورجاله إلا أن أقفلوا الأبواب في وجوههم. كانوا لا يريدون إشهار حيثيات نقلي إلى فرنسا وانتشار خبر وصولي إليها. كانت الأولوية بالنسبة إلى أبو عمار هي المحافظة، بأي ثمن، على علاقته بفرنسا التي كان قد زارها، للمرة الأولى، قبل عامين ونصف العام على تفجّر هذه القضية. كان يريد إذن أن ينهي هذه القصة. وعند وصولنا إلى مطار تونس تم استقبالنا بحفاوة بالغة من قبل أبو عمّار والسفير الجزائري في تونس والعديد من المسؤولين الآخرين. كما أجرت معنا القناة الفرنسية الثانية لقاء بعد خروجنا، كان مناسبة شرحنا فيها للشعب الفرنسي ملابسات القضية.

لم تتمكنوا إذن من الحصول على الشهادات الطبية التي كنتم قد طلبتموها قبل مغادرتكم إلى فرنسا؟

في ٢٩ شباط/فبراير، وقبل مغادرتنا إلى فرنسا مباشرة، سلّمنا مستشفى تونس، حيث كنت قد عولجت تحت اسم مستعار، تقريراً طبياً موقعاً بتاريخ اليوم نفسه. ويذكر التقرير أنني قد أغمي عليّ وفقدت الوعي لمدة ثلاثين دقيقة، بسبب ارتفاع مفاجئ في ضغط الدم. وعندما استعدت وعيي، كنت متعباً جداً، وكان كل شيء جاهزاً لنقلي إلى مركز متخصص في فرنسا لمواجهة كل الاحتمالات الممكنة. وعندما غادرت تونس، أخذت معي تقرير البروفسور بن حميدة. ولم يذكر هذا التقرير على الإطلاق أنني كنت أعاني من إصابة في الدماغ، خلافاً لما نشر في الصحافة الفرنسية. لقد تمّ نشر تقرير طبي مزوّر في الصحافة الفرنسية لإظهار مدى خطورة الحالة، يتناقض مع التقرير الأصلي.

هل تعتقد بأن منظمة التحرير الفلسطينية قد نصبت لك فخاً، بعد أن كانت على علم بما سيجري في باريس؟

لا يمكن أن تكون قيادة منظّمة التحرير الفلسطينية قد فعلت ذلك! لكنني أتساءل عن كيفية انتشار الخبر بهذا الشكل. أعتقد أن بعض العملاء كانوا وراء تسريب الخبر.

تسريب خبر وصول جورج حبش إلى باريس تم، على ما قالته الصحافة الفرنسية، من قِبل بسّام أبو شريف، المستشار الإعلامي لياسر عرفات، حيث قيل إنه هو من أعلم قناة التلفزيون الفرنسية الثانية التي كانت وحدها الحاضرة في مطار بورجيه ليلة وصولكم إلى فرنسا. وكان جورج صبّاغ، أحد صحافيي القناة المذكورة، قد علم بالخبر من خلال اتصال مع أحد أصدقائه من الصحفيين التونسيين. وبالفعل، فقد نشرت صحيفة الحياة التي تصدر بالعربية، صبيحة ٢٩ شباط/فبراير، خبراً صغيراً مفاده أن الدكتور جورج حبش قد تعرّض لإشكالات صحية، وأن من الممكن أن يتم نقله إلى بلد أوروبي، وأن فرنسا قد تكون هي ذلك البلد.

إنني أستبعد هذه الفرضية التي تتحدث عن تسريب مصدره بسّام أبو شريف

الذي كان أحد رفاقنا قبل أن يلتحق بفتح. على كل حال، إن الجهات المعنية لم تأخذ الناحية الأمنية في الاعتبار. وقد أكد أحد المسؤولين الأمنيين الفرنسيين لزوجتي أن تسريب الخبر قد جاء من تونس. كما أن زوجتي كانت مقتنعة، أياً كان الأمر، أن هنالك من سعى، من خلال تلك التعقيدات، إلى تعريض حياتي للخطر أثناء وجودي في المصحة التونسية.

إن إسرائيل هي من أثار كل تلك الأزمة الإعلامية. فأنا أمثل حركة ثورية تعارض أي تقارب أو مصالحة مع إسرائيل، ولهذا لا أستبعد أن يكون الإسرائيليون وراء تلك الأزمة. ففي العام ١٩٧٢، وفي العام ١٩٨٠، عندما تعرّضت لإشكالات صحية في بيروت، طلبت السفارة الأميركية في لبنان الحصول على تقارير طبية عن وضعي الصحي. وكان الأطباء الذين تولّوا معالجتي من أصدقائي، وقد أكدوا لي أنهم لن يقولوا شيئاً ولن يسلّموا أية تقارير. لكنّ أحدهم اعترف لي ذات يوم بأن الأميركيين كان بإمكانهم، إن شاؤوا، أن يعرفوا مضمون التقارير الصحية. بعد ذلك تبيّن أن مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية كانت مخترقة، فقد اكتشفت أجهزة تنصّت في مكاتب أبو مازن، كما تم أيضاً اكتشاف عناصر تتعاون مع جهات خارجية.

من تقصد؟

أصبحت شديد الارتياب، منذ أن تم الكشف عن أن عدنان ياسين الذي كان يعمل في مكاتب المنظمة هو عميل للموساد. أنا لا أستبعد مطلقاً أن يكون هو في أساس الأزمة، بالاشتراك مع عملاء إسرائيليين. وقد اكتشفت أشياء مثيرة للريبة حولي، ففي أحد الأيام، وكان ذلك في العام ١٩٨٨، لاحظنا، زوجتي وأنا، أن جهاز التكييف الخاص بغرفة النوم في الشقة التي كانت تقدّمها لنا منظّمة التحرير في تونس، قد انتزع من مكانه لسبب غامض. عندها توجّهت هيلدا إلى أبو عمّار لتشتكي من هذا التدخل في حياتنا الخاصة، فقد شعرت هي أيضاً بأن شيئاً غير طبيعي يدور من حولنا. وقد طلبنا إلى أبو عمّار أن يصار إلى تنظيم

دوريات ليلية للمراقبة، وذلك قبل أن نمتنع نهائياً عن الإقامة في ذلك المنزل عند زياراتنا لتونس. وعندما أصبت بارتفاع في ضغط الدم، ظننت على الفور أن الأمر هو، بكل بساطة، عبارة عن تدهور طبيعي في وضعي الصحي بسبب شدة الإرهاق. وبعد ذلك، انتبهت إلى اكتشاف منظمة التحرير لعدد من العملاء، وأدركت على الفور بأن ما حدث لي في المركز الطبي في تونس كان عملاً مدبّراً على الأرجح. ثم عدت مجدداً إلى التفكير في جهاز التكييف الذي اختفى بشكل غامض عن شباك الغرفة. وهنا بدأت أعطي مصداقية لأطروحة محاولة الاغتيال التي كانت تتبنّاها هيلدا.

هل سبق لك أن رأيت عدنان ياسين؟

لا، لا أتذكّر أنني التقيته.

حدث ذلك بُعيد إطلاق عملية السلام العربي-الإسرائيلي ومؤتمر مدريد، عام ١٩٩١، وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تعارض ذلك بشراسة. هل كنت شخصاً معارضاً بلا هوادة؟

اليسار الذي أمثله كان على الدوام مزعجاً للخط السياسي المعتمد من قِبل فتح. كنت أدعو إلى وقف المفاوضات مع إسرائيل، وكان ذلك يوم بدأت الاتصالات السرّية بين الإسرائيليين والفلسطينيين. كنا معارضين لمؤتمر مدريد لأنه كان يعني بالنسبة إلينا نهاية القضية الفلسطينية. وبعد مضي خمسة عشر عاماً على المؤتمر أثبتت الوقائع صحة موقفنا.

قبل ستة أشهر من رحلتكم إلى فرنسا، ذهبت زوجتك إلى باريس لترى ما إذا كان من الممكن أن تتلقى علاجاً طبياً فيها. أليس كذلك؟

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، لم يبق لنا غير بلد كفرنسا يمكننا أن نحصل فيه على العلاج. وعليه، فكرنا أنا وزوجتي في فرنسا لأنها كانت بلداً صديقاً. وقد ذهبت هيلدا إلى باريس وأخذت معها تقاريري الطبية بهدف تقديمها للجهات

المختصة للحصول على الموافقة على زيارتي لإجراء الفحوصات الطبية، وطلبت إلى السفارة الفلسطينية أن تحصل على موافقة السلطات الفرنسية على قدومي لإجراء الفحوصات، ولكننا لم نحصل على جواب من السفير الفلسطيني إبراهيم الصوص. أما السبب فكان الإهمال بلا شك أو عدم رغبته في مجيئي إلى باريس.

هل أصبحت صورة فرنسا باهتة في نظركم بسبب ما حدث؟

خلال السنوات التي أعقبت ذلك الحادث، كنت مستاءً جداً للطريقة التي عاملني بها الفرنسيون. وأذكر أنني قلت، في مقابلة أجرتها معي صحيفة الحياة، إننا أسقطنا الوهم حول الادّعاء الفرنسي بخصوص الدفاع عن حقوق الإنسان. وقد اكتشفنا قوة النفوذ الذي يتمتع به مناصرو إسرائيل واللوبي الصهيوني داخل أجهزة الدولة الفرنسية على أعلى مستوى. لكن إحساسي بالمرارة خفّت حدّته في ما بعد؛ وعلى أية حال، كنت أميّز دائماً بين الساسة والشعب. فالفرنسيون شعب صديق، وكثيرون منهم يؤيدون القضية الفلسطينية، وكانوا يساندوننا على الدوام. كما أذكر العديد من الأوروبيين الذين جاؤوا وقاتلوا معنا في جبال الأردن، عام ١٩٧٠. ولكن ما حدث ترك فيّ أثراً بلا شك. أما زوجتي فإنها غالباً ما كانت تردد أنه لو كان عليها أن تزور بلداً أوروبياً يوماً ما فإن فرنسا هي خيارها الأول. لم يسبق لفرنسا أن شهدت ضجّة إعلامية لزيارة قام بها أي مسؤول كالتي حدثت لدى وصولي إلى باريس للعلاج وكيف تحوّلت إلى كابوس بالنسبة إلى الحكومة الفرنسية.

الفصل الخامس عشر

فشل مفاوضات السلام مع إسرائيل

ما هي الأسباب التي حملتكم، في العام ١٩٩٣، على محاولة الاستقالة من قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

هنالك أسباب عديدة جعلتني أسعى إلى إنهاء مهمّتي كأمين عام للجبهة الشعبية، وذلك خلال مؤتمرها الخامس الذي انعقد في العام ١٩٩٣. كنت أريد ممارسة الديمقراطية قولاً وفعلاً. كنت أريد، ونحن نعيش في عالم عربي يظل فيه الأقوياء في مناصبهم إلى ما شاء الله، أن أقدّم درساً للقادة الذين يخلفون أنفسهم أو يعهدون لأبنائهم بتولّي مسؤوليات الحكم، من غير أن يكون هؤلاء الورثة قادرين على ذلك بالضرورة. كما كنت أنوي أخيراً أن أقوم بتأسيس مركز دراسات يهتم بعرض تجارب حركة القوميين العرب، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وغيرهما من الأحزاب القومية ويعنى بقضايا الصراع العربي الإسرائيلي. وذلك أن المحافظة على الذاكرة من شأنها أن تساعدنا على مواصلة النضال.

ولكن استقالتي لم تكن تعني أنني سأبتعد بشكل كامل عن النضال، في وقت يمرّ فيه الفلسطينيون في مرحلة صعبة. وقد قوبلت رغبتي في الاستقالة باستغرب العديد من الرفاق القياديين والمناصرين في القواعد الشعبية في الأراضي المحتلة، وتمسّكوا ببقائي على رأس الجبهة الشعبية عبر رسائل كنت أستلمها تطالبني بالعودة عن التفكير في الاستقالة. لذا راجعت موقفي ووعدتهم

بأن أواصل القيام بعملي لبعض الوقت أيضاً لكي أعدّ خلفائي بشكل أفضل للقيام بمسؤولياتهم يوماً ما.

وفي الوقت الذي كنت قد بدأت بالتحضير لأعمال المؤتمر الخامس، كانت الأولوية عندنا لاستمرار الانتفاضة. كان علينا إذن أن نفعل ما بوسعنا لمواصلة دعمها بشكل دائم. وكان علينا أيضاً أن نقف في وجه منظمة التحرير الفلسطينية، في وقت كان الأميركيون يسعون إلى اجتذاب ياسر عرفات إلى المفاوضات غير المعدّة بشكل جيّد مع الإسرائيليين، لأن موازين القوى لم تكن لمصلحتنا.

بالفعل، كان الأميركيون على وشك إطلاق مبادرتهم للسلام من خلال وساطة وزير خارجيتهم جيمس بيكر.

كانت الولايات المتحدة قد وعدت البلدان العربية التي ساندتها في حربها ضد العراق بدفع عملية السلام بين العرب وإسرائيل. لكنها كانت تنوي استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية من المفاوضات، باعتبار أن مستقبل الفلسطينيين يجب أن يتقرر من قِبل ممثلين عن الضفّة الغربية وقطاع غزّة وحدهما. ومن هذا المنطلق، جاءت الزيارات التي قام بها جيمس بيكر إلى الشرق الأوسط، حيث قابل عدداً من الشخصيات الفلسطينية بهدف التحضير لمؤتمر مدريد للسلام. وكان هذا الاجتماع تجسيداً للوعود التي قطعها الأميركيون للقادة العرب بغية تأمين مشاركتهم في الحرب على العراق.

كان بيكر يسعى إلى تشكيل الوفد الفلسطيني إلى ذلك المؤتمر بعيداً عن منظمة التحرير الفلسطينية. وكان فيصل الحسيني وحنان عشراوي العضوين الرئيسيين في ذلك الوفد. لكنهما كانا يفتقران إلى الوسائل التي تسمح لهما بتجاوز منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات. والواقع أن الاتصالات بين الثنائي فيصل-حنان وياسر عرفات كانت تجري بشكل يومي. وعندما تم تحديد مضامين النقاشات التمهيدية، ذهب الممثلون الفلسطينيون إلى تونس لتداولها مع ياسر عرفات وبعض الشخصيات المستقلة. لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية

حاضرة رسمياً في مؤتمر مدريد، ولكنّ ياسر عرفات هو الذي كان يدير العمليات في الكواليس من الجانب الفلسطيني.

وقد التقيت يومها حنان عشراوي وفيصل الحسيني. كان فيصل الحسيني في شبابه عضواً في حركة القوميين العرب. ومن هنا، كنت قد التقيته في السابق أكثر من مرّة. لكن لقائي مع حنان عشراوي كان أول اللقاءات. السؤال الذي كان يؤرقني لدى رؤيتهما هو ما إذا كانت إسرائيل مستعدة لإزالة جميع المستوطنات، وما إذا كان الإسرائيليون عازمين فعلاً على إخلاء المستوطنات في إطار سلام مع الفلسطينيين؟ أجابني فيصل الحسيني بأن هذه المسألة قد طُرحت مع جيمس بيكر وبأنها تشكّل، على ما قاله، موضوعاً لتفهّم أميركي في مصلحة الفلسطينيين. السؤال الثاني الذي كان يشغلني كان يتعلق بالانسحاب الكامل من أراضي الـ١٩٦٧، بما فيها القدس، وأخيراً بحق عودة اللاجئين.

وبالنظر إلى معرفتي بالمشروع الصهيوني، وإلى إدراكي لطبيعة موازين القوى في تلك الفترة، وكذلك لأهمية المستوطنات بالنسبة إلى إسرائيل، لم أكن مقتنعاً البتّة بأن من الممكن لإسرائيل أن تقبل هذا التنازل.

وقد أصررت في دورة المجلس الوطني الفلسطيني التي انعقدت، بعد ذلك، بحضور فيصل الحسيني وحنان عشراوي،على ضرورة احترام ثوابتنا الوطنية المتمثلة بمبادئ الثورة. وأحدث خطابي أصداءً إيجابية بين مجمل الفصائل الفلسطينية، وشخصيات مستقلة والعديد من أعضاء فتح. وكان أحد الموضوعات التي احتلت موقع الصدارة في النقاشات هو موضوع الاعتراف الرسمي والواضح بقراري الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨ الذي كانت تطالبنا به الأسرة الدولية.

وفي دورة المجلس تلك، اعترفت منظمة التحرير أخيراً بقراري الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨. وكان الكثير من الفلسطينيين ينتظرون منا أن ننسحب من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، تعبيراً عن رفضنا للاعتراف بهذين القرارين. وبالنظر إلى المناخ العام، وإلى التصميم الذي أبداه الكثيرون على مواصلة الانتفاضة، قررت الجبهة الشعبية، في نهاية المطاف، ألاّ ننسحب من اللجنة

التنفيذية، ولكن مع إعلان تحفّظها عن القرارين ٢٤٢ و٣٣٨، على أساس أن الأولوية عندنا هي للمحافظة على الوحدة الوطنية.

أما ياسر عرفات، وبالرغم من الرغبة الأميركية في استبعاد منظمة التحرير، فقد أصرّ على الاستمرار في خط المساومة الذي كان يتم رسمه في المطبخ الأميركي. كانت واشنطن تعتبر أن على فلسطينيي الداخل أن يتمثلوا من خلال الأردن، على ما كان عليه الأمر في مؤتمر مدريد، حيث كان الوفد الفلسطيني قابعاً خلف وفد المملكة الأردنية الهاشمية. ولم يلبث الوفد الفلسطيني الذي كان بقيادة حيدر عبد الشافي أن بدأ سريعاً يصطدم بصعوبات جدّية في المفاوضات التي أطلقت في أعقاب مدريد. وكنت أتساءل كيف يمكن لشخصية هامة مثل الدكتور حيدر ألاّ يكون قد تهيّأ مسبقاً لمواجهة العوائق الضخمة التي ستعترضه في الطريق؟ هل كان حيدر عبد الشافي مقتنعاً بأن الولايات المتحدة ستحلّ المشكلة الفلسطينية لمصلحتنا؟ هل نسي أن إسرائيل لن توافق مطلقاً على التفاوض بخصوص القدس وإخلاء المستوطنات وعودة اللاجئين وإقامة الدولة الفلسطينية ذات السيادة؟. وعندما تبيّن له أنه لن يتمكن من إحراز أيّ تقدّم، استخلص النتيجة التي فرضت نفسها وقدّم استقالته. أما عرفات فكان يسعى بكل جهده لإيجاد إجابة عن هذه المشكلات. وبدلاً من أن يعمل على تكثيف الانتفاضة من أجل تغيير موازين القوى، شرع في إجراء الاتصالات السرّية التي أفضت إلى اتفاقيات أوسلو الكارثية.

كانت اتفاقيات أوسلو مناسبة تماماً لإسرائيل. كيف نظرت إلى مضمون تلك الاتفاقيات؟

لقد شجبنا تلك الاتفاقيات من حيث المبدأ. كنا نعلم أن عرفات يسير في طريق مسدود.

كان على الفلسطينيين أن يبذلوا الكثير من الجهود ليصبح بإمكانهم، بعد ذلك، أن يحصلوا على غزّة، ثم أريحا.

من هنا، كانت المعارضة الصارمة من قبل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. لم تكن أوسلو تقدّم الحد الأدنى مما كان يطالب به الفلسطينيون. ففي حين كنّا نرمي بكل ثقلنا بعد ست سنوات من انطلاق الانتفاضة، لم نحصل إلا على بعض الفتات على المستوى السياسي. كانت أوسلو مثالاً للجبل الذي تمخّض فولد فأراً.

هناك عاملان بشكل خاص أدّيا إلى ذلك الفشل. الأول هو عدم ملاءمة الظروف بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وجبهة الرفض. والثاني هو تصميم الإسرائيليين على عدم التنازل لنا عن أي شيء. خذوا مثلاً إحدى الاتفاقيات الموقّعة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، أي اتفاقية الخليل التي أُقرّت في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧. كان ذلك عبارة عن تراجع مروّع لياسر عرفات! اتفاقية تسمح بالاستيطان اليهودي في الخليل! كان ذلك مرضياً تماماً لإسرائيل التي تمكنت من تحقيق ما كانت تصرّ عليه. وقد عارضتُ ذلك التنازل المخجل ودعوتُ إلى تكثيف أعمال المقاومة كحلّ وحيد لمواجهة العدو.

وخلال العام ١٩٩٧ نفسه، انشغلت مختلف لجاننا القيادية بالتحضير لاجتماع لمنظمة التحرير الفلسطينية هدفه تعزيز الحوار الوطني. وقد طالبنا بأن يأتي هذا الحوار بعد تجميد مفاوضات السلام مع إسرائيل وتحرير جميع السجناء الذين اعتقلتهم السلطة الفلسطينية. لكن مطالبنا لم تتحقق بسبب معارضة ياسر عرفات، غير أن بعض الرفاق أصرّوا، بهاجس الحرص على الوحدة، على المشاركة في ذلك الحوار الداخلي. وكان هدف هذا الحوار هو النقاش حول الوضع النهائي للأراضي الفلسطينية.

كان بعض الرفاق يؤيّدون مشاركة الجبهة الشعبية في الحوار الوطني. وهنا نشب خلاف في ما بيننا. ولقد تلقّيت بالكثير من الارتياح عدم موافقة أكثرية قياديينا على مشاركة الجبهة في لقاء في نابلس لبحث مسألة الوضع النهائي للأراضي الفلسطينية.

ولمواجهة أوسلو، طالبت بتشكيل جبهة وطنية للوقوف في وجه كل من

إسرائيل وأسلوب عرفات. كنا نحاول تجميع اليسار من خلال ذلك. لكن بعض أعضاء تلك الجبهة، وخصوصاً الجبهة الشعبية الديموقراطية، أيّدوا، ويا للأسف، عملية السلام مع إسرائيل.

وفي الوقت نفسه، كان عرفات يضاعف جهوده من أجل اجتذاب الفصائل المعارضة لأوسلو. وعلى ذلك، دعا الجبهتين، الشعبية والديموقراطية، وكذلك الحركتين الإسلاميتين، حماس والجهاد، للمشاركة في حكومته. ولحسن الحظ، رفِضت الدعوة من قبل الجميع. عندها، بدأ عرفات يدرك أن المفاوضات قد وصلت إلى الطريق المسدود والخطر. ثم مد يده إلينا، مرة ثانية، عندما دعا الجبهتين، الشعبية والديموقراطية، في العام ١٩٩٨، إلى الاجتماع ضمن إطار مجلس مركزي فلسطيني في القاهرة، بهدف الحوار أيضاً. وقد عارضت ذلك علماً مني بأن عرفات سيستخدم ذلك الحوار لتغطية مفاوضاته مع إسرائيل. قلت يومها للرفاق إنني لن أذهب إلى القاهرة، على رأس وفد من الجبهة، للمشاركة في ذلك الحوار. كما طلبت إليهم عدم الذهاب ما دام عرفات متمسكاً بخطه السياسي ومصرّاً على عدم إطلاق سجنائنا. وعلى ذلك، لم تلقَ محاولة الحوار أي نجاح.

وبعد أشهر على ذلك، وقّع عرفات، في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٨، اتفاقاً جديداً مع إسرائيل في واي ريفر في الولايات المتحدة. ولم يكن الاتفاق سياسياً وحسب، بل كان اتفاقاً أمنياً مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. وقد أقرّ ذلك الاتفاق رؤية إسرائيل الخاصة بأمنها على حساب أمن الفلسطينيين. وسرعان ما أدّى ذلك إلى تهديد وحدتنا الوطنية ووضعنا على حافة الحرب الأهلية. وأخيراً فرضت واي ريفر إلغاء فقرات من الميثاق الوطني الفلسطيني، علماً بأنني في العام ١٩٩٦ عارضت وبشكل قاطع وواضح مشاركة الجبهة في الاجتماع الحادي والعشرين للمجلس الوطني الفلسطيني الذي عُقد بين ٢٢ و٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٩٦، الذي دعاه ياسر عرفات إلى الانعقاد في غزة، بحضور الرئيس الأميركي بيل كلينتون، للمصادقة على إدخال ذلك التغيير في ميثاقنا الوطني.

ولمواجهة تصميم عرفات على تغيير ميثاقنا الوطني، أجرينا اتصالات مع الفصائل الفلسطينية المعارضة لمفاوضات السلام ومع شخصيات مستقلة، بغية أن نقوم، من جهتنا، بالدعوة إلى مهرجانات شعبية تؤكد على رفض هذا التنازل الجديد. وقد عُقد اثنان من هذه المهرجانات في غزة ورام الله. لكنّ المهرجان الأكثر أهمية هو ذاك الذي عُقد في دمشق، في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨، بحضور السيد حسن نصرالله، الأمين العام لحزب الله، والرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلّة. إلا أن المسؤول الأول في الجبهة الديموقراطية، نايف حواتمة، أبدى تحفّظات على شعار المؤتمر: «فلسطين دولة من البحر إلى النهر». وبالرغم من بعض الفوارق في وجهات النظر، انتخب المؤتمر لجنة عليا كلّفت متابعة تنفيذ القرارات المتخذة.

في العام ١٩٩٩، وعد رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد، إيهودا باراك، بتسريع مفاوضات السلام مع سوريا. كيف تلقيتم هذا الخبر؟

على الرغم من معارضة بعض الأنظمة العربية، دعونا إلى عقد قمّة عربية للنظر في هذه التطوّرات على المستوى الفلسطيني، لكن التردّد والانتظار كانا سِمة الموقف. ومع ذلك، قررنا إطلاق الدعوة لحوار جديد. وهكذا، تمّ لقاء بين فتح والجبهة، في الأول من آب/ أغسطس ١٩٩٩، في القاهرة. وقد نشب خلاف داخلي جعلني أُعلم الرفاق بأنني لن أقدّم تغطية للمساومة التي سيقترحها عرفات على اللقاء والمتمثلة بإقامة دولة فلسطينية بدون القدس الشرقية وبدون عودة اللاجئين. وهنا، مرّت الجبهة الشعبية بواحدة من أخطر مراحل تاريخها، حيث خيّرتُ الرفاق بين قبول استقالتي من الأمانة العامة للجبهة، أو تأجيل البتّ في الموضوع حتى انعقاد مؤتمرنا السادس الذي كان مقرراً بعد شهر من ذلك التاريخ. وقد قُبل طلبي، وشرحت للرفاق أنّ عليّ أن أحتفظ بحريتي الكاملة في التعبير عن رأيي الشخصي بشكل مستقل عن رأي الجبهة وذلك قبل أن أترك الأمانة العامّة ببضعة شهور.

وقد جاء التحضير لهذا المؤتمر مختلفاً جداً عمّا كان عليه الأمر في المؤتمرات السابقة التي كنت أقوم فيها بإعداد الوثائق بنفسي. فبما أنه كان آخر مؤتمر أشارك فيه بصفتي أميناً عاماً للجبهة، فقد حرصت على أن يكون الرفيق أبو علي مصطفى هو المسؤول عن التحضير له حتى اعتماد النص النهائي. وهذا ما حصل فعلاً.

وقد كان المؤتمر السادس استثنائياً أيضاً لأنه سينعقد في ثلاثة أماكن مختلفة، أي في دمشق ولكن أيضاً، وللمرّة الأولى، في رام الله وغزّة، في داخل الأراضي المحتلة. وتم ذلك بقرار من قيادة الجبهة الشعبية. وقد عقد الاجتماع الأول في دمشق، في نيسان/أبريل عام ٢٠٠٠، حيث اقترحت في خطاب مطوّل أن يصار إلى إبعادي عن قيادة الجبهة، لكي أكرّس نفسي لتأسيس مركز للدراسات العربية، ولكتابة تجربتنا النضالية، لتظل درساً للأجيال القادمة.

كانت الجبهة قد قررت قبل ذلك ببعض الوقت، وبغير رضاك، أن تنقل قسماً من قيادتها إلى الأراضي المحتلة. أليس كذلك؟

حتى العام ١٩٩٨-١٩٩٩، كان جميع أعضاء قيادة الجبهة في الخارج يعارضون عودة كوادرها إلى الضفّة الغربية وقطاع غزّة، حيث السلطة الفلسطينية تمارس الحكم نظرياً. وبعد ذلك، أعطيت الضوء الأخضر للرفاق الذين كانوا يعبّرون عن رغبتهم في العودة. أما أنا، فقد امتنعت عن ذلك، من حيث المبدأ، لأنني كنت أقول دائماً بأنني لن أعود إلا عندما يعود الخمسة ملايين لاجىء إلى فلسطين.

عندما عاد أبو علي مصطفى، الأمين العام المساعد للجبهة الشعبية، إلى الضفة الغربية، هل كان ذلك يعني أن الجبهة الشعبية قد وافقت، خلافاً لإرادتك، على عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟

كان الضوء الأخضر الإسرائيلي قد أُعطي قبل ذلك بفترة طويلة. كما كان أبو

عمّار يُعلمنا تباعاً بتطور العلاقات مع الإسرائيليين. وما أن علم بالموافقة على عودة أبو علي مصطفى حتى أعلمه بذلك، فعاد إلى الضفة الغربية. وقد سبقه الكثير من الأعضاء إلى العودة. وكان كل من أبو عمّار والإسرائيليين يرغبون في عودة الفلسطينيين إلى الضفة والقطاع.

كنت قليلاً ما أتكلم عن عودتهم لأنهم كانوا يعلمون بأنني لن أغيّر موقفي. لكنهم كانوا يبرّرون عودتهم طبعاً بأهمية وجودهم قريباً من المقاومة التي ستكون، في نظرهم، أقوى بكثير على أرض المواجهة.

وعندما استقلتَ بعد ذلك، كيف كنت تنظر إلى نشاطك: هل كنت ترغب في أن تبقى عضواً فاعلاً، أم أن تبتعد بعض الشيء؟

قدّمت استقالتي في المؤتمر السادس عام ٢٠٠٠. وحتى اليوم ما زلت أتمتع بتأثير ما على القرارات الكبرى أي أنني بمثابة الزعيم الروحي. ورأيي مهم جداً لناحية تنظيم المؤتمر السابع للجبهة الشعبية، وتحديداً حول موضوع ما إذا كان ينبغي عقد هذا المؤتمر أم لا. علماً بأنه لم ينعقد أي مؤتمر منذ العام ٢٠٠٠. كما أن مسألة العلاقة مع إيران قد طُرحت عليّ أيضاً، بعد الحرب بين إسرائيل وحزب الله في لبنان، العام الماضي. وقد قلت بضرورة المحافظة على علاقة صحيحة مع الإيرانيين، دون أن نكون خاضعين أو تابعين لهم. وقد حسمت المسألة أخيراً هذا العام. وما زلت أذهب كل صباح إلى مكتبي، حيث أقوم بإجراء اتصالات مع الرفاق. وعندما تشارك الجبهة الشعبية في قمّة ما فإنهم يستشيرونني في الموقف الواجب اعتماده.

أتصوّر أنك قد استشرتَ لمعرفة ما إذا كان ينبغي الردّ على اغتيال أبو علي مصطفى من قِبل إسرائيل، ردّاً على تصفية وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي؟

لا، لم يستشرني أحد فالموضوع يعود للقيادة العسكرية في الداخل. ولكنني

أذكّرك بشعارنا: سنضرب العدوّ أينما وجِد. إذن، كان من الطبيعي أن نردّ على الجريمة التي ارتكبها العدو باغتيال أبو علي مصطفى.

هل شكّلت الانتفاضة الثانية مفاجأة بالنسبة إلى الجبهة الشعبية؟

كنا نتوقّعها بعض الشيء. ودون الاعتماد على معلومات دقيقة، لم نكن نجهل أن انتفاضة كانت تلوح في الأفق، وذلك بعد أن أصبح إخفاق اتفاقيات أوسلو ملموساً على أرض الواقع. كما كان الناس قد ضاقوا ذرعاً بهذا الوضع. وكانت مسألة الفساد داخل السلطة الفلسطينية موضوعاً اجتذبنا إليه انتباه الناس الذين استنكروا ذلك. وكان المجلس التشريعي الفلسطيني نفسه قد طرح هذه المشكلة بطريقة حادّة. كنا نردد القول على الفلسطينيين أن ما بُني على الخطأ لا يمكنه إلا أن يقود إلى المزيد من الأخطاء. وفي ما يتجاوز هذه الوزارة أو تلك، كان الفساد يطاول مؤسسات السلطة نفسها. وبالنسبة إلينا كان النضال ضد الفساد يعني الاعتراف بفشل أوسلو كمُعطى موضوعي. فاتفاقيات أوسلو لم تنجح لا في حماية الأرض الفلسطينية ولا في حماية الشعب الفلسطيني من التجاوزات الإسرائيلية اليومية. وكان هنالك تدمير المنازل الذي حرم آلاف الفلسطينيين من المأوى، والقصف الذي أودى بحياة الكثيرين من الفلسطينيين، والاعتقالات التي قادت ١٢ ألف فلسطيني إلى السجون.

ألا تعتقد أن الفلسطينيين قد خسروا الكثير مع زوال معادلة «الحجر في مقابل الدبّابة»؟

لا أظنّ ذلك، لأنّ الحجر ما يزال موجوداً كسلاح أساسي في أيدي الأطفال الذين يستشهدون يومياً في مواجهة البطش الإسرائيلي. ومن هنا قلنا بأن الانتفاضة التالية لا بد لها من أن تعتمد معادلة مزدوجة تعتمد العمليات العسكرية الموجّهة ضدّ أهداف عسكرية، من جهة، والتعبئة الشعبية الواسعة، من جهة ثانية.

لماذا تمّت «عسكرة» هذه الانتفاضة الثانية؟

لأنه من المهم أيضاً، إضافة إلى الاحتفاظ بالحجر، أن نتمكّن من إنزال خسائر بالعدو. كل أشكال النضال الشعبية والعسكرية مشروعة في نظري. كان لا بدّ لنا إزاء القوة العسكرية الإسرائيلية المدمّرة من استخدام السلاح لمواجهة العدو.

ما كان رأيكم في إدارة الانتفاضة من قِبل ياسر عرفات؟

انطلاقاً من معرفتي به في المواقف المشابهة، كنت أعلم بأنه يميل إلى الاحتفاظ بجميع الخيوط في يده قبل أن يلتحق بالرأي الغالب. لقد جسّ نبض الشارع، ولاحظ ما كان عليه الناس لجهة تفضيل الحجر أو البندقية. كان عرفات براغماتياً إلى أبعد حدّ، فانتظر حتى تتضح الأمور قبل أن يعمد إلى الاختيار. والحال أن الاستطلاعات بيّنت أن ٦٠ في المئة من الفلسطينيين كانوا يؤيّدون العمليات العسكرية للردّ على ما كان يتعرّض له الشعب من قصف وهجمات. وعندما لاحظ أن الإسرائيليين لن يقدّموا له أي شيء آخر، أياً كانت الجهود التي يبذلها، أصبح أكثر جذرية من الجذريين أنفسهم.

كانت هذه الانتفاضة الجديدة بمثابة هِبة من السماء، بالنسبة إلى الجبهة الشعبية المعادية للاتفاقيات بين الإسرائيليين والفلسطينيين. أليس كذلك؟

جاءت هذه الانتفاضة لتؤكد فعلاً توقّعاتنا القائلة بأن اتفاقيات أوسلو لن تقدّم شيئاً، وبأن الشعب سينتهي به الأمر إلى التحرك. لكنّ القيادة الفلسطينية الحالية لا تمتلك رؤية معمّقة للحركة الصهيونية. فالإسرائيليون لن يقدّموا مطلقاً أية تنازلات حقيقية في مسألة القدس وحق عودة اللاجئين. وأنا لا أكون حالماً على الإطلاق عندما أردد القول بأن الوقائع تثبت صحة وجهة نظري منذ عشر سنوات. وها أنذا أكرر القول بأن إسرائيل لن تتراجع حتى مع اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية. يقال غالباً بأن الجبهة الشعبية تظل في الإطار النظري. لكنّ قناعاتنا

قابلة للتحقيق. فمن غير النضال الطويل الأمد الذي يضع إسرائيل أمام الأمر الواقع لا نستطيع انتزاع أي شيء من إسرائيل. فإسرائيل ليست وحدها. إنها تشكّل كتلة مع حلفائها بمن فيهم بعض الأنظمة العربية والغربية. وإذا كان الأميركيون قد طلبوا إلى إسرائيل التأكيد على القبول بفكرة الدولة [الفلسطينية]، فإن إسرائيل منذ العام ١٩٦٧، وهي تواصل مصادرة الأرض الفلسطينية وإقامة المستوطنات. ولا نعرف حتى ما إذا كان من الممكن للدولة [الفلسطينية] التي تقام على ما تبقّى من الأرض أن تكون دولة ذات سيادة. لا، بالتأكيد، يبدو أن السلطة الفلسطينية الجديدة لا تعرف حقيقة العدوّ.

غير أن بإمكان قيادي فتح أن يجيبوك بأنهم تعلّموا كيف يعرفون الإسرائيليين منذ أن بدأوا التفاوض معهم قبل خمسة عشر عاماً.

لا يكفي أن يعاشروا الإسرائيليين. لا بد لهم أيضاً من قراءة صحيحة للوضع. لا ينبغي الظنّ هنا بأنني أحاول التقليل من قيمة العمل الذي قام به أبو عمّار. فهو قد توصّل إلى وضع القضية الفلسطينية على المستوى الدولي، وهذا أمر جيد جداً. أما انتقاداتي فهي تتعلق، كما تعرف، بتنازلاته الزائدة عن الحدّ والمجّانية التي أضعفت مواقعنا.

قولك بأن إسرائيل متعنّتة لم يعد صحيحاً تماماً اليوم. ففي العام ٢٠٠٥، قام الإسرائيليون بإخلاء قطاع غزّة وفكّكوا ما كان فيه من مستوطنات. ألا تعتقد بأن أموراً قد تمت في الاتجاه الصحيح؟

صحيح أن أموراً قد تمّت وأن مستوطنات غزة قد فُكّكت، لكن ذلك لا يكفي. فذلك لا يشكل سوى إجراءات صغيرة جداً لا ينبغي لها خصوصاً أن تنسينا المسألة الأكثر أهمية، أي حق العودة للاجئين وإخلاء جميع المستوطنات الإسرائيلية الأخرى التي زرِعت في الضفة الغربية منذ العام ١٩٦٧.

هل اعتقدت بأن عملية السلام ستشقّ طريقها عندما اجتمع بيل كلينتون في كامب دايفيد، عام ٢٠٠٠، ولمدة خمسة عشر يوماً، مع ياسر عرفات وإيهود باراك؟

وضع بيل كلينتون كلَّ ثقله من أجل إنجاح تلك المفاوضات. حاول الحصول على الحد الأقصى مما يمكن أن يقدّمه الإسرائيليون. وكنت أخشى من أن يبدأ عرفات بتقديم تنازلات مجانية حول المسائل الحاسمة المتمثّلة بالقدس وحق العودة والمستوطنات. ولكنه، لحسن الحظ، لم يقع خلال تلك المفاوضات الخاصة في أي شطط حول تلك المسائل الثلاث.

كانت هنالك خشية من أن يتراجع عرفات في ظل الضغوط الكثيرة التي كانت تُمارس عليه، وكان الإسرائيليون مستعدين للتخلّي عن ٩٥ في المئة من الضفة الغربية.

صحيح. لقد حصلنا يومها من الإسرائيليين على الحد الأقصى. وقد قال عرفات مرّة وهو يغادر قاعة الاجتماعات: «إذا قبلت بهذا، فإنني لن أعود إلى بلدي!». كان أبو عمّار يتساءل عمّا إذا كان الإسرائيليون مستعدين للتنازل بخصوص المسائل الأساسية. كان يعلم بأن عليه ألا يقدّم تنازلات زائدة عن الحدّ لأن من شأن ذلك أن يعرّض حياته للخطر في بلده. وقد كتب كلينتون في مذكّراته أن الشخص الوحيد الذي هزىء به هو عرفات.

ألم يكن من الأفضل مواصلة المفاوضات بدلاً من إطلاق انتفاضة جديدة؟

بما أنّ أياً من الاتفاقات الموقّعة مع إسرائيل لم يطبّق، فإنه لم يبق أمام الفلسطينيين غير خيار الانتفاضة. كان عرفات في الحقيقة صبوراً جداً. فقد بلغ به الأمر، بُغية إرضاء الإسرائيليين، حدّ اعتقال عدد من أعضاء الجبهة الشعبية، بحجة أنه يحميهم بذلك من ضربة إسرائيلية. لكننا كنا نعلم أن أميننا العام، أحمد سعدات، وأعضاء آخرين، كانوا خلف قضبان السلطة لا تحت حمايتها. كان

عرفات مستعداً دائماً لفعل أي شيء من أجل بلوغ أهدافه. لكنّ ذلك الصبر الذي كان يجعله يمدّ يده إلى ما لا نهاية انتهى بأن انقلب عليه.

عندما تقول إن عرفات كان صبوراً، ألا تعتقد بأن المسؤولية في فشل أوسلو تقع على عاتق الأسرة الدولية؟

أعتقد بأنه كان من الرائع لو أن الأسرة الدولية كلّفت نفسها عناء دعم الفلسطينيين في المسائل الثلاث التي ذكرتها مراراً. لو فعلت ذلك لكانت وفّرت علينا آلاف الضحايا. ولكنها لم تفعل ذلك ويا للأسف.

لماذا؟

كان الاتحاد السوفياتي يشكّل ثقلاً في مواجهة النفوذ الأميركي. أما اليوم فإن بإمكان الأميركيين، في عالم القُطب الأوحد، أن يدعموا الإسرائيليين بدون تحفّظ. لقد لعب تفكّك العالم الاشتراكي دوراً لا يُستهان به. واليوم ترتفع أصوات غربية عديدة ضد جدار الفصل العنصري الذي قطّع أوصال المناطق الفلسطينية وضاعف آلام شعبنا. هذا الجدار يشكّل عائقاً آخر أمام أي حل، ويثبت أن إسرائيل لا نيّة لديها في المضيّ قُدماً نحو السلام، ولا تريد أن تسمع أي كلام حول هذا الموضوع. إنها تفرض جدار الفصل العنصري كأمر واقع أياً كانت الجهة التي تأتي منها الانتقادات.

هل كان لأوروبا تأثير إيجابي على المسألة الفلسطينية؟ أم أنكم تعتبرون أيضاً أن أوروبا تنحاز إلى إسرائيل؟

هنالك دور لعبته أوروبا، لكنه لم يكن مؤثّراً حقاً. وفوق ذلك، لم يحدث مطلقاً أن كان هنالك إجماع أوروبي. فأوزوبا لا تتكلم مطلقاً بصوت واحد. وحدها بلدان كفرنسا أو إسبانيا ترفع صوتها في بعض الأحيان. من المؤسف أن الاتحاد الأوروبي لا يتكلم بصوت واحد في الموضوع الفلسطيني.

الفصل السادس عشر

حول الحركات الإسلامية، والديموقراطية، والمرأة، وغزّة

ما هي المحصّلة التي تستخلصها من نضالاتك خلال خمسين عاماً؟

من حين إلى آخر، أستيقظ خلال الليل وأنا أفكر ما الذي تمّ تحقيقه خلال تلك السنوات الستين المنصرمة على صعيد: الكفاح المسلّح، استعادة الأرض، قيام الدولة، عودة اللاجئين؟ ما الذي حققناه من مكتسبات بالقياس إلى هذه الشعارات التي رفعت عند انطلاق المسيرة؟ فعلى الرغم من مرور ستين عاماً من النضال والتضحيات الجسيمة ووضع القضية الفلسطينية على خارطة العالم وتقديم عشرات الآلاف من الشهداء، لم نحقّق أهدافنا الوطنية بعد. لكنني أشعر باعتزاز لمشاركتي الفاعلة في تحرير اليمن الجنوبي بالقدر نفسه من التفاني في نضالي من أجل القضية الفلسطينية.

ولكن، ألا يظلّ ذلك قليلاً جداً بالقياس إلى النضال من أجل فلسطين؟

كان هنالك على الدوام ارتباط وثيق بين نضالنا القومي ونضالنا من أجل فلسطين. وإنه لمكسب ومصدر كبير للإحساس بالرضا أن نرى مئات الألوف من اليمنيين وهم يعيشون أحراراً في بلدهم. كما أنني فخور أيضاً بالإسهام في الحياة السياسية في الكويت، من خلال رفاقنا في الفرع الكويتي لحركة القوميين العرب. وأذكر هنا تحديداً الدكتور أحمد الخطيب ورفاقه الذين أثّروا على المسار

السياسي في الكويت. ومن دواعي الاعتزاز أيضاً أنه رغم تحوّلنا إلى حزب ماركسي كنا دائماً ننظر إلى قضيتنا الفلسطينية في إطارها القومي العربي وبقيت القضايا القومية لأمتنا في صلب اهتمامنا. لكنني غير مرتاح، بالمقابل، لأنني لم أركّز بما فيه الكفاية في شعاراتي على الديموقراطية، في فلسطين أولاً، ومن ثم في سائر العالم العربي. وبالرغم من ذلك، فإنني أمارس الديموقراطية في جميع جوانب حياتي اليومية. أما بالنسبة إلى الوحدة العربية، فقد تكلمنا عنها كثيراً دون أن نقول بوضوح ما الذي تعنيه بالضبط. في السابق، كنا ننظر إليها بوصفها وحدة تضمّ جميع بلدان المنطقة في ظل دولة واحدة. لكن هذه النظرة لم تعد ممكنة اليوم. فاليوم، لا يزال شعار تلك الوحدة، لكن تطبيقه يجب أن يأخذ في الاعتبار خصوصيات كل بلد عربي. أنا أعتقد أن تجربة حركة القوميين العرب بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتحليل.

لقد ظهرت بعض الدراسات عن حركة القوميين العرب، منها ما كتبه هاني الهندي. لكن آلمني جداً أنه لم يُعلمني بالعمل الذي كان بصدد إنجازه، أو حتى بأخذ شهادتي بصفتي مؤسّس الحركة، رغم أني كنت في تلك الفترة على علاقة جيدة جداً به، إذ كان صديقاً قديماً ورفيقاً في درب النضال.

ما هو المشترك بين المغرب وسوريا، مثلاً؟

التاريخ واللغة والمصالح القومية المشتركة...

الديموقراطية تتقدم في أفريقيا وآسيا، لكنها لا تتقدم في العالم العربي. ما السبب في ذلك؟

هنالك العديد من العوامل التي تعيق المسار الديموقراطي في معظم بلدان العالم العربي. وتأتي قبل كل شيء قوى الأمن (المخابرات والبوليس السرّي) القوية جداً في هذه البلدان. وهي موجودة لحماية الأنظمة ومصالحها ولمواجهة المعارضين، وليس من أجل الدفع باتجاه الديموقراطية. ومن المناسب أن نشير

هنا إلى أن بعض الأنظمة الغربية ليست لها أية مصلحة في أن تحرز الديموقراطية تقدّماً في العالم العربي.

وأخيراً، هنالك الطريقة التي يتم من خلالها تفسير الدين والتي تشكّل أيضاً عائقاً أمام تقدّم الديموقراطية. إنّ عوائق أخرى تحصل عندما ينبري البعض للقول بأن الدين قادر على حل جميع المشكلات، سواء كانت اقتصادية أو سياسية. فالدين أياً كان يتحوّل إلى كابح للديموقراطية عندما يضع نفسه فوق النقاش. وقد كانت الحركات العلمانية الشبيهة بحركتنا مهمّة لأنها اعتبرت الدين مسألة شخصية. أما اليوم، وحتى في داخل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فإن العديد من المناصرين قد بدأوا ينجذبون إلى المُثل الإسلامية.

هذا الموضوع حسّاس جداً. لذا لن أدخل في التفاصيل لكي لا يُساء فهمي. نحن بحاجة إلى مناصرين، لذا علينا أن نراعي معتقداتهم. وإذا كان النقاش حول موقع الدين ليس مطروقاً اليوم إلا بشكل محدود جداً، فإن أملي كبير في أن يتغير هذا الوضع في المستقبل. فالإسلام يستند بالفعل إلى الشورى. وعندما أقول بأنني مسيحي فإنني لا أقول ذلك على سبيل التعصّب، بل لأنني أحبّ الجوانب الإيجابية في هذا الدين. التسامح، ومحبة الآخر، والإخلاص، ونكران الذات والتضحية هي مكوّنات هذا الدين، وهي تجعلني أشعر بالسعادة وأنا أمارسها في كل يوم من حياتي. ثمّ إنني نشأت في فلسطين التي كانت وطناً مثالياً ونموذجاً يحتذى في التعايش بين الأديان.

لو كان هنالك احترام للديموقراطية لانتصر الإخوان المسلمون في مصر والأردنّ، وحماس، على ما يبدو، في فلسطين، وحزب الله في لبنان. فالانتخابات الحرّة من شأنها أن تحمل القوى الإسلامية إلى السلطة. هل ينبغي المضيّ قُدماً في طريق الديموقراطية، أم ينبغي أن يؤخذ هذا الخطر في الحسبان؟

ينبغي المضيّ قُدماً في طريق الديموقراطية مهما بلغ حجم الطوفان

الإسلامي. فتمكين هذه الحركات من أن تنال نصيبها ضروري من أجل أن تتمكن الجماهير المعنية من الحكم على جدّية تلك الحركات. إن ذلك هو أفضل طريقة لاختبارها، وبالتالي لإضعافها على المدى الطويل إن لم تثبت جدارتها. فالمثال الجزائري غنيّ جداً بالتعبير حيث تمّ وقف العملية الانتخابية في بداية التسعينيّات من القرن الماضي، وقام الجيش بالاستيلاء على السلطة، واجتازت البلاد مرحلة صعبة. كان من الأفضل لو تُرِكَ الإسلاميون ليثبتوا ما هم قادرون على فعله عند استلامهم السلطة.

هذا ما فعله الملك حسين، في العام ١٩٨٩، عندما أعطى مناصب وزارية لعدد من الإخوان المسلمين الذين كانوا قد فازوا في الانتخابات التشريعية، قبل أن يعود إلى إبعادهم بعد سنوات.

كان الملك حسين يتمتّع بحكمة وذكاء نادرين.

وماذا لو امتنع الإسلاميون عن التخلّي عن السلطة بعد انتخابهم؟

عندها سنناضل باسم الديموقراطية من أجل إسقاطهم! وهذا هو السبب الذي جعلني أسعى إلى تغيير شعارنا المستند إلى الوحدة والتحرر واسترجاع فلسطين والاشتراكية، لأضيف إليه مفهوم الديموقراطية. لأن من شأن هذه الديموقراطية أن تمكّن حزباً كحزبنا من الدخول في اللعبة السياسية من بابها الواسع، بعد أن تعطيه الكثير من القوة. كما أن من شأن ذلك أن يسمح بتداول السلطة بين مختلف القوى الممثلة في اللعبة السياسية.

كيف يسعكم اليوم إدخال تداول السلطة، في وقت نلاحظ فيه أن بشّار الأسد يخلف حافظ الأسد في سوريا، وجمال مبارك سيفعل ذلك، على ما يبدو، في مصر، بعد رحيل حسني مبارك، وكذا الأمر في ليبيا العقيد القذّافي؟

نظام الجمهورية الوراثية هذا لن يدوم طويلاً. فالديموقراطية انتهت دائماً،

من الناحية التاريخية، إلى تحقيق الانتصار. انظروا مثلاً إلى حركة كفاية في مصر، إنها تنظّم التظاهرات من أجل المزيد من الديموقراطية بالرغم من القمع الذي تتعرض له من قِبل الشرطة وقوات الأمن، كما ظهرت في مصر حركات أخرى كثيرة تطالب بالعدالة والحرية والمساواة، وليس الأمل مفقوداً تماماً.

بالنظر إلى الجمود الذي غالباً ما يعاني منه المجتمع المدني في العالم العربي، هل تنبغي إقامة الديموقراطية عن طريق القوة، كما في العراق، أم عبر الرهان على الوقت وعلى تحلّل هذه الأنظمة بالتوازي مع دعم المنظات غير الحكومية مثلاً؟

الحلاّن كلاهما لا يفيان بالمطلوب. فدمقرطة العالم العربي سوف تتم مع الزمن، ولكن ينبغي للأحزاب الديموقراطية الموجودة في طور التكوّن أن تمسك بزمام عملية الاحتجاج. والأكيد أن هذه الأحزاب لا تتمتع اليوم، من حيث عددها وقوّتها، بما يكفي من القوة للوقوف في وجه الهيمنة المحكمة التي تمارسها الأنظمة القائمة. لا بد من زلزال يطيح بكل هذا الوضع. لا بد من اغتنام الفرصة لدفع الأمور إلى الأمام في كل مرة يمنح فيها أحد الأنظمة العربية فُسحة من الحرية لشعبه. كل شيء يجيز لنا أن نكون متشائمين، لكنّ ذلك من شأنه أن يتغيّر في المدى المتوسط. فالمعركة ينبغي أن توضع ضمن أفق تاريخي.

ما قولك في النزعة الإسلامية الجذرية وفي انزلاقاتها نحو العنف؟

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وإخفاقات حركات التحرر الوطني والوحدة العربية، هرعت الجماهير نحو النزعة الإسلامية التي رأت فيها بديلاً وأملاً جديداً. إن هذا الصعود القوي للنزعة الإسلامية يشكّل تراجعاً إلى الوراء على الصعيد السياسي. ومع هذا لا ينبغي الاعتقاد بأن الإسلام السياسي هو بمستوى الخطورة المزعومة من قِبل خصومه. فالإسلام السياسي يشكّل مكوّناً وطنياً لا يمكن إنكاره عبر معارضته للهيمنة الأميركية التي يتصدى لها نضالنا بشكل أساسي

منذ عقود. فحماس وحزب الله هم وطنيون حقيقيون قدموا آلالاف الشهداء. لا تأخذوا الأمور بمظهرها ولا تنظروا إلى نضالهم من خلال المعتقدات والممارسات الدينية. إلا أنه من الصحيح أن هنالك من يعمل على وضع الدين في خدمة أغراض سياسية.

تعترفون أن بعض مناصريكم باتوا يتقبّلون الدعوات الإسلامية. أليس ذلك نتيجة لتفاهمكم، خلال فترة طويلة، مع إسلاميي حماس ضد فتح والسلطة الفلسطينية اللتين تدافعان عن عملية السلام مع إسرائيل؟

ينبغي قبل كل شيء تفهُّم الواقع المتمثل بكوننا لا نستطيع المساس بالمشاعر الدينية عند مناصرينا خوفاً من أن نخسرهم. وقد بدأنا بالفعل نلاحظ، في داخل الجبهة الشعبية، أن بعض الأعضاء يذهبون إلى المسجد وبعض النساء يرتدين الحجاب. قيادة الجبهة وكوادرها لم تصلهم بعد هذه التأثيرات. وأذكر هنا أن عملاً تثقيفياً طويلاً يتم على كل مرشّح للانضمام إلى الجبهة الشعبية. لذلك لا تزال إيديولوجيا الحزب شديدة الرسوخ عند الأعضاء. فتعدّد الزوجات ممنوع مثلاً في الجبهة الشعبية. ونحن نتكلم على هذه الظاهرة على مستوى القيادة والكوادر، ولكنّ نقاشاتنا لا تخرج عن الإطار السرّي لاجتماعاتنا. إننا نفضّل الحديث مع الأعضاء عن الخطر رقم واحد بالنسبة إلينا، أي عن الخطر الصهيوني والهيمنة الأميركية في المنطقة.

أما بالنسبة إلى المأخذ الذي طرحته بخصوص علاقاتنا مع حماس، فإنه لا يمكنك القول بأننا على علاقة مع تيار ديني أصولي، لأننا نتحالف سياسياً مع حماس ضد أوسلو. فالأمر متعلّق قبل كل شيء بوحدة النضال. والمقاومة الفلسطينية المتمثلة بالحركات الإسلامية لا تشبه الحركات الإسلامية في الجزائر والعراق من قريب أو بعيد. فلكلّ مرحلة قواعد اللعبة الخاصة بها: إسرائيل اليوم هي العدوّ، لذا علينا أن نجد حلفاء في النضال ضد إسرائيل. إننا نتحالف، في الساحة الفلسطينية، مع كل من يحارب إسرائيل بغضّ النظر عن معتقداته الدينية.

لا يمكننا أن نفصل القضية الفلسطينية عن الصراع الإسرائيلي العربي بمجمله. والولايات المتحدة جاءت لتفرض شرق أوسط جديداً علينا. ولحسن الحظ أن الورقة العراقية التي كانت تأمل أن تلعبها بسهولة قد انكشفت عن كونها خطرة إلى أبعد الحدود، بالنظر إلى الضربات القاسية جداً التي وجهتها إليها المقاومة. كما حاول الأميركيون توجيه ضربة إلى حزب الله من خلال إسرائيل، ولكنهم فشلوا. إن القوى الإسلامية تشارك بفاعلية في كل مرّة، إلى جانب قوى وطنية أخرى، في هذه المعركة ضد الهيمنة الأميركية.

ألا يشكّل هذا الموقع الهامّ الذي يحتلّه الإسلاميون في إفشال المخطط الأميركي مصدر قلق بالنسبة إلى حركة علمانية؟

لا بدّ من الإشارة أولاً إلى أن المخطط الأميركي الخاص بالشرق الأوسط لم يتم التخلّي عنه بشكل كامل. فالنفط العراقي سيدفع بالجيوش الأميركية إلى البقاء في العراق. وأكرر لك أن عدوّنا الأول هو إسرائيل والإدارة الأميركية المتحالفة معها. لذا، فنحن نضع جانباً ما يعنيه وجود الإسلاميين في المعادلة. نحن على وعي كامل بالمشكلات التي يطرحها ذلك على المدى البعيد. وعندما يحدث أحياناً أن يعبّر لي بعض الرفاق عن قلقهم إزاء الصعود الإسلامي في المنطقة، أشرح له أن الإدارة الأميركية التي تدعم المشروع الإسرائيلي في المنطقة تظل هي عدوّنا الرئيسي، وأن علينا أن نضع خلافاتنا جانباً لنواجه المشكلة الرئيسية التي تمثلها الإمبريالية الأميركية والصهيونية. ما يفصلنا عن الإسلاميين هو تناقضات ثانوية علينا أن نضعها جانباً. والأولوية هي لتحالفنا مع جميع حركات المقاومة. وعندما تُحلّ المشكلة المرتبطة بالهيمنة الأميركية يصبح من الممكن لنا أن نثير النقاش في خلافاتنا مع الإسلاميين.

أليس ذلك خطِراً؟

الخطورة محتملة، وهذا أمر نعيه جيداً. لكنّ الإسلاميين ليسوا أعداءنا. الأمر مزعج بالتأكيد بالنسبة إلى العديدين بيننا. فالنموذج الإسلامي ينطوي على

الكثير من النقاط السلبية، في ما يتعلق بالخيار الاجتماعي. ورؤيتنا تختلف عن رؤيتهم تحديداً في ما يخص مسألة المرأة. وبعض جوانب الحياة الاجتماعية اليومية في غزّة مثلاً مثيرة للقلق. لكن علينا الآن ألاّ نغفل عن رؤيتنا الاستراتيجية. فنحن نحاول النضال على جبهتين. الأولى هي جبهة النضال ضد الإدارة الأميركية والصهاينة، والإسلاميون هم حلفاؤنا على هذه الجبهة. وعلى الجبهة الثانية، نسعى جهدنا لكي تكون كوادر الجبهة الشعبية على وعي بخطورة هذه الاندفاعة الإسلامية.

هل أنتم متأكدون أن الإسلاميين ديموقراطيون؟

هنالك تناقضات داخل التيار الإسلامي نفسه. فالإخوان المسلمون في مصر يعتمدون خطاباً ديموقراطياً إلى هذا الحد أو ذاك. أما بالنسبة إلى حماس، فأنا لا أريد أن أنظر، في الوقت الحاضر، إلاّ إلى نضالها العسكري والسياسي ضد إسرائيل، دون النقاش في قناعاتها الدينية ورؤيتها للمجتمع. فالجانب الاجتماعي في مشروعها ليس من أولوياتنا وإن كنا على وعي كامل بمحدوديّته، كما أن احترامها للديموقراطية يظل أمراً لا بد لها من أن تثبته على المدى الطويل.

لقد فازت حماس في الانتخابات التشريعية في العام ٢٠٠٦. وقبل أن تستولي على السلطة في غزّة رفضت الأسرة الدولية أن تحاورها لأنها لا تعترف بإسرائيل وبالاتفاقات الموقّعة مع السلطة الفلسطينية، ولا تتخلّى عن النضال المسلّح. ما قولك في هذه السياسة المتميّزة أيضاً بإصرار الأسرة الدولية على معاقبة حماس من الناحية المالية؟

ذلك يشكّل صفعةً حقيقية لأنصار الديموقراطية في العالم العربي. إن هذا الرفض للاعتراف بالواقع يظهر جيداً أن الغرب لا يريد شيئاً غير ديموقراطيته الخاصة والقائمة على اختيار الشخصيات الأكثر قرباً من خياراته. الديموقراطية التي يتغنّى بها الغرب ليست غير ذرّ للرماد في العيون. ثم إن الإدارة الأميركية

التي كانت تطرح نفسها كداعية للديموقراطية لم تعد تأتي على ذكرها بعد هزيمتها المدوّية في العراق.

أليس هنالك خطر في أن نرى إقبالاً على القاعدة من قِبل من يخيب ظنّهم بحماس؟

ذلك احتمال لا يمكن استبعاده. غير أن معرفتي الجيدة بقادة حماس تجعلني أقول بأن هذا الاحتمال ما يزال بعيداً.

ما كان رأيك في التفجيرات التي نفّذتها القاعدة، في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، في الولايات المتحدة؟

تريد أن أجيبك من قلبي أم من عقلي؟

من الاثنين معاً.

للوهلة الأولى، كنت سعيداً كالكثير من العرب لرؤية الأميركيين وهم يتلقّون ضربة في عنفوانهم. ولم ألبث أن تأثّرت لمقتل مدنيين أبرياء. لا يمكننا أن نبتهج لممارسات القاعدة. الدين لا ينبغي له أن يكون في صميم كل شيء. والواقع أن التوجّه الذي تمثّله القاعدة يركّز قسماً من معركته على مُفاقمة الخصومات الطائفية، ومن هنا حرصه على مهاجمة الشيعة في العراق مثلاً. رأيي أن النضال ضد الإمبريالية لا ينبغي له أن يستهدف المدنيين.

لماذا لا يُظهر العرب مزيداً من الرفض لبن لادن؟

العرب يبغضون أميركا إلى حدّ يجعلهم يمتنعون عن الاحتجاج على بن لادن.

أليس هذا الصمت خطِراً؟

إنّ قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وكوادرها يتحدثون دائماً، في ما

بينهم، عن التهديد الذي تمثّله القاعدة. لكننا نتجنّب إثارة هذا الموضوع على مستوى الجماهير في الوقت الراهن. ثم إنه لا ينبغي أن ننسى أن هذه الحركة قد ولدت بفضل الأميركيين قبل أن تنقلب عليهم.

هل يتوجّب على الأميركيين أن يحلّوا المشكلة الفلسطينية قبل أن يصبح بمقدورهم أن يعتمدوا على دعم الجماهير العربية في حربهم ضد الإرهاب؟

من المهم جداً، قبل كل شيء، عدم الخلط بين المقاومة والإرهاب. نحن بالتأكيد ضد كل عمل إرهابي مجّاني يستهدف المدنيين الأبرياء. وفي المقابل، فإن المقاومة مشروعة، والشعب الذي يعيش تحت الاحتلال له الحق في الدفاع عن بلده بكل الوسائل. وعلى الأميركيين أن يثبتوا حُسن نيّتهم في ما يتعلق بحلّ المشكلة الفلسطينية. وهنا أتحدّث عن حلّ يتضمّن حق عودة اللاجئين، والقدس، وإزالة جميع المستوطنات، وجدار الفصل العنصري، والعودة إلى حدود العام ١٩٦٧.

إن جورج بوش حريص اليوم على تلميع صورته قبل انتهاء ولايته. وهو يعمل على إيجاد حلّ للمشكلة الفلسطينية للحدّ من الكراهية التي تكنّها له الجماهير العربية، بعد الممارسات البربرية التي ارتكبها الجيش الأميركي في العراق، باسم الديموقراطية.

هل تعتقد بوجود فرق بين الديموقراطي بيل كلينتون الذي عمل من أجل تقارب إسرائيلي-فلسطيني، والجمهوري جورج بوش؟

جميع الرؤساء الأميركيين هم، في نظري، وجوه لعملة واحدة، سواء كانوا ديموقراطيين أو جمهوريين. جورج بوش ملتزم بشكل مطلق بالإسرائيليين. أما كلينتون الذي كان مؤيّداً بالطبع لإسرائيل فكان يحاول الظهور بمظهر أكثر توازناً. ومن الناحية التاريخية، لم يتوقف الدعم الأميركي لإسرائيل في يوم من الأيام. واللوبي الصهيوني يتمتع بتأثير كبير على سياسة الولايات المتحدة.

هل يمكنكم التفاوض من أجل السلام مع إدارة ديموقراطية كإدارة كلينتون؟

لم نصل بعد إلى المرحلة التي تسمح لنا بأن نفاوض من موقع القوة، حتى مع رئيس مثل بيل كلينتون.

هل فكرت الجبهة الشعبية في السبعينيّات بتنفيذ عمليات انتحارية؟

لم أشعر يوماً بأي ميل نحو هذه الممارسة. وإذا كنت أفهم كيف يمكن لرجال ونساء أن يصلوا إلى حد تنفيذ مثل هذه العمليات، بسبب الاضطهاد الذي يتعرّض له شعبنا، فإنني لا أشجع مطلقاً على اعتماد العمليات الانتحارية من قِبل الجبهة الشعبية.

إنني أعتقد بأفضلية العمل العسكري على العمليات الانتحارية، حتى وإن كانت استطلاعات الرأي قد بيّنت أن ٦٠ في المئة من الفلسطينيين يؤيّدون مثل هذه العمليات. ومنذ انطلاق الانتفاضة الثانية في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠، لم تُسجل غير عملية انتحارية واحدة نفّذها أحد عناصر الجبهة الشعبية. لقد فضّلنا الرهان على العمليات العسكرية الموجّهة وعلى تعبئة الجماهير. والجميع داخل الجبهة يشاركونني في الموقف من هذا الموضوع. ومع تفهّمنا لمنفّذي العمليات الانتحارية فإن هذه العمليات لا تمثّل خطنا السياسي.

لقد كانت هذه العمليات غير مقبولة بالنظر إلى صورتنا في الغرب، لكننا لا نستطيع أن ننكر أنها قد خدمت حماس، في لحظة معيّنة، بمقدار ما جعلتها تظهر كرأس حربة في وجه الاحتلال الإسرائيلي. إن هذه العمليات قد نجحت في تحطيم الجدار الأمني لإسرائيل التي كانت تعتبر نفسها شديدة الجبروت. ومنذ ذلك الحين تعيش إسرائيل في خوف دائم أدّى إلى هجرة محدودة للإسرائيليين بفعل تلك العمليات.

وأياً يكن من أمر، فإن لحياة الإنسان قيمة أكبر بكثير من أن أؤيّد هذه

العمليات الانتحارية. لكن ينبغي أيضاً أن نعرف مدى القهر الذي يتعرّض له الفلسطينيون والذي يدفعهم إلى التصرّف بهذه الصورة ردّاً على العدوان الإسرائيلي المتواصل منذ نصف قرن.

ربما يكون موقفك هذا عائداً إلى الدين المسيحي حيث لا مكان فيه لكلمة «جهاد»؟

في حديث أدليت به إلى الصحافة قبل سنوات، قدّمت نفسي بصفتي مسيحياً واشتراكياً وماركسياً. فالتسامح ومحبّة القريب هما العنصران اللذان اخترت أن أعطيهما الأفضلية في ديني. ربما يكون هذا ما يميّزني عن تلك الإيديولوجيا التي تمجّد الانتحار. لكنّ ذلك لا يعني أن محبتي للآخر وتسامحي يحملانني على أن أغفر لإسرائيل ما ارتكبته من جرائم ضد الإنسانية بحق الشعب الفلسطيني. نحن إذن في موقع الدفاع. وبالمناسبة، أقول بأن الجميع في الجبهة الشعبية قد فهموا أن بإمكاني أن أكون ماركسياً دون أن أكون معادياً للدين أو ملحداً. أنا أعتقد أنه لا يوجد تعارض بالضرورة بين أن يكون المرء ماركسياً ومؤمناً في الوقت نفسه. أعتقد، بكل بساطة، بضرورة الفصل بين السياسة والدين في الدولة.

أنت مناصر للعلمانية. هل تعلم أن فرنسا قد منعت، باسم هذه العلمانية، ارتداء الحجاب في المدارس؟

أجل. أنا أفهم موقف فرنسا. غير أن المفروض، باسم العلمانية، أن يسمح للفتيات أن يرتدين ما يشأن من الثياب في المدارس. في ما يخصّني، أفضل أن لا يضع أحد من أفراد أسرتي مثل هذه الشارات المميّزة للديانة. ومع هذا، أظنّ أنني لن أمانع إذ ما أصرّ أحدهم على ذلك.

في الربيع الماضي، وقبل سيطرة حماس على غزّة بالقوة، عبّرت عن خشيتك من اندلاع حرب أهلية. ما كان ردّ فعلك على هذا العمل الذي قام به أصدقاؤك في حماس؟

أنا أدين مثل هذا العمل القريب من الانقلاب، ولكنني أحمّل المسؤولية الأولى عما حصل في غزّة لمنظمة فتح، لأنها هي التي دفعت الفلسطينيين نحو هذا الخط الجذري. صحيح أنني كنت أتوجّس، منذ الربيع، حدوث انزلاق نحو حرب أهلية عملنا على تجنّبها عبر تكثيف الاتصالات مع الجانبين المتخاصمين. وقد شعرت بالكثير من المرارة والحزن العميق عندما رأيت الفلسطينيين يقتتلون بالشكل الذي فعلوه في غزّة. لا يمكنني القول بأنني كنت أتوقّع ذلك، ولكنني كنت على وعي تامّ بمدى النفوذ الذي اكتسبته حماس في غزّة، وبمدى شعبيتها وقوتها وقدراتها التنظيمية. وبالنظر إلى التعاون الأمني تحديداً بين بعض مسؤولي فتح وإسرائيل(١)، لأن حماس كانت ضحية ذلك التعاون المخجل. وبالرغم من هذا الانحراف في قيادة فتح، ومن العمل غير المسؤول الذي قامت به حماس، كان همّي الأساسي هو العمل من أجل الوحدة رغم صعوبات اللحظة.

لقد عمد بعض الرفاق مباشرة إلى الاتصال بخالد مشعل وقيادة حماس في دمشق، واكتشفنا أن هنالك بعض الفرق بين القيادة الموجودة في دمشق والقيادة الموجودة في الداخل، أي في غزّة. لم يكن ذلك الفرق قائماً بخصوص العملية التي اتخذ القرار بشأنها بالتوافق بين قُطبي حماس اللذين كانا مقتنعين بضرورة استلام الحكم في غزّة والبدء، بعد ذلك، بمفاوضات تهدف إلى إقناع فتح بالعمل لمصلحة الشعب. كان ذلك الفرق متمثلاً بواقع أن قادة حماس في غزة كانت لهم نظرة ضيّقة ومقتصرة على الوضع في قطاع غزة، في حين كان خالد مشعل المقيم في دمشق يتمتع، بوصفه المسؤول الرئيسي في الحركة، برؤية للأمور أكثر اتساعاً.

وبالرغم من هذه الفوارق، أصرّ المكتب السياسي للجبهة على الوحدة الفلسطينية في اتصالاته مع مشعل الذي صرّح باستعداده للنقاش مع فتح بغية

(١) التعاون الأمني بين بعض مسؤولي فتح وإسرائيل.

التوصل إلى وحدة الفصائل الفلسطينية. لكنّ أبو مازن رفض ذلك، وفسّر رفضه بأنه لا يحاور الانقلابيين، وكان ذلك خطأً من جهته.

هل الخطر قائم في أن تسيطر حماس على الضفّة الغربية يوماً ما؟

هذا غير مرجّح. هنالك العديد من القوى التي ما تزال مؤثّرة على الساحة الفلسطينية والتي يمكنها أن تمنع مثل هذا السناريو. كما ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار المعطيات الدولية والعربية التي تعرقل بدورها تطوراً من هذا النوع.

هل من الوارد أن تتخلّى حماس عن انتصارها العسكري؟

هذا ممكن. فحماس تواجه صعوبات ضخمة في إدارة الوضع اليومي في قطاع غزّة بسبب الحصار الإسرائيلي والدولي. وكانت قيادة حماس قد أبدت استعدادها، بعد أن سيطرت على قطاع غزّة، للبحث عن حلّ لهذا الوضع المعقّد.

كيف يمكن الخروج اليوم من هذا المأزق الفلسطيني الداخلي؟

الجبهة الشعبية تراهن، كما فعلت دائماً، على الفلسطينيين أنفسهم. ونحن نعمل على أن يدرك الفلسطينيون خطورة الوضع وأن يفرضوا واقعاً جديداً لأنهم قد ضاقوا ذرعاً بالتوتّرات الداخلية. فهم ليسوا راضين لا عن حماس ولا عن فتح. نحن نحاول أن نقنعهم بأن الأولوية يجب أن تُعطى، في ما يتجاوز هذين التنظيمين، للوحدة الفلسطينية. ومن هنا يسعى قادة الجبهة على الأرض إلى إقامة كل ما يمكن من علاقات مع الناس. وبالتوازي مع ذلك، تحاول الجبهة الشعبية إعادة فتح إلى جادّة الصواب وإقناع حماس بأن تقدّم بعض التنازلات المعقولة. هنالك عناصر من فتح ترغب في الحوار مع حماس، لكنّ الرئيس أبو مازن يعتمد موقفاً متشدّداً إزاء حماس.

ما هي المسائل الأساسية التي ينبغي للجبهة الشعبية أن تهتم بها في المستقبل؟

علينا أن نعمل على توحيد الفصائل الفلسطينية من أجل تشكيل ائتلاف وطني يضمّ القوى كافة من أجل مواجهة تعقيدات الوضع. ويمكن لهذا الائتلاف الجديد أن يضمّ العناصر الديموقراطية في فتح والتي تسعى إلى تغيير الوضع داخل التنظيم. ولكنّ الصعوبة تأتي من الولاء التاريخي للقيادة في فتح، وإن كانت بعض الأسماء تشذّ عن القاعدة في هذا المجال. فالفساد ما يزال كبيراً داخل فتح. وقد كان مروان البرغوثي(٢) قد بدأ بالعمل، قبل اعتقاله وسجنه، على تغيير الوضع داخل فتح باعتباره رجلاً وطنياً وذا إحساس عال بالمسؤولية.

أما ورشتنا الثانية فتتعلق بمفهوم الماركسية. بعض أعضاء الجبهة يعتقدون بعدم فائدة هذه الإيديولوجيا، ويتساءلون عمّا إذا لم يكن من الأفضل أن يتبنّوا اليسار بدلاً من الماركسية. كما أن الإسلاميين يعتبرون الجبهة الشعبية حركة ملحدة بسبب اعتمادنا الإيديولوجيا الماركسية. وسوف أقترح، عند انعقاد مؤتمرنا السابع قريباً، أن نتطرق إلى مسألة إيديولوجيا حركتنا لكي نشرح رؤيتنا للماركسية أمام أعضاء الجبهة. أودّ أن أشرح لهم، كما سبق أن قلت لك، أنّ الماركسية لا تعني التخلّي عن الدين. وعلى كل حال ينبغي للقيادة الجديدة للجبهة أن تأخذ في حسابها دروس التاريخ وتطوّره.

ما الذي تنتظره من المؤتمر الدولي الذي سينعقد في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧، في الولايات المتحدة، لدفع عملية السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟

إنها كلمات ما تزال عديمة المعنى في نظري. فالأميركيون يحاولون، على ضوء إخفاقهم في العراق، أن يفعلوا شيئاً ما من أجل تلميع صورتهم في المنطقة. وللأسف، فإن ما يعرضه الأميركيون والإسرائيليون على العرب يظل

(٢) مروان البرغوثي: مناضل فلسطيني وأحد كبار قياديي حركة فتح. يعتبره كثيرون مهندس الانتفاضة وعقلها المدبّر. سُجن عدة مرات من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي. وهو يقضي الآن حكماً بالسجن مدى الحياة في السجون الإسرائيلية.

دون ما يطالب به الفلسطينيون. إن هذا المؤتمر الجديد لن يقدّم على ما يبدو أي شيء ملموس أو مختلف عما قُدّم في السابق أو أي شيء يتجاوز سقف اتفاقيات أوسلو.

لعبت زوجتك دوراً هامّاً في حياتك وفي نضالك. ما هي نظرتك، في ما يتجاوز ذلك، إلى موقع المرأة في المجتمع العربي؟

دور المرأة في النضال الفلسطيني فريد في نوعه، ومع ذلك أهمله الكتّاب والصحافيون. زوجتي كانت دائماً إلى جانبي، وعدم الحديث عنها غير ممكن عند الحديث عن نضالي، لأنها وقفت إلى جانبي في جميع مراحل مسيرتي النضالية بكل صلابة وعنفوان. كل ما فعلتُه كان بفضل دعمها ومساعدتها. لقد برهنت على إخلاصها الكبير بعيداً عن الإعلام ولم تطمح مطلقاً إلى تحقيق أي مكاسب شخصية. وهنالك أيضاً في الجبهة الشعبية عدد من النساء ما زلن حاضرات في المكتب السياسي وفي المراتب الحزبية الأخرى.

ينبغي التعريف إعلامياً بهاتيك النساء الفلسطينيات لكي يعرف الناس أن دورهنّ أساسي في النضال. في الجبهة الشعبية العديد من الرفيقات اللواتي يلعبن دوراً أساسياً على المسرح السياسي الفلسطيني.

لقد اهتممت على الدوام بقضيّة المرأة، وطلبت معرفة نسبة النساء في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وحرصت دائماً على أن أكون إلى جانب زوجتي في الثامن من آذار/ مارس للاحتفال بيوم المرأة حيث كنت ألقي خطاباً في غالب الأحيان. كما كنت أشعر دائماً بشيء من الخيبة نظراً إلى تدنّي مستوى أهمية المرأة في نظر المجتمع.

هل تعتقد أن وضع المرأة العربية قد أصبح مُرضياً اليوم؟

لا، بالطبع. وهذا لا ينطبق على العالم العربي وحده. أنظر إلى الحجم الذي تحتلّه المرأة في الوزارات حتى في الغرب حيث تبقى مشاركة المرأة في الحياة السياسية دون المستوى المطلوب.

لنبق في العالم العربي. هل يعود تدنّي وضع المرأة إلى الدين أم إلى التقاليد؟

التقاليد الاجتماعية وبعض التفسيرات الخاطئة للدين أسهما في تهميش دور المرأة في المجتمع. كما أن الوضع الاقتصادي يشكّل بدوره عائقاً أمام حصول المرأة على حقوقها. ولا بد من النضال من أجل تحقيق وضع مُرضٍ للمرأة. إن الأفضلية هي للنضال من أجل التحرر والاستقلال، وبعد ذلك من أجل المساواة الاجتماعية، ثم من أجل حقوق المرأة. ينبغي المرور بجميع هذه المراحل قبل تحقيق أهدافنا في إقامة مجتمع تسوده العدالة والمساواة.

الفصل السابع عشر

العلاقة مع عرفات والملك حسين والأسد وأبو مازن وكاسترو وكارلوس وبن بلّة

كان عرفات «أخاك-اللدود» وخصمك الرئيسي خلال ربع قرن داخل منظمة التحرير الفلسطينية. وفي ما يتجاوز خطّيكما السياسيّين المختلفين، كانت شخصية كلّ منكما لا تسمح لكما بالتقارب إلا بصعوبة كبيرة. أليس كذلك؟

طباعنا كانت بالفعل مختلفة جذرياً. من جهة كان عرفات شخصاً لا يمكن فهمه. كان ظاهرة فريدة من نوعها. أما أنا، فقد حافظت على مبادئي. لكننا كنا نتبادل الاحترام، بغضّ النظر عن خلافاتنا السياسية العميقة. كان عرفات يعلم بأنّ لرأيي وزناً داخل منظمة التحرير، وداخل تنظيم فتح. ومن جهتي، حرصت عند وفاته على توجيه التحية إليه، من خلال رسالة طويلة وجّهتها إلى اللجنة المركزية في فتح. أما على الصعيد الإنساني، فقد كان عرفات شخصاً جيداً جداً، كان يسعى دائماً للاطمئنان إلى صحتي.

يعود لقاؤنا الأول إلى حزيران/ يونيو ١٩٦٧، في سوريا، مباشرة بعد هزيمة حرب الأيام الستة. وقد تكوّن لديّ الانطباع بأن أمامي رجلاً يفكّر في نفسه أكثر مما يفكر في شعبه. كانت لقاءاتنا متوتّرة، لأنني كنت أرغب يومها في تشكيل تجمّع واسع للفصائل الفلسطينية، لكي نتمكن من رفع رأسنا بشكل أفضل بعد هزيمة الـ٦٧. لكن عرفات عارض ذلك. ربما لأنه شعر بأنه سيغرق في عُباب مثل هذه الجبهة.

وقد تأكدت في ما بعد من ميله إلى الإعجاب بنفسه: كان يريد دائماً أن تتكوّن هالة حول شخصه، ولم يكن يسمح لأحد بمنافسته، لا داخل فتح ولا خارجها. كم من الاجتماعات غادرها بغتة لا لشيء إلا لأننا لم نكن موافقين على ما يريده! كان أبو عمّار شخصاً صعب المراس ويعتمد أسلوب المراوغة في الكثير من تكتيكاته. عندما تدخل في نقاش معه لا يجيبك مطلقاً بنعم أو لا، بل بخليط من هذه وتلك. كان من الصعب عليه أن يلتزم وألاّ يعود عن كلامه. وكانت مواقفه متذبذبة في كثير من الأحيان ويحرص على إقامة علاقات مع جميع الأطراف حتى المتناقضة منها. وهنالك نكتة معروفة بين الفلسطينيين مفادها أن أبو عمّار، وخلال رمي الجمرات على الشيطان في الحج، همس في أذن صديق له بأنه لا ينبغي أن نرمي الشيطان، إذ ربما نحتاج إليه في يوم ما.

جرت بيني وبينه نقاشات انفرادية طويلة حول خلافاتنا. كنا نستمر أحياناً حتى الفجر في الموازنة بين وجهات نظرنا، وإذا حدث مرّة لعرفات أن وافق على وجهة نظري، فقد كانت الأخبار تأتيني منذ صبيحة اليوم التالي بأن مواقفه كانت على نقيض ما اتفقنا عليه في العشيّة. وكان مأخذي الدائم عليه هو تفرّده في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية حيث يدّعي بأنه ديموقراطي لأنه يترك الآخرين يتكلمون. لكنّ ممارسته الديموقراطية لم تكن تبلغ حد إشراك الآخرين في اتخاذ القرار. فلم يكن يفعل إلا ما يريد. كنا نودّ لو أن عرفات يكفّ عن الاستئثار بالقرار، وأن يكون لجميع الفصائل ثقلها في اتخاذ القرارات. ولكن، وأياً يكن ما نقوله حول خطه السياسي، فإن إقامة دولة فلسطينية ظلّت هدفه الدائم. كان أبو عمّار يعمل كثيراً وينام قليلاً. ومظهره الخارجي يدلّ على أنه لا يعيش حياة مرفّهة، مع أن أموال الثورة كانت كلها بين يديه يتصرف فيها كما يشاء، كان يحرص دائماً أن يغدق المال على من حوله ليضمن ولاءهم. لم يكن أبو عمّار خائناً للقضية بالطبع، لكن الأمر السيّئ في شخصيته هو إغراؤه لمن يعملون معه بالمال.

كيف كان يشتريهم؟

كان يغريهم بالمال أو بتوفير الفرص المهنية والشهرة لهم. وإذا كان أبو عمّار يعيش حياة متواضعة جداً، فقد كان، على العكس من ذلك، يحرص على توفير حدّ من الرفاهية للمحيطين به، لكي يظل على ثقة من أنهم لن يتخلّوا عنه ما داموا يعتمدون عليه من الناحية المالية.

هل حاول إغراءك بالمال؟

لم يحاول مطلقاً أن يحتويني سياسياً أو إغرائي بالمال مقابل مواقف سياسية، لأنه كان يعلم أن ذلك سيظل بلا جدوى. غير أنه قام بلفتة خلال الحرب في لبنان عندما توفّي أبو أمل، وهو أحد قادة الجبهة الشعبية، وخلّف وراءه عائلة كبيرة. ذهبت يومها إلى فتح وطلبت مبلغاً من المال لكي تتمكن العائلة من شراء منزل بعد أن هجّرت من مخيّم تل الزعتر. طلبت حوالى ٥٠ ألف دولار. وقد أصرّ أبو عمّار على تقديم ضعف المبلغ أي ١٠٠ ألف دولار. رفضت ذلك لأنني كنت متيقناً أنه يريد إحراجي. ومن يومها عزمت على عدم قبول أي مال من طرفه. كنت دائماً أتابع حسابات الجبهة الشعبية التي كانت تديرها لجنة مالية أكتفي بالإشراف على أعمالها. كانت تُطبق اللوائح المالية على القيادة كما على الأعضاء.

تعرّفت إلى عرفات بشكل فعلي خلال فترة المواجهات مع الجيش الأردني، عام ١٩٧٠. كيف بدا لك حينئذ؟

للوهلة الأولى، بدا لي أنه على مستوى التحدي الذي فرضه علينا النظام الأردني. وقد كتبت له رسالة أثنيت فيها على صلابته وحرصه على الوحدة خلال أحداث أيلول/سبتمبر الأسود والشهور الصعبة التي أعقبتها. وأياً يكن الأمر فقد كان يحاول منذ ذلك الوقت إدارة جميع الأمور بنفسه ويحرص على أن يظل كل شيء تحت وصايته.

في الفترات اللاحقة، كانت علاقاتنا تسير تبعاً للظرف السياسي في لحظة

معيّنة. وقد ظلّت جيّدة حتى زيارة السادات إلى القدس في العام ١٩٧٧ والتي وجد أبو عمّار صعوبة في إدانتها. ثم ساءت علاقاتنا بشكل خطير بعد ذلك. كنت يومها قد اكتشفت أن عرفات يسعى إلى التحالف مع مصر والأردنّ والسعودية، نظراً إلى احتياجه إلى هذه الأنظمة من الناحيتين السياسية والمالية. أما نحن في الجبهة الشعبية، فكنا نعتبر أن هذه الأنظمة متحالفة مع الأميركيين في المنطقة. لكن أبو عمّار كان يتحرّق لإقامة دولة فلسطينية إلى درجة أنه أحرق المراحل وهو يُفرط في تقديم التنازلات. كان يريد نتيجة فورية، وذلك ما أدّى إلى إخفاق نهجه السياسي. ولو أن أبو جهاد ظل على قيد الحياة لكانت الانتفاضة الأولى قد أفضت إلى نتائج أفضل لمصلحة الشعب الفلسطيني. إلا أن أبو عمار كان متمسّكاً بقراره الشخصي؛ كان فردياً.

هل كان أبو جهاد يمتلك حق الاعتراض على أبو عمّار؟

لا، للأسف. نقطة ضعف أبو جهاد كانت في عدم قدرته على مخالفة أبو عمّار. إذ رغم النفوذ غير العادي الذي كان يمارسه على الفلسطينيين، كان أبو جهاد شديد الإخلاص لأبو عمّار. وإننا نجد مثالاً جيداً على عدم قدرته على مواجهة أبو عمّار في معركة طرابلس، عام ١٩٨٣. كان أبو جهاد يعارض عودة عرفات إلى لبنان بعد عام على خروجنا من بيروت. لكن أبو جهاد لم يكن يُفضي لأحد بمكنونات صدره ولم يستطع الوقوف أمام أبو عمار.

صحيح أن أبو جهاد لم يوافق أكثر من مرة على قرارات أبو عمّار، لكنه لم يكن يريد، كما قلت لكم، أن يمضي في خلافاته معه حتى النهاية. لكن كان بين المقرّبين إليه من يمكنهم أن يفعلوا ذلك، من أمثال أبو إياد وأبو صالح. فقد حاول أبو عمّار في لحظة ما، خلال الحرب اللبنانية مثلاً، أن يتقرّب من الكتائب والقوات اللبنانية، فجاء إليّ أبو إياد وأبو صالح بغرض الاعتراض العلني على هذا التقارب. لكنني لم أشأ استغلال التناقض بينهم في ذلك الوقت. أما أبو جهاد، فقد كان حيوياً وفاعلاً، وهو الشخص الذي عرفته أكثر من غيره بين

المحيطين بأبو عمّار، ويأتي بعده كل من أبو صالح وأبو إياد. العيب الوحيد في أبو جهاد هو ضعفه أمام أبو عمّار! (قالها مبتسماً).

هل كان أبو عمّار يمسك أبو جهاد بالمال، شأن ما كان يفعله مع بعض المحيطين به؟

كانت هنالك بالطبع موازنة يخصّصها أبو عمّار لأبو جهاد، ولم يكن أبو جهاد يديرها لأغراضه الشخصية. كانت هنالك علاقات تاريخية بين أبو عمّار وأبو جهاد. لكن مما لا شك فيه أن أبو جهاد كان قائداً عسكرياً كبيراً وقد ترك غيابه فراغاً مما لا شك فيه.

متى كان آخر لقاء لك مع ياسر عرفات؟

كان ذلك في العام ١٩٩٢، بعد عودتي من فرنسا التي كنت قد قصدتها للاستشفاء. بعد اتفاقيات أوسلو، طلب أبو عمّار رؤيتي، عبر العديد من الرسل، من أجل إحياء الاتصالات بيننا. لكنني كنت أرفض الاستجابة لطلبه. لم يكن بإمكاني أن أُعاود النقاش معه. كان أبو عمّار قد فعل، في نظري، ما لا يمكن إصلاحه. قبل خمس سنوات (نحن الآن في العام ٢٠٠٧)، اتصل بي أبو عمّار هاتفياً، وتكلّمت معه بما يكفي من برود. كان يريد الاطّلاع على أخباري، وكان ذلك نوعاً من تجديد الصلة بيننا بعد سنوات من القطيعة. ثم عاد واتصل بي قبل مدة من وفاته، على هاتف هيلدا المحمول. وقد تكلمت معه هيلدا بالكثير من الحرارة لأنه كان يومها محاصراً في رام الله. وحاولت عندما أخذت الكلام أن أتطرّق إلى الوضع السياسي على الأرض، لكنّ عرفات غيّر الموضوع ليظلّ في إطار المحادثة الخاصة والحميمة. وبعد ذلك، عدنا إلى تغيير رقم الهاتف لأسباب أمنية.

كيف كان رد فعلك على وفاته في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٤؟

كنت شديد الحزن عليه. ورغم الخلافات الواسعة في وجهات النظر، فقد

بكت ابنتي الصغرى لفقد ذلك الرمز من رموز التاريخ الفلسطيني، واعتبرتْ أن تسميمه يشكّل إهانة للشعب الفلسطيني. أما أنا فقد عبّرت عن عميق حزني في رسالة بعثت بها إلى اللجنة المركزية في حركة فتح. لقد كانت نهاية عرفات قاسية جداً بسبب الحصار الذي فرضته عليه إسرائيل. وقد تأثر لموته حتى أعداؤه الألدّاء. ورغم اختلافي معه، كنت أكنّ له الاحترام. إن صورة المسجد الأقصى التي نعلّقها في غرفة الاستقبال في منزلنا هي هدية قدّمها لي أبو عمّار، وهي عبارة عن تُحفة فنية من صنع فنان إيطالي وأعتز بها كثيراً.

لقد خلفه أبو مازن في رئاسة منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية. هل ترون فيه الرجل الذي سيمكّن الفلسطينيين من تحقيق استقلالهم؟

بدأ أبو مازن كرجل وطني. ولكنه تغيّر بمرور الوقت لينتهي به الأمر إلى السقوط في الحلول السلمية والمساومة مع إسرائيل. لقد اصطدمت وطنيته بالصعوبات وأفضت إلى ما نلاحظه اليوم: تنازلات، ثم المزيد من التنازلات أمام إسرائيل أو الأميركيين، من دون مقابل للفلسطينيين. فأبو مازن يُراهن كثيراً على تحالفه مع الأميركيين والمصريين. لم يأخذ مطلقاً في حسابه ما ينتظره الفلسطينيون. ويجب ألاّ ننسى أن أبو مازن هو من قام بهندسة اتفاقيات أوسلو، والعدو سيواصل الاستفادة منه. إن الأميركيين والإسرائيليين يقومون اليوم بتعزيز أجهزته الأمنية[١] ليساعدوه بذلك على ضرب مقاومة حماس، علماً بأنه لم يكن يوماً ذا قاعدة شعبية. كما أنه لم يسبق له قط أن اهتمّ بالتواصل مع الشعب. وإذا ما سألتموه علامَ يعتمد فإنه يجيبكم: «على الولايات المتحدة والسعودية ومصر». إن الوحدة الوطنية هي آخر همّه. أبو مازن ليس رجل المرحلة، والتجاوزات التي يرتكبها حالياً ستقود القضية الفلسطينية إلى الضياع.

---

(١) التعاون الامني بين فتح وإسرائيل.

عندما غادرتم بيروت عام ١٩٨٢، انتقلتم بالجبهة الشعبية إلى دمشق. قبل ذلك التاريخ، وقعت صراعات بينكم وبين السوريين. هل اضطرّوك إلى الخضوع لشروط مهينة؟ هل حاولوا فرض شروط عليكم للقبول بوجودكم في سوريا؟

لم يحدث مطلقاً أن طلبوا مني أي شيء، أو ألحّوا عليّ لفعل أي شيء. كانوا يعرفون أن ذلك سيظل بلا فائدة.

أما التسهيلات التي منحونا إياها فكانت عبارة عن مكاتب للجبهة وسيارات وعدد من الشقق في المخيم لإقامة الرفاق، إضافة إلى تسهيلات تتعلق بمروري عبر الحدود أثناء دخولي أو خروجي من سوريا. كما سمحوا لنا بإقامة معسكرات للتدريب. لم يحدث لنا قط أن كنا أداةً في يد السوريين. فسوريا لم تموّلنا مطلقاً، ولم تقدّم لنا أية أسلحة. كما أنها لم تتدخل في مواقفي السياسية، وكنت حرّاً في جميع تحركاتي. كانت تقع بيننا خلافات عميقة أحياناً، ولكنّ ذلك لم يحل دون استمرار علاقتنا. وعندما انتقدتُ سوريا، عام ١٩٨٥، لأنها كانت تدعم حركة أمل المسلّحة في لبنان ضد الفلسطينيين، خشيت ألاّ أتمكن من الدخول إلى سوريا كما أشاعت بعض وسائل الإعلام. وبعد فترة وجيزة أرسل إليّ الرئيس حافظ الأسد دعوة للقائه مؤكداً عدم وجود أية مشاكل، وأن الأمور لا يمكنها أن تصل إلى نقطة اللاعودة بيننا، وأن بإمكاني أن أعود إلى دمشق متى شئت. وكان اللقاء معه ودياً للغاية.

كان حافظ الأسد يشكّل نوعاً من الحماية بالنسبة إليك. أليس كذلك؟

هذا صحيح. كانت بينه وبيني علاقة خاصة. وبحسب ما كان يصلني من كلام بعد لقاءاتنا، كنت أعلم أن الرئيس الأسد كان يحترم نضالي واستقامتي. وقد كنت أراه بانتظام، وذلك حتى وفاته عام ٢٠٠٠. وبناء على طلبه، استغرق لقاؤنا الأول، عام ١٩٧٨، في أعقاب ذهاب السادات إلى القدس، أكثر من أربع ساعات. وكانت فصاحته هي أول شيء أدهشني فيه. إذ كان المستمع إليه يخال

أنه ينتقل من موضوع إلى آخر، فإنه في الحقيقة لم يكن يخرج مطلقاً عن حبل أفكاره. كان يعرف ما يريد قوله. كان يشكّل قوة سياسية، كما كان رجلاً محنّكاً من النوع الذي لم ألتق مثله إلا في النادر.

في الفترة ما بين العام ١٩٩٠ و١٩٩١ أيضاً، ظننت مرة أخرى أن علاقتي مع السوريين سوف تتدهور. إذ عندما ذهبت للقاء صدّام حسين، عدوّ النظام السوري، خشيت أن أتعرّض للطرد من سوريا. كانت العلاقات يومها متوتّرة جداً بين سوريا والعراق، وتصوّرت أن من شأن كلامي في العراق أن يؤدّي إلى أزمة حقيقية بيننا وبينهم. لكنني فوجئت عندما لاحظت أن شيئاً من ذلك لم يحدث، بفضل العلاقة المميّزة التي كانت تربطني بالرئيس حافظ الأسد، رغم أن بعض المحيطين به كانوا يرغبون في وضع حد نهائي لمسألة وجودي في سوريا. كما أن شيئاً لم يحدث أيضاً عندما انتقدت مشاركة سوريا في مؤتمر مدريد للسلام، ودور سوريا في الحرب التي شنّتها قوى التحالف على العراق.

في العام ١٩٩١، وبعد غياب استمر عشرين عاماً، عدت إلى عمّان للمشاركة في مهرجان شعبي لدعم العراق؛ وبهذه بالمناسبة، طلب الملك حسين أن يلتقيك. أليس كذلك؟

كنت ممنوعاً فعلاً من الدخول إلى الأردن منذ العام ١٩٧٠. كما أنني لم ألتقِ الملك حسين قبل ذلك. كان هو من طلب لقائي. وقد تم اللقاء من دون إعلانه، لكن الشارع علم به بعد حصوله. كان يهمّني أن أسمع ما سيقوله الملك حول كل تلك السنوات الطويلة من العداء بيننا، وفكّرت في أن أتطرّق أمامه إلى الأزمة العراقية. لكنني فوجئت كثيراً عندما مرّ الملك سريعاً على كل هذه المواضيع ليحدثني، بوجه خاص عن... مشكلة المياه في الشرق الأوسط، وهي المشكلة التي قال إنها ستصبح أساسية، وقد تؤدي إلى نشوب حرب إقليمية في القرن الواحد والعشرين. كان ذلك نوعاً من تجنّب الحديث عن صراعاتنا السابقة. إنني أعترف للملك حسين بأنه كان يتمتّع بالكاريزما والذكاء. والمؤكّد أنه تجنّب يومها

التطرّق إلى مواضيع من النوع الذي يحظى بقدر أقلّ من التوافق. ففي الواقع، كان الملك حسين يسعى يومها إلى الاحتفاظ بعلاقاته المميزة مع الغرب، لكنّ موقفه من الحرب على العراق كان مطابقاً لموقف الشعب الأردني. إلا أنه كان ذكياً في النهاية إلى الحد الذي نجح معه في إرضاء الغرب والشارع الأردني معاً. كان لقاؤنا هادئاً ووديّاً. وكانوا قد أقلّوني بسيارة رسمية إلى القصر، وبعد ذلك منحني الملك حراسة شخصية خلال فترة وجودي في عمّان، حيث استفدت من الفرصة لرؤية أصدقاء قدامى أمثال علي منكو ونزار جردانة وحمد الفرحان وغيرهم. وبعد ذلك، فهمت المقصد الحقيقي من وراء ذلك اللقاء وهو القول للأردنيين بأن الملك حسين يحتفظ بعلاقات طيبة مع المناضلين القدامى.

كان ذلك اللقاء لقاءً بين عدوّين قديمين يعودان إلى المصالحة. هل قال لك الملك حسين في لحظة ما: «أنا أسامحك»؟

لم يقل ذلك بالضبط. لكنه قال: «رغم كل ما جرى، فلا مانع لديّ أن نلتقي». ولم أجبه بشيء. وفي المناسبة، سمح لي الملك حسين أيضاً باستعادة جواز سفري وجنسيتي الأردنية كما كانت عائلتي قد استعادت الجنسية الأردنية عام ١٩٨٢ لدى رحيلها عن بيروت بعد الاجتياح الإسرائيلي. كما تمكنا، منذ العام ١٩٩١، من فتح مكتب للجبهة الشعبية في عمّان. وكان ذلك أول لقاء وآخر لقاء بيني وبين الملك حسين. وعندما تزوّجت ابنتي ميساء في العام ١٩٩١، فوجئنا بأن الملك قد أرسل ممثلاً عنه يحمل هدية، كانت عبارة عن قطعة ثمينة من الكريستال مع بطاقة موقّعة باسمه وباسم الملكة نور. كانت هدية من القصر الملكي؛ ومن الملك حسين! كان الملك حسين ذا شخصية فريدة.

هل قابلت بعد ذلك ابنه الملك عبد الله الثاني؟

لا. يجب أن يكون هنالك فهم لشخصيتي. فالقضية الفلسطينية هي كل ما يشغلني. كانت لي علاقة مع الشعب، وليس مع الجهات الرسمية.

بعد الصدفة التي جمعتك بكارلوس في جبال الأردنّ، عام ١٩٧١، كيف تطوّرت علاقاتك مع هذا الشخص الذي أصبح أحد اللاعبين الرئيسيين في مجال الإرهاب الدولي؟

في العام ١٩٧١، أخبرني الدكتور وديع حدّاد بأنه يفكر في تنفيذ عملية يحتاج فيها إلى شخص ذي ملامح غربية. لم أطلب إيضاحاً حول ما يفكّر فيه لأنه كان المسؤول عن العمليات. وقبل ذلك بمدة قصيرة، كان بعض الشباب من الطلاب الذين يدرسون في الاتحاد السوفياتي قد أخبرونا بأنهم تعرّفوا إلى فتى شديد الاندفاع والحماس للقضية الفلسطينية. كان ذلك الشخص هو كارلوس، الذي كان طالباً في الاتحاد السوفياتي وقد أبدى رغبته في مقابلة قياديين في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ثم جاء بعد ذلك إلى الأردن فالتقيته. لذلك تكلمت بشأنه مع وديع، ثم اجتمعنا به معاً. وقد أكد لي وديع أن كارلوس هو الشخص الذي يحتاج إليه. وكنت غالباً ما أراه خلال الأشهر التي أمضيناها في جبال الأردنّ، في المواجهات مع الجيش الأردني الذي كان يعمل على إخراجنا من المملكة. وبما أن العديد من الأجانب كانوا يأتون لمساعدتنا فقد كان يحدث أحياناً أن نفاجأ بوجود مندسّين بينهم. لكنّ الثقة توطّدت بشكل فوري بيننا وبين كارلوس. وفي النهاية، قرّر وديع حدّاد اصطحابه إلى بيروت. وهناك بدأ تعاونه مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بشكل جدّي.

كان كارلوس شاباً وسيماً وطلق اللسان. كما كانت تبدو عليه علامات الذكاء. لم أشكّ فيه للحظة واحدة. وما زلت أتذكر ما قاله لي بُعيد لقائنا الأول: أنا سعيد وفخور بالنضال من أجل القضية الفلسطينية!

هل رأيته بعد ذلك؟

كان في بيروت حوالى عشرين شخصاً ممن كلّفوا تنفيذ العمليات، منهم ليلى خالد وكارلوس وباتريك أرغويلو وأميركيون لاتينيون آخرون، وحتى أميركيون من الولايات المتحدة. وكنا غالباً ما نتحدث مع وديع حول هؤلاء المتعاونين معنا،

فيقول عن كارلوس بأنه شخص رائع. وبعد انتقال كارلوس إلى لبنان اقتصرت علاقة الجبهة الشعبية به على وديع حدّاد، ولم يكن هنالك اتصال بيني وبينه بشكل خاص. ولا ننسى أن مسألة خطف الطائرات قد أدّت، بعد مدة وجيزة، إلى القطيعة مع وديع. بعد ذلك انتقلنا إلى سوريا، ولا أذكر أنني رأيته هناك. كان كارلوس ينظر إليّ بالكثير من التقدير. وعندما اعتقله الفرنسيون، عام ١٩٩٤، احتج على ذلك وأعلن الإضراب عن الطعام في السجن، وكان يقول إنه مستعد لوقف الإضراب لو طلبت إليه ذلك شخصياً. لذا بعثت إليه برسالة تعبّر له عن محبتي وتقديري طالباً إليه أن يوقف إضرابه عن الطعام. وحتى عندما صدرت عنه بعض المواقف التي لا تنسجم مع قناعاتنا، في أواخر أيام مساره، لم يكن بإمكاننا مطلقاً أن نتخلى عنه، لأنه كان ثورياً كبيراً كرّس حياته للقضايا العادلة.

كيف كنتم تنظرون إلى الدعم الذي كانت تقدّمه لكم جماعات اليسار المتطرّف في اليابان وأوروبا؟

كانت تلك المجموعات تدعم نضالنا، ولكنني لم أعتقد بأن هذه التنظيمات ستصبح فاعلة بشكل أساسي في دعم قضيتنا داخل مجتمعاتها. كان الرفيق وديع حدّاد هو المكلّف بهذه العلاقات. وكان هنالك أعضاء في الجيش الأحمر الياباني ممن يقيمون علاقات وثيقة مع الجبهة الشعبية وتحديداً مع وديع حداد. وقد نفّذوا عمليات لمصلحة الجبهة منها عملية مطار اللد، وقد سُجن بعضهم على أثرها لسنوات طويلة ثم أُطلق سراحهم منذ عدة سنوات.

كيف كانت علاقاتكم بفيدل كاسترو، الزعيم الكوبي؟

التقيته ثلاث مرّات أثناء زياراتي لكوبا. وفي كلّ مرة، كان كاسترو يستقبلني بالكثير من الاحترام والتقدير، وكانت اللقاءات تستغرق ساعات طويلة. وخلال إحدى زياراتي التي كانت ترافقني فيها زوجتي بادر هو بالمجيء إلى المكان الذي أقمت فيه، وهو أمر لم يكن اعتيادياً بالنسبة إلى رئيس دولة حتى أن الأمن الكوبي

أعرب عن دهشته لتلك الخطوة. وقد فوجئنا كثيراً بتلك الزيارة غير المتوقعة، ثم اجتمعنا معاً مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة. وقد أعرب كاسترو دائماً عن تعلّقه بالقضية الفلسطينية واهتمامه بها، وكان يعتبرها قضية عادلة. كان على معرفة جيدة جداً وإلمام بتلك القضية، ويمتلك رؤية واضحة جداً بخصوص القادة الفلسطينيين. ولم يكن ينظر بعين الرضا إلى التقارب بين عرفات من جهة والإسرائيليين والأميركيين من جهة ثانية. فهو لم يتردد في رواية قصّة عن أبو عمّار مفادها أنه اشتكى يوماً إلى أحد الديبلوماسيين الكوبيين بشأن الاستقبال الذي كان يخصّني به كاسترو في هافانا. وقد ردّ كاسترو وذكّر عرفات بأنّه لا يمكن لأحد أن يقرّر له مع من يلتقي أو لا يلتقي، ولا أن يتدخّل في الشؤون الكوبية.

كاسترو قائد سياسي كبير ورجل ذو شكيمة يعرف كيف يواجه الأزمات التي قد تحيط ببلده. فقد واجه بعزم وتصميم أزمة الصواريخ التي أثارتها الولايات المتحدة في بداية الستينيّات. وهو يقود، منذ خمسين عاماً، نضالاً لا هوادة فيه ضد أسوأ أعدائه، أي الأميركيين الذين يواصلون سعيهم لضرب كوبا وإسقاط كاسترو. كما تمكن من تجاوز الحصار القاسي المفروض على الجزيرة الكوبية. كان دائماً يحرص على إرسال هدايا من علب السيجار الكوبي إليّ كل سنة، عبر السفارة الكوبية، أو كلّما جاء وفد كوبي لزيارتنا في دمشق. وما زلت أحتفظ ببطاقات التهنئة التي كان فيدل كاسترو حريصاً على أن يرسلها إليّ سنوياً بتوقيعه.

كيف نظرت إلى الثورة الإسلامية في إيران التي قادها الإمام الخميني، عام ١٩٧٩، والتي أطاحت حكم الشاه.

لقد دعمنا تلك الحركة الشعبية ضد شاه إيران. ولكننا كنا نقيم علاقات في تلك الفترة، بوجه خاص، مع التيارات الإيرانية اليسارية ومجاهدي خلق تحديداً. وكنا قد قدّمنا لهم دعماً عسكرياً عبر استقبالهم وتدريبهم في معسكرات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

في بلاد المغرب، كانت الجزائر، لفترة طويلة، أحد البلدان الرئيسية الداعمة لكم. متى بدأت علاقاتكم مع الجزائر؟

شكّلت الثورة الجزائرية بالنسبة إلينا رمزاً ومثالاً يُحتذى على المستويين السياسي والنضالي، وكذلك على مستوى العلاقات التنظيمية مع جبهة التحرير الجزائرية التي وضعت حداً للاحتلال الفرنسي. ومنذ استقلالها، عام ١٩٦٢، قدّمت الجزائر دعمها الدائم للثورة الفلسطينية. هي أحد البلدان العربية القليلة التي وقفت على الدوام إلى جانب الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة.

واعتباراً من العام ١٩٧٥، قام الرئيس هوّاري بومدين بتعزيز العلاقات بين الجزائر والجبهة الشعبية التي لم تكن تقيم، حتى تلك اللحظة، علاقات دائمة مع الجزائر. كان بومدين قد بدأ ينظر بعين الريبة إلى تلاعبات السادات مع الإسرائيليين. وقد اعتبر أن السادات قد انحرف عن الطريق القويم، ولاحظ أن السوريين والمصريين كانوا يتعاملون، على الدوام، مع عرفات. وقد شاءت الجزائر أن تتقارب والجبهة الشعبية المعروفة دائماً بمواقفها النبيلة والواضحة. كان بومدين يردد على الدوام على مسمعي أن من واجب عرفات أن يوضح موقفه من السادات، لأن ذلك الموقف كان مبهماً.

وقد سبق لبومدين أن اقتنع بوجهة نظري التي بيّنت فيها أن الحرب المصرية-السورية ضد إسرائيل، عام ١٩٧٣، كانت تستجيب لمصالح سياسية بالدرجة الأولى، ولم تكن حرب تحرير حقيقية رغم التضحيات الجسيمة التي بذلها الجيشان المصري والسوري. ومن هنا كانت بداية التقارب بين الجزائر وبيننا.

كان بومدين واضحاً جداً معي منذ لقائنا الأول. فقد اعترف لي بأنه نصح عرفات بتصفية قادة جميع الفصائل الفلسطينية الأخرى، بمن فيهم قياديو الجبهة الشعبية. كان يعتقد بأن النضال لا يمكن أن يبلغ أهدافه إذا كانت هنالك انقسامات بيننا. لذا، كان ينصح باعتماد الحزب الواحد والقائد الواحد على غرار جبهة التحرير الجزائرية وما كان عليه الوضع في حرب الجزائر. وعلى ذلك، نصح عرفات بتصفيتي، واعترف لي بذلك. لكنه عاد وغيّر رأيه عندما فهم موقفي

بشكل أفضل. ولا أنسى زيارته إلى موسكو عام ١٩٧٣، حيث طلب إلى السوفيات أن يساعدوا العرب، ومصر بالدرجة الأولى، في مواجهة إسرائيل.

كما كان الرئيس بن بلّه قائداً معروفاً جداً. فقد تزعّم جبهة التحرير الجزائرية ولعب دوراً هاماً جداً في النضال ضد الاستعمار الفرنسي. وكان رمزاً كبيراً من رموزالثورة الجزائرية، لكنني لم ألتقه في تلك الفترة، فقد اعتقل مرّات متتالية وسُجن لفترات طويلة. إلا أنني التقيته للمرّة الأولى عندما جاء للمشاركة في أحد المهرجانات الشعبية التي كانت تعقد في دمشق وبيروت خلال فترة التسعينيات. وقد زارني في منزلي، وأصرّ على تعميق العلاقات الأسرية بيننا. ثم جاء مرة ثانية إلى دمشق ورغب في أن يعرّفنا بزوجته. كانت زوجته امرأة مميّزة وعفوية. وقد سررنا كثيراً، هيلدا وأنا، بمعرفتهما. إنني أكنّ له كثيراً من الاحترام، وهو في نظري رمز من رموز حركة التحرر العربية التاريخيين.

ما هي الطريقة التي ساعدتكم الجزائر من خلالها؟

كان بيننا اتفاق على تقديم منح دراسية في الجزائر لطلبة من الجبهة الشعبية. لكن لم تكن هنالك أية مساعدات مالية. فالجزائر لم تقدّم لنا المال مطلقاً. كانت الصحافة الجزائرية تخصص مساحات لتغطية أنشطتنا، كما كانت السلطات تمنحنا تسهيلات معيّنة، كجوازات السفر الديبلوماسية الخاصة بقياديي الجبهة(١)، كذلك لي ولأسرتي لتساعدنا على التحرك. كذلك سمح لنا الجزائريون بفتح مكتب للجبهة الشعبية ما يزال قائماً إلى اليوم. ثم تحسنت العلاقات أكثر فأكثر، وكان الجزائريون يخصّوننا باستقبالات جديرة برؤساء الدول. فعندما مرضت في لبنان، عام ١٩٨٠، أرسلوا لنا الطائرة الخاصة بالرئيس الشاذلي بن جديد وكان على متنها فريق طبي لعلاجي. كان الجزائريون يولوننا اهتماماً خاصاً كلّما زرنا الجزائر أنا وأفراد أسرتي وكنا نشعر بأننا في بلدنا وبين أهلنا.

(١) كان قياديو الجبهة يسافرون بجوازات سفر ديبلوماسية مقدّمة من الجزائر وليبيا وسوريا واليمن والعراق.

أودّ الآن أن نتطرّق إلى المسائل المالية ذات الصلة بنضالكم. من أين كانت الجبهة الشعبية تحصل على الأموال؟

كنا نمتلك عدة مصادر للتمويل. أولها المساعدة المالية التي كانت تقدّمها منظمة التحرير لكل فصيل من الفصائل الفلسطينية. وكانت هذه المساعدات تُمنح بموجب قوانين مقررة على مستوى القيادة المركزية. كانت هنالك إذن حصّة للجبهة الشعبية تأتيها من الصندوق الوطني لمنظمة التحرير بقيمة ٢٥٠ ألف دولار شهرياً. لكن هذه الحصة لم تكن تكفي لتغطية نفقاتنا بوصفنا ثاني أكبر تنظيم فلسطيني. أما الباقي فكان يأتينا من اشتراكات الأعضاء، ومن أصدقائنا في الخارج، ومن عدد من البلدان في مقدّمتها ليبيا. وفي إحدى الفترات، كانت ليبيا أحد أهم مصادر تمويلنا. أذكر كيف كان للرئيس القذافي شخصية فريدة كان يغيّر كثيراً من مظهره الخارجي وذلك خلال اللقاءات المتعددة معه، فقد كان يقابلنا أحياناً وهو يرتدي بِزّة عسكرية، وأحياناً أخرى زيّاً تقليدياً أو رداءً إفريقياً. وفي كل مرة كنت ألتقيه في طرابلس كان يمتنع عن مخاطبتي باسمي «جورج». كان يصرّ على تسميتي «خضر». كان يتأخر دائماً نصف ساعة أو ساعة كاملة في الوصول إلى الاجتماعات. وكان يحب أن يكون مركز اهتمام الجميع.

أما بالنسبة إلى الكويت فقد قدّمت لنا دفعتين من المال. دفعة أولى من مليون دولار، ودفعة ثانية من مليوني دولار، حصلنا عليها عام ١٩٨٨، عندما ذهبت إلى هناك وطلبت مساعدة لتعويض أسر شهداء الانتفاضة الأولى. وقد رغب الكويتيون يومها في أن ننفصل عن سوريا إذ كانت العلاقات متوتّرة بينهم وبينها. ولكن موقفنا السياسي كان مستقلاً على الدوام.

أما السوفيات فلم يقدّموا لنا أية أموال على الإطلاق، إذ اقتصرت موسكو على تقديم منح دراسية لطلاب قريبين من الجبهة الشعبية، إضافة إلى خدمات طبية لبعض الرفاق. كنا نطالب السوفيات بدعم سياسي خصوصاً، وقد حصلنا على هذا الدعم. واعتباراً من العام ١٩٨٢، كنت أزور موسكو مرتين سنوياً

تقريباً، حيث كنت ألتقي كبار المسؤولين السوفيات تحديداً يفغيني بريماكوف الذي كانت تربطني به صداقة قديمة. وكنت ألتقي أيضاً، خلال زياراتي، العديد من كبار المسؤولين السوفيات. كما أننا لم نحصل على أية أسلحة من قِبل السوفيات.

وعلى الرغم من المشكلات المالية التي واجهتنا غير مرة، كنا نرفض على الدوام أن يفرض علينا أحد المموّلين شروطه، وإن كنا قد اضطررنا أحياناً إلى تخفيف لهجتنا النقدية تجاه مموّلينا، وتحديداً خلال حصار بيروت. وقد وصل بنا الأمر أحياناً إلى رفض بعض المساعدات لأسباب تتعلق بقناعاتنا. ومن هنا، لم نتمكّن في أحيان كثيرة من دفع مخصّصات أعضاء الجبهة.

هل كان توزيع الأموال متكافئاً داخل منظمة التحرير بين الفصائل الفلسطينية؟

لا أبداً. كانت فتح تقتطع لنفسها حصة الأسد، وبعدها الجبهة الشعبية، ثم الجبهة الديموقراطية، وأخيراً الفصائل الصغيرة كالصاعقة وتنظيم أحمد جبريل، يوم كان لا يزال داخل المنظمة. كان أبو عمّار يدير أموال منظمة التحرير بصورة حصرية. كانت مالية المنظمة في يده. وفي معظم الأحيان، كانت مشكلاتنا المالية ناجمة عن قرار أبو عمّار بمعاقبتنا عن طريق قطع الإمدادات عنا. وقد حصل ذلك اعتباراً من العام ١٩٧٤، عندما قمنا بتشكيل جبهة الرفض. لكنه عاد ودفع حصتنا من المال عام ١٩٨١، عندما عدنا إلى الانخراط في اللجنة التنفيذية لمنظّمة التحرير الفلسطينية. ثم عاد إلى حرماننا من حقوقنا المالية بعد أوسلو في بداية التسعينيات. وهكذا دواليك. فتلك كانت أساليب أبو عمار للضغط علينا.

الفصل الثامن عشر

إسرائيل والتعايش بين اليهود والعرب

كيف تنظر إلى مستقبل العلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟

عندما أفكر في المشكلة الفلسطينية أشعر بضرورة أن نتمتّع بحقّنا غير القابل للانتقاص باستعادة أرضنا حتى آخر متر مربّع، لأن هذه الأرض هي ملكنا. وفي الوقت نفسه، فإن كل إنسان عاقل لا يسعه أن يتجاهل الواقع الحالي المتمثل بوجود أكثر من خمسة ملايين يهودي يدّعون بأنهم مواطنون في دولة اسمها «إسرائيل»، ويعتقدون أيضاً بأن لهم الحق بهذه الدولة. هل يمكننا أن نتخيّل حلاًّ من شأنه أن يسمح لنا بالاحتفاظ بحقوقنا التاريخية فوق أرضنا؟ لا بد من أن نواجه وضعاً في غاية التعقيد قبل الإجابة عن هذا السؤال.

إذا ما عدنا إلى الوراء، فإننا نجد أن الغزو الصهيوني، منذ نهاية القرن التاسع عشر، كان شديد الاختلاف عمّا نسمّيه عادة بالإمبريالية. وقد عبّرنا عن ذلك في شعاراتنا (وحدة، تحرّر، استرجاع فلسطين)، عند نشوء حركة القوميين العرب في الخمسينيّات من القرن الماضي... كانت معركتنا ضد الإمبريالية مركّزة، في تلك الفترة، على الجزائر والمغرب واليمن الجنوبي والخليج، حيث كنا نريد لهذه البلدان أن تنتزع استقلالها بالخلاص من النير الاستعماري.

وأمّا الكيان الصهيوني فقد كان يستهدف اغتصاب أرضنا، حتى وإن كان متحالفاً مع الإمبريالية. كان يسعى إلى تأمين وجود دائم في هذه الأرض خلافاً، على سبيل المثال، للفرنسي الذي كان سيتخلّى، يوماً ما، عن مستعمراته في

إفريقيا الشمالية. فالفرق بين الاحتلال الصهيوني والاستعمار الفرنسي أو البريطاني هو في أن الصهيونية قد وصلت وهي تحمل مفاهيم مفادها أنّ فلسطين هي أرض بلا شعب لشعب بلا أرض (هو الشعب اليهودي)، منكرة بذلك وجود الشعب الفلسطيني، وزاعمة أن اليهودية هي قومية، في حين أن العالم يعلم أنها دين وليست قومية. وقد عزّز الصهاينة هذا المفهوم بالاستناد إلى مفهوم آخر، ديني، ووصلوا إلى حدّ حمل العالم كلّه على الاعتقاد بأن فلسطين هي أرض الميعاد الخاصة باليهود. إن خصوصية الاحتلال الإسرائيلي هي في سعي الصهاينة إلى تفريغ الأرض التي يحتلونها من جميع سكانها. وهذا ما أدركته جماهيرنا التي انخرطت سريعاً في النضال ضد الاحتلال. لكنّ القادة الصهاينة أدركوا ذلك أيضاً واعتمدوا لغة القوة، منذ الخمسينيّات، وامتلكوا السلاح النووي. كان الإسرائيليون قد أدركوا أن وجودهم على هذه الأرض المتنازع عليها يجب أن يرتبط بامتلاك السلاح الذرّي، السلاح الأكثر قدرة على الردع، في وجه كل من قد يسعى إلى اقتلاع إسرائيل من الأرض الفلسطينية.

عندما عرضت على الرئيس عبد الناصر، في العام ١٩٦٤، ما كنا نقوم به من إعداد لثورة فلسطينية على غرار الثورة الجزائرية، أجابني بأن مسألة إسرائيل هي مشكلة كبرى وأشدّ تعقيداً مما نتصوّر، وأن علينا أن نتسلّح برؤية طويلة الأمد وعميقة في مواجهة هذا الخطر الذي يهدد الأمة العربية بأسرها.

لقد قامت الدولة الإسرائيلية على أنقاض الشعب الفلسطيني. لا أحد يمكنه إنكار ذلك. وبعد تفكير طويل وعميق، وصلتُ اليوم إلى استنتاج مُفاده أن الدولة الديموقراطية والعلمانية هي الحل الوحيد للصراع بيننا وبين الإسرائيليين. دولة واحدة يمكن فيها لليهود وللفلسطينيين أن يتعايشوا على أساس المساواة في الحقوق والواجبات. فالعرب واليهود سبق لهم أن عاشوا معاً على مر التاريخ، لكنّ الإمبريالية هي التي استخدمت اليهود في العالم من أجل تحقيق أغراضها ومصالحها. الإمبريالية هي التي أوجدت الصراع بيننا وبينهم لأنها أرادت زرع كيان غريب في المنطقة لخدمة مصالحها وهو الكيان الإسرائيلي.

مشروع الدولة ذات القوميتين يبدو اليوم غير واقعي. فاليهود قاتلوا طوال ألف عام من أجل العيش في دولة سيّدة، ولن يقبلوا مطلقاً بتقاسم هذه الدولة. أليس كذلك؟

أعود وأكرّر أن اليهودية دين، وهذا يقتضي برأيي أننا لا نستطيع النظر إلى اليهود على أنهم شعب واحد. وعلى ذلك، فإن مفهوم القومية لا ينطبق على اليهود. ما هو الأمر المشترك بين اليهودي اليمني واليهودي البولندي؟ إن الدين فقط هو ذلك الأمر المشترك. فعن أية سيادة تتكلم؟ لنفرض أن اليهود يطلبون سيادة. . . لماذا تكون تلك السيادة على حساب الشعب الفلسطيني وسيادته؟ ولماذا اختاروا فلسطين دون أي بُقعة أخرى في العالم؟ كثيرون يقولون كلاماً مثل كلامك هذا ويتخذون وضعية متشائمة جداً تجاه المشروع الذي طرحتُه والذي يعتبرونه مشوباً بالرومانسية. لكنّ مثال الحرب الجزائرية يمنحنا الأمل. فالجزائريون قاتلوا الاستعمار الفرنسي طوال مئة واثنين وثلاثين عاماً ونجحوا أخيراً في انتزاع استقلالهم. لن يكون هنالك سلام وتعايش بين اليهود والعرب، إذا ما وضعنا جانباً هذا الحل المتمثل بدولة واحدة ديموقراطية علمانية.

أنت تدرج أهدافك إذن ضمن أفق تاريخي بعيد المدى. أليس كذلك؟

أنا أضع أهدافاً بالفعل، وآمل أن تتحقق مع مرور الزمن. فالأمور تتغير كل يوم حتى في إسرائيل. وإذا ما استعرضنا انتصارات الحركة الصهيونية منذ العام ١٩٤٨ حتى اليوم، فإننا نلاحظ أننا تعرّضنا لهزائم قاسية عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، وشهدنا نصراً عسكرياً عام ١٩٧٣، وأن الفلسطينيين قد صمدوا أمام النيران الإسرائيلية لمدة ثمانية وثمانين يوماً في بيروت. كان ذلك رائعاً في تلك الفترة. كما أن الانتفاضة الأولى التي انطلقت في أواخر العام ١٩٨٧، والانتفاضة الثانية التي انطلقت في العام ٢٠٠٠، قد زعزعتا مفهوم الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، وأبرزتا النضال الأسطوري للشعب الفلسطيني. ولكن ما توّج جميع هذه

المكتسبات تمثل بانتصار حزب الله، عام ٢٠٠٦، على الآلة العسكرية الإسرائيلية. وقد أحدثت هذه الهزيمة التي مُني بها العدو زلزالاً حقيقياً في إسرائيل، حيث وصل المثقفون إلى حدّ التساؤل عن مستقبل المشروع الصهيوني، لأن الجنود الإسرائيليين كابدوا خسائر فادحة خلال الأيام الثلاثة والثلاثين التي استغرقتها الحرب التي أثّرت على معنوياتهم. واليوم، يتنبّأ بعض الإسرائيليين بمستقبل قاتم لبلدهم. أنا واثق حقاً وأقول في نفسي بأن نهاية إسرائيل قد اقتربت. إن حربها الفاشلة على لبنان قد وضعت علامة استفهام على مستقبل المشروع الصهيوني. لقد فوجىء العالم كلّه بتلك الهزيمة. إن الحياة هي لا شيء غير التغيّير نحو الأفضل والتراكم في التجارب. ولا بد من الاستمرار في المواجهة حتى تحقيق الأهداف الوطنية.

إن كثيراً من الفلسطينيين في الضفّة الغربية وغزّة يتألّمون، وقد لا يكونون مستعدين للانتظار خمسين سنة أخرى. ما قولك في ذلك؟

هذا غير صحيح. لأن شباب المخيّمات في فلسطين والخارج هم أكثر اقتناعاً من ذويهم بعدالة قضيتهم في استرجاع وطنهم. وليس اللاجئون وحدهم من يريدون ذلك، بل إن غالبية الفلسطينيين يتمسكون بالعودة. أنا مقتنع بذلك. إنه حقّ مقدّس؛ وأنا مقتنع بأنه لو حصل الفلسطينيون على أرض محرّرة ودولة حقيقية ذات سيادة فإنّ الغالبية العظمى ستعود إلى تلك الدولة. إن هذا الهدف غير قابل للتحقيق حالياً، ولكن إمكانيته ستأتي مع الأيام، لأن ليس هنالك ما هو مستحيل. ثم أعود وأكرر أن الناس الذين ولدوا خارج فلسطين هم أكثر شغفاً بالعودة من جيل آبائهم الذين عايشوا نكبة ١٩٤٨ وحرب الـ٦٧. إن الفكرة القائلة بأن الأجيال القادمة ستنسى، بمرور الزمن، أصل القضية الفلسطينية، هي فكرة خاطئة تماماً.

هل ستكون تلك الدولة الديموقراطية ثمرة النضال السياسي أم العسكري؟

كل أشكال النضال يجب أن تتضافر من أجل تحقيق هذا الهدف. لا يمكننا أن نحقق النجاح إذا ما اكتفينا بواحدة من هذه الوسائل دون غيرها.

لكنْ ألا تميل موازين القوى العسكرية الحالية بشكل واضح لمصلحة إسرائيل؟

وضعنا العسكري ليس مرضياً حالياً. ولكنّ الموقف يمكن أن يتغير تماماً. من هم الذين يتمتعون بحق أكبر في فلسطين: أهم الناس الذين كانوا يعيشون على هذه الأرض منذ آلاف السنين، والذين اقتُلِعوا منها منذ ستين عاماً، بفعل الاحتلال الصهيوني، أم اليهود الروس والبولنديون والإثيوبيون وغيرهم ممن أتوا إليها منذ عقود لا أكثر؟ لا بد للعالم من أن يفهم أخيراً أن هنالك وضعاً ظالماً ينبغي أن يصحّح وأن هناك حقوقاً يجب أن تعود إلى أصحابها الشرعيين.

هل تعتمدون أيضاً على الديموغرافيا؟

أجل. إنها حرب ديموغرافية، والأمور ستتغير لمصلحتنا يوم نصبح أكثر عدداً. فذلك يشكّل بالفعل بُعداً هامّاً يمكنه أن يعمل لمصلحتنا، ولكنه غير كاف، إذ لا بد، إلى جانب ذلك، من أن نستمر في النضال والتخطيط وتعبئة الجماهير. إن الزمن يعمل لمصلحتنا بشكل أو بآخر. لذا، تعمل إسرائيل بسرعة على استقدام أكثر من عشرة ملايين يهودي إلى فلسطين لتواجه هذه المعضلة.

على أرض الواقع، يقوم الإسرائيليون ببناء الكثير من المستوطنات في الضفة الغربية. ألا يعمل عنصر الوقت في غير مصلحتكم على هذا الصعيد؟

صحيح أن عنصر الوقت يمكنه أيضاً أن يعمل في غير مصلحتنا. ولكن الكثيرين في داخل المجتمع الإسرائيلي قد بدأوا، كما قلت لك، بطرح التساؤلات حول الحركة الصهيونية. كما أن وجود أكثر من مليون عربي فلسطيني

ممن يحملون الجنسية الإسرائيلية في أراضي الـ ٤٨ يعمل لمصلحتنا، لأن العالم سيتحرك إذا ما سعت إسرائيل إلى طردهم من أراضيهم.

ألا تلاحظون أن الفلسطينيين الذين يعيشون في الخارج هم أكثر جذرية ممن هم في الداخل؟

لا ينبغي التعميم. صحيح أن الذين يعيشون في الخارج هم أكثر تمسّكاً بمسألة العودة. ولكن هنالك من هم جذريون جداً في التيارات الوطنية داخل الأراضي المحتلّة، فالفلسطينيون في الداخل لهم دور نضالي تاريخي في المواجهة اليومية مع تلك الدولة العنصرية.

نلاحظ من خلال ما تقول أنك مخلص جداً لمبادئك المعلنة قبل عشرين أو ثلاثين عاماً. ولكن هل هذه هي السياسة؟ أليست السياسة أيضاً هي في معرفة كيفية التكيف؟

من واجبي، انطلاقاً من ثوابتنا القومية، أن أظل مخلصاً لمبادئي، وإن تغيرت الطريقة في مقاربة هذا أو ذاك من جوانب القضية، على ما أثبتناه طوال تاريخنا، سواء تعلّق الأمر بتطور نظرتنا، منذ العام ١٩٥٩، إلى الفرق بين اليهودي والصهيوني، أو منذ العام ١٩٧٢، في ما يخص مسألة خطف الطائرات.

وعلى ذلك، لا يمكنني أن أتنكّر لمبادئي. لقد تنازلت ووافقت على فكرة الدولة فوق أي جزء من الأرض المحررة كهدف مرحلي على طريق تحرير كامل الأرض الفلسطينية وإقامة دولة يتعايش فيها اليهود والعرب مسلمين ومسيحيين في فلسطين. يمكنك أن تعترض بالقول إنه كان من الأفضل لنا، إذا لم نتمكن من إقامة تلك الدولة في غضون مئة عام، لو كنا قبلنا بعرض أكثر محدودية، بصورة انتقالية وبالشكل الذي فعلناه، ولكن من دون التراجع عن أهدافنا طويلة المدى. كما يمكنك أن تقول الشيء نفسه بالنسبة إلى الوحدة العربية، حيث أنني مقتنع بأنها قابلة للتحقيق على مراحل. لقد قبل أبو عمّار بحلول ديبلوماسية،

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ صفر! وإذا ما حدث لي ودخلت في مفاوضات مع الإسرائيليين فإن ذلك سيكون بهدف العيش معهم في دولة ديموقراطية علمانية واحدة. وبالرغم من جميع التنازلات السياسية التي قدّمتها القيادة الفلسطينية الرسمية، وبالرغم من جميع الاتفاقات الموقّعة مع إسرائيل، فإن شعبنا ما يزال يتحمّل العذاب يومياً من خلال أعمال التدمير والطرد. فالأمور لم تتغير على أرض الواقع عما كانت عليه منذ ستين عاماً.

هل هنالك فرق، بالنسبة إليك، بين اليسار واليمين الإسرائيليين؟ هل إقامة السلام مع حزب العمل هي أكثر سهولة منها مع حزب الليكود؟

الفرق الوحيد بين اليسار والليكود يكمن في أن البعض يبدي مرونة أكثر مما يبديه البعض الآخر. ومع ذلك، وسواء تعلّق الأمر باليسار أو بالليكود، فإن الفريقين يتخذان المواقف نفسها تجاه المسائل الهامة المتعلقة بالقدس وحق عودة اللاجئين الفلسطينيين وإزالة المستوطنات. فاليسار لن يتراجع مطلقاً، شأنه شأن الليكود، في ما يخص هذه المسائل. وأنا أعتقد أنهما يشكلان وجهين لعملة واحدة. هنالك الحزب الشيوعي الذي يظل حزباً غير صهيوني، لكنّ جميع التشكيلات الأخرى تتشابه مواقفها في أوقات الأزمات في الأمور الأساسية.

هل بين القادة الإسرائيليين، من دافيد بن غوريون إلى إيهود أولمرت، من تعترف له بمزايا خاصة؟

كلهم صهاينة في نظري. إنهم يطمحون جميعاً إلى فرض الهيمنة الصهيونية على العالم العربي بأسره.

إذن اليسار واليمين في إسرائيل كلاهما صهيوني. هل يعني ذلك أن جميع الأحزاب تتبنى مبادئ لا تنسجم مع مطالبكم؟

هنالك قوى يهودية عديدة لا شأن لها بالتوجهات الصهيونية المعروفة.

الحزب الشيوعي هو غير صهيوني، كما سبق أن قلت. وكذلك الأمر بالنسبة إلى جماعة ناتوري كارتا.

لكن هذه القوى تظل غير مؤثّرة حتى ولو اجتمعت!

أعترف بأن هذه القوى لا تتمتع حالياً بنفوذ كبير داخل المجتمع الإسرائيلي. هنالك عدد قليل لكنّه مؤثّر من الصحافيين والمؤرّخين والمثقفين الذين يرفعون الصوت ضد السياسة الإسرائيلية في فلسطين. ويمكنهم عاجلاً أو آجلاً أن يعززوا تأثيرهم على الإسرائيليين.

هل يمكنك أن تكتفي باعتراف إسرائيلي بـ«حق العودة»، بالشكل الذي كانت منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة للقبول به خلال اتفاقيات كامب دايفيد، في العام ٢٠٠٠؟

هذا لا يكفي بالنسبة إليّ. فأنا مع عودة كل فلسطيني إلى المكان الذي جاء منه، بما في ذلك أراضي الـ٤٨. أنا أريد العودة إلى اللدّ، المدينة التي وِلدت فيها. لقد قام الإسرائيليون منذ بعض الوقت بتدمير منزلي لمحو الرمز التاريخي الذي يمثله مثل ذلك المكان. فالاعتراف، دون العودة الفعلية، لا يكفيني. أنا غير مستعد لقبول التلاعبات الإسرائيلية الهادفة إلى منع عودة اللاجئين، كما حصل في اتفاقيات أوسلو. أنا أدرك اليوم أن إسرائيل لن تقبل هذه الشروط. ولكن موازين القوى يمكنها أن تتغير في المستقبل. وعندما تصبح المعايير الدولية ملائمة بالنسبة إلينا، سيكون بإمكاننا أن نصرّ على تحصيل الاعتراف بحق العودة. أنا مع دولة ديموقراطية وتعايش سلمي بين اليهود والفلسطينيين. تلك هي فلسفتي. وسأواصل النضال حتى النفس الأخير من أجل تحقيق هذا المثال.

ملحق ١

رسالة من جورج حبش إلى السيد حسن نصر اللّه
(بعد حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦)

إلى الأخ الكبير سماحة السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله
تحية المقاومة الباسلة. . . تحية فلسطين ولبنان . . . . تحية العروبة

إسمحوا لي أن أتوجه إليكم بالتهنئة والتبريك بالانتصار التاريخي الذي حققته المقاومة الإسلامية في لبنان وصمود المقاتلين الأبطال من حزب الله، وصمود الشعب اللبناني العظيم، شعب العزة والكرامة والإباء، كما أتقدم بالتحية من خلالكم إلى جميع المجاهدين والمقاتلين من كوادر وقيادات حزب الله الذين سطروا بدمائهم صورة ناصعة البياض في تاريخ الأمة. . .

لقد أضاف العدوان الصهيوني الوحشي على لبنان صورة جديدة من صور جرائمه البشعة حاول فيها النيل من صمود شعبه المقاوم، وما الاستهداف الصهيوني للمدنيين والبنية التحتية في لبنان وفلسطين سوى نموذجاً لسياسة المجازر وحرب الإبادة الجماعية التي انتهجها العدو الصهيوني خلال تاريخه الدموي الطويل . . .

لقد أعطى صمود حزب الله والشعب اللبناني، دعماً قوياً ونهضة ثورية جديدة للأمة العربية بأسرها. . . مُظهراً الحقيقة العارية لجيش الاحتلال الصهيوني ذلك الجيش المعتدي المهزوم من داخله يحاول أن يبحث عن إنجاز وهمي ولو

بحدود صغيرة فيفشل أمام صمود المقاومة التي حققت نصراً استراتيجياً من واجب اللبنانيين والأمة العربية التمسك به والحفاظ عليه.

لقد أسقطت هذه الحرب كل الأقنعة عن النظام العربي الرسمي كما كشفت أيضاً سيناريو هذا العدوان الصهيوني المُعد أمريكياً وبتوجيه من المحافظين الجدد في البيت الأبيض، لكن رهانات الإدارة الأمريكية باءت بالفشل فما حصدوا إلا الخزي والعار... وستبقى دماء الأبرياء والشهداء من الأطفال والنساء في قانا ومروحين والقاع والضاحية والبقاع وكل شبر من الأرض المقاومة شاهداً على تاريخهم الملطخ بدماء الأطفال...

إن انتصار المقاومة في لبنان هو انتصار للمقاومة في فلسطين والعراق وانتصار للمواجهة والتصدي للمشروع الأمريكي الصهيوني في المنطقة، هذا الانتصار الذي يصب ضمن تيار التوجهات الإستراتيجية التي ناضلنا من أجلها طويلاً ومن أجل ترسيخها فالحقوق تُنتزع ولا تعطى مجاناً والسلام العادل لا يصنعه إلا الأقوياء فقد كشفت هذه المعركة زيف إدعاء خطاب السلام المخادع، كما أظهرت وبوضوح مرة أخرى الأطماع الإمبريالية والصهيونية في محاولة لحذف كل أبجديات المقاومة من قاموس المنطقة العربية.

فتحت هذه المعركة وهذه التجربة النضالية آفاقاً جديدة على المستقبل، ولكن لن تكون تلك نهاية الأمور بل أقول إنه في المرحلة القادمة سنكون أمام مواجهات أصعب من ذي قبل على الصعيدين الداخلي والخارجي في لبنان وفلسطين والعراق وكافة الوطن العربي ومواجهة سيناريو آخر وحلقة جديدة من المخطط الصهيوني الأمريكي، وعلى الرغم من كل المؤامرات التي تحيكها الإدارة الأمريكية فيما اصطلح على تسميته «الشرق الأوسط الجديد» القائم على الحروب الطائفية وتفتيت المنطقة، إلا أن الوعي القومي العربي أصبح الحصانة الأولى للتصدي لهذه المشاريع الاستعمارية الجديدة التي تقودها عصابة بوش في البيت الأبيض.

الآن نقول: إن هزيمة جنرالات العدو الصهيوني وجنوده في المعركة أعطت

حافزاً وقوة دفع هائلة لكي نقف أمام تطوير تجربة المقاومة وحمايتها عبر هذا الصراع المفتوح. . . وقد أصبح اليوم وعي الجماهير هو أهم مرتكزات المواجهة.

لقد فتح حزب الله بانتصاره نافذة أمل ونور في لحظة ليل حالك فأعاد ضخ الدماء إلى العروق كما رفع رأس الأمة العربية والإسلامية عالياً وستبقى هذه التجربة القاسية والمؤلمة التي خاضها حزب الله مصدر فخر واعتزاز لنا وللأجيال من بعدنا. . .

معاً وسوياً على خط المواجهة. . . معاً وسوياً في المقاومة
في لبنان وفلسطين والعراق
معاً وسوياً مع سلاح الإرادة الذي يحتضن سلاح المقاومة. . .
معاً وسوياً على درب تحرير فلسطين والقدس
المجد والخلود لشهدائنا الأبرار. . . والحرية للأسرى والمعتقلين. . .
ودمتم رمزاً للعزة والكرامة

أخوكم الدكتور جورج حبش
مؤسس حركة القوميين العرب
والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
١٧/٨/٢٠٠٦

ملحق ٢

الكلمة التي ألقاها جورج حبش أمام الرهائن
في فندق الأردن سنة ١٩٧٠

فيما يلي ترجمة الكلمة التي ألقاها الرفيق جورج حبش بالإنكليزية في مؤتمر صحفي يوم ١٢/ ١/ ١٩٧٠ عقدته الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في فندق الأردن - كونتيننتال، عندما قررت الجبهة إطلاق المحتجزين في الفندقين والانسحاب منهما بعدما توصّلت المقاومة إلى أهدافها، وقد وصل الرفيق حبش إلى الفندق في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وتحدّث إلى الصحفيين مرتجلاً أمامهم الكلمة التالية:

أيها السيدات والسادة:

أشعر أنه من واجبي أن أوضح لكم لماذا قمنا بما قمنا به، بطبيعة الحال ومن وجهة نظر وتفكير ليبرالي أشعر بالأسف لما حدث، وآسف لأننا سبّبنا لكم بعض الإزعاج خلال اليومين أو الثلاثة أيام الماضية، وآمل أن تتفهموا أو على الأقل تحاولوا أن تتفهموا لماذا قمنا بما قمنا به.

وربما كان من الصعب عليكم تفهّم وجهة نظرنا، فالناس الذين يعيشون ظروفاً مختلفة يفكرون بطرق مختلفة، لا يمكن أن يفكروا بنفس الطريقة التي نفكر بها نحن. فالشعب الفلسطيني في ظل الظروف التي عشناها لسنوات عديدة قد حددت طريقة تفكيرنا وهذا أمر لا نستطيع أن نفعل أي شيء حياله.

إن بإمكانكم فهم طريقة تفكيرنا إذا ما عرفتم حقيقة أساسية، فنحن، الشعب الفلسطيني، نعيش منذ ٢٢ عاماً، هي الأعوام الـ ٢٢ الأخيرة في المخيمات، لقد طردنا من بلادنا ومنازلنا وأراضينا لنعيش هنا في مخيمات اللاجئين في ظل ظروف شديدة القسوة ومنذ ٢٢ عاماً وشعبنا ينتظر استعادة حقوقه، ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل.

إلا أنه قبل ثلاث سنوات توفرت الظروف التي مكنت شعبنا من حمل السلاح والدفاع عن قضيته والبدء بالقتال للحصول على حقوقه في العودة إلى بلاده وتحرير وطنه.

بعد ٢٢ عاماً من الظلم واللاإنسانية والعيش في المخيمات والعيش دون انتباه أحد، نشعر أننا نملك كل الحق لحماية ثورتنا، أن لنا كل الحق في أن نحمي ثورتنا. إن شريعتنا الأخلاقية هي ثورتنا، وكل ما ينقذ ثورتنا ويساعدها ويحميها إنما هو الصواب وعين الصواب وهي الشيء المشرّف والنبيل والجميل لأن ثورتنا تعني العدالة وتعني استعادة منازلنا ووطننا وهي أهداف عادلة ونبيلة جداً.

لا بدّ لكم من أن تأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار.

إذا أردتم أن تتعاونوا معنا، بطريقة أو بأخرى حاولوا تفهّم وجهة نظرنا.

إننا لا نصحو في الصباح لنشرب قدحاً من الحليب والقهوة ونمضي نصف ساعة أمام الحياة ونفكر في السفر إلى سويسرا أو قضاء شهر في هذا البلد وشهر آخر في ذاك، ليس لدينا آلاف وملايين الدولارات المتوفرة لكم في الولايات المتحدة وبريطانيا، إننا نعيش يومياً في المخيمات حيث ننتظر نساؤنا بالماء الذي قد يحضر في العاشرة صباحاً أو الثانية عشرة ظهراً أو الثالثة بعد الظهر، لا يمكننا أن نكون هادئين مثلكم، لا يمكننا أن نفكر مثلكم.

لقد عشنا هذه الظروف لا ليوم واحد أو يومين أو ثلاثة، لا لأسبوع أو أسبوعين، لا لسنة أو لسنتين. وإنما لاثنين وعشرين عاماً.

لو جاء أحدكم إلى هذه المخيمات وبقي فيها أسبوعاً أو أسبوعين، لا بدّ من أن يتأثر، لا يمكن له أن يفكر ويعالج الأمور بمعزل عن الظروف التي يعيشها.

منذ بدأت ثورتنا قبل ثلاث سنوات جرت محاولات عديدة للقضاء عليها، ولقد قامت المنظمات الفدائية بعد ٥ حزيران، وهو تاريخ معروف جيداً لكم، وانطلقت وأنظارها متجهة نحو الأراضي المحتلة. ولكن، عندما سارت الثورة راحت قوى عديدة من أعدائنا تضع الخطط لتهزم هذه الثورة: أمريكا تقف ضدنا، نحن نعرف ذلك جيداً ونحن نشعر به جيداً. لقد شعرنا به من خلال مساعدات الفانتوم في العام الماضي، أمريكا ضد ثورتنا وهي تعمل على سحق ثورتنا، انها تعمل من خلال النظام الرجعي في الأردن والنظام الرجعي في لبنان، لقد حاولوا، في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، سحق ثورتنا وعلى الرغم من ذلك، وخلال الأحداث التي دارت هنا، كنا جميعاً نتطلع ونهدف نحو أرضنا المحتلة كانت هذه المحاولة الأولى، لقد جرت محاولة ثانية، قبل أربعة أشهر في العاشر من شباط/ فبراير. ولقد عشنا المحاولة الثالثة خلال الأسبوع الماضي في الحقيقة إنهم يعملون ضد ثورتنا يومياً، كل يوم، وما هذه التواريخ إلا الذروات التي وصلت فيها محاولاتهم إلى مستويات عالية، إننا نخسر الرجال والدماء كل مرّة ونقدّم التضحيات. في العاشر من شباط/ فبراير كان هناك على الأقل ما يقرب من ٥٠ إصابة. وبالنسبة لهذه المحاولة الثالثة من قبل النظام الرجعي لسحق ثورتنا. والناس الذين يعيشون في الأردن يعرفون جيداً ويحسّون بذلك جيداً. ونحن لا نبني ثورتنا على الأكاذيب، إن ما أقوله لكم هنا هو الحقائق.

يوم السبت الماضي حصلت حادثة في عمّان ووقعت يوم الأحد حادثة أخرى في الزرقاء ثم اشتعلت الأوضاع، لقد شعرنا هذه المرة، ولنكن صريحين معكم، أنه على الأقل من جانب وجهة نظر السلطة كانت ستكون هذه المحاولة الأخيرة، أقصد القول إننا شعرنا أنهم كانوا مصمّمين هذه المرة على سحق ثورتنا مهما كان مستوى التضحيات.

وهنا شعرنا أن لنا كل الحق في الوجود لحماية ثورتنا لقد تذكرنا كافة مآسي شعبنا كل الظلم، تذكرنا شعبنا والأوضاع التي يعيشها والبرودة التي ينظر بها الرأي العام لقضيتنا.

وشعرنا بأننا لا يمكن أن نسمح لهم بسحقنا. إننا سوف ندافع عن أنفسنا وعن ثورتنا بكل وسيلة وكل ما يحمي ثورتنا حق. هذا هو خط تفكيرنا، ولهذا وضعنا خططاً مضادة مصمّمين على النصر.

لقد كان أحد بنود هذه الخطة، أنتم، ما حصل هنا، شعرنا أن لنا الحق كله في الضغط على النظام الرجعي هذا وعلى أمريكا وكافة القوى، وأن هذا الضغط ورقة رابحة بأيدينا، انني أحدثكم بكل صراحة ويجب أن أقول لكم بكل صراحة أيضاً إننا كنا مصمّمين ولم نكن نمزح.

إنني مسرور لأن الأمور والأوضاع تطورت في الاتجاه الذي كان يجب أن تتجه إليه.

لأننا بصراحة كنا مصمّمين تماماً أنه في حال استطعتم سحقنا في المخيمات فإننا سننسف هذا البناء وفندق فيلادلفيا رأساً على عقب. لقد كنا مصمّمين على القيام بذلك. لماذا؟ لأننا نعلم أن ثورتنا ستستمر وحتى ولو سحقنا هنا في عمّان. كنا نريد أن نعرف حكوماتهم بأنه من الآن فصاعداً فإن كل كلمة تقولها الجبهة سوف تعنيها، كنا مصمّمين تماماً على نسف هذا الفندق وفندق فيلادلفيا في حالة واحدة، لقد حرصنا على ألا نفقد أعصابنا. ولقد كنا حريصين على تنفيذ ذلك لو شعرنا أنهم مصمّمون على سحقنا بدباباتهم ومدافعهم وطائراتهم. أنتم لستم أفضل من شعبنا. ففي الأحداث الأخيرة كان هناك أكثر من (٧٠٠) إصابة وهذا أقل تقدير. بالأمس كنت في أحد المستشفيات، وقد أخبرني الأطباء أنه كان لديهم (٢٨٠) جريحاً وخمسون قتيلاً.

أيها السيدات والسادة:

أشعر بشيء من الارتياح الآن لأننا لم نحاصر في زاوية ونجبر على تنفيذ كل ما كنا مصمّمين على القيام به في حال اتجاه الأمور اتجاهاً آخر.

إنني أعرف طريقة التفكير الليبرالي، وأعرفها جيداً، أعرف كم هو صعب

إقناعكم. أعرف أن بعضكم يقول لنفسه الآن: وما علاقتي بكل هذه الأوضاع؟ إن هذا غير عادل وفظ وأناني. لا بأس.

إن الظروف التي تعيشها الناس تحدد طريقة تفكيرهم وشريعتهم الأخلاقية.

لقد حاولنا جهدنا وآمل أن نكون قد نجحنا في ذلك، أن نكون قد عاملناكم أفضل معاملة ممكنة خلال إقامتكم في الفندق تحت إشراف الجبهة، إنها المرة الأولى التي ندير فيها فندقاً، وإنني واثق بأن رجالنا مقاتلون ممتازون ولكني لا أعرف إلى أي مدى أتقنوا إدارة الفندق. لقد كانت التعليمات واضحة جداً، وآمل أن يكونوا قد نجحوا في ذلك. أعتقد أننا ساعدناكم بالحفاظ على هدوء أعصابنا.

قبل يوم أمس، تعرّض مخيم الوحدات للقصف لأكثر من نصف ساعة، وبامكان أي واحد منكم الذهاب إلى مخيم الوحدات ورؤية الأماكن المتضررة. إن من الطبيعي أن يتوقف المرء عن التفكير في مثل هذه الظروف ويبدأ بتنفيذ هذا البند من الخطة. ولكننا حافظنا على أعصابنا جيداً.

أيها السيدات والسادة:

من ناحية شخصية، اسمحوا لي أن أعتذر لكم وأقول إنني آسف لما سبّبناه لكم من إزعاج خلال الثلاثة أو الأربعة أيام الماضية. ولكن من وجهة نظر ثورية، فإننا نشعر، وسوف نستمر بالشعور، بأنه كان لنا الحق، بالقيام بما قمنا به.

وشكراً لكم

نُشرت في مجلة «الهدف» رقم ٤٧

بتاريخ ٢٠/٦/١٩٧٠

ملحق ٣

رسالة من جورج حبش إلى كارلوس

عنونت جريدة الديار اللبنانية في ١٩٩٨/١١/٢٤ «كارلوس يعلّق إضرابه عن الطعام استجابة لرغبة حبش». وفي ما يلي النص الحرفي لرسالة حبش:

المناضل الأممي إليش راميريز سانشيز سليم،

تحية أممية وبعد،

بداية أهديك تحياتي الكفاحية وتمنياتي لك بموفور الصحة والعافية.

نتابع باهتمام عال ما تكتبه الصحف ووكالات الأنباء العربية والعالمية عن قرارك في الاستمرار بالإضراب عن الطعام بسبب المعاملة اللاإنسانية التي تتعرّض لها في السجن كردّ فعل لامنطقي ولاإنساني على مطالبتك العادلة والإنسانية بأبسط الحقوق.

لقد تألّمت جداً للوضع الصحي الصعب الذي تمرّ به، حيث لا يمكن لمناضل مثلك أن يستسلم ويموت بهذه الطريقة.

إن شعبنا الفلسطيني يقدّر جهودك وتضحياتك ونضالك الأممي مع الشعب الفلسطيني، ولا يمكن أن ينساها.

مرّة أخرى أشدّ على أيديكم، وكلّي أمل بأن تبقى المناضل الأممي الصلب، وهذا يستدعي الحفاظ على صحتكم وحياتكم، حتى تستمروا في الحركة النضالية من أجل الهدف السامي الذي نناضل كلّنا من أجله، مع أحر تحياتي لكم وتمنياتي بوافر الصحة والعافية.

ملحق ٤

الكلمة التي ألقاها جورج حبش في تأبين وديع حداد

يا رفاق وديع..

يا ثوار شعبنا الفلسطيني المكافح..

يا شعبنا الضارب الجذور في تربة فلسطين رغم الاحتلال..

يا إخوتي في كل منفى ومخيم..

يا جماهير أمتنا العربية، أيها التقدميون الرفاق في كل العالم..

بقلب يملأه الحب والألم والحزن والإصرار على التشبث بطريق الكفاح... طريق النصر... أنعي لكم رفيق الحياة والدرب والكفاح... أنعي لكم وديع.

أنعي لكم وديع السنبلة التي نبتت في صفد... وعندما جاء الغزاة وجدوا السنبلة رمحاً.

أنعي لكم وديع المخيمات والفقراء... وديع التصدي للغزو الصهيوني والمؤامرات الرجعية... وديع التشرّد والكفاح والسجون.

أنعي لكم وديع الطبيب الذي فضّل علاج الشعب والجماهير والقضية على علاج الأفراد... وديع المبكر في دق أبواب الكفاح المسلح بكلتا يديه... وديع الذي أقضّ مضاجع العدو الإمبريالي الصهيوني الرجعي في كل مكان داخل أرضنا المحتلة وخارجها.

أنعي لكم رفيقي أبا هاني.

أنعي لكم جسده.

فمن كانت لديهم روح وديع وعزيمته وثورته، لا يموتون إلا بالجسد. . . ووديع باقٍ بنا بشعلة الكفاح المسلح التي نتلمس وهجها في عيون أطفالنا المسروق منها الوطن. . . في إصرارهم على الكفاح حتى الانتصار. . . وديع باقٍ بنا. . . بالمثال الرائع المضيء الذي كانت حياته، نضالاً وثورة ما عرف الحياة إلا نضالاً وثورة.

وديع المناضل العنيد القائد الصلب، باقٍ ما بقيت الثورة. . . وليس أبقى من هذه الثورة إلا الوطن الذي تشتعل هذه الثورة من أجله.

يا رفاق وديع، يا أبناء ثورتنا وشعبنا، أيها التقدميون الرفاق في كل العالم، مؤلم في هذه الظروف الصعبة والمصيرية أن نفتقد بين صفوفنا ركناً من أركان ثورتنا كوديع حداد، الذي كان قدوة في التصميم على اختراق كل الظروف الصعبة والمصيرية.

في هذه الظروف حيث تتعرى كل الدنيا ويتكالب كل الأعداء والمستسلمين والمتآمرين في محاولة اقتلاع بندقيتنا من أيدينا. . . في محاولة اجتثاث الصمود الأسطوري الذي تتمثل فيه انتفاضة شعبنا في وطننا المحتل، كما تمثلت وتتمثل في وقفة مقاتلينا في جنوب لبنان.

في هذه الظروف لا يمكن أن نملأ الفراغ الذي يخلفه غياب وديع إلا بما يصنعه هذا الغياب في نفوسنا جميعاً من عزم على مواصلة التشبث بالأرض والبندقية والصمود وبحتمية الانتصار. هذه الأمة التي أنجبت شعبنا وثورته وشهداءه محال أن تستكين لريح الهجمة الإمبريالية - الصهيونية - الرجعية التي تبدو طاغية مرحلياً. . . ومهما بلغ العتو في هذا الطغيان وهذا العصر الذي تتحقق فيه إرادة الشعوب وتتهاوى فيه صروح الاستعمار والطغيان واحداً بعد الآخر لا يمكن إلا أن تتحقق فيه إرادة شعبنا بعد أن وجد طريقه إلى البندقية إلى الثورة.

يا رفاق وديع، يا أبناء ثورتنا وشعبنا. .
يا جماهير أمتنا العربية وقواها الثورية. .
أيها التقدميون الرفاق في كل العالم. .

في هذه المناسبة الأليمة، علينا أن نجدد العهد والعزم، وأن نستلهم الدروس من فقيدنا الغالي. . . ففي ذلك وفاء له. . . والوفاء للشهداء هو الوفاء للثورة.

وأبرز ما في حياة وديع وكفاحه من دروس، هو أن وديع قلب المعادلة بين الثائر والعدو رأساً على عقب فتحوّل الثائر من مطارد يلاحقه العدو في كل مكان إلى مطارد لذلك العدو في كل مكان. إنها ذروة الثقة بإمكانيات الشعب والثورة أن تلاحق العدو ولا تترك له فرصة للهدوء بنفس القدر الذي نحصن فيه مواقعنا بصمود الثوار الذي لا يتزعزع. . . وبالتحام الثوار بجماهيرهم التحاماً عضوياً متكاملاً. . . فليعلم الأعداء، وبهذه المناسبة بالذات. . . أن وديعاً لم يمت، وأن فرصة الاطمئنان بهذا الحدث لن يحصلوا عليها. . . وستبقى مدرسة الوفاء للوطن. . . الوفاء للثورة. . . الوفاء للشهداء. . . لوديع وغسان وأبو علي أياد وكمال عدوان وأبو يوسف وكمال ناصر وباسل الكبيسي وجيفارا غزة وأبو منصور وأبو طلعت وأبو أمل وكل الذين أناروا بشهاداتهم طريقنا إلى فلسطين. . . وكتبوا بدمائهم وثيقة الانتصار.

نُشرت في جريدة «الثورة مستمرة»
عدد ٥٥/ ٥٠، ٤/ ٤/ ١٩٧٨

ملحق ٥

رسالة من مواطنة فرنسية إلى جورج حبش وزوجته

في ٣ شباط/ فبراير ١٩٩٢

إلى السيد جورج حبش والسيدة هيلدا حبش

تونس

سيدي،

سيدتي،

لا أدري ما إذا كانت هذه الرسالة ستصلكم أم لا. إذا وصلت، فهذا يعني أن موظفي البريد في فرنسا ليسوا جميعهم من الصهاينة. أود، من جهتي، أن أقول لكم أنه مما يشرف فرنسا أن تحصلوا على العناية الطبية فيها، وبأنها قد ألحقت العار بنفسها لرفضها تقديم هذه العناية، ولأنها أرجعتكم إلى تونس. وبهذا، فإنها تكون قد رضخت لمصالح دولة أجنبية.

لست بنظري إرهابياً بل مقاوماً. وما ينبغي قوله هو أن هنالك إرهاباً إسرائيلياً قائماً على الغزو وإرهاباً فلسطينياً دفاعياً لا يشكل غير رد بسيط على الإرهاب الإسرائيلي. إنه لمن الظلم أن تدان هذه الأعمال الفلسطينية المحدودة وأن يغض النظر عن جبروت الإرهاب الذي تمارسه الدولة العبرية، كما جرى في تدمير مطار بيروت واغتيال قيادات مسيحية في منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت

أيضاً. أو كما جرى في مجازر صبرا وشاتيلا، وقصف مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس (والذي أوقع العديد من الضحايا التونسيين). أو في القصف الموضعي لمخيمات اللاجئين في لبنان وما نجم عنه من سقوط ضحايا من الرجال والنساء والأطفال، دون عقاب وفي ظل اللامبالاة الدولية. وهنالك أيضاً الإرهاب الذي يمارسه المستوطنون الذين يطردون أهل الضفة الغربية من بيوتهم أو يقومون بتدمير هذه البيوت والاستيلاء على الأراضي ومصادر المياه، ويقتلعون أشجار الزيتون والبرتقال لإجبار أهل الأرض على النزوح أو لإزالتهم من الوجود.

واضيف أن عملية خطف الطائرات إلى الزرقاء التي نفذتموها عام ٧٠ (والتي لم تسقط فيها ضحية واحدة من بين الرهائن) كان لها الفضل الكبير في التذكير بوجود الشعب الفلسطيني وما يعانيه من آلام، لأن الفلسطينيين قد أصبحوا منسيين من قبل الجميع ومشطوبين من خارطة العالم. واضيف أيضاً، تعقيباً على ما قلته إعلاه، بأنه من الغريب اعتبار القنابل إرهابية عندما تنفجر على الأرض، ومشروعة عندما تسقط من السماء.

أرجو أن تعبر هذه الرسالة عن تقديري لكم وللسيدة حبش، وأن تكون شهادة على كون فرنسيين عديدين يجدون أنفسهم في جورجينا دوفوا وليس في أولئك الذين «أقالوها من منصبها».

مع كامل الاحترام والمودة.

ماري- بيار

لن أتمادى بالتأكيد بمطالبتكم بالرد على هذه الرسالة، ولكنني سأحصل على إثبات بأن رسالتي قد وصلتكم، فيما لو كتبتم إلي، أنتم أو السيدة حبش، سطرين أو ثلاثة لا أكثر.

ملحق ٦

رسالة من جورج حبش إلى ابنته ميساء في طفولتها

٢٦/١١/١٩٧٠

حبيبتي ميساء،

كل القبلات يا حبيبتي ... أحرّ وأبرأ القبلات التي تعرفينها والتي تبدأ بشعرك الناعم وتنتهي بتقبيل أصابع الرجلين. ومع قبلاتي يا بابا كل حنيني وشوقي وآهاتي ... لك يا حبيبتي ولأختك الصغيرة «لمى».

قرأت رسالتك يا بابا. أحلى رسالة في الدنيا كلها بعد رسالة ماما طبعاً. لماذا تقولين أنك تبكين من وقت لآخر لماذا؟؟ لماذا يا بابا؟؟ لماذا يا روح قلبي؟؟ هل تظنين أنني بعيد عنك يا بابا؟ غلطانة يا ميساء. أنا دائماً معكم يا بابا. روحي معكم كل يوم. قلبي معكم دائماً. وفيما عدا أوقات العمل فإن عقلي معكم كذلك. أنا معك يا بابا دائماً... معك في المدرسة وفي الباص وفي البيت... وأيام الأحد... كوني مطمئنة. وسأبذل جهدي يا حبيبتي حتى تري أنني معكم بعينيك بأقرب فرصة ممكنة.

هل تظنين يا ميساء أنني أحب أن أكون بعيداً عنكم يا بابا؟؟ هل هذا معقول؟؟ المسؤول عن بعدنا يا حبيبتي هم أعداء الشعوب، إسرائيل والرجعيين والاستعماريين. لأنني أحبك كثيراً... ولأنني أحب كل الأطفال الأبرياء الذين مثلك تركتك يا بابا كي أقاتل هؤلاء الأعداء وأحميك يا حبيبتي ومعك كل الأطفال من شرهم وظلمهم ووحشيتهم. وعندما تكبرين يا بابا وتصبحين في الصف الأول إعدادي سأشرح لك كل شيء.

أريد أن تكتبي لي عن كل نكات لمى وحركاتها.
كما أريد يا حبيبتي أن تحبي ماما أكثر مني بكثير لأنها أحسن مني مليون مرة وأجمل مني ألف مليون مرة طبعاً.

القبلات من جديد

وإلى اللقاء

بابا

ملحق ٧

رسالة من جورج حبش إلى زوجته أرسلها من مرتفعات جرش في الأردن - كانون الثاني/ يناير ١٩٧١

العزيزة جداً أم ميساء،

كل التحيات وشوقي الحارق وحبي

وبعد، تسلمت رسالتك. كنت يا حبيبتي قد أرسلت لك رسالة أولى مع وداد. أعتقد أنها وصلتك. هذه هي الرسالة الثانية. لقد مضى على وجودي هنا أسبوعان فقط. رسالة كل أسبوع ... حسب الاتفاق. إنني كما تعرفين منضبط جداً ومطيع جداً في علاقتي معك.

هيلدا الشوق يأكلني أكلاً. حياة الجبل رائعة. كل شيء في منصب حول العمل وحول المعركة. لا أفكر بأي شيء خاص. كل شيء يفقد قيمته هنا إلا موضوع المعركة. الدجاج والخبز الجاف شيء واحد. القصر والخيمة شيء واحد. أجمل فستان شارع الحمراء واللباس الكاكي شيء واحد. الحمام كل يوم أو الحمام كل شهر شيء واحد. وحياتك يا هيلدا أنني أعني ما أقول. لقد تحررت من كل شيء. إلا شيء واحد لم أستطع أن أتحرر منه ولن أستطيع أن أتحرر وربما لا أريد أن أتحرر منه وهو أنت يا عزيزتي.
في كل يوم أنت معي، في كل ساعة أنت معي. أفكر بك وبوحدتك وهمومك ومسؤولياتك ... أفكر بشعرك وابتسامتك وكل شيء فيك. أفكر بلباسك الجميل، بذوقك، بعنادك، بحنانك، بحبك، بتعلقك بي وتعلقي بك، بكل شيء عندك.

هذا هو القيد الوحيد الذي يقيدني الآن. قيد مؤلم فعلاً يا هيلدا ولكني أحبه وأريده، وأكاد أكون مستسلماً له.

ما أخبارك يا عزيزتي . ما أخبار البنات .
إن عباراتك حول ما دار في تفكيرك جعلتني عاطفياً
جداً في تلك الليلة. مشيت طويلاً دائماً أفكر بك وبما
قلتِ. إنني أريد البنات أن يحببنك يا هيلدا. أرجوك
ليس لي أي شيء خاص في هذه الدنيا إلا أنت والبنات
وبعض الشباب الذين يعيشون معي .

متى تلتحقين بالجبل ؟؟ ثائرة وليس زائرة
طبعاً ؟؟
سأبقيك دائماً عند موعد لقائنا . حتى أكون صادقاً لا أستطيع أن
أقول لك الآن متى . فقط أريدك أن تعرفي - عزيزتي يا هيلدا -
أنني أفكر بهذا الموضوع أكثر مما تفكرينه
كثيراً . وحتى اللقاء .

ملحق ٨

الكلمة التي ألقتها لمى، ابنة جورج حبش، في ذكرى وفاته

أن يولد الإنسان في ظروف استثنائية تجربة لا يعرفها الكثير من الناس. أن تغير أسماءك وتبدل مسكنك عشرات المرات ويسكنك القلق، أن تتعلم كيف تعيش حذراً، كلها أشياء تدفع طفلاً حُرم من طفولته إلى السؤال ماذا يفعل أبي؟ ولماذا يقلق إسرائيل ولماذا يقلقني معه ولماذا نحن بالذات. أعود بذاكرتي إلى سنوات طويلة مضت يوم كنا في بيروت. سنوات كان لا يتردد عدوه من اختطاف طائرة ليوقع به حتى يتخلص من رجل أقض مضجعه.

وبعد كل هذه السنوات حين كنت أسأله بشيء من المرارة أما زلت تؤمن بالقومية العربية وبتحرير كامل فلسطين، كان مجرد السؤال يضحكه. ففي قاموسه لم أجد يوماً معنى لليأس أو أي من مرادفاته. ولا أخفيكم أنني كنت أتعجب بيني وبين نفسي حين كنت أجده لازال وبعد كل تلك العقود من الزمان يحمل روح الشاب الثائر ويفكر ويعمل يومياً كما لو كانت نكبة فلسطين قد وقعت بالأمس. كم كنت أشعر بشيخوختي أمام روحه المتدفقة... كنت دائماً أقول لنفسي لا شك أنه ينتمي إلى زمن وجيل آخر لأنه لا يحمل تركيبة الإنسان العادي.

فقد كانت تدهشني قدرته على الترفع عن الصغائر، يدهشني احتماله للألم، تدهشني قدرته على المحبة، يدهشني حماسه المتجدد. وحين أرى اليوم كم أحبه الناس البسطاء العاديون أدرك سر العلاقة بين كونه إنساناً استثنائياً وبين حب الناس.

وبقدر معاناتي من طفولة غير عادية بقدر ما أحمل اليوم إرثاً من الفخر الاعتزاز...

وما يعزيني بأن رحيل الجسد أمر حتمي ولن نستطيع أن نفر من حقيقته المريرة مهما طال الزمن، لكن كم من الناس عبروا درب الحياة، تلك الرحلة القصيرة، وكأنهم ما أتوا وما عبروا أما أنت فكم هي عميقة بصماتك... وكم هي مضيئة خطاك... فأنت الباقي... ومن جاؤوا إلى الدرب ومضوا بلا أثر هم الراحلون.

لمى جورج حبش
٢٠٠٨/١/٣٠

(ألقيت هذه الكلمة في الكنيسة بعد القداس)

ملحق ٩

كلمة ألقاها حفيد الحكيم، عمرو (ابن ميساء)، في الكنيسة خلال القداس الثالث والتاسع (٣٠-١-٢٠٠٨) وكان يومها في الخامسة عشرة من العمر

أدخل إلى بيتك يا جدي ولا أراك فيه. أدخل إلى غرفتك وأرى مقعدك ومذياعك. أبحث عنك في كل مكان ولا أجدك. فأشعر بالحرمان والشوق في آن واحد. الحرمان من رؤيتك والشوق لصوتك الحنون المرحّب بي دائماً ونظرات المحبة الصافية التي لا حدود لها ولحضنك الدافىء.

إنني مشتاق لقراءة الجريدة معك للتحدّث إليك يا أيها الحكيم... كنت مهتماً بدراستي وكنا نتحدث معاً في كل شيء، المدرسة، الأصدقاء، علاقتي مع أهلي، أمور الحياة والسياسة. كنا نناقش المقالات وكنت تسألني عن رأيي وتختبر معلوماتي.

كنت أنت ينبوع الحكمة في حياتي فأنت الوحيد الذي كنت أفتح له قلبي لأنني أشعر بالراحة بوجودك والآن مع فقدانك فقدت الطمأنينة والراحة. ولكنني أذكر أنني عندما فقدت ابن عمتي «سلامة» شاباً في الصيف الماضي كنت تقول لي بأنني يجب أن أبقى قوياً وأوصيتني عدة مرات بالمواظبة على زيارة عمتي التي فقدت ولدها الغالي علينا جميعاً. ولهذا سأبقى قوياً وسأعتني بأحبائك وخصوصاً جدتي الغالية وخالتي الحبيبة وأمي وإخوتي لأنهم أعز الناس لقلبك.

يا من علمتنا العطاء بلا حدود أعاهدك بأنني لن أنسى فلسطين بلدك التي عشقت ولن ألقي السلاح الذي حملت وسأبقى على فكرك الثوري الذي علمتني إياه. أنت الذي أردت الحلول الجذرية العادلة للقضية وهذا سيكون طموحنا أيها الثائر العظيم. وسيكون الدرب الذي سلكت دربنا جميعاً بإذن الله.

ولن ننساك يا عاشق الأرض والحرية يا حكيم.

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

آل نهيان، زايد بن سلطان (الشيخ): ٢٠٧

إبراهيم، أحمد: ٨٥

إبراهيم، محسن: ٤٣، ٤٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٨، ٧٤، ١٧٠

الإبراهيمي، الأخضر: ٢٣٨

أبو ابراهيم الكبير: ٢١

أبو أياد: أنظر خلف، صلاح

أبو جهاد: أنظر الوزير، خليل

أبو الدرداء: ١٤٦

أبو ريشة، عمر: ٣٣

أبو الزعيم: أنظر عطا الله، عطا الله

أبو السعود، توفيق: ٢٢

أبو سنينة، زكريا: ٨٥

أبو شريف، بسام: ١١٧، ٢٤٥

أبو علي مصطفى: ٤٠، ٨٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٥٦-٢٥٨

أبو عمار: أنظر عرفات، ياسر

أبو عيشة، خالد: ٨٧

أبو مازن: أنظر عباس، محمود

أبو الهول: أنظر عبد الحميد، هايل

الأحمر، عبد الله: ١١٩

أرملي: منصور: ٢٥

الأزهري، سعاد: ٢٥

الأسد، حافظ: ١٥٣، ١٥٨-١٦٠، ١٨٤، ١٩٨، ٢٦٦، ٢٨٧، ٢٨٨

الأسمر، محمد: ٧٦، ١١٨

الأسمر، معتوق: ٢٦

الأصنج، عبد الله: ٦١، ٦٥، ٦٧

أم كلثوم: ٦٣، ١٠٣

أولمرت، إيهود: ٣٠٣

الأيوبي، هيثم: ٨٧، ٩٧

ـ ب ـ

باراك، إيهود: ٢٦١

برازي، غسان: ٣٧، ٦٨

البرغوثي، مروان: ٢٧٧

بروغيير، لويس: ٢٣٩

بريماكوف، يفغيني: ١٨٩، ٢٩٦

البشير، عمر: ٢٢٢

بكداش، خالد: ١٨٨

بن بلّة، أحمد: ٢٥٥، ٢٨١، ٢٩٤
بن جديد، الشاذلي: ١٦٤، ١٦٥، ٢٠٣
بن غوريون، دافيد: ٣٠، ٣٠٣
بن لادن، أسامة: ٢٩٤
بوش، جورج: ٢٧٢
بومدين، هواري: ٢٩٣
بوناماريوف: ١٨٩
البيض، علي سالم: ٦٦
بيضون، مصطفى: ٤٣، ٤٨، ٤٩
بيكر، جيمس: ٢١٤، ٢١٥، ٢٥٠

- ت -

التميمي، صبحي: ٩٧
توفيق، حسين: ٣٥، ٣٩
تونغ، ماو تسي: ٩٨، ١٤٩

- ج -

جابر، فايز: ١٤٦
جبران، فؤاد: ١١٥
جبريل، أحمد: ٧٤، ٨٣، ١٣١، ١٨٠
جبوري، حامد: ٣٧، ٤٣
جردانة، نزار: ٤١، ٤٥، ٤٦، ٢٨٩
جلود، عبد السلام: ١٤٨، ١٥٣، ٢٢٢
جنبلاط، كمال: ٣٣، ١٣٧-١٣٩، ١٤٣
الجندي، عبد الكريم: ٧٧، ٨٠
جورجيوس: ٢٠

- ح -

حافظ، عبد الحليم: ٦٣
حاوي، جورج: ١٧٠، ١٧٦
حبش، جورج: ٩-١٧، ٤٣، ٦٨، ٨٠، ٩٤، ١٤١، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٥، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٧، ٣٢٢
حبش، لمى جورج: ٣٢٣
حبش، هيلدا: ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٧٣، ٧٩، ١٠٣، ١١٥، ١٢٨، ١٤١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٤، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٩٤، ٣١٧
حبيب، فيليب: ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧
حداد، سمير: ٦٨
حداد، وديع: ١٤، ٢٥، ٣٧، ٣٩، ٤٣-٤٧، ٥١، ٥٦، ٧٥، ٨٠، ٨٢، ٨٥، ٩٩، ١٠٤-١٠٧، ١٠٩-١١١، ١١٧، ١٤٥، ٢٩٠، ٢٩١، ٣١٤
الحديثي، مشهور: ٩٤
الحسن، أحمد: ٤٢
الحسن، هاني: ٧٥
حسين، صدام: ٢١٧-٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٨٨
حسين (الملك): ٤١-٤٣، ٤٥، ٤٦، ٩٠، ٩٢، ٩٥، ٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٦، ٢٨١، ٢٨٨، ٢٨٩
الحسيني، سائدة: ٦٨
الحسيني، عبد القادر: ٢١

الحسيني، فيصل: ٢٥٠، ٢٥١
الحلبي، رؤوف: ٤٧
حمادي، سعدون: ٢٢٠
حنحن، أمين: ٢٩
حواتمة، نايف: ٤٥، ٦٠، ٨٣، ٨٤، ٨٩، ٩٤، ١٧٩، ١٨٠، ٢٥٥
الحوراني، أكرم: ٧٩

- خ -
الخالدي، وليد: ٧١
الخضراء، فيصل: ٣٧، ٤٥
الخطيب، أحمد: ٢٥، ٣٧، ٤٣
الخطيب، أمين: ٤٦
الخطيب، محمد عبد الكريم: ١٤٠
خلف، صلاح: ١٢٥، ١٥٣، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٢١، ٢٨٤
خليفة، أحمد: ٤٢
الخليلي، غازي: ٩٧

- د -
داغر، ابراهيم: ٢٥
داود، محمد: ٩٦
الدجاني، برهان: ٧١
دَروزة، حكم: ٤٣، ٥٧، ٦٨
دلول، رمزي: ٦٨
دوفوا، جورجينا: ٢٤٣
ديان، موشي: ١١٨
ديما، رولان: ٢٣٩، ٢٤٣
دينان، هنري: ٢٣٥

- ر -
رابين، اسحق: ٢١٤
ربيع، محمد: ٤٦
الرشدان، محمد: ٤١
رعد، إنعام: ١٧٠
الرفاعي، سمير: ٤٢
ريغان، رونالد: ١٨٨

- ز -
زئيفي، رحبعام: ٢٥٧
زحلان، مصطفى: ٢٧
زريق، قسطنطين: ٢٦، ٣٣، ٣٧
الزيات، محمد: ٤٨

- س -
سابا، موريس: ١٦٣
السادات، أنور: ١٢٨، ١٣٤، ١٥١-١٥٥، ١٦٠، ١٧٢، ١٩٣، ٢٨٧، ٢٩٣
السراج، عبد الحميد: ٥١
سرحان، رفعت: ٥٧
السرطاوي، عصام: ٩٦
سكران، سكران: ٨٧
السلطي، ناديا: ٤٥
سنو، منير: ٣٥
سونغ، كيم إيل: ٩٧، ٩٨

- ش -
الشاذلي، سعد الدين: ١٢٩
شارون، آرييل: ١٦٩، ١٧٣

الشاعر، أحمد: ١١٧
شامير، إسحق: ٢١٤، ٢١٥
شبل، صالح: ٣٧، ٤٣
شرف، سامي: ٦٣
شعبان، سعيد: ١٩٣
الشعبي، فيصل: ٦٥، ٦٧
الشقيري، أحمد: ٧٢
شماعة، منير: ٢٥، ١١٥
شير، فرانسوا: ٢٤٣
الشيشكلي، أديب: ٣٥

- ص -
صايغ، أنيس: ٩
صباغ، جورج: ٢٤٥
صبري، علي: ٦٤
الصفدي، أكرم: ٨٧
الصوص، إبراهيم: ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٨

- ط -
الطالباني، جلال: ٢٢٦
طلاس، مصطفى: ١٨٤
طلال (الملك): ٣٩، ٤١
طوالبة، أحمد: ٤١، ٤٥
طوقان، محمد: ٤١

- ع -
عامر، عبد الحكيم: ٥٢، ٦٤
عباس، محمود: ٢٧٦، ٢٨٦
عبد الله (الملك): ٣٩، ٤١
عبد الحميد، هايل: ١٩٤، ٢٢١
عبد الشافي، حيدر: ٢٥٢
عبد الناصر، جمال: ١٦، ٤٨، ٤٩، ٥١-٥٤، ٥٨-٦١، ٦٣-٦٩، ٧٢-٧٤، ٧٦، ٨١، ٨٢، ٨٦، ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠٧، ١٢٩، ١٣٢، ١٥١، ٢٩٨
عدوان، كمال: ١٢٠
العرجا، جايل: ١٤٧
عرفات، ياسر: ١٤، ١٥، ٨٦، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٤-١٢٦، ١٢٩-١٣٢، ١٣٩، ١٤٥، ١٥١-١٥٤، ١٥٧-١٥٩، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧-١٨١، ١٨٨-١٩٩، ٢٠١-٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣-٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٨١-٢٨٦، ٢٩٢، ٢٩٣
عزيز، طارق: ٢٢٢، ٢٢٤
عساف، رفيق: ٨٧
عشراوي، حنان: ٢٥٠، ٢٥١
عطا الله، عطا الله: ٢٠١، ٢٠٢
العطية، أبو محمد: ٢٢١
عفلق، ميشيل: ٣٨
علوان، جاسم: ٥٧
علوش، ناجي: ١٤٤
عماش، صالح: ٩٤، ١٠٦
العملة، أبو خالد: ١٩٠

عنبتاوي، صلاح: ٤٥
العنبتاوي، منذر: ٤٦

- غ -

غرو (البروفسور): ١٦٢، ١٦٣
غلوب باشا: ٤٢، ٤٤، ٤٥
غنطوس (البروفسور): ٣٦
غوشة، صبحي: ٤٦
فاخوري، سليم: ١٦٣
فرج، عدنان: ٣٧، ٤٣
الفرحان، حمد: ٤١، ٤٢، ٢٨٩
فوزي، محمد: ١٢٩
فيغورو، كريستيان: ٢٤٣

- ق -

قدورة، فايز: ٤٥، ٧٧
قدورة، وليد: ١١٩
القذافي، معمر: ١١٩، ١٢٠، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٣، ١٨٠، ١٨١، ٢٦٦، ٢٩٥
قطامش، أحمد: ٢٠٦
قمري، وداد: ٧٧

- ك -

كارتا، ناتوري (الحاخام): ١٨٧
كارلوس: ١٠٤، ١١١، ٢٨١، ٢٩٠، ٢٩١، ٣١٣
كاسترو، فيدال: ٢٨١، ٢٩١، ٢٩٢
كبوشي، إيلاريون (المطران): ١٤٦
الكبيسي، باسل: ١١٧
كريسون، إديت: ٢٣٩
كلينتون، بيل: ٢٥٤، ٢٦١، ٢٧٣
كنفاني، غسان: ٤٢، ٦٣، ٧٧، ٨٧، ١١٥، ١٢٠
كيسيدجيان، برنار: ٢٤٣
كيسنجر، هنري: ١٠١، ١٣٠

- م -

مالبرونو، جورج: ١٦، ١٧
مالك، شارل: ٢٥
مبارك، جمال: ٢٦٦
مبارك، حسني: ٢١٤، ٢٢٩، ٢٦٦
المحايري، عصام: ٧٩
محيي الدين، زكريا: ٦٤
مراغة، سعيد موسى: ١٩٠
مساعدية، محمد: ٢٠٣
مشعل، خالد: ٢٣١، ٢٧٥
مطر، حمدي: ٤٠، ٤٦، ٨٥، ١٠٣
معشر، سعد: ٢٥
ملحس، زهير: ٢٥
منكو، علي: ٤١، ٤٢، ٤٦، ٢٨٩
المهايني، ثابت: ٣٧، ٤٣
ميتران، فرنسوا: ٢١٣، ٢٣٩

- ن -

النابلسي، سليمان: ٤٧
النابلسي، مضر: ٤٢
ناصر بن جميل (الشريف): ٩٢
ناصر، علي: ٦٦

ناصر، كمال: ١٢٠
النجار، أبو يوسف: ١٢٠
نصر الله، حسن (السيد): ٢٣١، ٢٥٥، ٣٠٥
النقيب، أسامة: ٥٧
النقيب، عصام: ٤٢
النقيب، فضل: ٤٢
نيكسون، ريتشارد: ١٠١

ـ هـ ـ

هاشم، محسن: ٨٧
الهندي، هاني: ٢٧، ٤٣، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٨

ـ و ـ

الوزان، شفيق: ١٧٧
الوزير، خليل: ١٢٠، ١٣٤، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٨٤، ٢٨٥

ـ ي ـ

ياسين، عدنان: ٢٤٦، ٢٤٧
اليماني، أحمد: ٨٥، ١٣١
اليماني، محمد: ٨٧

فهرس الأماكن

ـ أ ـ

الاتحاد السوفياتي: ٩٨، ١٠١، ١١٧، ١٤٥، ١٦٦، ١٧٨، ١٩٧، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٩٠

إربد: ٤٤

الأردن: ٢٧، ٣٥، ٣٧، ٣٩، ٤١-٤٣، ٤٥-٤٨، ٥٠، ٥٦، ٧٩، ٨٢، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩١-٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠٠-١٠٢، ١٠٤، ١٠٧، ١٢١-١٢٧، ١٣١، ١٣٦، ١٥٥، ١٨٧، ١٩١، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٦٥، ٢٨٤، ٢٩٠

أريحا: ٤٤

إسبانيا: ٢٦٢

إسرائيل: ٢٣، ٣٩، ٤٣، ٤٨، ٤٩، ٦٢، ٧١-٧٣، ٧٥-٧٨، ٨٩، ٩٠-٩٣، ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٣، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧-١٢٩، ١٣٢-١٣٤، ١٣٦-١٣٨، ١٤٦، ١٥١، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٨، ١٧١-١٧٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١، ١٨٦، ١٩١، ١٩٣، ٢٠٩-٢١٢، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٤٢-٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩-٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٢-٢٧٥، ٢٨٦، ٢٩٤، ٢٩٧-٣٠٠، ٣٠٢-٣٠٤

أسوان: ٦٣

أفريقيا: ٢٦٤، ٢٩٨

ألمانيا: ٢٤، ١١٠، ١٦٠، ١٦٦، ١٨٤

ألمانيا الغربية: ١٦٦

الإمارات العربية المتحدة: ٢٠٦

أوروبا: ٢٣، ٣٢، ١٠٨، ٢٦٢، ٢٩١

أوسلو: ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٧٨، ٢٨٥، ٣٠٤

إيران: ٢١٧، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٥٧

ـ ب ـ

باريس: ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٧-٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٨

البحر الأسود: ١٨٥

براغ: ١٦٤، ٢٠٢، ٢٠٣
بغداد: ٥٨، ٦٨، ٨٢، ٨٣، ١٠٩، ١١٠، ١١٨، ١١٩، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦
بلغاريا: ١٦٦، ١٨٦
بيرزيت: ٣٠
بيروت: ١١، ٢٤، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٥٧-٥٩، ٦٨، ٧٢، ٨٨، ٩٩، ١٠٣، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٤، ١٢٢، ١٢٧، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١، ١٦٢، ١٦٧-١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٨، ٢٤٦، ٢٨٧، ٢٩٦، ٢٩٩
بيونغ يانغ: ٩٧

- ت -

تشيكوسلوفاكيا: ١٦٤، ١٦٦
تل أبيب: ١٧٣، ٢٢٢
تونس: ١٧٧، ١٧٨، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢١، ٢٣٣، ٢٤٣-٢٤٧

- ج -

الجزائر: ٤٢، ٦٢، ٧٤، ١٣٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٥، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٣، ٢٤٣، ٢٦٨، ٢٩٣، ٢٩٤
الجمهورية العربية المتحدة: ٥١، ٥٢، ٥٤-٥٦، ٦٤، ٨٦
الجولان: ٢٣، ٧٧، ٧٨، ١٦٠

- ح -

حيفا: ٢٧، ٢٨

- خ -

الخرطوم: ٢٢٢

- د -

دمشق: ٤٤، ٤٦، ٤٩، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٧٥، ١٣٦، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٤، ١٨٨-١٩٠، ١٩٨، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٨٧

- ر -

رام الله: ٣٠، ٤٣، ٢٥٥
رومانيا: ١٦٦

- س -

السعودية: ٢٨٦
سلطنة عُمان: ٦٤
سوريا: ٣٥، ٣٧، ٤٢، ٤٤-٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥١-٦٠، ٦٧، ٧١، ٧٧، ٨٥، ٨٧، ١٠٨، ١٢١، ١٥١، ١٥٦-١٦١، ١٧٨، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠-١٩٣، ١٩٧-١٩٩، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٦٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٥
سويسرا: ٢١٢

سيناء: ٧٢

- ش -

شبه الجزيرة العربية: ٥٦

- ص -

صنعاء: ٦٥، ٦٦
صيدا: ٣٢، ٥٦، ١٣٥، ١٤٧، ١٩٩
الصين: ٩٨

- ض -

الضفة الغربية: ٢٣، ٧٦، ١٣٢، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١٤، ٢٥٠، ٢٥٧، ٢٦٠، ٣٠٠

- ط -

طرابلس: ٣٢، ١٩٢، ١٩٣، ٢٢٢
طهران: ٢٢٩
طولكرم: ٤٤

- ع -

عدن: ٦٥، ١٩٥
العراق: ٣٧، ٤٣، ٥٦، ٥٨، ٨٢، ٩٣، ١١٧، ١٢٤، ١٣١، ١٥٢، ١٦٠، ١٦١، ١٧٤، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥-٢٢٩، ٢٣٣، ٢٥٠، ٢٦٧-٢٦٩، ٢٧١
عَمّان: ٣٧، ٣٩-٤٤، ٤٦، ٨٢، ٨٣، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٨٨، ٢٨٩
عُمان: ٦٤

- ف -

فرنسا: ١٠٤، ٢١٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٨٥
فلسطين: ١٢، ١٧، ١٩، ٢١، ٢٣-٢٧، ٣١-٣٣، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٥٠، ٦٢، ٧١، ٧٢، ٧٥، ٧٧، ١٢٢، ١٢٨، ١٣١-١٣٣، ١٦١، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٠، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٢٥٣، ٢٦٣-٢٦٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤، ٢٠٥

- ق -

القاهرة: ٥٨، ٦١، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٨٧، ٩١، ٩٢، ١٠٧، ١٢١، ١٢٦، ١٣٧، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٥٤، ٢٥
قبرص: ١٩٣
القدس: ١٩، ٢١، ٢٤، ٣٧، ٧٢، ٧٣، ١٣٤، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٧٢، ٢٠٥
القدس الشرقية: ٢٣، ٧٣
قطاع غزة: ٢٣، ٧٦، ١١٨، ٢٠١، ٢٠٥، ٢١٤، ٢٥٠، ٢٥٥-٢٥٧، ٢٦٠، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٠٠
قناة السويس: ٤٨، ٥١، ٩٥، ١٢٨

- ك -

كامب دايفيد: ١٥١، ١٥٥، ١٦١، ١٩٥، ٢١٧، ٢٦١

كوبا: ٢٩١
كوريا الشمالية: ٩٧، ٩٨، ١٠٥
الكويت: ٣٧، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٧٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٧-٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٤

- ل -
لبنان: ٢٤، ٢٦، ٣١، ٣٧، ٤٣، ٤٨، ٥١، ٥٩، ١٠٢، ١١٣، ١٢١، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٥-١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٣، ١٦٥، ١٦٧-١٦٩، ١٧٢، ١٧٤-١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٠-١٩٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٤٦، ٢٥٧، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٩١، ٣٠٠، ٣٠٥
ليبيا: ٥٦، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٥، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٥، ٢٢٢، ٢٩٥

- م -
مصر: ٣٢، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٧١، ٨١، ٩٣، ٩٥، ١٢١، ١٢٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٠، ١٩٣، ١٩٤، ٢١٤، ٢١٨، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٨٤، ٢٨٦
المغرب: ٢٢٠، ٢٦٤، ٢٩٣
المغرب العربي: ٤٢
موسكو: ٩٧، ٩٩، ١١٧، ١١٨، ١٧٩، ١٨٩، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٩٤، ٢٩٥

- ن -
نابلس: ٤٤

- هـ -
هنغاريا: ١٦٦

- و -
الولايات المتحدة الأميركية: ٦٢، ٩٤، ١٠٢، ١٠٨، ١٩٧، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٩، ٢٥٢، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٦

- ي -
اليابان: ٢٩١
يافا: ٢١، ٢٤، ٢٨
اليمن: ٦٠-٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٧٤، ٩٧، ١٣١، ١٩٣، ٢٢٠
اليمن الجنوبي: ٦٥، ٦٧، ٧٤، ١٥٢
اليمن الديمقراطي: ١٥٢، ١٦٠، ١٩٥
اليمن الشمالي: ٦٢